

عبد الكريم الخطيب

الْقَصَصُ الْقُرْآنِي

فِي مَنْطُوقَةٍ وَمَفْرُومَةٍ

مع دراسة تطبيعية لقصتي آدم ، ويوسف

[نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ

الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا

الْقُرْآنَ] « قرآن كريم »

دار المعرفة

للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين السراج المنير
والرحمة الممددة للعالمين . وعلى آله وصحبه وسلم

الطبعة الثانية

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

بجروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

نستطيع أن نقرر — في غير مجازفة أو مبالغة — أن القصة كانت أول رفيق صحب الإنسان منذ خطواته الأولى على هذا الكوكب الأرضي ، فانس وحشته ووصل ما بين عالمه ، المائج في كيانه ، وبين الطبيعة وما وراء الطبيعية . وهو السابح دائماً في لججها ، التائه في مسالكها ودروبها ... فنذ التقي الإنسان بالحياة وهو في صراع عنيف ، مرير ، متصل ، مع كل شيء فيها . . ما يقع منها تحت حواسه ، وما يتولد من صورها في أوهامه وخیالاته ورؤاه .

ولهذا فإن خطوات الإنسانية الأولى في الحياة كانت تتحرك على قصص مثيرة مذهلة ، يقصر عن تصويرها أروع خیال لإنسان في يومنا هذا . . . فلقد كان كل شيء — على الإطلاق — يبدو لعيني الإنسان يومذاك عالماً مهولاً مخوفاً ، ينطوي في كيانه على قوى وأسرار ، يعجز الإنسان عجزاً مطلقاً عن تأويلها ، وإدراك أسرارها ، أو الوقوع على شيء من عللها وأسبابها . . فالسحاب ، والمطر والرعد والبرق ، والريح ، والنار ، والشمس والقمر ، والنجوم ، والليل ، والظلام ، والنبات ، والحب ، والتمر . . وكل صغير وكبير ، وحى وميت ، ومتحرك وثابت . . كل أولئك جميعاً وكثير غيرهن مما في هذا الوجود من موجودات — كان عند الإنسان الأول عوالم مجهولة ترمي إليه بالخيبة ، والرهبة والفرع ، وكل صغير وكبير منها هو — في عيني الإنسان الأول — كرن كبير مليء بالمعجائب والغرائب ، يقف إزاءه هذا

الإنسان خائفاً مرتعشاً ، أو يفر منه متمثراً مضطرباً .. بل مكروباً ، مذعوراً ، يتوقع أيدياً قوية ومخالب كبيرة حادة تتبعه ، وتنطلق وراءه في كل مسلك يسلكه ، أو يهرب يهرب إليه ، وأنها وشيكة أن تمسك به ، وتنشب فيه .. ومن هنا تكثر وساوسه ، وتتضخم مخاوفه ، وتتجسد خيالاته وأوهامه ، وتنتصل رؤاه ، وأحلامه ، وكلها تحكى قصصاً يعيش فيها مع اليقظة والنوم ، وفيما بين اليقظة والنوم مفزعاً مضطرباً ، منكشفاً على نفسه ، لا يفتح عينيه إلا على أهوال ومهاكات .

وإذن فلم يكن عن مبالغة منا إذ قلنا إن القصة كانت أول من صحب الإنسان في هذه الحياة ، وأنها كانت أقدم ما عرف من تصورات عقله ، وصيد خواطره وطوارق أحلامه ، وهو اجس رؤاه .. ولسنا بالمبالغين أيضاً إذا قلنا إن أحداث القصة وخيالاتها وتصوراتها كانت أقوى قوة دفعت الإنسان إلى تحريك لسانه وإلى إيقاظ ملكاته ، وإطلاق جميع القوى الكامنة فيه ، بحثاً عن الكلمات التي يضعها على شفثيه ، ليصور بها هذه الأهوال التي تضرب في أعماقه ، وتلأ مسارب تفكيره ، وتتراقص على مسرح خياله ، والتي تولد منها ما عرف فيما بعد باسم « القصة » أو « الحكاية » والتي احتفظ منها التاريخ ببعض هذه الأساطير ، التي رآها في مخلفات اليونان ، والفراعنة ، والهند والصين ، وبابل وآشور ، وغيرها من الأمم التي صحبت الحياة منذ فجرها الأول ، والتي لم تكن هذه الأساطير التي سطرها إلا رموزاً باهتة ، وإلا إشارات خافتة لما كان يهوج في كياناتها من خواطر وتصورات .. وما يقع في يقظتها ونومها من خيالات وأوهام .. إنها ليست إلا قطرات مما فاض به الوء الذي كانت تتدفق فيه مشاعرها ، وتتدرب فيه أفكارها ، مما يطرقتها من الحياة وما تحمل الحياة من كائنات .

وكانت اللغة - بلا شك - هي اليد الرحيمة الرفيقة ، التي رفعت - في الوقت

المناسب - الغطاء عن صدر الإنسان ، وقد كان يغلى بهذه الخواطر والتصورات التي تدافعت سيولها إليه من كل منحدر ، وكادت تعصف به وتحيله مرفقا .. فما أن جرت على لسانه بعض الكلمات ، وما أن وجد لها آذانا تسمع وعقولا تعى ، حتى أحسَّ بَرْد الراحة في صدره ، وسكن هذا الغليان الذي كان يضطرب بين جوانحه ..

وهكذا بدأ الإنسان يكتب الصفحات الأولى من تاريخه الطويل في هذه الحياة .. وكانت الكلمة هي أبلغ وأوضح ما يخطط به في صحف التاريخ ، فكان إذا أسعفته اللغة حكي لأهله وأصحابه بعض ما في صدره وعقله من رؤى وخواطر ومخاوف وأوهام ، وإن لم يجد اللغة التي تترجم عن أحاسيسه ومشاعره تلك ، حبسها في صدره واخترنها في عقله ، ثم راح يطلق بعضها في صورة بخور وتماويذ ، ورقى ، وحركات ، ورقص ، وصلوات .. رجاء أن يدفع بهذا كله أذى هذه الكائنات أو الأكوان المظلمة عليه ، وكأنها تأمر فيما بينها وتتداول الرأي والتدبير لاختطافه واقتراسه .. وقليل من هذه الأعمال التي كان يقدمها الإنسان بين يدي مخاوفه ، ما كان يُرجى من ورائه نفع ، أو يُستمس منه خير ، لأن نظرة الشر إلى الوجود كانت هي الغالبة على الإنسان ، والمستبعدة بعقله وقلبه في هذا الصراع المحتدم بينه وبين الحياة .

* * *

ومن هذه النظرة ، ومن خلالها نشأ الدين .. فالخوف هو «أبو الآلهة» كما يقال ، إذ عن مشاعر الخوف تولد الدَّرَغَب والرهب إلى تلك القوى الخفية التي سرعان ما تجسدت في خيال الإنسان وتصوراته ، فكانت آلهة على صور شتى من حيوان ونبات وجماد .

ولعل هذه النظرة التي ينظر بها كثير من الديانات وكثير من المتدينين إلى «الله» ، على أنه الإله المنتقم الجبار الذي لا يرحم ، والذي يأخذ الأبناء

بذنوب الآباء إلى سبعة أجيال — لعل هذه النظرة هي من بقايا هذه المشاعر الإنسانية في دورها الطفولي ، قد توارثته الأجيال ، جيلا بعد جيل .. ولعل هذا الإحساس هو الذي جعل آلهة اليونان قوًى عاتية ترمى الناس بالمهالكات ، وتصب عليهم اللعنات صباً .. ثم بعد أن طال ليل هذه الآلهة تنفس الصبح عن آلهة الجمال ، والخير ، والحجر ، والحياة .. ولكنها مع هذا كانت تحتل ركننا ضيقاً في مسرح الحياة الإنسانية . لا ترمى فيه إلا نادراً ، ولا تعطى إلا في قصد ، وحذر .. على حين ظلت آلهة الشر رائحة غادية تملأ دنيا الناس ، وتتحكم في مصائرهم . ثم لعل هذا الإحساس أيضاً هو الذي جعل من الإنسان نفسه قرباناً يضحي به على مذبح الآلهة .. على تقدير أن الإنسان مطلوب لهذه الأفواه الكثيرة المفتوحة لا يتلعه ، من تلك الكائنات المحيطة به ، وأما وقد استطاع خياله أن يتصور هذه الآلهة ويصورها ، فإن الفرار إليها ، والموت على مذبحها خير من الموت بين فكي أسد ، أو تحت أقدام فيل .. وفي الشر خيار كما يقال أو كما يقول الشاعر :

فإن كنت ما كرا فلا فكن خير آكلٍ وإلا فأدركني ولما أمزق

وعلى أي فإن الدين في صورته الأولى لم يكن سوى القصة أو الحكاية ، أو الخرافة ، ممثلة على مسرح الحياة في خطوات الإنسان الأول ، وفي خطراته ووساوسه وأوهامه .

إن معتقدات الأولين كانت في الأغلب الأعم منها ، من نسيج الوهم والخيال والخرافة ، وقد ظل هذا متوارثاً في أجيال الناس فندجت منه قسماً من اليونان والفراعنة ، والفرس ، والهنود وغيرهم ، وهذه القصص كلها قد ولدتها الإنسانية من هذه الأشياء التي جمات منها آلهة أسكنتها السماء ، ثم زلت بها إلى الأرض ، لتتحكم في مصائر الناس ، وتقدم العالم الذي يعيشون فيه بعضها يكون مصدر الخبز والرزق الذي يملأ أيدي الناس ، ويهد قلوبهم ، ويرضى نفوسهم ، من ماء ونبات ، وحيوان وفاكهة ، وحب .. وغيرها

من مصادر الرزق.. وبعضها يكون مصدراً للضر والأذى الذى يزل بهم ،
ويفسد حياتهم ، ويعكر صفوهم . من مرض ، وجذب ، وظلام ،
وموت وفناء .

نقول هذا ، لئى مبلغ العلاقة الوثيقة التى بين الدين والقصة ، وأن
الدين أحياناً قد يكون كله مجرد قصة طويلة ، كانت يوماً ما كتاباً مقدساً
عند أهلها ، وإن بدت لنا اليوم نسيجاً مهلهلاً من خرافات وأباطيل
وضلالات !

ونقول هذا أيضاً لنذكر بعض المرامى التى قصد إليها القرآن الكريم
من هذا القصص الكثير الذى ضمت عليه آياته وسوره ، فى هذا القصص
يلتقى الإنسان مع أقوى دوافعه وعواطفه التى ولدت فى ضباب طفولته ،
والتي نضجت على الزمن فى صراعه الطويل مع الحياة .. ومن هذه الدوافع
والمواظف يقاد الإنسان ويؤخذ بناصيته إلى الغايات التى تدعوه إليها القصة ،
وتسوقه نحوها .

فالقصة كانت ولا تزال مدخلاً طبيعياً يدخل منه أصحاب الرسائل
والدعوات ، والهداة ، والقادة ، إلى الناس ، وإلى عقولهم وقلوبهم ، ليُلْقُوا فيها
بما يريدونهم عليه ، من آراء ، ومعتقدات ، وأعمال .. ولعل عصرنا هذا هو
خير شاهد على مآلة القصة من سلطان فى الحياة ، ومن أثر فى تغيير أوضاعها ،
وتلوين وجوها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، إذهى أقوى جهاز من
أجهزة التأثير فى قيادة الجماعات البشرية فى الحرب والسلم على السواء ..

* * *

لقد أصبحت الفنون كلها اليوم من وراء القصة .. فالغناء ، والتمثيل ،
والرسم ، والتصوير ، والموسيقى .. كلها تتبع القصة ، وتعمل على تجسيد
كلماتها ، وتشخيصها ، وتلوينها ، وتنعيمها حتى ينتظم من هذه الكلمات موكب
حافل من مواكب الحياة فى جدها وهزلها ، وفى خيرها وشرها ، وفى نعيمها

وبؤسها .. وبهذا كان للقصة على الناس هذا السلطان الذي تجتمع لديه قوى
الفنون كلها ، ومالها على الناس من تسلط وسلطان !!

من أجل هذا كانت القصة في القرآن ركيزة قوية من ركائز الدعوة
الإسلامية القائمة على الإقناع العقلي والاطمئنان القلبي ، بما تدعو إليه من
الإيمان بالله ، ورسله ، وكتبه واليوم الآخر ، وبما تحمل من مثل في مجال
الجهاد والكفاح والبذل والتضحية والفداء ، في سبيل الدعوة إلى الحق ،
والتوجيه إلى الخير والهدى ، والتنكر للباطل والضلال ، والصمود في وجه
الظلم والطغيان .

* * *

وهذه الدراسة التي يزيد لقاء القصص القرآني بها ، إنما هي محاولة للكشف
عن أسلوب من أساليب القرآن في تبليغ الرسالة السماوية ، وفي لفت العقول
والقلوب إليها ، لفتاً يأخذ عليها السبيل إلى المصاولة والمقاولة ، وإلى المراء
والمهاترة ، إذ يريها الحق مشرقاً مشرفاً عليها ، لا تملك معه إلا التسليم به ،
والإذعان له ، ما لم يستبد بها الحق والنزق ، وما لم تأخذها العزة بالإثم ،
فتمض عينها وتصم أذنيها ، وتلوذ بالفرار والهرب !

فالقصص هو أحد الأساليب التي حملها القرآن ليحاج بها الناس ، وليقطعهم
عن الجدل والمهاكة ، شأنه في هذا شأن ما جاء في القرآن من أساليب
الاستدلال والمناظرة ، والتعجيز ، والوعد ، والوعيد ، والتهديد . وغيرهما من
المشاهد والمواقف المبتوثة في القرآن الكريم كله ، من قصار السور إلى
طوالها . لا نجد سورة — مهما قصرت — تخلو من مشهد أو موقف ،
يمهد للدعوة الإسلامية ، ويضع معلماً أو معالم للهدى إليها والتبصرة بها ، في
منطق محكم ، وحجة دامغة ، وبيان معجز مفحم .

* * *

ولكن كيف نلتقي بالقصة القرآنية ؟ ومن أى جانب ننظر إليها ؟ وبأى مقاييس نقيسها ؟

فالقصص القرآني نهج وحده في موضوعه ، وفي أسلوب أدائه ، وفي مقاصده وغاياته ..

فهو في موضوعه نسيج من الصدق الخالص ، وعصارة من الحقيقة المصنفة ، لا تشوبه شائبة من وهم ، أو خيال ! إنه يبني من لبنات الواقع ، بلا تزويق ولا تمويه . وهذا الواقع لا يتغير وجهه حين يعرض هذا العرض المعجز في ذلك الأسلوب القرآني الرائع .. فالإعجاز والروعة إنما يتجليان في صدق الأداء ، وفي نقل الواقع وما تلبس به من مرآة النفوس ، وخلجات الصدور .. وإنه ليس النقل « الفتوغرافي » الذي يقف عند « السطح » ، ولا يتجاوز شيئاً مما وراءه من أبعاد وأعماق ، بل هو نقل حي للأحداث ، حتى لكانها تتجسد في الزمان والمكان اللذين حملها ، فتظهر وكأنها في ساعة ميلادها .. لا يختلف يومها عن أمسها ، ولا يفقد من يشهدها اليوم شيئاً مما شهده منها الشاهدون بالأمس .. من صور وأشكال ، ومن مشاعر وأحاسيس .. وهذا هو الإعجاز الذي نشهده في كلمات القرآن .. وهو أيضاً الروعة التي تطلع علينا من عبقریات الفن وآياته ..

وهنا أمر ينبغي أن نلتفت إليه .. وهو التفرقة بين الواقع في ذاته ، وبين نقله مصوراً في كلمات ، أو في عمل من أعمال الرسم ، أو النحت ، أو الموسيقى .. إذ ليس الإعجاب الذي يستولى علينا ، والروعة التي تأسر ألباننا ، وتملك مشاعرنا من آيات هذه الفنون - ليس ذلك لمجرد الدقة في المحاكاة ، والصدق في النقل عن الواقع بقدر ما هو كشف عما يمكن وراء القشرة السطحية للأشياء ، والتصريح بمكوناتها الذي لا ينكشف إلا لنظر الفنان ، ولا يدلي بأسراره إلا إليه .

فالزهرة في الطبيعة هي في مرأى العين زهرة .. هراء ، أو بيضاء ، أو صفراء .. لها ربيع طيب نفاذ أو غير نفاذ !

فهى فى مجال النظر والشم ، نبتة ذات لون وريح . ولكنها فى مجال
الشعور والوجدان، وفى كجلى الخاطر والبصيرة. كأن حى ٲى يمدق بأحداق ،
ويحدث بلسان ، ويبتسم بفم . فهى رضى وتسخط ، وتبسم وتعبس ،
وتمنح وتمنع . إلى غير ذلك مما يكون للكأن الحى ذى العاطفة والشعور ،
والفن إذ ينقل هذه الزهرة فى عمل فنى - بأية أداة من أدواته التى تجعلها
يد فنان صناع - لا ينقل هذه الزهرة مجرد نقل «فتوغرافى» يتناول السطح
ولا يجاوزه إلى الأعماق ، وإنما ينقل الزهرة محملة بهذه الرؤى التى انكشفت
لبصيرته ، وتجلت لخطره ، ووقعت لسمعه وبصره وقلبه .

وقد يبدو هنا سؤال ، وهو : ألا تكون هذه الرؤى التى يراها الفنان
فى الأشياء ، وينقلها معها فى عمله الفنى - ألا تكون هذه إضافات تبدل
من حقيقة الشئ ، وتخرج به عن طبيعته ؟ ثم ألا يكون لنا أن نقول عن
هذا الشئ : إنه ليس هو فى الحقيقة ولكنه شئ آخر من توليدات الفنان
وتركيباته ؟ .

ونقول : إن الإجابة على هذا السؤال من وجهين :

فأولاً : إن أصالة العمل الفنى هى التى تضى الخلود على هذا العمل ،
وتقيمه فى الحياة مقام الأحياء . . ولن يكون العمل الفنى أصيلاً إلا إذا
كان من منبعه إلى مصبه ما تزمأ الحق ، جازياً معه ، أو بمعنى أدق . . الفنان
الأصيل لا يمكن أن ينحرف عن الحق ، لأن أصالته لا تقبل الزيف ، ولا تلتم
مع الباطل . . أبداً . . وما خلد ما خلد من أعمال فنية إلا لما تحمل من قوى
الحق ، الذى كُتب له وحده البقاء والخلود فى ذاته ، وفى كل ما تلبس به .
وإذن فالعمل الفنى الأصيل يخرج فى ضمان هذه الأصالة ، معافى من
الزيف سليماً من التمويه والكذب .

وثانياً : الفن مهما بلغ من الأصالة لا يمكن أن يجمع الحق من جميع

أطرافه ، وإنما بحسبه من الأصالة أن يلم بعض من أطراف الحق - وإذا كان ذلك هو غاية مستطاع الفن في أعلى منازله - فإن كلمات القرآن الكريم وحدها - دون سائر الكلام - هي القادرة قدرة مطلقة على أن تحمل الحق كله وتضمه إليها ، لأنها هي ذاتها حق مطلق ؛ لا يتلبس بها إلا الحق ، ولا يُحمل عليها إلا ما هو حق .. وحق مطلق ! .

وإذن فنحن في مواجهة القصص القرآني ، وفي لقاء الأحداث التي يعرضها - إنما نشهد الواقع في أروع ما آراه عين ، أو تكشفه بصيرة ! .

وإذن - مرة أخرى - فليس القصص القرآني إلا القرآن الكريم في صدقه المطلق ، في كل لحظة منه ، وفي كل إشارة له من بعيد أو قريب .. إن لحيته وسناده ، هو الحق الذي : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

* * *

هذا ، وقد انخدع بعض الدارسين المحدثين بكلمة « قصص » التي جعلها القرآن عنواناً دالاً على ما ذكر فيه من سير الأولين وأخبار الغابرين - فوقع لهم هؤلاء أنهم قد يكونون في المجتهدين - في الإسلام - أو المجددين في الأدب إذا هم أخذوا القصص القرآني بمعايير القصص الأدبي بما فيه من تلفيقات الوهم والخيال .. ثم جرّم هذا أو جرّأهم على القول بأن القصص القرآني ليس كله حقاً وصدقاً ، إذ ليس الحق والصدق من مقاصده ، وإنما هو مسوق للإثارة الفنية التي تجيء من ورائها العبرة والعظة ، وإنه لإثارة للفن إذا التزم حدود الحق والصدق .. إذ أن الفن في صميمه حرية ، ولا حرية مع إلزام والتزام ! .

ولقد اندفع أصحاب هذا الرأي إلى أبعد من هذا فقايسوا بين الله وبين الإنسان ، فإله - في حسابهم هنا - إلا فنان ينزل على حكم الضرورة والقصور ، فيسوي قصصه على نحو ما يسوي الفنانون قصصهم .. من مزجها الحقيقية بالخيال ، والواقع بالوهم والمحال !

وهذه المقولات فوق أنها عدوان على الحق في جانب الله، وما ينبغي لذاته
وكلماته من تنزيه وتقديس عن نقائص البشر وقصورهم — هي عدوان صارخ
على الفن وما ينبغي له من تصون عن التلفيق ، والكذب والتجويه . إذ الفن
بمعنى هذه الكلمة - نسيج محكم من صميم الحق ، ورحيق مصفى من لباب
الواقع أو المتوقع ، وبغير هذا لا يكون العمل الفني فناً رفيعاً يأخذ مكان
البقاء والخلود !

تلك إشارة كان لا بد منها في هذه المقدمة ، إذ أن لنا موقفاً في هذا
الكتاب ، مع تلك المقولات ، حيث ينفصح لنا المجال بعرضها على وجهها كما
صوره أصحابها ، وحيث يتسع لنا المقام لإبداء الرأي فيها .

* * *

أما مقاصد القصص القرآني وغاياته فهي الدعوة إلى الحق ، والهداية إلى
مواقع الخير ، وإقامة وجه الإنسانية على مسالك الحق والخير ، والميل بها عن
مسارب الضلال والبوار - فليس في القصص القرآني ما في غيره من القصص ..
من تلك المواقف والصور التي يراد منها استثارة العواطف المريضة ، واسترضاء
الميول المنحرفة في الإنسان وتملقه بها ، واقتياده منها .. وإنما القصص القرآني
حرب على هذه العواطف المريضة ، وتلك الميول المنحرفة ، يلقاها في حزم
وحجم ، وينزل أصحابها منازل البوار والهوان في كل موقف يلقاهم فيه ..
ذلك لأنه كما وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله : « إن هذا هو القصص الحق » .
وما كان للحق أن يلبس الباطل ، أو يسلك مسالكه .

بقيت تلك الأسئلة التي سألناها آنفاً : كيف نلتقي بالقصة القرآنية ؟ ومن
أى جانب ننظر إليها ؟ وبأى مقاييس نقيسها ؟ بقيت هذه الأسئلة تنتظر
الجواب .. فأين جوابها ؟

والجواب هو ما تنتظمه أبواب هذا البحث وفصوله .

والله المستعان ، وهو ولي التوفيق .

مدخل إلى السمح

القصة في الحياة العربية

ربما كان من المناسب قبل أن نلتقي بالقصص القرآني أن نقف وقفة قصيرة نتطلع من خلالها إلى ملامح القصة في الحياة العربية وفي الأدب العربي ، إن كان لها وجود هنا أو هناك ، أو إن كان لها سمات واضحة محددة إن ثبت وجودها .. فهذه الوقفة تعيننا كثيراً على فهم القصص القرآني ، والاستدلال على كثير من مرامى أحداثه ومواقفه .. إذ لا شك أن القرآن الكريم لم يجيء إلى العرب بشيء بعيد عن مدركاتهم ، أو غريب على تصوراتهم ، وإنما جاء إلى القوم وبينه وبينهم نسب قريب ، ورحم ماسة ، فهو بلسانهم الذي ينطقون وعلى أسلوب فصاحتهم وما يتفصحن ، وفي اتجاه منازعهم التي يتزعون . وإن يكن في القرآن جديد على العرب في هذه الأمور وما إليها ، فهو في تقويم ما عوج ، وإقامة ما انحرف ، وتصفية ما كدر .. وهكذا كان القرآن ينزل على العرب ، فيجد عقولا متفاهمة معه ، وقلوباً متقبلة له ، مؤمنة به .. وهذا مما تشير إليه الآية الكريمة : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » فقد جاءت الرسالة الإسلامية بمكانها الملائم لها كل الملاءمة ، والتقت بأهلها الذين هم أعرف الناس بها ، وأحقهم بالنظر إليها ، والإفادة منها .

ولا نلتفت هنا كثيراً إلى ما كان من المشركين من قريش ، من تصد للدعوة الإسلامية ، ومن محاربة لها ، فذلك أمر دعا إليه ما طبع عليه انقوم من عناد ، وكبر ، وإباء ، يحول بينهم وبين الانقياد لغيرهم . فهم في باطنهم مؤمنون بأن القرآن من عند الله ، وأن محمداً رسول الله ، ولكن يأبى عليهم كبرهم أن يذعنوا للحق ، وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم في قوله تعالى مواسياً النبي الكريم : « قد تعلم إنه ليحزنك الذي يقولون .. فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » (٣٣ الأنعام) وقوله سبحانه : « يعرفون نعمة الله ثم ينسكرونها وأكثرهم الكافرون » (٨٣ النحل) .

وإذن فإن لنا ، بناء على هذا ، أن نتوقع سلفاً - قبل البحث والنظر - وجود القصة في الحياة العربية قبل الإسلام ، وفي الأدب العربي الجاهلي شعراً ونثراً ، إذ ليس من المعقول أن يجيء القرآن الكريم بهذا القدر الكبير من القصص في معرض الدعوة إلى الله ، وفي تثبيت العقيدة على ركائز قوية من العبر والعظات المستوحاة من هذا القصص - نقول إنه ليس من المعقول أن يأخذ القصص هذا المكان البارز في القرآن ، كتاب العرب الأعظم - ثم لا يكون عندها رصيد من القصص الذي نسجته من واقع حياتها ، أو من أطياف آمالها وأحلامها . كما أن لنا أن نتصور - سلفاً أيضاً - أن هذا القصص العربي على شيء كثير من الشبه بالتصص القرآني ، في الغاية المتوخاة منه ، وهي العبرة والعظة ، بما ضمت عليه القصة من مضامين المرافق والأحداث ! هذه دعوى . . لا أكثر ولا أقل . فهل يصدقها الواقع ؟ وهل إذا استعرضنا التاريخ - تاريخ الأمة في جاهليتها العربية ، والأدب العربي قبل الإسلام - هل نجد ما يؤيد هذه الدعوى أو ينقضها ؟ هذا ما نريد أن ننظر فيه الآن .

القصة في الحياة العربية :

بما لا يكاد يتصور أن تخلو حياة إنسان من قصة ، أو عدة قصص ، ذلك أن الأحداث المثيرة ، والمواقف الحرجة المتأزمة ، هي اللطائف التي تتخلق منها القصص ، بعد أن تستجفن في كيان الإنسان ، وتستجيش في مشاعره ، وتسكن إلى وجدانه . وتغتذى من نبضات قلبه ، وخفقات صدره .

وإذا كان ذلك كذلك فإن حياة الإنسان سلسلة متصلة من القصص ، لما يطرقة دائماً من أحداث تهز كيانه ، وما يساق إليه من مواقف مزعجة محرجة تتشكل منها صور مثيرة تُروى وتحكى ، إذ أن الحياة لاتدع الإنسان - أي إنسان - دون أن تطرقة بأحداثها ، أو ترميه بمزعجاتها .

وإذا كان ذلك في حياة الفرد الواحد ، فكيف يكون الأمر في أمة بأسرها ؟ في أجيالها المتعاقبة على مدى الزمن الطويل ؟

ولو أننا نظرنا إلى الأمة العربية - من هذا الجانب - لرأينا أن حظها من الأحداث وانفراج كان حظا موفورا ، تكاد تنافس به أكثر الأمم كوارث ونكبات .. فهناك الحياة في أقسى أحوالها وأكبح وجوهها .. جذب ، وجوع ، وحروب ، وغارات ، وعواصف ، وأعاصير ، ومخاوف تطلع على الناس من كل فج ، وتقع عليهم من كل مكان !

ولهذا فإن حياة الأمة العربية كانت قصة طويلة مثيرة ، في صراعها العنيف المرير ، مع الحياة ومطالب العيش من جهة ، وفي صراعها الدامي المتصل فيما بين أفرادها وجماعاتها من جهة أخرى .

فالطبيعة القاسية التي بسطت سلطانها الباطش العنيف على الأحياء في هذا الموطن القفر الجديب قد جعل الإنسان والحيوان ، بل والنبات ، يواجه كل يوم ، بل كل لحظة امتحانا قاسيا ، يتهدد وجوده ويفقر فاه لابتلاعه .. فكل خير في هذا الموطن منقوص من أطرافه .. الماء وما ينبت الماء من زروع ، وما يجي من ضرع .. كله قليل إلى حد النُدرة .. وعلى عكس هذا كل ما كان من شر وبلاء ، هو هناك كثير مرفور .. السموم المحرق ، والحرق اللافح ، والعواصف الملتهمبة العاتية ، والرمال المتدفقة الثائرة .. كل أولئك ضارب بمجرانه ، جاثم على صدر الصحراء ، في قوة طارمة ؛ وفي امتداد فسيح هريض اذلك مما جعل الأحياء هناك في معركة حامية متصلة مع الطبيعة .. في سبيل الحياة والبقاء .

ثم كان من شأن هذه الحياة الصلدة القاسية أن أفرت الناس بعضهم ببعض ، فنش بعضهم لحم بعض ، وولغ بعضهم في دم بعض ، ووقع بينهم ما يقع بين عالم الحيوان من عدوان وافتراس . يأكل القوى الضعيف ؛ ويستبد ذو الخلب بمن لا مخالب له ، فن لم يكن ذئبا أكلته الذئاب .

وحياة تلك صورها وهذه ألوانها لا بد أن تلتى في أفسار الناس وفي تصوراتهم وخيالاتهم بكثير من ألوانها وظلالها ، حيث ينظرون من خلالها إلى الحياة نظرة واقعية ، أقرب إلى التشاؤم والوجوم منها إلى التفاؤل والانطلاق .

فالمقد قبيد الواقع الملح بأحداثه المتلاحقة ، من خيال الناس هناك ، وحدث من آمالهم إذ لم تدع لهم الحياة متنفساً يتنفسون فيه ، كما لم تترك لهم فرجة يفرون منها ، من هذا الواقع المطبق عليهم من كل جهة ، ولو إلى أودية الخيال ، وعوالم الأحلام ، وهكذا ظل سكان هذا المكان الجديب ، يدورون داخل هذا السجن الرهيب ، ويحيون على هذا الزاد الذي فرضته عليهم الحياة . . بل وأكثر من هذا ، فلقد دفع بهم هذا الفراغ الممل داخل هذا المنفى الخفيف إلى أن يدمنوا تماطى هذه الحياة بكل ما فيها من مرارة وقسوة ، وأن يستمرئوا هذا الطعام الوبيل ، وأن يعرفوا فيه ، متهافتين عليه تهافت الفراش على النار ، أو مدمن الخمر على الشراب . . حتى كأنهم بهذا الإغراق في الواقعية ، إنما يريدون أن يذهبوا عن هذا الواقع ، وأن يتلوهوا عنه ، ولو يقتل أنفسهم ، وسفك دماهم .

وبعض السم ترياق لبعض وقد يشفي العضال من العضال

إنه خداع الطبيعة للناس ، أو خداع الناس لأنفسهم ، هو الذي سوغ مرارة هذه الحياة القاسية ، وأغرى الناس بالمقام فيها . . ! ولولا هذا الإغراء لسكان لهم في الأرض الفسيحة مذهب عن هذا الوجه الكالح الجديب .

فإذا قلنا إن حياة العرب الجاهليين في موطنهم الأول كانت قصة طويلة مثيرة ، فذلك هو الواقع الذي تنطق به شواهد الحال ، وتحدث عنه صحف التاريخ . . ! ولكن لنا أن نسأل بعد هذا : أى لون من ألوان القصص كانت هذه القصة الطويلة ؟ ونجيب فنقول : إنها مأساة أو درامة ، كتبت حروفها ، وكلماتها ، وفصولها بدم الإنسان ، وعرقه ، ودموعه . ! وإنها صورة مصغرة من الحقيقة التي كان يعيش فيها الناس ، ليس فيها شيء من الخيال البعيد أو القريب . !

القصة في الأدب العربي :

وهكذا كانت تعيش الحياة الصحراوية في ضمير العرب . وهكذا

كانت تدور في كيانهم ، وتتحرك في ذكرياتهم ، . فإذا كان فيهم الشاعر الذي يستطيع أن يمكس بها في كلمات ، وأن يصورها في أبيات — لم يكن له أن يخرج بها عن هذا المحتوى الذي يعيش فيه الناس جميعاً ، ولا أن يعتمد عن هذا الواقع المشهود الذي لا تبرق فيه بارقة من أمل أو خيال ، تشير إلى تعديله ، أو تغييره بحال أبداً .

لهذا كان الشعر العربي كله واقعياً ملحاً في الواقعية ، مغرقاً فيها ، بعيداً عن الرؤى والخيالات .. وكانت الأحداث التي تسجل في — والتي كانت من الممكن أن تكون مركز انطلاق للملحمة ، أو مأساة ، أو قصة يؤدي فيها الخيال دوراً بطولياً — كانت هذه الأحداث تبرز في شعر الشاعر وكأنها صورة مكررة للواقع الذي حدث ، رواها مشاهد أمين ، أو التقطها مصور ماهر لم يدع جزئية من جزئياتها دون أن يلتقطها كما هي ، بلا ألوان ولا أصباغ ، ولا إضافة أو حذف !

خذ عنتره مثلاً .. فهو — كما يحدث التاريخ — بطل الحروب ، وفارس الفرسان .. كان من الممكن أن يكون بطلاً أسطورياً ، وأن تصور أفعاله ، ومعاركه بما تصور به الأساطير عند الأمم الأخرى غير العرب .. ولكن ظل عنتره بطلاً إنسانياً في بطولته ، لم يحرق الأرض ، ولم يبلغ الجبال طولاً ، وإن ملأ قلوب الناس إعجاباً به ، وبيطولته .. !

ولو أن عنتره هذا كان في الأمة اليونانية مثلاً لسكان أسطورة من أساطيرها ، ولسكان له مواقع مع الآلهة ، بل لربما تحول آخر الأمر إلى إله أو نصف إله .. إذ هكذا كان يعمل الخيال في عقل الأمة اليونانية ، وهكذا كانت تنمو الأحداث وتتضخم في خيالهم . ! فإن لمسة خفيفة من لمسات الواقع كانت تفعل في خيالهم ما يفعله الحجر يلقي به في صفحة الغدير الرقاقة الصافية ، فتثير فيها دوائر متلاصقة متدافعة ! ! على أن « عنتره » لم يكن عند نفسه بل وعند العرب إلا فارساً من فرسان العرب ، وبطلاً من (٢ - القصص القرآني)

أبطالهم ، لم تخرج به بطولته الفذة النادرة عن هذا الحد عند نفسه ، ولا عند قومه .. فهو بطل قد يغلب وقد يُغلب ، وهو وإن يكن قد ذاق حلاوة النصر في جميع معاركه فلقد أذاقته الحياة كثرة مريرة من يديها ، ولم يكن له أن يدفع شيئاً منها بقوته وبطولته ! إذ ماذا يعمل مثلاً في هذا الجذب الذي يشوى وجه الأرض ويأكل ما عليها من نبات وحيوان ؟ وكيف له أن يدفع هذا السموم اللافح ، ويرد هذه العواصف المزمجرة ، أو يسكن نائرة هذه الرمال الثائرة ؟ إنه في هذا — شأنه شأن كل عربي — محكوم عليه أن يحيى هذه الحياة ، وأن يتلقى ضرباتها في صمت وصبر ، إن أراد أن يعيش ، وأن يسكن في الأحياء !

يقول عنتره ، وهو يفخر بطولته ، ومواقفه في الحرب :

وَمَدَّجِجَ كَرَاهِ السَّكَاةِ زِيَالَهُ لَامِعِينَ هَرَبًا وَلَا مُسْتَلِمِينَ
جَادَتْ يَدَايَ لَهْ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ بِمُتَّقِفِ صَدَقِ السَّكُوبِ مَقُومِينَ
فَشَكَّكَتْ بِالرَّمْحِ الْأَصْمِ ثِيَابَهُ
لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمَحْرَمٍ (١)
فَتَرَكْتَهُ جَزَرَ السَّبَاعِ يَنْشَنُهُ
يَقْضَمُنُ حَسَنَ بِنَانِهِ وَالْمَعْصَمِ (٢)
وَمَشَكَتْ سَابِقَةَ هَتَكَتْ فَرُوجَهَا
بِالسَّيْفِ عَنِ حَامِي الْحَقِيقَةِ مَعْلَمٍ (٣)
وَبَذَّ يَدَاهُ بِالْقَدَاحِ إِذَا شَتَا هَتَاكَ غَايَاتِ التَّجَارِ مَلُومٍ (٤)
لَمَّا رَأَى قَدْ نَزَلَتْ أَرِيدَهُ أَبْدَى نَوَاجِذَهُ لَغَيْرِ تَبَسُّمِ

(١) شك بالرمح ثيابه : أي غرز ثيابه في جسمه بطعنة من رمحه .

(٢) جزر السباع : أي طغماً لها ، وينشئه : أي يغضاضن لحمه .

(٣) السابغة : الدرع الواسعة .

(٤) ريد : أي سريع الحركة ، والتجار : أصحاب خانات الحجر .

خطمته بالرمح ثم علوته بمهند صافي الجديدة مخذّم (١)
عهدى به مدّ النهار كأنما خصب البنان ورأسه بالعظم (٢)
وحليل غانية تركت مجدلا تمكو فريسته كشدق الأعم (٣)

إنها الحقيقة أو هي ما دون الحقيقة هذه الصور التي يرسمها عنتره لنفسه في شعره . . . وماذا كان يقول عنتره عن موقفه هذا لو أنه حكاه حكاية بغير الشعر وخيال الشعر ؟ . . . إن الخيال الشمري يضخم توافه الأشياء ، وينفخ في الرماد حتى يحيله ناراً تتأجج وتتوهج . . . أفلنا إذن أن نزعّم أن عنتره كان أقلّ من هذا الموقف البطولي الذي رسمه في شعره ، وأن الحقيقة دون الخيال الذي لا بد أن يحمل الشعر قدراً كبيراً منه ؟ وكلا ، فإن عنتره كان على تلك الصورة ، بل أكبر منها ، ولكنه كان يعرف قدر نفسه في الحياة ، وأنه وإن كان أعظم وأقوى من أبطال قومه وفرسانهم فإنه ضعيف مقهور أمام قوى الطبيعة وأحداث الحياة ، ولهذا فإنه لا يزهو كثيراً بما عنده من قوة وشجاعة ، ولا يذهب إلى أبعد مما كان يجرى على الطبيعة في ساحة الحرب . . . وأنه كان إذا حدثته نفسه بزهو أو خيلاء ، نظر إلى قوى الطبيعة القاهرة من حوله فيضمر زهوه ، وينكش خيلاؤه وعجبه ، ويصغر شأنه عند نفسه ، وسرعان ما تذوب هذه الألوان الزاهية المعجبة التي صنعها الخيال لبطولته وشجاعته ، ولا يبقى إلاّ الواقع مجرداً عرياناً ، فتلتقطه شاعريته كما هو . . . فما هو ذا يلقى بطلاً من أبطال الحرب المشهود لهم بالبطولة ، ممن يكره الأبطال لقاءهم ويتقوّان منازلهم ، وها هو ذا البطل يلقى عنتره بعد أن تهيأ لهذا الموقف ولبس لبوس الحرب ، وحمل أسلحتها . وهو يقدر هذا الموقف ويدرك خطره . . . إنه في مواجهة عنتره ! فهو يزين الإقدام والإحجام . . .

(١) المخذّم : السيف القاطع .

(٢) العظم . زهر نبت يصنع به كالختم والحناء .

(٣) تمكو : تخرج صغيراً ، الأعم : الجمل . والعلم : الشق في الكفة العليا .

إن أقدم فلائه بطل يخشى أن يرمى بالجبن إن هو أحجم . وفي ذلك سبة الدهر ، وعار الأبد ، الذي يلحق الوالد وما ولد .. وإن أحجم وفر من المعركة فإنه في مواجهة عنتره ، ذلك البطل الذي لا يغلب ، والذي لا يهاب الفرار من لقاءه !

ثم ها هو ذا عنتره يبادر هذا البطل بطعنة فيخز صريعاً ، لا يجرؤ أحد على الدنو منه لمواراته التراب ، فيترك هكذا طعاماً للسباع والنسور . وهكذا تجيء كل الصور التي جاء بها عنتره في شعره عن صولاته في الحرب .. كلها تحكي الواقع في قصد واعتدال .. وهكذا أيضاً تجيء جميع الصور التي تحكي قصص البطولة في الأدب العربي .. كلها حديث عن الواقع ، البعيد عن المبالغة والخيال ..

لقد تدرس العرب بهذه الطبيعة ، وقبلوا تحديها لهم بكل ما لديها من شراسة وقسوة ، وأبى عليهم كبرهم أن يستزلوا عليها بخيالهم آلهة من السماء تتحكم في مصائر الناس ، وتغير من حقائق الأشياء ، كما أبى عليهم كبرهم أن يفروا من بين يدي الواقع ، وأن ينقلوا بخيالهم إلى عالم الآلهة ..

فالذين يرمون الأمة العربية بضعف الخيال حين لا يجدون في تراثها الأدبي هذا القصص الملحمي الذي يملأ مسرح الحياة بالآلهة ، وأنصاف الآلهة — الذين يرمون الأمة العربية بهذا لم يقموا على التعليل الصحيح لخلو التراث الأدبي العربي من مثل هذا القصص الملحمي ، وهو أن اعتزاز العربي بدأتيته ، وحرصه على صحة ذاته كما هي — هو الذي حمله على أن يعيش واقعه متحدياً لكل ما فيه غير فار منه ، أو مستعين عليه بأية قوة أو حيلة من خارج ذاته !

* * *

ونستعرض الأدب العربي كله ، شعره ونثره ، فلا نرى فيه شيئاً من هذا الذي عرف في الأدب اليوناني مثلاً من هذه الملاحم التي تحكي عن

بتلك الحروب التي أغرقت في الوم ، وأغربت في الخيال ، فارتفعت بالأدمنين إلى سماوات الآلهة ، وأنزلت الآلهة إلى دنيا الناس ، وخلطت بعضهم ببعض ، وجمعت بين السماء والأرض ، فكانت تلك المشاهد الحربية التي قبلها العقل وعاش فيها زمنا ، حتى إذا استيقظ من غفوته ، وصحا من أحلامه نظر إلى هذه المشاهد نظره إلى ما يقع له من أحلام ، تجمع الغرائب والنقائض ، وتحشد المعجائب والخوارق ، فيعجب بها ، ويلذ له طعمها ، دون أن ينكر منها شيئا .. إنها أحلام .. أو أضغاث أحلام ، وما على الأحلام من حرج أن تحمل ما تحمل ، من خيالات وخرافات وأوهام !

* * *

فهذا « عمرو بن كلثوم » التغلبي ، صاحب المعلقة المشهورة ، التي عدّها قومه بنو تغلب مفخرة مفاخرهم ، كما أنها عدت في الأدب العربي أقرب شيء إلى أدب الملاحم ..

إن الظروف التي قيلت فيها تلك المعلقة كانت ذات شبه كبير بتلك الظروف النفسية التي كان يعيش فيها أصحاب الملاحم والأساطير .. فقد روى المؤرخون أن عمرو بن كلثوم قال معلقته تلك في حال كانت تتسلط على نفسه فيها سياط ملتهبة من الحمية والأنفة ، وتثور في كيانه ثورة عارمة عاصفة للانتقام والتحدى .. فهو — والحال كذلك — قد كان في حال من الانفعال والهباج إلى الحد الذي يملك عليه زمام تفكيره ، فلا يقف عند معقول ، ولا يلتفت إلى واقع .

ومع هذا فقد جاء ما جاء في هذه المعلقة ملتزما حدود الواقع ، كأنما التقطته آله مصورة .. فلا شيء فيها يمكن أن يقال عنه إنه من خيال الشاعر أو نسيج أحلامه .

يقول عمرو في معلقته تلك .. مخاطباً الملك عمرو بن هند :

أبا هندٍ فلا تعجل علينا وأنظرنا تخبرك اليقيننا

بأنا نورد الزايات بيضا ونصدرهن حرا قد رويننا
ونحن إذا عماد الحى خرت على الأحفاض نمنع من بلينا^(١)
نجد رهوسهم فى غير رفق فما يدرون ماذا يتقونا
كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدى لاعبيننا
كأن ثيابنا فينا وفيهم حضين بأرجوان أو طلينا

فهذا مبلغ ما عند الشاعر من نخر بمفاخر قومه ، ومن آثارهم فى الحرب ،
تلك الآثار التى ينبغى أن يمر بها هذا الملك الذى استصغر شأن بنى تغلب ،
قوم الشاعر ، ورآهم دونه حسبا ونسبا . . . وهى كما ترى تصور الواقع تصويراً
مقتصداً ، لا شئ فيه من الخيال البعيد أو القريب
ونمود فنسأل :

لماذا لم يكن للعرب خيال كهذا الذى نسج لليونان هذه الملاحم ،
وأراهم هذه الرؤى المعجبة الرائعة ؟ لماذا لم يقم شاعر عربى بمثل ما قام به
« هوميروس » مثلاً ، فيصنع إلياذة كإلياذته ، تحكى الحروب التى كانت
تدور فى الجزيرة العربية على صورة صارخة متصلة ؟
هناك فرضان لا ثالث لهما . .

إما أن يكون الأدب العربى قد كان فيه شئ من هذا فى دور مبكر
من حياته . . دور الرؤى والأحلام . . فكان هناك شعر مغرق فى الخيال ،
يصور المواقع الحربية ، على نحو ما فعل شعراء اليونان فى تصوير حروبهم . .
وأن هذا الشعر قد ذهب به النسيان كما يذهب بكثير من الأحلام . . أو أن
العقل العربى نفسه قد زهد فيه حين صحا ، وأبى أن يصحبه ، وأن يمسك به
ويحرص عليه . . شأن كثير من الشبان يمرون بلعبة طفولتهم وأشياءها
فيزودون وجوههم عنها ، ويحرقون شأنها ، على حين يحرص بعضهم على

(١) الأحفاض : جمع حفص ، وهو نتاع البيت

الاحتفاظ بذكريات طفولته ، ومعايش صباه ، ومعاودة الحياة معها ؟
وهذا الفرض لم يقيم له شاهد من شواهد التاريخ ، ينبىء عنه ، أو
يحدث به .

وأما الفرض الثانى فهو أن الطبيعة العربية لم تكن تتقبل أحلام اليقظة
هذه ، حتى فى دور طفولتها الأولى .

وأما كانت فى وعى دائم ، ويقظة كاملة منذ يومها الأول فى الحياة ،
تحت ظروف الحياة القاسية التى لا تدع لأحد أن يغفو أو ينام ..
وهذا الفرض هو الذى نميل إليه ، ونأخذ به فى التعليل لخلو الأدب
العربى من قصص الأساطير ، وشعر الملاحم .

وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن قصور العرب أو تقصيرهم فى خلق مثل
هذه الملاحم . وتلك الأساطير لم يكن لنقص فى طبيعتهم . ولا لضعف فى
مأسكة الخيال عندهم ، كما يقول بذلك المستشرقون ويردده المستغربون منا .
وإنما كان ذلك عن احترام لشخصيتهم أن يلبسوها غير لباسها ، وأن يعيروها
مال ليس لها .. فإن اعتزاز العرب بشخصيته ، واحترامه لها ، وتقديره
لمشخصاتها كان يأبى عليه أن يكون على أية صورة إلا صورته تلك التى
عرفها ، وعاش فيها .. فهو مؤمن أو وثق الإيمان بذاتيته ، حريص أشد الحرص
على أن يحتفظ بكل ماله من سمات وصفات .. أيا كانت تلك السمات وهذه
الصفات ، وأيا كان لونها ومذاقها .

ولقد كان عجباً من العجب أن يخرج عربى عن شخصيته ، وأن يتبدل
بها شخصية أخرى ، وقعت لعينيه موقع الإعجاب ، ونزلت من نفسه منزل
الأمل ، فيكون هذا منه حديثاً يروى ، وسابقة يرى الناس فيها حدثاً له
طرافته وغرابته معاً .

كان الشاعر الفاتك الصملوك «تأبط شراً» نادرة فى شجاعته وفتكه وشدة

عدوه ، وكان في صورته تلك أمنية يتمناها الكثير من الناس ، وأملاً ياملون أن يكونوه .. ولكن أحداً منهم لم تحدثه نفسه أن يدعى هذه الدعوى ، وأن يلبس لباساً تأبط شراً ، إذا كان كل منهم عظيماً عند نفسه .. إذا فاته بعض ما عند تأبط شراً أو غيره من صفات فإنه يفوته أو يفوتهم هو بصفات هي له دونهم .. هكذا تقوم نظرة العربي إلى نفسه ، إن نظرة ملؤها الإعجاب ، والإكبار .

وتلد الأيام أعجوبة من أعاجيبها ، ويجيء إلى تأبط شراً من يقول له :
لتبع لي اسمك ، فإني أريد أن أحمله لأحمل ما يقع في الأسماع له من رهبة وخشية واحترام .. ثم إن لك في مقابل هذا ما تطلب ..

واتفق الرجلان ، وأخذ كل منهما اسم صاحبه ، ومضيا : كل بما معه .
الرجل ومعه اسم « تأبط شراً » ، وتأبط شراً ومعه « أبو وهب » وهو اسم ذلك الرجل ، وما قدم له من عوض !!

وكان هذا الموقف الغريب المثير مما احتاجت له شاعرية « تأبط شراً » فتحرك لسانه بهذه الأبيات :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها تأبط شراً واكتنيت «أبو وهب»
هبيه تسمى اسمي وسميت باسمه فأين له صبرى على فادح الخطاب؟
وأين له بأس كبأسى ونجديتى وأين له في كل فاجعة قلبى ؟

حادثة غريبة عجيبة ، تستأهل تناقل الحديث عنها ، والعجب منها .. ولو كانت في غير الأمة العربية لكانت شيئاً مألوفاً ، بل ودون المألوف ، فما أكثر ما ينسلخ الناس عن ذاتيتهم ، وما أكثر ما يتبدل شخصياتهم ، وكأنها أبواب يخلعونها ، ويلبسون غيرها من غير حساب أو تقدير .. يكون الإنسان اليوم على رأى فإذا هو في غدٍ على تقيض هذا الرأى ، ثم هو بعد غدٍ على خلاف الرأين .. وهكذا .. ويكون الساعة على طريق ، فإذا هو بعد

ساعة أو ساعات على طريق عكس اتجاه طريقه الأول . وما ينكره هو شيئاً من ذلك على نفسه ، وما ينكره عليه أحد .. إذ هم جميعاً ذلك الرجل .
وليس ذلك من خلق العربي أبداً ، إن شخصيته واضحة ووضوح الطبيعة ، كلها في هذا العراء ، زاسخة رسوخ ما نبت عليها من صخور وجبال . وإن الصفات التي يشتمل عليها لا يتحول عنها أبداً ، إنها ملتزمة له التزام لون بشرته لجلده .

فبعيد — والأمر كذلك — أن يتخلق في خيال العربي قصص كهذا القصص الأسطوري الذي عاش في العقل اليوناني ، وولد مثل « الإلياذة » وغيرها من القصص الذي تغنى به شعراء اليونان .

إن واقع الحياة البدوية وما فيها من قهر وقسوة قد قيد العرب في دائرة الواقع ، فلا يتمدونه ، ولا يخرجون عنه بحال ، حتى في أحلامهم ورؤاهم ، إذ كان يذود طوارق الأحلام عنهم ثقل هذا الواقع الجاثم فوق صدورهم ، والذي لا يسمح لهم مسعد أن يطوف بهم أبداً ، فإن ألم بهم شيء من هذه الأحلام المسعدة في لحظة خاطفة لم يفسح لهم الرجاء في أن يمشوا فيها على أمل طيب إلى يوم تأويلها ، بل تدفع الحياة ذلك عنهم دفعا ، وترهبهم منها يداً خشنة قاسية لا تلين بخير ، ولا تجود بإحسان .. حتى لقد كان مثل هذه الأحلام المسعدة ألوانا من الكيد والخداع الذي ترميهم بها الحياة ، لتزايد في قسوتها وبلاؤها .. يقول شاعرهم :

إل الله أشكو أنني كل ليلة
إذا نمت لم أعدم طوارق أوهام !
فإن كان شرأ فهو لاشك واقع
وإن كان خيراً فهو أضغاث أحلام !

هكذا الحياة في الصحراء القفر الجديب ، لا مكان للخيال فيها ، بل كل ما فيها حقائق يقظي لا تنام ، ولا تنيم !

الحمر مثلاً عند كثير من الناس مجال فسيح للهرب من الواقع الكريه ،

وانخلاع من الحياة وما فيها من مكاره ، وانطلاق بلا حدود ولا قيود ،
في آفاق الأحلام وأصغاث الأحلام .. ولكنه - أي الحمر - في صحراء
العرب ، يفقد هذه الخاصة ، وتقص الحياة الواقعية الجائمة بصدرها على
الإنسان ما فيه من أجنحة ، فلا يقدر على أن يحمل العربي إلى أبعد من
خيمته ، وما يسقى عليها من رمال ! مهمل على من الحمر ونهل !
يقول المنخل البشكري :

ولقد شربت من المدا مة بالصغير وبالكبير
فإذا انتشيت فإنني رب الخورق والسديرا
وإذا صحوت فإنني رب الشوية والبعير !

في لحظة واحدة يسقط الشاعر من حائق ، سقطت يسفك عليها دمه ،
وتتكسر أضلاعه ، أو يندق عنقه ، ويهرب كل ما كان قد انعقد بين عينيه
من سحب تؤذن بالمطر وتبرق بالغيث .. - إنه كما قلنا - لون من ألوان
الكيد والتدبير ، تزيد به الحياة في قسوتها ، وتضاعف من مرارتها .

إن العربي في اعتزازه بذاتيه ، وفي شعوره بالتغلب على الطبيعة - ليجد
في تصورات الأمانى ، وفي طوارق الأحلام التي تخرج به عن واقعه ،
حياة لذاته ، وفراراً من الميدان الذي قدر له أن يواجه الحياة فيه حتى إن
ذلك الشعور ليخطر على خيال الشعراء أن يبعد كثيراً عن أرض الواقع .
وحق أن الشاعر الجاهل امرأ القيس ، مع انطلاقه في الحياة ، ومع ميله إلى
الهبوط والعبث ، لم يقبل أن تكون الأحلام والأمانى مورداً له في صحو أو
نوم . . . يقول امرؤ القيس :

ألا قاتل الله الطلول البواليا وقاتل ذكراك السنين الخوالي
وقولك للشئ الذي لا تناله إذا هويته النفس باليت ذاليا

واعتزاز العربي بشخصيته ، وإيمانه بذاتيته ، ورضاه عنها هو الذي أكد

في نفسه أنه على الصورة التي لا يرضى الحياة إلا بها ، ولا يقبل العيش إلا معها ، وأن عزيزاً عليه أن يتخلى عن تلك الصورة لحظة ، أو ينفصل عنها ولو في الخيال والوهم . . ولهذا نستطيع أن نجعل هذه الطبيعة المتأصلة في نفس العربي سبباً أصيلاً لما ينسب إلى الأدب العربي من قصور في الأدب التمثيلي ، وإلى خلو الحياة العربية من مسارح التمثيل قبل أن ينتقل إليها ذلك من الأمم الأخرى . . وذلك احتفاظاً من العربي بشخصيته ، وضماناً لها أن يلبسها — ولو للحظات — شخصية أخرى .

هذا ، وإن يكن قد فات الأدب العربي تلك الألوان الجميلة من الخيال وطبوفه ، فإن ما فيه من جمال الصدق وروعته وجلاله لعوضاً من كل شيء . . فالصدق جميل رائع معجب بذاته ، مستغن بطبيعته عن الألوان والأصباغ والحلى . . فكيف إذا وجد اللغة التي تحسن عرضه ، وتجلي عن وجهه ؟ .

ولقد رأينا كيف صور عنتره في أبيات قليلة أكثر من معركة من معارك البطولة ، كان يخوضها في بسالة ورباطة جأش ، ويخرج منها ظافراً منتصراً . . كل ذلك في غير تم ويل ، ولا تحييل ، بل هو الواقع في حق وصدق ! وكذلك ما رأيناه من عمرو بن كلثوم في الأبيات القليلة التي رويناها من معلقته !

إن كلا الشاعرين معترّ بشخصيته ، شأنه في هذا شأن كل عربي ، حيث يرى أن من الإزراء بتلك الشخصية والانتقاص من قدرها أن يغير من مشخصاتها ، أن يزينها بألوان وأصباغ مجلوبة من خارج ذاته ! !

هكذا العربي في شعره كلها ، حتى المرأة التي تدعوها طبيعتها إلى التجمل والزين ، كانت تؤثر أن تستغنى بجهاها المطبوع — على أي جمال مصنوع ، أياً يكون !

وقد كشف « المتنبي » عن فضل ما بين الجمال المطبوع الذي لا يراه الرأى

إلا في البادية، وهذا الجمال المصنوع الذي يملأ وجه الحياة في المدن والحواضر،
إذ يقول :

أفدى ظباءَ فلاةٍ ماعرفنَ بها مضغَ الكلامِ ولا صبغَ الحوارجِيبِ
ولا خرجنَ من الحمامِ مائلةً أعناقهنِ صقيلاتِ العراقيبِ
حسن الحضارةِ محبوبٍ بتطرية وفي البداوةِ حسن غير محبوبِ

* * *

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه في تحليل هذا القصد في الخيال عند العرب ،
ونظرتهم إلى الحياة تلك النظرة الواقعية أن « أخبار » الشاعر الفارس غنتره
التي عرفتها الجاهلية على نحو ما صورهاها صاحبها في شعره - هذه الأخبار -
حين خرجت من حياة البادية مع العرب في فتوحاتهم ونزلت معهم الأمصار
ودارت في عقول الناس هناك - تولدت منها هذه الملحمة الشعبية التي ألفها
« الجهمشيارى » في العصر الفاطمي ، في مصر ، فلا بها حياة الناس ، وشغلهم
بها عن الواقع الذي كان ينبغي أن يعيشوا فيه . . . وذلك لما فيها من إغراب
بعيد في الخيال ، خدرت به ملكات التفكير ، فأصبحت ترضى بهذا الغذاء
من صيد الأوهام ، بل تتمثله في حياتها ، وتولد منه خيالات ، تتولد
عنها خيالات . . . وهكذا !

والذي يعمن النظر في أماليب الحياة التي كانت تتحكم في العصر
الفاطمي ، يرى أنها حياة ملونة بألوان وأصباغ كثيرة ، دخلت على حياة
الناس في مادياتهم ومعنوياتهم كلها . . . ولا زالت آثار هذا العصر في البناء ،
والزخرفة ومخلفات القصور من أثاث ومتاع - تشهد بما بلغته الحياة إذ
ذاك من الإسراف في الزخرف والصنعة ، والإغراب في البعد عن الطبيعة . . .
وكان من هذا أن صنفت حياة « غنتره » بهذه الألوان الصارخة ، وصورت
شخصيته بتلك الصورة التي ليس بينها وبين الحقيقة من شبه إلا ما بين حقيقة
الأشياء وظلالها . . . ساعة الغروب !

ونخلص من هذا إلى القول بأن هذا النقص الذي يجده الباحثون والدراسون للقصة في الأدب العربي ليس عن نقص في ملكات الأمة العربية ، ولا عن قصور في خيالها ، أو اعتلال في مزاجها ، كما يقول بذلك أو نحوه كتاب الغرب ، ويأخذ به ، أو يردده كثير من أدبائنا . .

وكلا ، فإن خلو الأدب العربي الجاهلي من قصص الملاحم والأساطير إنما يرجع - كما قلنا - إلى أمرين :

أولهما : تلك الشجاعة النادرة التي يحمل العربي أكبر قدر منها في قلبه ، وهو بتلك الشجاعة استطاع أن يواجه الحياة في أقصى ظروفها وأسوأ أحوالها ، وأن يعيشها كما هي ، دون أن يحجب واقعها عن نظره بأي لون من ألوان الأمانى والأحلام التي من شأنها أن تصيب النفوس الضعيفة بالتخدير وبالذهول . . فكان العربي في صحو دائم ، وفي يقظة واعية مدركة لكل ما يحيط به ، ولهذا فإننا لا نجد في الحياة الجاهلية عند العرب ما نجد في الحياة اليونانية ، والاعريقية من اصطناع الآلهة لكل شأن من شؤون الحياة وفي كل ما يسوء أو يسر منها . . وفي ظل هذه الآلهة المتوهمة بتحريك الناس وبوحيا يعملون ، وبأمره يأتمرون . . إنها القدر الذي يتحكم في مصائر الناس ، قد صورته في هذه الآلهة ، ثم أنطقوا هذه الآلهة ، على لسان كهنتها بما يشاء هؤلاء الكهنة أن ينطقوا به : . أما العرب الجاهليون فإنهم واجهوا الطبيعة بشجاعة واحتملوا قسوتها وضراوتها بعزم وجد فلم يروا إلا أنفسهم وإلا واقع الحياة الذي بين أيديهم دون أن يعروه بالوهم ، أو يلونوه بالخيال .

وثانيهما : أن هذه الصحبة التي صحب العربي الحياة عليها قد جعلته يحرص أشد الحرص على شخصيته ، وأن يمسك بقوة كل شخص من شخصاتها ، فلا يرضى بأي بديل منها ، بل إن هذا الشعور قد امتد إلى كل شيء يتصل به . . من أهل وعشير ، وعادات وتقاليد . ولهذا كان أشد ما واجه الدعوة الإسلامية من العرب هو هذا الحفاظ الشديد على موروثات الآباء

والأجداد ، وذلك الاستمساك القوي بمام عليه من تلك الموروثات كما ذكر القرآن عنهم قولهم « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » ولهذا أيضاً كانت أعظم سبة يسب بها العربي أن يخرج عن قبيلته ، ويلتحق بغيرها . . . إنه العار الذي لا يحصى ، والذي يتوارثه الأبناء عن الآباء أبد الدهر .

ولقد كان أقصى ضربة يوجهها المرء إلى قبيلته أن يؤذنها بالتحول عنها إلى قبيلة أخرى ، يجد عندها ما لا يجد في قبيلته من نصرة ونجدة . . . وإنه إذ يصرح بهذه الثقة ليمثل له هذا المستقبل الأسود المشؤم الذي يلفه ويلف ولده من بعده ، وسرعان ما يمكث نفسه عن هذا المراد الخزي المخجل . . . وحادثة واحدة حفظها الأدب العربي لشاعر ساءه من قومه أن يخذلوه ، وألا يدفعوا عنه يد العدو على الوجه الذي يريد ، فلا يجد أنقع لغليله منهم ، ولا أبلغ لنكايته فيهم ، ولا أبرد لصدره الملهب — من هذا الهجاء الذي يرميهم به . . . إذا يقول (١)

لو كنت من مازن لم تستبح إلي	بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بنصرى معشر خشن	عند الحفيظة إن ذو لومة لانا
لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل سوء إحسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا	شدوا الإغارة فرسانا وركبانا

إنها أمنيات تمنهاها الشاعر ، فسكانت سيطا من نار عليه وعلى قومه ، وسمتهم بسيا الخزي والعار ، وألبستهم لباس المنذلة والهوان على مدى الأزمانه وتطاول الأجيال .

(١) هو قريظ بن أنيف من بلنجر

ولشناعة هذه الفعلة وسوء مغبتها فقد تحامها من تدفهم المواقف إلى مثلها من أقوامهم، فيطوون أنفسهم على ما يعتمل في كيانتهم من غيظ وحنق، ويذهبون به مذهبا آخر، لا تخف فيه موازين قبيلتهم إزاء قبيلة أخرى.. وهذا ما فعله الشاعر الجاهلي « الشنفرى » حين آذن قومه بالتحول عنهم إلى أقوام آخرين.. لكنهم من عالم الحيوان والوحوش، لا عالم البشر والناس.. يقول:

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل
ولى دونكم أهلون: سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جبال^(١)
هم الأهل لا مستودع السر عندهم مذاع ولا الجارم الجانى لديهم بمسلم

فهو وإن قطع صلته بقومه أو أزمع قطعها، لا يستبدلهم قوما آخرين، إذ هم عنده - على ماساءه منهم - خير قوم، ولكنه صائر إلى معاشرة الوحش في القفار، حيث لا خير في الناس جميعا بعد أن افتقد الخير في قومه.

وهذا الحفاظ الشديد من العربى على شخصيته ومقاومتها، من طباع، وغرائز، وعادات، وأخلاق، وهذا الاعتزاز الذى تنطوى عليه نفسه، لنفسه، ودمه، وقومه.. كل هذا قد حى الأمة العربية من أن تنطمس معالمها في طوفان الأحداث والكوارث التى ألمت بها.

كما أنه حى الواقع من أن تظنى عليه أمواج الأوهام والخيالات، وبهذا كانت اللغة العربية وآدابها صورة صادقة للواقع الذى تتشكل منه صور الحياة في الجزيرة العربية.

° ° °

(١) السيد: الذئب، والعملس: القوى، الأرقط: النمر، والزهلول: الأملس، والعرفاء: ذات العرف، والجبال: الضبع.

ولعل سائلاً يسأل: إذا كانت قسوة الحياة في الجزيرة العربية قد أطارت من عقول العرب كل خيال يتحدث إليهم بما يخلق بهم في سموات الآلهة ، ويدنيهم مما في أيدي هؤلاء الآلهة من مفاتيح يتحكمون بها في شئون الناس ، وفي أقدارهم — إذا كان ذلك كذلك فكيف يعلل للخيال الأسود المشثوم أن تخلو منه عقول هؤلاء القوم ، وكل شيء حولهم يغرى به ، ويسوقه إليهم سوقاً عنيفاً لا يستطيع دفعه أو قهره ؟ قد يكون مفهومنا أن تطير من آفاق الحياة في هذه الصحراء الجذيب كل وجوه الآمال الجميلة المسعدة ، وانكسر ليس من المفهوم أن تطير معها وجوه الشؤم والشقاء . . . إنه لا بد إذا طار أحد الوجهين ، أن يبقى الوجه المقابل له ! وإذن فقد كان من الطبيعي أنه إذا خلا الأدب العربي من قصص الملهاة ألا يخلو من قصص المأساة ، بل وأن يعوض هذا النقص في ذلك الجانب بالزيادة المفرطة في الجانب الآخر .

ونقول : إن ذلك قد يكون مع النفوس الضعيفة أو المريضة ، إذ أنه حين تمس الحياة في وجهها ، وحين تضعها وجها لوجه مع الشدائد والأهوال تجور وتهاوى ، وتترافق في عينها خيالات اليأس ، وتحيط بها أوهام الضياع ، فتستسلم في غير مقاومة ، وتلقى بنفسها لقمة سائغة في فم هذه الأوهام والخيالات التي تتسلط على خواطرها وأفكارها ، فتنسج من خيوطها المظلمة قصصاً مجللاً بالسواد ، ملطخاً بالدماء !

هذا شأن النفوس الضعيفة في ملاقات الشدائد والأهوال ، سواء في ذلك الأفراد والأمم . . . ولكن الأمة العربية حين رمتها الأقدار بهذه القسوة القاسية التي فرضتها عليها ظروف الحياة ، لم تستخز ، ولم تستسلم ، بل استقبلت هذه الرميات القاسية ببأس دونه بأس الحديد ، وبشبات دونه ثبات الجبال ، وبصبر دونه صبر الجمال . . . بل لقد أكسبتها هذه الضربات جلادة ، وصلابة وتمرساً على لقاء الأهوال ، واحتمال الشدائد والمحن ، فكانت إذا أمسكت الحياة ضرباتها عنها وقتاماً ، أنكرت هذا الموقف ، وعملت على التحول عنه

بما توقع فيما بينها من غارات وحروب . يقول شاعرهم (١) ، وقد أنس إلى
حياة البادية واطمأن إليها ، على حين نظر إلى حياة الحضرة نظرة تقزز
واستخفاف :

فمن تكن الحضارة أعجبتة فأى رجال بادية ترانا ! ؟
ومن ربط الجحاش فإن فينا قنأ صلباً وأفراساً حسانا
وكن إذا أغرن على جناب وأعوزهن نهب حيث كانا
زَلن من الضباب على حاول وضبة إنه من حان حانا !
وأحيانا على بكر أخينا إذا لم نجد إلا أخانا ! !

ومن أجل هذا لم يقع في خيال العربي شيء من هذه التصورات المخيفة
المفرزة التي تغشى الناس حين تنزل بهم مثل هذه الشدائد والأهوال ، بل
لقد استقبل العربي هذه الحياة المجذبة بكل ما فيها من قسوة وضراوة . .
ينازلها كما ينازل الأبطال في ميدان القتال ، ويصمد لها صمود من يرى
الموت أرضى لنفسه وأهنأ لقلبه من أن يفر من المعركة ، فذلك الفرار لم
يكن أبداً مما تقبله نفس العربي أو تتجه إليه !

يقول شاعر الحماسة في أحد مواقف الهول - والموت للنفوس بمرصد -
يمسك نفسه ، ويحملها على موطن الموت في صبر ورضا :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لم تطاعى
فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب الحياة بثوب عز فيطوى عن أخى الخنوع اليراع
سبيل الموت غاية كل حى فداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يمت بسأم ويهرم وتسلمه المنون إلى انقطاع

* * *

(١) هو المنخل البشكري .

نخلص من هذا كله إلى القول بأن الأدب العربي كان أدباً واقعياً ، لم
تجنح به شطحات الخيال إلى مجاوزة الواقع ، والخروج على حدوده ، وأن
العربي لم يسمح لخياله أن يلعب به ، وأن يتخذه عن وجوده ، وأن يحجب
عنه الرؤية الواضحة للعوامل المحيطة به ، والتي يقف منها دائماً موقف الحذر
المستعد لمواجهة ، وقهرها ، والخلص منها .. هذا ، وقد ظل العربي قائماً
على هذا الوجه من الحياة ، لا يتحول عنه أبداً ، في صحوه أو سكره ، في
يقظته أو نومه .. حتى في مقام الشعر الذي يحتاج له مشاعر الشاعر ، فتدسس
على مدركاته ، وتسوق إليه كثيراً من الرؤى والخيالات - في هذا المقام لم
يأخذ الشعر بالقدر المقذور له من الخيال الذي هو لازمة من لوازمه ، وركن
وطيد من أركانه عند الأمم الأخرى .. إن الشعر العربي كما رأينا في تلك
الأمثلة القليلة التي سقناها - كان يلبس ثوب الحقيقة والواقع ، غير ملون
بأي لون من أصباغ الحياة ، وقد أشرنا من قبل إلى أن جمال الحقيقة وجلالها
قد ألبسها حلة رائعة معجبة من الحسن والبهاء ، فترقرق على محياها لثق الصدق
ووضاءته .. ونود أن نذكر هنا أن الأدب العربي - وخاصة الشعر - قد اعتمد
اعتماداً قوياً على الصور البيانية ، وخاصة مرايا التشبيه التي تنعكس عليها
الحقيقة ، فتبدو مكثرة ، يتخيلها الرأي ذات وجوه وهي وجه واحد ،
ويحسبها أكثر من شيء وهي شيء واحد ! .. ولا نحسب أن هذا الإسراف
في استجلاب صور التشبيه لجلاء الحقائق إلا تمويضا لما كان يمكن أن يقوم
به الخيال في هذا المقام .. ونحسب أن هذا التعليل هو أقرب وأنسب ما يعلل
به لهذه الظاهرة - ظاهرة الاستكثار من صور التشبيه - في الشعر العربي .

فالمعلقات وهي الصورة المكتملة للشعر الجاهلي معرض زاخر بصور
التشبيه وألوانه .. حيث لا يكاد يخلو بيت من صورة تشبيهية أو أكثر .

ولا نريد هنا أن نستعرض المعلقة ، ونقيم الشواهد من كل معلقة
منها .. فذلك من شأنه أن يتحيف الخيز المقذور لهذا البحث : « القصة في

القرآن . وحسبنا أن تلقى نظرة عابرة على إحدى المعلقة ، ولكن
معلقة امرئ القيس مثلاً .

ففي هذه المعلقة التي بلغت عدة أبياتها نحو اثنين وثمانين بيتاً ؛ قد
بلغت فيها الأبيات التي تحمل تشبيهاً نحو سبعة وأربعين بيتاً .
فن ذلك قوله :

ترى بحر الأرام في عرصاتها وفيماها كأنه حب فلفل
فهو يشبه بحر الظباء بحب الفلفل - وهذا التشبيه قد أصاب كبد
الحقيقة ، إذ ليس هناك ما يشبه بحر الأرام حجاً ، ولوناً ، غير حب الفلفل ،
وما فيه من تنوء صغيرة ، هي وتلك التنوء التي في بحر الظباء على حد سواء .
وكتوبه :

كأني غداة البين يوم تحملوا لدى ممرات الحى ناقف حنظل
فهو يقول إنه وقف متخفياً وراء شجر السمر ، يرقب محبوبته وهي تنهباً
للرحيل مع قومها ، فجف حلقه لمرارة الفراق كما يجف حلق من ينقف الحنظل
ويتنقبه ، ليستخرج ما فيه من حب . . .

ووراء هذه الصورة صورة أخرى تستشف منها ، وهي أن الحنظل إذ
يكظم الأنفاس بمرارته ، فإنه يسيل الدمع أيضاً . . . وإذن فلكي
تسكتل الصورة التشبيهية ينبغي أن تنظر في المشبه إزاء المشبه به ، فترى
امرأ القيس وقد انهملت عيناه بالدموع ، من غير تشنج أو نجيب . . . إنه
بكاء مرصامت !!

ومن التشبيهات الجميلة الرائعة التي وردت في هذه المعلقة تلك الأبيات
التي وصف فيها الشاعر ظاهرة المطر في الصحراء الجديب ، وما يحدثه في الكائنات
هناك : من جماد وحيوان ، وإنسان . . . من حيوية دافقة ، وفرحة مسعدة .

إنها مظاهر رائعة تمتد لها وجوه الحياة كلها في فرحة غامرة ، ونشوة متدفقة ، يقول امرؤ القيس في وصف هذا المشهد :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلعم اليدين في حبي مسكلك (١)
فعدت له وصحبتى بين ضارج وبين العذيب بعد ما متأمل (٢)
فأضحى يسح المساء حول كتيبة
يكب على الأذقان دوح الكنهبيل (٣)
ومر على القنان من نفيانه فأزل منه العضم من كل منزل
وتياء لم يترك بها جذع نخلة ولا أطها إلا مشيداً بجندل
كأن ثبيراً في عرايين وبله كبير أناس في مجاد مزمل (٤)
كأن ذرأ رأس الحجير غدوة من السيل والغناء فلكة مغزل
وألقي بصحراء الغبيط بماعه زول العمانى ذى العياب المحمل
كأن مكاكى الجواء غدبة صبحن سلافاً من رحيق مقلقل
كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنايش عنصل

وعلى ما فى الأبيات من كلمات غريبة لبعدها باغة العرب الجاهلين ، فإن ما يتسرب من خلال هذه الكلمات من مشاعر وأحاسيس ، وما ينبض فى كيانها من أنغام وألحان ليجهاننا بمشهد من هذا المنظر العجيب الرائع ، كأنما تعيد الطبيعة عرضه من جديد !

هذا ، وليس الشعر وحده هو الذى حمل « جرثومة » القصة العربية ، واشتمل على خمازها ، بل كان هناك إلى جاب الشعر « الأمثال » التى

(١) الحى : السحاب المترام .
(٢) ضارج والعذيب : موضعان .
(٣) دوح الكنهبيل : الشجر العظيم .
(٤) ثبير : جبل .

يقوم وراء ، أو أمام كل مثل منها قصة واقعية أو خرافية ، وإنه ليس ثمة شك في أن الأمثال العربية هي أبرز وجه يمكن أن نرى عليه ملامح القصة العربية ، حيث يضم المثل في كلمات قليلة ، قصة كاملة ، بأشخاصها وأحداثها ، فإذا ذكر المثل استدعى ذكره حضور القصة كلها ، التي كان المثل المضروب عنوانا عليها . . كما كان إلى جانب هذا أيضا ما يدور على ألسنة الناس في أسفارهم من أحاديث تتخللها أو تغلب عليها النوادر والأخبار المثيرة عن الحروب وما يقع فيها ، والأسفار وما يطلع عنى الناس منها . . كل هذا وأشباهه كان يلبس لباس القصة ، ويتعجل ميلادها ، ثم لاتزال بها الأيام تغذيها وتنميها حتى تكون ملحمة شعبية ، كقصة سيف ذي يزن ، وقصة عنبرة وأبي زيد الهلالي ، وغيرها . . فهذه القصص وإن تكن الحياة الجديدة التي عاشتها الأمة العربية بعد الإسلام قد أنضجتها وبلغت بها مبلغ القصص إلا أن أصولها الأولى عربية محض ، تكن فيها خمار القصة ، وموحياتها التي تستجيب للخيال ، وتنطلق معه في كل اتجاه .

بعد هذا نستطيع أن نقول إن القصص القرآني الذي سنلتقى به — بعد قليل — لا بد أن يكون على نحت هذا القصص العربي الذي عرفه العرب في جاهليتهم ، والذي هو في طبيعته صور منتزعة من الواقع ، بعيدة عن الخيال ، مقتصدة في التحويل والمبالغة إلى أبعد حدود الاقتصاد الكارأينا في هاتين الصورتين ، اللتين صورهما كل من عنبرة وعمرو بن كلثوم في معلقتهما ، وكارأينا في المثلين اللذين عرضنا قصتهما آنفا . .

والقصص القرآني — من قبل أن نلقاه — قصص واقعي ، مصفى من كل شائبة من شائبات الخيال . . فكان مجيئه على تلك الصورة — ولاسبيل إلى مجيئه على غيرها — كان مجيئه على تلك الصورة — ملاءمة للبيئة التي نزل فيها ، إذ جاء مسامتا لما اعتادته الأمة العربية في حياتها من تسجيل الأحداث ، وتصوير الوقائع في هذا اللون الملزم للواقع ، الواقف عند

حدوده . . ثم كان ملائماً أيضاً للحياة كلها في أزمنتها وأمكنتها ، إذ كانت
موارده كلها من عيون الحقيقة ، ومن ينابيعها الصافية التي لا تتغير على الزمن ،
ولا تنزل عن مكانها من العقول على اختلاف منازلها وتفاوت حظوظها
من العلم والمعرفة .

وذلك ما ستره واضحا في لقائنا مع القصص القرآني ، الذي قد آن
لنا الآن أن نسعى إليه ، وأن نهبأ لاستقباله .

الباب الأول

القصة ومفهومها في القرآن

الحدث التاريخي والنص:

القصص القرآني كله عرض لأحداث تاريخية مضى بها الزمن . . فهو - والأمر كذلك - وثيقة تاريخية من أوثق ما بين يدي التاريخ من وثائق ، فيما جاء فيه من أشخاص وأحداث ، وما يتصل بالأشخاص والأحداث من أمكنة وأزمنة . . ونحن في دراستنا هنا للقصة القرآنية لانقف كثيراً عند هذه الحقيقة - أعني واقعية القصص القرآني . . من حيث أنها ذات قيمة كبيرة في الدراسات التاريخية ، وإنما الذي يعنينا منها أولاً وبالذات ذلك الأثر الذي لها في الجو الفنى للقصة ، بمعنى أن القصة الأدبية في القديم وفي الحديث لم تقف عند الحقيقة التاريخية وحدها ، بل كانت تعتمد على كثير أو قليل من عنصر الخيال ، الذي من شأنه أن يلون الأحداث بألوان غير ألوانها ، وأن يبدل ويغير في صورها وأشكالها ، وذلك لكي تبدو الأحداث مختلفة في جوهرها عما ألف الناس أن يروها عليه ، وهذا هو - في الغالب - اللون الذي تعتمد عليه القصة في الإثارة والتشويق . . فهل إذا اعتمدت القصة اعتماداً كلياً على الحقيقة المطلقة - كما هو الشأن في القصص القرآني - يمكن أن تكون قصة بالمعنى المفهوم للقصة ؟ وهل يمكن أن تماسك أحداثها ، وأن يتلاحم نسجها من غير أن يتخلل نسيجها قليل أو كثير من خيوط الخيال ؟ وهل تكون القصة المنسوجة من خيوط الحقيقة والواقع ، قادرة في صورتها تلك على أن تشوق وتثير ؟ ثم هل هي قادرة بعد هذا على أن تمتلك الشعوب ، وتستولى على الوجدان ، وتقود إلى ما تشير إليه من منازع وغايات ؟ وهذه الأسئلة ليس هنا جوابها ، حيث أن لها مكاناً خاصاً في هذا

البحث . . ولكن الذي نريد أن نقرره الآن هو أن القصة القرآنية بنيت بناء محكما من لبنات الحقيقة المطلقة ، التي لا يطوف بحماها طائف من خيال ، ولا يطرُقها طارق منه . . ثم هي مع هذا « قصة » حيث سمى القرآن كل ماجاء على هذا النحو قَصَصًا ، فقال تعالى مخاطباً النبي الكريم : « نحن نقص عليك أحسن القصص » . . وقال جل وعلا « إن هذا لهو القصص الحق » ! هكذا أطلق القرآن أعظم القصص على ما حدث به من أخبار القرون الأولى : في مجال الرسالات السماوية ، وما كان يقع في محيطها من صراع بين قوى الحق والضلال ، وبين موا كسب النور وجحافل الظلام .

الشخصية والحادثة :

يقوم العمل القصصي على محورين : إما الشخصية ، وإما الحدث . . بمعنى أن تكون الشخصية هي التلك الذي تدور حوله الأحداث ، أو أن تكون الأحداث هي المركز الذي تدور في دائرته الشخصيات ! وقد تتوازن في العمل القصصي الشخصية والحدث ، فيتبادلان نقطة الارتكاز والتجمع ، مرة بعد مرة . . !

ويلاحظ في القصص التاريخي غلبة الشخصية على الحدث . . فيكون الشخص هو محور الحركة في القصة ، وهو متعلق بالأحداث الجارية فيها . . ويصدق هذا أيضاً على القصص المتخيل ، إذ كان الناس دائماً يحبون أن يروا أنفسهم في غيرهم ، وأن يشهدوا الإنسان وكيف يواجه الأحداث التي يواجهونها ، وكيف يكون موقفه حيالها . . ذلك أن الناس لا يعينهم الحدث من حيث هو ، وإنما يعينهم إذا كان مما يقع في حياتهم ، ويتصل بوجودهم ، إذ هو لا يقوم في هذا الوضع إلا بإنسان أو في إنسان .

ومن هنا كان أبطال القصص التاريخي أو الخيالي - أشخاصا لا أحداثا ، وقل أن يكون بطل القصة ظاهرة من ظاهرات الطبيعة ، أو كائنا من

الكائنات غير الإنسان .. فإن كان شيئاً من ذلك كان منظوراً إليه دائماً من خلال الإنسان ، مؤثراً أو متأثراً بهذه الظاهرة أو هذا الكائن حتى القصص الحيوانى هو حيوانات تنطق بلسان إنسان، أو أناس تلبس جلود حيوانات !

وفي القصص القرآنى نرى تدييراً عجيباً معجزاً ، فى توزيع المشاهد القصصية توزيعاً محكماً متوازناً ، وبين الحدث والشخصية .. فلا نجد موقفاً من المواقف تستأثر به الشخصية وحدها ، أو الحادثة وحدها .. وإنما تلتقى الشخصية الحادثة ، أو الحادثة مع الشخصية فيتخلق من اجتماعهما مضمون ، هو الذى يصبح بطل الموقف ، فتكون شخصيته أبرز شخوص القصة ، ويسكون صوته أندى الأصوات فيها ، وأقواها سلطاناً على المشاهدين أو المستمعين !

فالأشخاص فى القصص القرآنى - أياً كانوا - ليسوا مقصودين لذاتهم من حيث هم أشخاص تاريخيون يراد إبراز معالمهم ، وكشف أحوالهم ، والتمجيد أو التنديد بأعمالهم .. وإنما يعرض القرآن ما يعرض من شخصيات كمنادج بشرية فى مجال الحياة الخيرة أو الشريرة ، وفى صراعها مع الخير والشر ، وفى تجاوبها أو تعاندها مع الأخيار والأشرار ..

إن الشخصية فى القصة القرآنية ، إنما ينظر إليها بهذا الاعتبار الذى تؤدى فيه دورها كشاهد من شواهد الإنسانية ، فى قوتها أو ضعفها ، وفى استقامتها أو انحرافها ، وفى هداها أو ضلالها ، وفى رشدتها أو غيها ، وفى حكمتها أو سفاهتها ... إلى غير ذلك مما تندرج تحته عوالم الإنسانية ، وتتشعب فيه مذاهب سعيها ومسلكها فى مضطرب الحياة !

وكذلك الشأن فى الأحداث التى يعرضها القرآن فى قصصه .. إنها ليست إلا محاك اختبار تظهر فيها معادن الرجال ، وتختبر بها مواطن القوة والضعف فيهم ، ومنازع الإحسان والسوء منهم .. !

لماذا التكرار في النص القرآني ؟

من أجل هذا ، كان ذلك الذي نشهده في القصص القرآني ، من عرض الشخصية في معارض كثيرة ، حيث تستدعيها الأحداث والمواقف . . فنجد كثيراً من الشخصيات تأخذ مواقف متعددة في القرآن الكريم ، وذلك في أزمنة متباعدة ، في عرض القرآن لها ، حسب نزوله . . ولو أن الشخصية كانت مقصودة قصداً أصلياً لذكرت أحداثها ومواقفها في معرض واحد . . فكنا نجد قصة موسى مثلاً في سورة واحدة ، وكذلك قصة إبراهيم وعيسى ونوح وغيرهم . . ولكن الذي كان هو أننا نرى الشخصية مع حدث من الأحداث تتفاعل معه ، وتمضى به إلى غايتها في موقفه منها أو موقفها منه . . . ثم ينتهي المشهد ، ويطوى الموقف . حتى إذا مضى زمن — طال أو قصر — طالعنا وجه الشخصية من جديد مع حدث آخر ، يأخذ دوره معه ، ثم يمضى . . وهكذا .

وعلى هذا ، فإن التكرار الذي يقال عنه في القصص القرآني ليس تكراراً لحدث ، ولا إعادة لواقعة بصورتها التي عرضت بها أولاً ، بل إن أكثر القصص القرآني تتكرر فيه الشخصية ، ولا تتكرر فيه الحادثة . وإنما الذي دعا إلى القول بالتكرار في القصص القرآني ، هو ظهور الشخصية في مواقف متعددة ، فوقع للنظرة المجردة من التعمق والتبصر أن ذلك من التكرار ، بل والتكرار الممل ، الذي لا تدعو إليه داعية ، من حال أو مقام : — هكذا يقول الذين أعماهم الجهل من أن يروا الحقيقة الواضحة من هذا التكرار .

إن الشخصية في القصص القرآني ليست مقصودة لذاتها ، ولا كان ذكر الأشخاص منظوراً إليه نظرة القصص التاريخي إلى شخصياته ، وعرضهم في معارض البطولة . . في أي مجال من مجالاتها .

وإنما الأحداث والوقائع . . أولاً ، ثم الشخصيات التي تلبست بها أو

لابستها الأحداث .. ثانياً .. لأن مناط العبرة والعظة إنما هو في الحدث ، وفي موقف الناس منه ، وتلقيهم له ، من بين محسن ومسيء ، ومقبل ومعرض ، ومستقيم ومنحرف .. ومن خلال هذه المواقف التي يقفها المحسنون أو المسيئون من الأحداث تنكشف وجوه العبرة والعظة منها .. وهذا ما جاء القصص القرآني من أجله .

لا تكرار في القصص القرآني :

الحادثة - كما قلنا - هي مركز الدائرة في القصص القرآني ، والشخصية أو الشخصيات هي التي تحرك هذا المركز غالباً ، لتملأ به الفراغات كلها من المركز إلى المحيط .

والذي يتتبع القصص القرآني يجد أن أحداثه كلها تقريباً تدور في محيط الدعوة إلى الله ، وإلى تحرير العقيدة وتصفيتها من العبودية لغدير الله ، وتوجيهها إلى عبادة الإله الواحد ، الخالق ، رب العالمين .. ولذلك كانت دعوات الأنبياء هي الشخصية الغالبة في القصص القرآني ، بحيث ساغ أن يسمى القصص باسم صاحب الدعوة فيقال : قصة يوسف ، وقصة موسى ، وقصة يونس ، وقصة هود ، ونوح ، وصالح ، وآدم .. وهكذا .. والملاحظ الذي نود أن نشير إليه هنا مرة أخرى ، هو أنه لو كانت الشخصية - لا الحادثة - هي مناط القصة ودافعها الأصلي لجاءت قصة كل نبي ، أو كل شخصية غير نبي في موضع واحد من القرآن ، في سورة أو بعض سورة . ولما كان هناك داعية لتقطيع حياة الشخصية إلى تلك الأجزاء الموزعة في مواضع متباعدة في القرآن .. ولكن إذا نحن اعتبرنا الحادثة - لا الشخصية - هي محور القصة - لم نجد هذا التمزق في الشخصيات ، وإنما نجد في كل حادثة أو موقف قصة كاملة ، وإن كان هذا لا يمنع من أن نلتقى بالشخصية الواحدة في أكثر من حدث ، وفي أكثر من موقف ، مع

تباعدا الزمان والمكان . كما أن هذا لا يمنع من أن تقترن الأحداث المتماثلة ويجتمع بعضها إلى بعض في مساق واحد ، وفي عرض متصل ، في سورة أو بعض سورة !

وهذا ما نجده فعلا في القصص القرآني !

في أكثر من سورة من القرآن الكريم جمعت أحداث كثيرة لعدد من الأنبياء ، حيث تتماثل الأحداث ، وتتشاكل الوقائع ، وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة^(١) ، وفي هذا الجمع بين دعوات الرسل ، وفي تشابه أقوامهم في التكفر والعناد ما يعطى دلالة واضحة مؤكدة لما في الإنسان من عناد وكنود ، وأن الإنسان هو الإنسان حيث اختلف زمانه ، ومكانه .

مفهوم القصة في القرآن :

وهنا يلقانا هذا السؤال : إذا كان القرآن قد سمي الأحداث والوقائع قصصاً ، فهل هذه التسمية تتلاقى مع المفهوم الاصطلاحي ، ومع المحتوى الفني للقصة ، كما تعرف في الآداب الإنسانية قديماً وحديثاً ؟

ونحن حين ننظر في المعنى اللغوي للقصة نرى أن أصل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذي قام عليه أصل التسمية للقصص القرآني . . فالقصة مشتقة من القص وهو تتبع الأثر ، قال تعالى . . « وقالت لأخته قصيه »^(٢) أي : تتبعي آثاره . . على ما انتهى إليه أمره .

ومن هذا قولهم : قص الأثر أي نظر فيه ، واقتنى آثاره وشراهدة . . يقال قصصت أثره واقتصصته وتقصصته ، وخرجت في أثر فلان قصصاً ،

(١) انظر في هذا مثلاً سورة يونس ، وهود ، والشعراء ، والنمل ، والقصص . .

(٢) سورة القصص : ١١ .

وفي القرآن . « فارتدا على آثارها قصصا » .. وقص عليه الرؤيا والحديث .
وفي القرآن الكريم « لا تقصص رؤياك على إخوتك » .

فالقص للآثر أشبه بما يعرف في عصرنا هذا بتصوير « البصمات »
أو رفع الآثار وتصويرها ، ليستدل منها على ما وراءها من أحداث مضت ،
وليمسك بما يقدر على إمساكه منها .

والقصة في القرآن إنما تتبع أحداثا ماضية واقعة ، وتعرض منها ما ترى
عرضه . ومن هنا كانت تسمية الأخبار التي جاء بها القرآن قصصا ، مما يدخل
في المعنى العام لكلمة خبر أو نبأ .. وقد استعمل القرآن الكريم الخبر والنبأ
. بمعنى التحدث عن الماضي ، وإن كان قد فرق بينهما في المجال الذي استعملا
فيه ، جريا على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام وإعجاز .. فاستعمل النبأ
والأنباء في الإخبار عن الأحداث البعيدة ، زمانا أو مكانا ، ولفها في
أطوائه .. على حين أنه استعمل الخبر والأخبار في السكشاف عن الوقائع
القريبة العهد بالوقوع ، أو التي لا تزال مشاهدتها قائمة ماثلة للعيان ..

ففي النبأ والأنباء يقول الله تعالى ، في أصحاب الكهف : « نحن نقص
عليك نبأهم بالحق ^(١) » .. ويقول سبحانه في شأن الأمم الماضية وما وقع
فيها من مثلات . « ذلك من أنباء القرى .. نقضه عليك .. منها قائم
وحصيد ^(٢) » .. ويقول سبحانه فيما يقص على نبيه من قصص الأولين :
« تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من
قبل هذا ^(٣) » .. وفي الخبر والأخبار يقول سبحانه مخاطبا المؤمنين
« ولنبلو نسكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ^(٤) ..

(١) الكهف : ١٣

(٢) هود : ١٠٠

(٣) هود : ٤٩

(٤) عم : ٣١

ويقول جل شأنه فيما يكون من أحداث يوم القيامة : « يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ^(١) .. » والتحديث بالأخبار إنما يكون في هذا الوقت الذي تقوم فيه الساعة .

وانظر في قوله تعالى : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » نجد أن القصاص القرآني إنما هو من قبيل الأنباء .. أى الأخبار التي بعد الزمن بها ، واندثرت أو كادت تندثر ، ولهذا سماها القرآن : من أنباء الغيب .

وحين ننظر في القصاص القرآني نجد أنه يجيء : ذته كلها من الماضي البعيد ، دون أن يكون فيه شيء من واقع الحال أو متوقعات المستقبل .

قصص الأحداث الجارية والمستقبلية :

ولعل سائلا يسأل : لماذا لا يكون من تدبير القرآن أن يجيء بقصاص يصور الأحداث الواقعة الدائرة في محيط الدعوة الإسلامية ، أو بأحداث مستقبلية ، تنبأ لسير هذه الدعوة عبر المستقبل ، كما نرى ذلك في كثير من القصص الأدبية التي يكشف بها أصحابها عن رؤى جديدة في ضباب الأحداث المطلقة على الحياة ، أو في المستقبل الذي ينتظر الحياة ؟ .. لماذا لم يكن من تدبير القصاص القرآني مثل هذا القصاص الأدبي ؟

والجواب على هذا من وجوه :

أولاً : قد جاء القرآن الكريم بصور كثيرة من أحداث الوقائع الدائرة في محيط الدعوة الإسلامية في أوقات نزوله ، فكشف ضبابها ، وأبان عن وجه الحق فيها ، كما نرى ذلك في حديث الإفك ، وفي وقعة بدر وأحد ، وحنين ، وفي بيعة الرضوان ، وصلاح الحديبية ، وغير ذلك كثير مما جاء به القرآن في

أحوال وشؤون ملبسة لنزوله . كذلك جاء القرآن مخبراً عن أحداث
ووقائع مستقبلية . . فأخبر سبحانه وتعالى عن الصراع الذي كان دأراً بين
الفرس والروم ، وأن معركة ستدور بعد بضع سنين ، وسيكتب النصر فيها
للروم على الفرس : « ألم ، غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم
سيغلبون في بضع سنين ^(١) . . » كما أخبر سبحانه عن فتح مكة ودخول
الناس في دين الله أفواجا في قوله : « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس
يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ^(٢) » .
كما أخبر عن هزيمة المشركين يوم بدر بقوله سبحانه : « سيهزم الجمع ويولون
الدبر » . ^(٣) وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : كنت أقرأ
هذه الآية وأسأل: أى جمع هذا الذى سيهزم ؟ حتى كان يوم بدر ، ورسول
الله صلى الله عليه وسلم يقرأ : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » . فرأيت الجمع
المهزوم !

فهذه أحداث تحدث عنها القرآن ، وكشف عن وجهها من قبل أن
تقع ، فجاءت على الوجه الذى صورها به ، دون أن تقدم لحظة واحدة من ملاحظتها ،
وكان الذين استمعوا إلى تلك الآيات وأمنالها حين نزولها ثم شاهدوا أحداثها
حين وقعت — كانوا كأتانما ينظرون إلى شخص ماثلة فى جانب ، وإلى
صورها الواقعة فى المرآة فى جانب آخر !

وهذه الأحداث لم يسمها القرآن قصصاً ، لأن القصص — كما قلنا — تتبع
للآثار الماضية ، والتفات إلى وراء ، لا نظر إلى قدام ؛

ثانياً : ليس القصص مجرد أحداث تروى ، وإنما هو أحداث تتفاعل
وتتحرك ، وتلد عظمات وعبراً . . وليس كذلك الشأن فى الأحداث القائمة

(١) سورة الروم : ١ - ٣

(٢) سورة القمر : ٤٥

(٣) سورة النصر

أو المستقبلية التي يكشف القرآن عن وجهها ، إذ أن أهم ما فيها هو هذا الكشف ، الذي يتم بمجرد زول الآية أو الآيات المتعلقة بها هذه الأحداث .
ثالثاً : الاشتقاق اللغوي للقصة أو القصص كما رأينا ، هو كشف عن آثار ، وتنقيب عن أحداث ، نسيها الناس أو غفلوا عنها ، وغاية ما يراد بهذا الكشف هو إعادة عرضها من جديد ، لتذكير الناس بها ، وإلزامهم إليها ، ليكون لهم منها عبرة وموعظة . ، هكذا كان القصص القرآني ، ولهذا جاء ...
قال تعالى : لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (١) .

رابعاً : في القصص الأدبي الذي يعالج الحياة الواقعية أو المتوقعة يختلط فيه الخيال بالحقيقة ، وتكثر فيه الشحطات والرؤى والأحلام ، ولا يجد الناس غرابة في هذا ، فهم إنما يأخذونه على هذا الوجه ، وينظرون فيه على تلك الصفة ... وليس كذلك ما كان من القرآن من حديث عن الواقع أو المستقبل ، إنه ليس رجماً بالغيب ، ولا خيالا من الخيالات ، ولا حلماً من الأحلام ، ولكنه الصدق المصفي ، والحق المبين .. ومن هنا لم يكن لهذه الأخبار التي جاء بها القرآن مدخل إلى القصص ، الذي لا بد فيه من عناصر الغرابة أو المفارقة أو الاستحالة ، التي تثير الدهش والاستغراب . والتي يلعب فيها الخيال في عقول الناس دوراً كبيراً .. فصان الله سبحانه أخبار الغيب التي نطق بها القرآن من أن تقع في نفوس الناس هذا الموقع ، وأن يتدسس إلى مشاعرهم منها هذا الإحساس .

القصة والحكاية .

ومع هذا فإنه يلقانا سؤال آخر ، هو :

لماذا لم يطلق على القصص القرآني اسم الحكاية بدلاً من القصص ؟ -

والحكاية كما نرى هي أقرب شيء إلى موضوع هذا القصص ، إذ كان إعادة للماضي ، وتشخيصاً ، ومحاكاة له ، لا سيما أن لفظ «القصص» يوحي بأن جانباً من الخيال قد اختلط به ، على خلاف الحكاية التي تدل على محاكاة مماثلة للحدث أو الأحداث ، دون تزيد عليها .

والجواب على هذا - والله أعلم - هو أن عرض القرآن للأحداث الماضية ليس محاكاة لها ، ولا تمثيلاً لشخصها ومشاهدتها ، وإنما هو بعث لها ، وإعادة لوجودها ، في النظم المعجز الذي ينقل إلينا الماضي أو ينقلنا إليه ، فنطالع هناك وجوه الحياة ، في زمانها ومكانها ، حتى لكأننا أبناء هذه القطعة أو القطع من الزمن وأهله ، كما سرى ذلك عند النظر في بعض الصور من هذا القصص . . . فكان لفظ القصص ، أو القص أنسب لفظ يطلق على تلك الأنباء التي عرضها القرآن ، إذ أن ذلك أشبه بقص أثر الشيء وتنبهه ، ثم الوقوف عليه بذاته ، لا على صورته أو ما يشبه صورته .

ونخلص من هذا كله إلى القول بأن القصص القرآني هو أنباء وأحداث تاريخية ، لم تتلبس بشيء من الخيال ، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع ، ومع هذا فقد اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من قصص ، من الإثارة والتشويق مع قيامه على الحقائق المطلقة ، الأمر الذي لا يصلح عليه القصص الأدبي بحال أبداً .

اعتراضات وتمويهات :

وهناك اعتراضات كثيرة يلقيها بعض الدارسين والباحثين في وجه القول بأن القصص القرآني تسجيل لأحداث واقعة ، وأنه جاء بهذه الأحداث كما وقعت ، دون أن يدخل عليها شيء من التحوير أو التبديل ، أو الزيادة والحذف ، بحيث يغير من وجوها ، أو يخالف بين واقعها وما يقصه منها . وتتخلص هذه الاعتراضات في .

أولاً : استحالة نقل أى حدث من الأحداث مع جميع ملامحاته ، فهناك كثير من الأمور التى تصعب وقوع الحادثة ، ثم لا يكون لها ذكر ، إذ لا حاجة إليها فى عرض المحتوى للشخص للحادثة ، وإبراز الملامح ذات الدلالة القوية عليها . . ولو أن نقل الحادثة كان يعنى الإمساك بكل جزئية من جزئياتها لكان ذلك — على استحالاته — ضرباً ، بل ضرباً من العتب الذى يدعو إلى الملل والسآمة ، ويذهب بكل ما فى النفس من طاقات الصبر على احتمال هذا اللغو والسخف .

تصور — مثلاً — حادثة عابرة من الحوادث الكثيرة التى تقع وتكرر كل يوم ، بل كل ساعة ، على مرأى ومشهد من الناس ، ولتسكن سيارة ، صدمت شخصاً . طفلاً أو رجلاً أو امرأة ، فى أحد شوارع القاهرة ، وفى وقت من أوقات ازدحامها . . وانظر . . أنتستطيع قوة بشرية أن ترصد مجريات هذه الحادثة وأن تمسك بكل قريب وبعيد منها ؟ .. السيارة .. لونها شكلها ، رقمها . . سائقها هيئته . . طوله . . عمره . . ثم الشخص الذى صدم أوصافه الجسدية . . وكيف صدم ، وأين كانت الصدمة ، ومدى آثارها . . ثم اجتماع الناس ، والتفافهم حول الحادثة ، ثم بعض ما كان من تعليقات عليها . . ثم عملية رجال الشرطة والإسعاف . . ثم انجلاء الموقف . وعودة الحياة إلى سيرتها فى هذا المكان . . ذلك أقصى ما يمكن أن تمسك به إنسان من شهود هذه الحادثة . . من صورها وما دار فى محيطها . .

وإن ذلك لتقليل إلى كثير جداً مما وقع هناك ، ولم يلتفت إليه أحد ، ولم يكن فى حساب أحد . .

فكم من الناس شهدوا هذا الحادث مثلاً ؟ وكم الذكور وكم الإناث منهم وكم الصغار وكم الكبار ؟ وما أسماؤهم ! وماذا يلبس كل واحد ؟ . . ثم ما شأن كل إنسان من شهود هذه الحادثة ؟ . إلى أين كانت وجهته ؟ وماذا تركت الحادثة فى نفسه ؟ وهل انطلق بعدها إلى غايته ، أم انصرف إلى

وجهة أخرى؟ .. إن لكل إنسان من هؤلاء قصة طويلة .. لاتكاد تنتهى .

وهل ينتهى الأمر عند هذا ؟ كلا ، فإن هناك مئات بل ألوف من الأمور الصغيرة أو الكبيرة التى تتصل بهذه الحادثة . . يمكن أن يجتمع منها كتاب ضخم لو تتبعها متتبع ثم يبقى بعد ذلك كثير من مجريات الأمور قد أفلت منه ، ولم يقدر على الإمساك به ، ولو استعان بمئات من الأشخاص والأدوات المسجلة والمصورة .

وهذا يكشف لنا عن أمرين .

أولهما : استحالة نقل الحديث مهما صغر ، نقلا كاملا ، بملابساته جميعها ، بما حواه زمانه ، واشتمل عليه مكانه .

وثانيهما : أن نقل جميع الملابس التى تتلبس بالحدث - على فرض إمكانها - لا داعية إليها فى التعرف على وجه الحادثة ، والاستدلال على مشخصاتها ، والوقوف على ما يحتاج إليه منها . إذ يكفي من هذه الشخصيات ما يصور الملامح الواضحة للحدث ، ويشخصه .

ويدهى أن القصص القرآنى إذ نقل صوراً من أحداث الماضى لم ينقل كل ما تلبس بها من قريب وبعيد ، وإنما أخذ منها ما كان ذا دلالة واضحة عليها ، وأهمل ما لاتدعو الحاجة إليه . . فى تصويرها وتشخيصها .

وإذ كان ذلك كذلك فى القصص القرآنى . . فإنه يعنى أن هذا القصص لم يجسده بالواقع كله ، بل أخذ بعضاً وأعرض عن بعض . ويعنى أيضاً أن هناك تفاوتاً واختلافاً كثيراً أو قليلاً بين هذا القصص وبين الواقع . . وهذا يعنى - مرة ثالثة - أن القصص القرآنى مغاير للواقع على نحو ما . . وهذا يعنى - مرة رابعة - أن هذا القصص قد تصرف فى الأحداث كما يتصرف الكاتب القصصى فى الأحداث الواقعة ، حين يؤلف منها قصة من القصص ، أو رواية

من الروايات وهذا يعني أخيراً أن أنباء القصص القرآني ليست الواقع كما وقع ، إذ أنها ليست الصدق كل الصدق ١١ .

هذا مدخل من المداخل التي رآها بعض الباحثين آذنة لهم بالقول بأن للقصص القرآني شأنه شأن القصص الأدبي . . لم يقف عند حدود الأحداث الواقعة ، بل تصرف فيها على الوجه الذي يقيم منها قصصاً فنياً ، الأمر الذي جعله يغير من وجوه الواقع ، ويخرج به على غير مألوف الحياة ، حتى نجد النفس إقبالا عليه . لما فيه من جدة وغرابة ، ولما في هذه الجدة والغرابة من إثارة ١ .

وثانياً : يقدم أصحاب هذا الرأي أدلة على قولهم هذا من القرآن الكريم نفسه . . حيث أن القرآن قد جاء بصور متعددة مختلفة للحادثة الواحدة ، وتحدث عنها حين عرضها بأساليب مختلفة . تتغير بها صور الحوادث وألوانها .
فتلا :

في قصة موسى :

يذكر القرآن الكريم ابتداء رسالة موسى ، وتكليم الله سبحانه وتعالى له وذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم .

في سورة طه ، يقول الله تعالى : (وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنستُ ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدىً ، فلما آتاها نوردياً موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إني أنا بالواد المقدس طوى . . وأنا اخترتك . فاستمع لما يوحى : إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ، وأقم الصلاة لذكري . . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى . . وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصا أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمي ، ولي فيها مآرب أخرى . .

قال : ألقِها يا موسى ، فألقاها فإذا هي حية تسمى ، قال خذها ولا تخف نسمةيها سيرتها الأولى ، واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آيةً أخرى ، لنسريك من آياتنا الكبرى ، (١) .

وفي سورة النمل تجيء القصة هكذا : « وإنيك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم . . إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سأتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ، فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين . . يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم . . وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب . . يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ، إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء ، فإني غفور رحيم وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين ، » (٢) .

وفي سورة القصص تجيء هذه الأحداث .. يقول الله تعالى : « فلما قضى موسى الأجل ، وسار بأهله ، آنس من جانب الطور ناراً ، قال لأهله ، امسكثوا إني آنست ناراً لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ، وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ، ولم يعقب ، يا موسى أقبل ولا تخف إنيك من الآمنين ، اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء .. واضمم إليك جناحك من الرهب فذاتك برهانان من ربك إلى فرعون وملائته ، إنهم كانوا قوماً فاسقين ، » (٣) .

هذا ، ويلاحظ أن السور الثلاث التي وردت فيها هذه القصة هي سور

(١) سورة طه : الآية ٩ - ٢٣

(٢) سورة النمل : الآية ٦ و١٠ بعدها .

(٣) سورة القصص : ٢٩ - ٣٢

« مكية » .. ومعنى هذا أن الداعي الذي جاءت له هذه القصة هو هو ، لم يتغير ، حيث كانت الدعوة الإسلامية في مواجهة قريش ، ولم يجرى بعد الدور الذي واجهت فيه اليهود مواجهة مباشرة بعد الهجرة ! .

وإذن فهذا التكرار ، وهذا الاختلاف في وجوه العرض لم يكن عن مقتضى دواع جديدة دعت إليه ، فيتغير الأسلوب بتغير الموقف ومن يقفون فيه . فمن أى داع إذن كان هذا التكرار ! .

وندع الإجابة على هذا السؤال هنا حيث أن للإجابة عليه مجنا خاصاً في هذا الكتاب ، نتحدث فيه عن التكرار القصصى في القرآن ودواعيه .

أما الآن فإننا نود أن نكشف عن وجوه الاتفاق أو الاختلاف في هذه المواقف التي عرضتها هذه الآيات القرآنية في السور الثلاث ، لهذا الجانب الذي عرضته من قصة موسى عليه السلام ، وذلك لتري وجه هذا التكرار .. وهل كان مجرد التأكيد والتقريب بمرض الوقائع في هذا اللون من التكرار . أم أن ذلك كان لإضافات جديدة تزد على كل عرض منها ، لتكتمل من ذلك كله الصورة التي يزد تقريرها . والتي تمثل في مجموعها الواقع كما وقع !! أم أن ذلك كان عن سهو أو نسيان كما ذكر من قبل !! أم أنه عن قصور وعجز .

وننظر في هذا فنرى أن الحادثة التاريخية تتضمن العناصر الآتية :

١ — موسى في طريق عودته إلى مصر من أرض مدين ، وقد بلغ الطور ، ومعه أهله ، وهناك رأى ناراً موقدة .

٢ — عندئذ طلب إلى أهله أن يتكثوا حيث هم ، وأن يذهب هو إلى حيث رأى النار .

٣ — غايته من هذا الذهاب ، أنه يريد بهذا أن يحصل على شعلة من النار ليقود منها ناراً بصطلى بها هو وأهله .. أو لعله يجد هناك عند موقد النار من يؤنس وحشته في هذه المتاهة الموحشة . .

٤ — وهناك قرب النار سمع موسى نداء الله سبحانه وتعالى يجبره فيه أن هذا الذي رآه ليس ناراً ، وإنما هو نور الحق .. وأن المتكلم هو الله سبحانه .. وأنه — سبحانه — قد اختار موسى ليكون رسوله إلى فرعون وإلى بني إسرائيل ..

٥ — وإذ كلف موسى بهذه الرسالة فقد وضع الله سبحانه وتعالى بين يديه معجزات يحاج بها فرعون ، وأن هذه المعجزات .. هي عصاه التي يلقبها من يده فتقلب حية عظيمة تسمى .. ويده التي يدخلها ، في جيبه (١) ثم يخرجها فإذا هي بيضاء مشرقة وضيئة من غير سوء !

هذه هي أهم عناصر هذه الواقعة التاريخية التي عرضها القرآن الكريم في ثلاثة معارض من النظم القرآني .. في سورة : طه ، والقصص ، والنمل . ولكي يبدو لنا وجه الشبه أو المخالفة بين هذه المعارض .. نجعل بعضها إزاء بعض على هذا النحو :

سورة طه

- ١ — وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً .
- ٢ — فقال لأهله امكثوا .. إني آنست ناراً .
- ٣ — لعلى آتيتكم منها بقبس أو أجد على النار هدى .
- ٤ — فلما أتتها نودى يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى .. إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ، وأقم الصلاة لذكري ...
- ٥ — وما تلك يمينك يا موسى .. قال هي عصاى أتوكأ عليها وأهش

(١) والجيب هو الفتحة التي يلبس منها النوب .

بها على غمى ، ولى فيها مآرب أخرى ، قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى ، قال خذها ولا تخف سنميتها سيرتها الأولى .

٦ — واضم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى .
لتريك من آياتنا الكبرى اذهب إلى فرعون إنه طغى .

سورة النمل

- ١ — وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم .
- ٢ — إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سأتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون .
- ٣ — فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ، يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم .
- ٣ — وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ، ولم يعقب ، يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدى المرسلون ، إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم ، وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع ^(١) آيات إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين .

سورة القصص

- ١ — فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا .
- ٢ — قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعل آتيكم منها بخبر ، أو جذوة من النار لعلكم تصطلون .
- ٣ — فلما آتاها نودي من شاطئ الوادى الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين .

(١) الآيات التسع هي : العصا ، واليد ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والطوفان والدم ، والحجر ، والطمس الذي أصاب آل فرعون في أموالهم .

٤ - وأن ألق عصاك.. فلما رآها تهتز كأنها جان ولىّ مدبراً ولم يعقب..
ياموسى أقبل ولا تخف .. إنك من الأمنين .

٥ - أسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك
جناحك من الهم . فذاتك برهانان من ربك إلى فرعون وملأه إثم
كانوا قوماً فاسقين .

فهذه خمسة مشاهد أو مواقف فى هذه القصة :

وبلاحظ :

أولاً : لم يجر ذكر المشهد الأول وهو رؤية موسى للنار فى سورة النمل
على حين قد جرى ذكره فى السورتين الأخيرين . طه ، والقصص .

وهذا المشهد هو مدخل إلى القصة ، لا يتعلق به غرض أصيل فيها ،
بل هو أشبه بالدقات التقليدية على خشبة المسرح ، التى تسبق رفع الستار
فى الرواية المسرحية . ومع هذا فإن فى كل حال من هذه الأحوال الثلاثة
نمياً خاصاً يهد به للجو الذى تعرض فيه القصة .. فى سورة « طه » كانت
القصة امتداداً لتعداد ما حوى القرآن الذى نزل على النبى الكريم من
آيات ، وعبر وعظات ، منها القصص ، وفيه قصة موسى هذه .. وكذلك
الشأن فى سورة النمل حيث تجبىء القصة منبئة عن حكمة الحكيم العليم .
« وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم .. إذ قال موسى لأهله امكثوا إنى
أنت ناراً .. » .. أما فى سورة القصص فإن هذا المقطع هو امتداد لقصة
موسى كلها متى بدأت من أولها فى هذه السورة ، وشملت قصة حياته من
مولده ، وإلقائه فى اليم ، ونجاته ، ونبوته ، ولقائه فرعون ، وخروجه ببني
إسرائيل من مصر ..

ثانياً : حين يرفع الستار عن أول مشهد من صميم القصة نرى صورة

واحدة للمشهد في المعارض الثلاثة في السور الثلاث كما ترى ، .. ففي السور الثلاث جاءت الآية التي تنصدر هذا المشهد هكذا . « قال لأهله امكثوا إنى آنتن نارا » .. مع تغيير لا يكاد يحس به ، حيث يزيد في إحداهما حرف المعطف « الفاء » : « فقال » .. وفي الأخرى تقدمها الظرف « إذ » .. « إذ قال » وذلك مما يطلبه سياق النظم ولا يستدعيه المعنى الذي جاءت الآية لأدائه .

ثالثاً : وفي الموقف الثالث ، من القصة نجد اختلافاً في مقول القول لموسى .. وإن كان هذا الاختلاف اللفظي لا يغير شيئاً من المعنى ..

ولكن ونحن بصدد البحث في التزام القرآن بحكاية الواقع ، ونقل الأحداث على الصورة التي وقعت - فإن هذا الاختلاف يثير كثيراً من التساؤل .

ففي سورة طه يجيء مقول موسى . « لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » على حين يكون مقوله في سورة القصص « لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » ثم يجيء مقوله في سورة الملأ هكذا . « سأتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » .. فهناك أمران اقتضاها هذا الموقف الذى وقفه موسى من أهله حين رأى ناراً فدعاهم إلى الانتظار حيث هم فى مكانهم لا يبرحونه ، ولا يتحولون عنه بحال .

أما هو فمنطلق إلى حيث رأى النار ليحقق هذين الأمرين .

وأولهما : هو أن يأتى بجذوة من النار .

وثانيهما : أن يجده عند النار من يؤنس وحشهم ، فى هذا المكان

القفر الموحش .

وقد رأينا صوراً للتغير عن هذين الأمرين تختلف في كل آية من الآيات
الثلاث في السور الثلاث .

فتارة يقدم أحد المظلومين على الآخر ، وتارة يؤخر . . « لعل آتيكم
منها بقبس أو أجد على النار هدى » . « سأتيكم بخبر ، أو أتيكم بشهاب
قبس لعلكم تصطلون » « لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار
لعلكم تصطلون » .

ومرة يكون الحديث عن النار المستجلية بأنها جذوة ، ومرة بأنها شهاب
قبس ، ومرة ثالثة بأنها شهاب ، وحسب .

وفي آية يكون أحد المظلومين « خيراً » يلتمس عند النار ، وفي آية
أخرى يكون هذا المطلوب « هدى » يلتمس عند النار أيضاً .

وفي سورتين يصدر المطلوب كله بحرف الترجي « لعل » على حين
يذكر المطلوب في السورة الثالثة غير مصدر بحرف الرجاء هذا .

هذه الوجوه الكثيرة من المغايرة تدعو إلى التساؤل حقاً . . فهو موقف
واحد لاشك فيه ، وهو قول واحد قيل في هذا الموقف ، فكيف يتفق
هذا مع هذه المقولات الثلاث وما بينها من اختلاف ؟

إن هذا الاختلاف لو كان في القرآن لما كان له هذا الشأن الذي نجده
له هنا في القرآن الكريم ، حيث أن للقرآن مقامه من الصدق في نقل الأخبار
والمشاهد والأحداث ، وحيث أن لكل حرف أو حركة فيه وزنها الذي
يرجع وزن السموات والأرض ! وهذه الصور المختلفة من الأداء في الأخبار
عن الواقع تنقلها من غير القرآن ، لأن الممول عليه في نقل الأخبار هو المعنى
وهي بجميع صورها هنا تعبر عن المعنى المقصود ، في جملة ، وإن اختلفت
صور الأداء .

أما القرآن هو الذي يحدث بهذا الحديث ، فهو الصدق المطابق في جميع

صوره وأشكاله . . وكل صورة من صورته هي الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والحق وجه واحد ، لا يدخل عليه شيء مطلقاً من تبديل أو تحوير .

وكيف يكون هذا ، وقد جاء الحق في هذه المعارض الثلاثة على ما بينها من خلاف .

أتريد الجواب ؟

إذن ، فلا تمجل ، ولا تضجر . . وخذ نفسك باليقظة وبالصبر مما ، فإننا بين يدي أسرار محجبة ، وكنوز مصونة في روائع الكلم ، لا تأذن بشيء مما عندها ، إلا لمن يقف بين يديها متلطفاً ، متأنياً ، متخاشعاً !!
ودع ما يذهب إليه بعض المفسرين من أن هذه المقولات الثلاث كانت من موسى في مرقفه مع أهله ، حيث كان ذلك على سبيل التوكيد ، للتسرية عنهم ، والطمأنينة لهم ، وإشاعة الغبطة فيهم ، بعد أن ظهرت لهم أمارات الرجاء في ضوء هذه النار .

فهذا الرأي على وجاهته لا نراه يغطي هذا الموقف ، ويقيم له الدليل المقنع .
والذي نراه ، ونرجو أن يكون مما أرانا الله ، هو :
أولاً : أن مقول موسى لأهله هو قوله : « امكثوا إني آنست ناراً » .
ولهذا جاء في السور الثلاث على صورة واحدة ، لم يقع فيها خلاف ، أو اختلال في حرف واحد . . « امكثوا إني آنست ناراً » . . إذ لم يكن له إلا قول واحد ينطاق منه هذا القول ، وهو أن يثبت أهله في مكانهم ، وألا يأخذوا معه الوجه الذي يريد أن يأخذه ، وهو وجه مجهول لا يدري على وجه التحديد ماذا يطلع عليه منه — وهو ضنين بأهله أن يخوضوا هذه المغامرة معه — فإن كان هناك خير جاءهم به ، وإن كان هناك شر تلقاه دونهم !! ولهذا جاء القول مكرراً ثلاث مرات : « امكثوا إني آنست ناراً »
ليكون ذلك أمراً ملازماً لأهله ألا يخرجوا مكانهم بحال أبداً . .

ثانياً : أن بقية مقول القول لا يمدو أن يكون أحد الصور الثلاث :
« لعل آتاكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » ، أو « سأآتاكم منها بخبر
أو آتاكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » ، أو : « لعل آتاكم منها بخبر أو
جدوة من النار لعلكم تصطلون » ، وليس في مقدورنا أن تقطع بأي منها هو
الذي كان القول الذي أسمعه موسى أهله !

أما المقولان الآخران فهما - في رأينا - بما كان يدور في خلد موسى ،
ويخطر في خاطره ، وهو يحدث أهله بما سيكون من شأنه مع تلك النار
التي رآها . . .

فهو بين بأس ورجاء مما سيجد عند النار . فقد يكون موقد النار كـ
تجار ، أو قطاع طريق ! . . . ولهذا فإنه إن صرح بأنه سيأتي بخبر راجع
نفسه ، فقد غير هذا التقدير . . . ثم عاوده الأمل ، ثم طلع عليها الخوف . .
وهكذا . . . ثم قال : لعل وعسى ! وهو موزع النفس بين الأمرين المتطلع
إليهما : الحصول على قبس من النار ، والعمور على الأيس الذي يبده مخاوف
هذا المكان الخيف ، ويذهب بوحشته . وهو حريص عليهما معاً ، طامع
فيهما جميعاً ، فهو وإن قدم أحدهما لفظاً فإنه قد يكون هو المقدم في خاطره ،
ثم يدفعه صاحبه ، ويتقدم عليه . . . وهكذا .

والنار التي تسمى ورأه سيحصل عليها ليست في تصورهما على حال
واحدة ، لأنه لا يدري ما هو الذي يمكن أن سيحصل عليه منها ، أهو
بعض شرارات من النار ، أو هو شعلة منها .

وهكذا تكون هذه الصور المتكررة هي من منطوق موسى عليه
السلام ، ومن الخواطر المتلبسة بهذا المنطوق أيضا . . .

وهذا التصوير الدقيق لأحوال النفس ، ومسارب الخاطر ، لا يمكن أن
يكون في غير القرآن . . . ولا يمكن أن يحتمله نظم غير نظم القرآن . . .

ثم إنه لا يمكن أن يكون على صورة مقبولة مع هذا التكرار ، إلا إذا جاء موزعاً كما هو واقع في هذه المعارض الثلاثة ، وإلا تراكت ألوان الصورة وتدافعت ، ولطم بعضها وجه بعض !

هذا ، ويمكن أن تكون هذه المقولات الثلاث قد خرجت من همس المخاطر جميعها ، وتسربت إلى الخارج تحت ضغط الانفعال النفسى ، فكانت ألفاظاً مسموعة من موسى ، أسمعا أهله ، ليسكونوا على بينه مما وراء هذا الوجه الذى يتجه إليه ، ولا يدرى على وجه التحقيق ماذا هو ملاق عنده!

وفى المشهد الرابع .. وهو الذى يصور وصول موسى إلى النار ، ثم سماعه نداء الحق هناك ، وإبلاغه أن هذه النار التى رآها ليست على ماتصور وتخييل ، وإنما هى نور الحق جل وعلا .. وأن على موسى - وقد عرف هذا - أن يأخذ لهذا الموقف ما ينبغى له من التوقير والاحترام ، وهنا يؤمر بخلع نعليه ، وأن يتهيأ لسماع ما يوحى إليه من الله تعالى .. فلقد اختارته العناية الإلهية ليكون رسولاً من رسل الله إلى عباده - فى هذا المشهد نجد أن الصور الثلاث صُورت بها المشاهد الثلاثة إنما هى صورة واحدة قد توزعت توزيعاً دقيقاً محكماً ، بحيث أخذ كل مشهد بحظ منها ، يمكن أن يقوم بنفسه ، مستغنياً عن غيره ، فهى فيه ملامح الصورة كلها مجتمعة ، ومتفرقة ! كما يمكن إذا انضم إلى المشهدين الآخرين أن يكون معهما صورة مجسدة ، تبرز فيها الملامح ، وتظهر المضمّرات ، وما استتر وراء الكلمات!

فنحن رى من مجموع الصور الثلاث التى تقع لنا من هذه المشاهد الثلاثة أن مكان هذا الحدث كان بالوادي المقدس طوى ، وأنه كان بالجانب الأيمن للبقعة المباركة من الشجرة ، وأن موسى سمع صوت الحق يناديه : « إني أنا ربك .. فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إني أنا الله .. لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة

لله كرى^(١) ، - إنه أنا الله العزيز الحكيم^(٢) ، «إني أنا الله رب العالمين»^(٣) .

وواضح من هذا أن هذه الكلمات التي تفرقت في السور الثلاث يمكن أن تظهر في مشهد واحد ، فيجتمع بعضها إلى بعض على هذا النحو ، دون أن يكون بينها تدافع أو تمسكك ، بل إن بعضها ليصافح بعضا في تعاطف واشتياق .. فهي جميعها من قول الله سبحانه وتعالى لموسى في هذا الموقف ، قد حملت كل سورة بعضها منه ، وهذا البعض كاف بذاته لأداء المعنى المراد ، فإذا اجتمع بعضها إلى بعض اتسع إطار الصورة ، فازدادت وضوحا ، وإن لم تتغير محتوي ومضمونا !

وواضح أيضا أن هذا التكرار في الحديث عن الله - إني أنا ربك . . . إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني . . . إني أنا الله رب العالمين . . . إنه أنا الله العزيز الحكيم - هذا التكرار المتلاحق في سرعة وانطلاق إنما اقتضاه الموقف الذي اهتز له موسى من أقطاره ، فكان صوت الحق سبحانه بهذه النداءات المتكررة سكنا لقلب موسى ، وإمساكا لنفسه وقد كادت تذهب شعاعاً !

* * *

أما في المشهد الخامس ، وهو الذي يكشف عن المعجزات التي وضعتها الله سبحانه وتعالى في يد موسى ، وما كان من موسى حين رأى هذه المعجزات تتفجر من بين يديه لأول مرة - في هذا المشهد نرى فيه ما رأينا في سابقه ، من أن الصورة الكبيرة الجامعة للمشهد كله ، قد وزعت بين السور الثلاث ، بحيث يمكن أن ينتقل كل مقطع منها في سورته بتأدية المعنى الذي تؤديه

الصورة مجتمعة في مقاطعها الثلاثة ، وبحيث إذا اجتمعت هذه المقاطع تشكلت منها صورة تكشف عن الأجزاء الدقيقة الخفية ، التي كانت تظل من وراء حجاب ، في مقطعها الذي شكلت فيه ١١ .

ففي أحد المقاطع نرى موسى يتحدث عن عصاه ، ويكشف عن وظيفتها الأصلية التي يعرفها لها ، والتي صحبها عليها . . الأمر الذي لا نجد في المقطعين الآخرين : « وما تلك بيمينك يا موسى . . قال هي عصاي ، أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى » (طه : ١٨) .

ثم نرى العصا حين يؤمر موسى بالقائها من يده وهي تنقلب حية تسمى في أحد المقاطع ، ثم نراها تهتز كأنها جان في المقطعين الآخرين . . فتكتمل بذلك الصورة الحقيقية لما صارت إليه العصا . . فهي حية في ضخامتها ، جان في خفتها ونشاطها وحيويتها التي تضاعف من أفاعيلها ، وتضاعف من مشاعر الفرع والطلع منها . . وأنت ترى في تصويرها بالحية قد وصفت الحية بأنها « تسمى » ، ومن هذا الوصف نجد معنى الخفة والنشاط الذي كشف عنه ما وصفت به في المقطعين الآخرين من أنها « تهتز كأنها جان » . . كما نرى في تصويرها وهي « جان » بأنها تهتز - ما يشعر بضخامتها ، لأنها لو كانت دون ضخامة الحية لما كان منها اهتزاز ، بل انطلاق أشبه بانطلاق السهم . ؟

فالحية التي تسمى ، والجان الذي يهتز . . كل منهما يعطى صورة واضحة لما انقلبت إليه العصا . ، فهي حية في جان ، أو جان في حية . . (الجان هو فرخ الحيات) وقد جاء في القرآن وصف آخر لما صارت إليه العصا . وهو (ثعبان مبين) . . وهذا الوصف يناظر تماماً الوصفين السابقين لها . فهي ثعبان في خفة الحركة ، ولكنها ثعبان مبين في عظم الجسم وضخامته !

* * *

وهكذا نجد التكرار الذي يحدث في بعض مشاهد القصة القرآنية يؤدي

وظيفة حيوية في إبراز جوانب لا يمكن أداؤها على وجه واحد من وجوه التعبير ، بل لابد أن تعاد العبارة مرة مرة ، لكي تحمل كل مرة بعضاً من مشخصات المشهد ، وإن كانت كل عبارة منها تغطي صورة مقاربة للمشهد كله . .

ولنا أن نشبه ذلك — على بعد ما بين المشبه والمشبه به — بالتصوير « الفتوغرافي » ، والتصوير السينمائي ، أو التصوير التلفزيوني . . . ففي التصوير « الفتوغرافي » . . اللقطة الواحدة تصور المشهد كله . . تصويراً كاملاً ، صامتاً . . فالصورة هنا وإن أعطت جميع ملامح المشهد فإنها تحتاج في قراءتها إلى مهارة وحذق ، للكشف عن مضمونها ، أو بعض مضمونها . . أما الصورة السينمائية فإنها تتشكل من مئات وآلاف « اللقطات » حتى تتجسم الأحداث ، وتحرك الشخصيات ، وتكشف كل خافية كانت مخبئة وراء الصورة الفتوغرافية . .

إن تكرار الأحداث القصصية في القرآن هو إعجاز من إعجاز القرآن ، تتجلى فيه روعة الكلمة وجلالها ، بحيث لا يُبرى لها وجه في أية لغة ، وفي أية صورة من صور البيان يقارب هذا الوجه في جلاله ، وروعته ، وسطوته !

وهل شهدت الحياة الكلمة تؤدي ما يؤديه العمل السينمائي اليوم من نقل المشاهد بأبعادها الثلاثة — (طولها ، وعرضها ، وعمقها) — وبحركاتها وسكناتها ، ونطقها وصمتها ؟ وكم تكاف السينما لهذا العمل من لقطات ؟ مثايت وألوا ؟

أما النظم القرآني فإنه ينقل المشاهد بأبعادها ، وأعماقها ، وبحركاتها ، وسكناتها ، وبنطقها ، وصمتها ، وبوسوسة خواطرها ، وهجسات نفوسها ، ثم لا يكون ذلك كله إلا بلقطة أو لقطتين أو ثلاثاً للمشهد الواحد كله !

ومن تدبير القرآن في هذا أنه لم يجمع هذه اللقطات في معرض واحد ، (٥ — الفصل القرآني)

حتى لا تتراكم وتتراكم ، بل جعلها موزعة في مواضع متباعدة في القرآن الكريم ، بحيث يمكن أن تستقل كل « لقطة » منها بذاتها ، مستغنية عن كل تفصيل ، ثم بحيث لو نظر ناظر إليها من خلال اللقطات الأخرى المماثلة أو المناظرة لها لوجد منها جميعاً صورة واحدة . . . كأنها اللحن الموسيقي يتألف من أنغام متجانسة . . .

* * *

وإذن فالدين يقولون إن هذه الوجوه المختلفة في عرض القصة الواحدة لا يستقيم منها القول بأن القصص القرآني قصص واقعي بجميع عناصره ومقوماته — هذا القول إنما يستقيم في نظر من ينظر إلى القرآن على أنه مجرد كلام من الكلام ، يرسل على عواهنه ، ويلقى به بغير حساب ولا تقدير . . . ولكنه لا يستقيم أبداً عند من ينظر في القرآن بعين بصيرته ، فيرى في كل كلمة من كلمات الله عالماً فسيحاً لا حدود له ، مشرقاً بأضواء الحق من أرضه وسماؤه .

* * *

ثالثاً : ومما يراه أصحاب هذا الرأي مؤيداً وجهة نظرهم فيه أيضاً أن القرآن جاء بلسان عربي مبين ، والشخصيات التي وردت في هذا القصص لم يكن لسانها عربياً ، كهوسى ، وفرعون ، ويوسف وإخوته ، والعزیز ، وامرأة العزیز ، وأصحاب الكهف ، وما كان بينهم من حديث ، ثم الأنبياء وأقوامهم . . . إلى كثير من الشخصيات التي نطق عنها القرآن بلسان عربي . . .

فرعون مثلاً نطق عنه القرآن بمقولات كثيرة ، كقوله : « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ؟ » . . . وقوله : « ياها مان ابن لي صرحاً لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى . . . »

وإنه مما لا شك أن فرعون لم ينطق بهذه الكلمات في مقاطعها وحروفها
وإنما الذي نطق به هو ما حملت هذه الكلمات من معنى . . . فهى ترجمة
أمنية صادقة لما قال ، وكذلك كل ما ينطق به الأنبياء وأقوامهم . . .

وهذا النقل أياً كان من الدقة والإحكام فى نقل المعانى من لسان إلى
لسان — فإنه على أى حال صورة مخالفة للواقع ، ولو فى الصورة والشكل ،
وإن لم يكن فى المضمون والمحتوى .

وأى مخالفة أكبر من أن تتبدل ألسنة الناس ، فينطقوا بغير اللغة
التي نطقوا بها أفرعون — ولغته المصرية القديمة — ينطق بالعربية الفصحى ،
وأصحاب الكهف — ولا تُعرف لغتهم على وجه التحديد — يتحاورون بلسان
عربى مبين . . . وهكذا ؟

وأكثر من هذا .. الحيوانات والجماد ينطقها القرآن بهذا البيان المبين ...
« ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ،
فالتتا أتينا طائعين (١) » . . . « قالت نملئها بأبيها النمل ادخلوا مساكنكم ،
لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون (٢) » . . . والهدهد ينطق بين
يدى سليمان قائلاً : « أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ نبأ يقين ، إني
وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ، ولها عرش عظيم . . . (٣) » .

فهذه المفارقات وأشباهاها قد جعل منها بعض الدارسين منفذاً آخر
ينفذون به إلى القول بأن القصص القرآنى شأنه شأن القصص التاريخى ،
الذى لا يكون قصصاً إلا إذا لونه القاص بألوان من خارج الواقع ، وجعل

(١) سورة فصلت : ١١

(٢) سورة النمل : ١٨

(٣) سورة النمل : ٢٢ — ٢٣

لنفسه سلطانا على الأحداث ، فيغير ويبدل ، كما يقتضى الحال ، وتستدعى أجواء القصة .

دعوى منهافنة :

والحق أن هذه الاعتراضات كلها بمحركات ، وتلبسات منهافنة ، لاتقوم على أساس من الحججة الواضحة ، والمنطق المستقيم . . .

فالقول بأن القمص القرآنى لم يحمل فى أطوائه الأحداث التى جاء بها متلبسة بكل ما صاحبها من صور وأشكال ، ساكنة ومتحركة ، فى مجال الزمان والمكان على سواء — هذا القول — مع تسليمنا به — لاتقوم منه حجة أبداً ، على أن القمص القرآنى قد بعد عن الواقع فى قليل أو كثير . . .

ذلك أن الحياة كلها بأزمئتها وأمكنتها ، وأشخاصها وأحداثها ، حاضرة عتيدة كلها بين يدى الحكيم الخبير ، الذى لانتفى عليه خافية فى الأرض ، ولا فى السماء . . .

وهذا القمص الذى جاء به القرآن الكريم لم يكن تأريخاً للحياة كلها وأحداثها ، وإنما هو عرض لبعض المواقف ، وكشف عن بعض الأحداث التى من شأنها أن تحدث فى النفس أثراً ، وتقيم فى الضمير وازعاً ، وتفتح العقل والقلب على مواقع ماثلة للعبرة والعظة . . .

فالقمص القرآنى لا يمسك بالأحداث الواقعة فى الحياة كلها ، وإنما يمسك من الأحداث والوقائع ، بما يراه مجلياً عن عبرة ، كاشفاً عن عظة ، لتنتفع بها الدعوة الإسلامية فى مقام الدعوة إلى الله ، والإنابة إليه . . . ولا يعنى أن يكون الحدث مدوياً صارخاً ، أو مزلزلاً عاتياً بقدر ما تعنيه الدلالة التى يدل عليها ، والعظة التى ينطوى عليها . . . ولا شك أن هذه الأحداث والوقائع التى يقتطعها القمص القرآنى من «شريط» الحياة هى الصدق الخالص

والحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... يقتطمها القرآن زمانا ومكانا وأشخاصا وملابسات ، ثم ينفخ فيها نفخة الحياة فتبعث من مرقداهاء وقد تساقط منها ماجف من أوراقها وما ذبل من أغصانها . . وإذا هي تمر طيب ، داني القطوف ، تأخذه العين وتشتهي النفس !

وإذن فليس تخليص القصص القرآني من الزوائد والحواشي التي لا تغني شيئا في تصوير الحدث وعرضه في معرض الاعتبار والعظة — ليس هذا التخليص إلا عملية غريبة وتصفية، غايتها تنقية الحدث من الشوائب ، وتخليصه من العُشاء والزبد ، ليصفو مورده ، ويسوغ مذاقه للواردين.. وليس ذلك عن عجز أو غفلة عن جميع الملابس التي اتصلت بالحدث من كل جهاته ، والتقت به من قريب أو بعيد .

وهذا التصرف الذي كان من صنيع القرآن في عرض الأحداث ، وفي تخير الجوانب التي تخدم بروز الأحداث ، وتجليتها — ليس مما يصح أن يقال معه : إن القرآن — وقد أباح التصرف في الأحداث على أي وجه من الوجوه — قد أدخل في القصص القرآني ما ليس من صميم الواقع ، أو أنه غير وبدل في معالته .

فهذه مغالطة — كما قلنا — لأن ما جاء في القصص القرآني هو الصميم من الواقع ، واللباب من الحوادث ، وإن يكن ترك ما ترك من حواش وأطراف وزوائد ، وقشور .

وأما القول بأن القرآن نفسه قد جاء بالحادثة الواحدة في صور مختلفة متغايرة ، فهذا أيضا خلط وتخييط ، جاء عن نظر قاصر لا يرى إلا ظاهر الأشياء ، ولا ينفذ إلى شيء مما وراء هذا الظاهر .

وقد رأينا فيما ذكر القرآن من قصة موسى أن هذا الاختلاف : إما اختلاف غايته تصوير ما توارد على النفس من خواطر ، وما تردد عليها

من صور .. كقول موسى لأهله: « امكثوا إني آنست نارا لعل آتاكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » .

ثم قوله: « امكثوا إني آنست نارا ، سأتيكم منها بخبر ، أو آتاكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » .

وقوله: « امكثوا إني آنست نارا لعل آتاكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » .

وأنت ترى أن الصورة ظلت واحدة في المقام الذي لم يكن بد من ثباتها فيه ، كقوله لأهله حين رأى النار : « امكثوا » إذ لم يكن ثمّة سبيل إلى تردد في هذا الأمر وهو أن يمكثوا حيث هم ، وكذلك الشأن في قوله : « إني آنست نارا » فهذا سبب ، لاسبب غيره في دعوته لأهله إلى المكث حيث هم ، وإلى حيث ينطلق هو وحده ليرى ماذا هناك .

ثم كان هذا التردد الذي تذهب النفس في شعابه مذاهب مختلفة ، حين أراد أن يكشف لأهله عما يعنى من وراء ذهابه إلى النار .. إن الأمر هنا مختلف ، فهو لا يدري ماذا يكون هنالك عندها ، ومن يكون موقدها . وأخيراً يصيب عندها أم شراً ؟ .

ولهذا كثرت وساوسه ، وتعددت خواطره ، فكانت هذه المقولات أصدق تصوير لحاله تلك في ظاهر أمره وباطنه جميعاً فهو يقول : لعل آتاكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، (سورة طه) إنه ينشد قبساً من نار أو لا ، وهو عند النار سيجد إنساناً ما ، يكشف له معالم الطريق .. ثم يبدو له أن الحاجة إلى الإنسان أشد من حاجته إلى النار .. فيقول لنفسه أو لأهله : « سأتيكم منها بخبر أو آتاكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » (سورة النمل) هكذا يجنىء بالخبر على سبيل القطع والجزم ، ثم يبدو لها أن هذا مطلب هزئ في

هذا المكان الموحش ، وفي هذا الليل الضارب بجمراته الثقيل المظلم على كل شيء .. إن ذلك الذي بدا له من ضوء النار ربما يكون من خداع الحواس ، ولهذا نراه يعدل عن هذا الخبر المرسل بدون قيد ، فيقيده بهذا الرجاء إذ يقول : « لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » .
(سورة القصص) .

وقد يكون الاختلاف في اللفظ عن الاختلاف في الأحوال والمواقف كقوله تعالى في وصف عصا موسى وما تصير إليه بعد أن يلقها من يده . فهي مرة « حية تسمى » وهي مرة أخرى « ثعبان مبین » وهي مرة ثالثة « تهز كأنها جان » . فهي صور من أحوال العصا يكمل بعضها بعضاً .. فهي حية في ضخامتها ، وهي ثعبان في خفتها ونشاطها ، وهي جان فيما تثير من رعب وفتنة .. ولقد رآها موسى على تلك الصفات كلها ، وصحبها على هذه الوجوه التي تكشف له منها .

وهذه الصور المتعددة للعصا ، وفيما يتشكل منها حين يلقها موسى من يده — هذه الصور قد تظهر في مشاهد متعددة ، فتظهر مرة ثعباناً مبيناً ، ومرة حية تسمى ، ومرة كأنها جان .. كما أن هذه الصور جميعها قد تظهر في مشهد واحد ، ولكن يختلف موقعها من العين ، فتختلف صورته في المنظر ، فتكون وهي قريبة من العين حية تسمى ، ثم إذا بعدت عنها بدت ثعباناً مبيناً ، ثم إذا بعدت أكثر خيل أنها جان ينطلق كالسهم .. وهذا شبيه بالطائرة وتصعيدها في السماء .. تصغر شيئاً فشيئاً كلما بعدت عن العين ، وهي تشق طريقها إلى أعنان السماء .. وهذا ما يشير إليه شوقي في وصف طائراته تصعد محلقة في الجو :

وتسامت فكانت أعقبا فسورا أفصقورا فحماما

• • •

وأما أن القرآن قد تحدث بلسانه العربي عن السنة غير عربية ، أو نطق

عن دلالة الحال ، كما في تحديده عن الجماد والحيوان ، فهذا لا يمكن أن يجيء منه الادعاء بأن القرآن قد تقوّل على من نطق عنه ، وإعنا هذا الذي نطق به القرآن مترجماً به عما نطق به الناطقون ، أو نطقت به دلائل الأحوال — إعنا هو المضمون الحق ، والمحتوى الصادق الأمين لما نطقت به الألسنة ، أو أشارت إليه دلالات الأحوال . ١

وماذا كان يمكن أن يكون غير هذا في مثل هذه الأحوال إذا أريد نقلها وعرضها في الحياة ؟ .

أكان من التدبير الحكيم هنا أن يجيء القرآن بالأشخاص والأحداث فيبيها من مرقدها ، ويحركها على منبرح الحياة من جديد لتنتطق هي بما نطقت به ، أو لتشير إلى ما كانت تشير إليه ؟ .

إن قدرة الله سبحانه وتعالى لا يعجزها شيء .. ولكن هل تحتمل الحياة هذا لو أنه حدث ؟ وهل يلقاه الناس فلا يفتنون به ، ولا يخرجون عن عقولهم في تحبط مجنون ؟ « قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » ثم هل لو استمع العرب إلى هذه المقولات التي نطق بها أصحابها ، كما نطقوها بألسنتهم ، أو بأصواتهم — هل يفهمون شيئا ، أو ينتقمون مما استمعوا بشيء ؟ .

إن القصص القرآني لكي يكون قصصاً مشمراً نافعاً ، فقد جاء على وفق الحياة التي يحياها الناس ، ولم يخرج على ما لوفها .. ! ولوجاء على غير هذا لما كان للناس التفات إليه ، ولو أنهم التفتوا إليه لما وقع لهم منه إلا البلبلة والاضطراب . ١

فالناس يتداولون الأنباء ، ويروون الأخبار ويتناقضونها ، على تمدد الأشخاص ، واختلاف الألسنة .. ثم لا يكون شيء من ذلك حائلاً بينهم وبين أن يفيدوا منها ، و ينتقموا بها ، ويخلصوا إلى مضامينها .. .

وغاية ما يمكن أن ينظر إليه في هذه الأحوال ، هو الصدق في الرواية والأمانة في النقل ، والدقة في التصوير والتعبير .

وإذا كان هناك ملتصق ملتصق فيه هذه الغاية على أتم تمامها ، وأكمل كمالها ، فلن يكون ذلك على هذا الوجه إلا في القرآن ، وفيما نطق عنه القرآن . إن القصص القرآني وإن يكن سماوي المطلع فهو بشري الصورة ، إنساني المنازع والمواطف ، يتحدث عن الناس إلى الناس ، ويأخذ من الحياة للحياة .. يقرؤه الناس ويسمعونه فكأنما يقرءون أطواء أنفسهم ، ويسمعون همس ضمائرهم ، ووسوسة خواطرهم .. ومن هنا فهم يعيشون فيه ، ويحيون معه ، وينتفعون به انتفاع الأرض بصوبها الغيث .. فيقع منها مواقع مختلفة ، بين وديان وسهول ، وجبال وقيعان ، وأحراش وسهوب .

* * *

المؤثرات المباشرة وغير المباشرة في القصص القرآني :

وهنا سؤال يلقانا بعد هذه المقولات التي قلناها في القصص القرآني ، من أنه أحداث واقعية مقتطعة من التاريخ ، وأن القرآن قد تخير من هذه الأحداث ما يخدم الدعوة ، ويفتح للناس طرقا للعبارة والعظة منها ، كما أنه تخير من هذه الأحداث ما رآه من المواقف والمشاهد صالحا لبناء الصورة المحققة لهذه الغاية .

نقول : إن سؤالا يلقانا بعد هذه المقولات .. وهو : إذا كان ما في القصص القرآني هو مجرد أحداث تاريخية .. فكيف تحسب هذه الأحداث في عداد القصص ؟ ومن أي باب تدخل إليه ؟ وهي ليست إلا تاريخاً ، أو بمعنى أدق حقائق تاريخية .

وفي القرآن الكريم كثير من الحقائق التاريخية ، والنفسية ، والاجتماعية ،

والعلمية ، ومع هذا فلم تدخل في القصص القرآني المعروف ، فلم اختصت هذه الحقائق التاريخية دون غيرها باسم القصص .

والجواب على هذا من وجهين :

أولاً : الأسلوب الذي جاء عليه القرآن الكريم من هذا النظم الرائع المعجب المعجز هو في ذاته آية الآيات في فن الكلام . . . ومن هنا كانت آيات القرآن الكريم كلها فناً عالياً لا يطاول . . . من فنون القول ، وكان أي لون من ألوان الحقائق معجباً مثيراً إذا حملته ألفاظ القرآن ، وجلته في هذا النظم المعجب المعجز .

وإذن فكل آيات القرآن تحقق لقارئها أو سامعها أصدق وأقوى ما تحقق أروع آيات الفن القولي ، في مجال النثر أو الشعر ، وفي مجال الخطابة ، أو القصة .

فالآية — أو الآيات من الكتاب الكريم — لك أن تطلق عليها الوصف الذي يروعك ويروك من فنون القول . فتقول عنها إنها قصيدة أو خطبة ، أو قصة . . . لا تعني بذلك الأسلوب الذي نظمت به وجاءت عليه ، وإنما تعني ما دخل عليك منها من آثار فنية ، منك عليك عقلك وقلبك . . . وهذا ما كان من قريش وهي تستمع إلى القرآن فتأخذها من جلاله روعة ، وتفشاها من تلقائه سطوة . . . ثم لا تدري ماذا تقول فيه . . . فتقول مرة : إنه شعر ، ومرة أخرى هو سحر ، ومرة ثالثة أساطير الأولين ، أو هو قول كاهن ، أو قول شاعر . . . وهكذا غمض في تنقلها من قول إلى قول فيه ، لأنها تجد منه أحوالاً أشبه بهذه الأحوال التي تجدها للشعر ، وللسحر ، وللأخبار العربية التي يحدث بها السكهان وأصحاب الأساطير . . . وإن كان ما يلقاها من القرآن أصفى صفاء ، وأبلغ أثراً ، وأصدق خبراً . . .

ومن أجل هذا أراد بعضهم أن يكيّد للنبي ، وهو يدعو قريشا إلى

الإسلام ، فجلب قينات بعزفن وبعنين ، ليجذب قريشا إليه ، ولجلا أسمعهم بتلك الألحان والأغاني ، التي استجلبها ، وهو يحسب أن ذلك سيصرف الناس عن الاستماع إلى القرآن ، والخشوع له ، فما التفت أحد إلى هذا العبث إزاء ما كان عملاً به القرآن الأذان والقلوب من آياته البينات المعجزة . كما فعل ذلك . وفي هذا يقول القرآن الكريم : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ^(١) » وحين لم ينفع هذا شيئاً من النفع فيما أريد له ، جعلوا يشوشون على القرآن حين يتلى ، فيتصايحون حول قارئه ، ويتعابشون حتى لا يخلص منه إلى الأذان ما ينفذ منه إلى القلوب من جلال ورهبة ، وقد فضح القرآن الكريم هذا الكيد الصباني ، فقال تعالى « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ^(٢) » فذلك هو غاية كيدهم الذي يريدون أن يكيدوا به للقرآن . وذلك بأن يفروا من بين يدي سلطانة بهذا العبث الصباني ، كما يفروا الأعشى من ضوء الشمس بإلقاء حجاب كثيف أسود على عينيه ، على حين أن الضوء مشتمل بسلطانة كله عليه . . .

فالقرآن كله يدخل على العقول والقلوب مدخل الروعة والدهش والإثارة ، بما لا تستطيع أروع آيات الفن الكلامي أن تبلغ أقل القليل منه . . . متفرقة ومجتمعة ١

وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن الأحداث التاريخية في النظم القرآني لها من الإثارة الفنية مالا يحدهه أروع الملاحم ، وأكثرها إغراباً في الخيال . . . حتى لو كانت هذه الأحداث التي يعرضها القرآن تساق مساق الخبر ، مجردة من كل صور الصراع ، والاحتكاك بغيرها من الأحداث ، كما يرى ذلك

(١) سورة لقمان : ٦

(٢) سورة فصلت : ٢٦

في القصص الذي لا يخلو من مواقف الصراع . بين الناس والناس . أو بين الناس والأحداث .

ثانيا : إذا كان ذلك هو شأن القرآن كله من حيث نظمه وما لهذا النظم من روعة آسرة وسلطان قاهر متحكم في العقول والقلوب . فإن إطلاق اسم القصص على بعض الأحداث التاريخية التي جاء بها لا تأباه هذه الأحداث ، بل إنها في هذا النظم المعجز ليست مجرد سرد للأخبار ، ولا عرض للأحداث ، وإنما هي - كما قلنا - بعث جديد لها ، كما تبعث الحياة في الأرض الموتى ! .

وإذن ، فليست الأحداث التي جاء بها القصص القرآني محتاجة إلى شيء جديد من مواد الإثارة والتشويق ، تضاف إليها ، لكي تكتسب ألواناً من الإثارة والتأثير . . . إذ أنها في هذا النظم القرآني غنية عن كل زخرف ، مستغنية عن كل طلاء ، بما أفاض الله عليها من آيات الحسن ، والجمال ، والجلال . . . فكل حسن إلى حسنها باهت ، وكل جمال إلى جماها ماحل ، وكل جلال إلى جلالها ظل زائل !

وفيما سيلقانا من مباحث هذا الكتاب شواهد كثيرة لما نقول . . .

الأمثال في القرآن :

هذا ، وهناك أمثال ضربها القرآن الكريم ، لأحوال وأحداث ، وهي على امتداد القصص ، من حيث أنها للعبارة والعظة ، كما يقول الله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس ، لعلهم يتفكرون » . . . ومع هذا فلم يدخلها القرآن في القصص ولم يعدها منه .

وماذا في هذه التفرقة ؟

ولنا أن نقول : إن القرآن ينظر إلى القصة نظرة أكبر من مجرد أنها أحداث وحقائق تاريخية ، إذ أن في كيانها من العناصر المعروفة في القصص

ماليس في غيرها من الحقائق التي تصور لمجرد الكشف عن ذاتها .
ونعم . . . فإن الذي يتأمل القصص القرآني ، وينظر في الأحداث والمواقف
التي أطلق عليها القصص - يجد أن الحادثة القصصية في القرآن حادثة متميزة
بطابع خاص ، لا نجد في تلك الأحداث التي تحدث عن أمثال واقعة أو مفترضة
أن تقع ..

ففي أحداث القصص القرآني صور من الصراع بين قوى الخير والشر ،
وبين النور والظلام ، والإيمان والشرك . . . والهدى والضلال كما أن فيها صوراً
من الحوار والمجادل الذي تنشأ عنه « أزمة » الحدث أو عقده ، وأخيراً
تتمخض هذه الأزمة أو تلك العقدة عن موقف تنفرج فيه الأزمة ، أو
تحل العقدة . . .

ثم إن هذه القصص أيضاً لا تعدم مشاهد وجه المرأة كما تعرفها الحياة -
في عقلها وطيشها ، وفي حبها وبغضاها ، وفي قوتها وضعفها . . .

والمرأة كما تعرف عنصر أصيل من عناصر القصص ، كما أن الحوار
المنتج للأزمات ، والمولد لحلها عنصر قوي فيها أيضاً .

وبهذين العنصرين - الحوار المنتج ، والمرأة بكل أنوثتها - يهذين
العنصرين القويين دخلت الحادثة القرآنية تحت هذا الاسم . « القصة » !
وهذا وذاك : المثل والقصص دون أن يأخذ المثل هذا الوصف من واقع
الحياة ومن صميمها . . . لم تشبه شائبة توليد ، أو تخييل . . . كما سنعرض
لذلك بعد قليل .

الكاب الثاني

عناصر القصة في القرآن

القلب والمضمون .

الحادثة التاريخية تتأثر تأثيراً كبيراً باليد التي تكشف عن وجهها ،
وبالعين التي تنظر في هذا الوجه . فهي أحياناً تكون مجرد أنقاض متداعية
قد عبث بها يد الزمن ، أو جثثاً منحلّة قد أزيح عنها التراب . ثم هي تارات
أخرى كائنات حية متدفقة الحياة ، فصيحة اللسان ، واضحة البيان . وذلك
كله رهن بالشخصية التي تهتف بالحادثة ، وتدعوها إليها . فإذا كانت تلك
الشخصية ذات قوة روحية قادرة على أن تحيل الموت حياة ، جاءت إليها
الأحداث - حين تهتف بها - تسمى بسكل ما كان بين يديها وما خلقها من
مفارقات وملابسات . أما إذا كان الذي يستدعي الأحداث التاريخية بمن
ليست فيهم تلك القوى الروحية الخلاقة ، فإن أكثر ما يأتيه من الأحداث
هو أشباحها ، وخيالاتها ، محملة بأثرية الحياة وغبار الزمن ١١

وهذا وذلك ، نراه في أعمال ككتاب القصص ، وخاصة القصص التاريخية ...
إذ يبلغ أحدهم إلى الحد الذي يجعلنا بمرأى ومشهد من أحداث قصته ، نعيشها
ونشارك في صفوها وكدرها ، ونطعم من حلوها ومرها . على حين لا نرى
شيئاً من هذا ولا نحسه ، ولا نذوقه حين يكون عرض هذه الأحداث من
عمل كاتب ليس عنده الاستعداد الدأى للخلق ، والإبداع ١

* * *

ولقد ذكر القرآن الكريم صوراً معجزة من الاستدعاء الذي يبعث
النبض والحياة في الهامدات ، فيما ذكر عن عيسى عليه السلام: «أني قد جننتكم

بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبصرى الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله (٤٩: آل عمران) . وكذلك فيما ذكر عن إبراهيم عليه السلام ودعوته لجماعة الطير بعد أن مزقها مزقاً ، وجعل على كل جبل منهن جزءاً

« وإذا قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ، قال أولم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ، قال : فخذ أربعة من الطير ، فصهرن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعيًا . » (٢٦٠: البقرة).

فهذه الصور من صور الخلق — وإن تكن مما فضل الله به على عبديه الصالحين : إبراهيم وعيسى حين وضع على لسانيهما كلماته التي يحيي بها الموتى — تشير إلى أن في الإنسان طاقات روحية — وهى مما فضل الله به على كثير من عباده أيضاً — منها تهب ربح الحياة على ما تتناوله أيديهم ، وما تعمل فيه جوارحهم !!

وفى آثار العباقرة من أرباب الفنون مثل واضحة ، وشواهد قائمة .

فانظر كيف يسكون الحال حين تجيء كلمات الله فى النظم القرآنى إلى الأحداث التاريخية ، قتمسك بهامن أعماق الزمن ، وتجمعها من وجوه الأرض ، لتمررها على الحياة من جديد ، فى مقام العظة والعبرة إنه — كما قلنا من قبل — هو البعث الذى يعيد إلى الأحداث وجودها الذى كان لها فى الحياة قبل أن يطويها الزمن ، ويضمها التاريخ . . . تماماً كما يبعث الموتى من القبور أو كما بعث الطير التى أماتها إبراهيم ، ثم رد إلى الحياة بقدره الخلاق العظيم

فالقصص التاريخى فى القرآن حياة مجددة للأحداث التى يعرضها القرآن ، يحيى بها إلينا ، أو يحيى بنا إليها ، لم يغير الزمن شيئاً من سماتها ومبعضاتها . . .

ولكن كيف يمكس القرآن بهذه الأحداث ؟ وبأى أسلوب بما لجأحتي
بلبسها الحياة من جديد ؟ هذا ما نريد أن نكشف في البحث التالي
من الكتاب |

أسلوب العرض القصصى فى القرآن :

ليس هناك أسلوب خاص يلتزمه كتاب القصة فى عرض الأحداث ،
وتحرك الأشخاص وإنطاقها .. فهناك أكثر من أسلوب .. فقد يفرض
الكاتب نفسه على أشخاص قصته فينطق عنهم ، ويتحدث بلسانهم ، ويروى
أخبارهم .. وفى هذا الأسلوب يأخذ الكاتب موقفاً يمكس هو فيه بالأحداث ،
ويحرك الأشخاص ، ويأخذ ما على ألسنتهم من كلام ، فينقله عنهم مسبقاً
بقوله : قال فلان .. أو قالت فلانة .. وقد يجعل الكاتب أشخاصه فى
مقام « الحضور » فيدعهم يعرضون وجودهم ، ويتحدثون بألسنتهم .. وهنا
تختفى شخصية الكاتب ، فلا يرى له ظل ، ولا يحسب له حساب ، فى سير
الأحداث أو فى تحريك الشخصيات . وفى هذا الأسلوب تختفى من مواقف
الحوار كلمة « قال » التى تنبه إلى شخصية الكاتب ، وتحدث عن وجوده .

هاتان هما أظهر طريقتين للأسلوب القصصى ..

والذى نلحظه فى القصص القرآنى أنه التزم الطريقة الأولى . طريقة
الرواية التى تؤذك دائماً بأنك إنما تسمع أخباراً قد ذهب أشخاصها فى
التاريخ ، وانتهى دورهم فى الحياة .. وأنها فى هذا العرض إنما هى فى بعث
جديد قد جاءت تسمى إليك ، أو أنك فى رحلة زمنية عبر القرون الماضية
إلها .. فهى غائبة حاضرة معاً ، تحدثك بلسانها ، وتسمعك قولها .

وهذه أول أمانة من أمارات الصدق الذى لا يتلبس به تمويه ، أو يدخل
عليه لون من ألوان الخداع والتخييل ، وهذا ما يليق بمقام القرآن ، وبجلاله

حيث يرتفع مقامه وجلاله عن أية شائبة تمس الحق الذي نزل به ، أو تعلق به ..
« وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل » .

فالقصص القرآني هو بعث لآثار مضت ، وقص لأخبار ذهبت ، فإذا عرضها ، عرضها بهذا الأسلوب الغيبي الذي لا يملك فيه من شارك في هذه الأحداث ، - من أشخاص وأشياء - أن يظهر عياناً ، أو يتحدث في «حضور» إلا أن يكون ذلك عن طريق التخييل والتمثيل .

وهنا يبدو لنا سر من أسرار هذا التدبير الحكيم ، في التزام هذا الصدق وتصفية المواقف التاريخية من كل ما يشوبها ، ويعرض وقائعها للشك والارتياب .

ذلك أن أسلوب « الرواية » الذي التزمه القصص القرآني يقيم مشاعر الإنسان وأحاسيسه مع الأحداث التي تروي . على مقام واحد منها ، وهو أنه إنما يسمع أخباراً ، وأن هذه الأخبار تخرج من جهة عالية عالمة ، وسع علمها ما تحوى الأزمنة والأمكنة . أما أسلوب « الحضور » فإنه يقيم النفس من أول الأمر على شعور غير هذا الشعور ، وهو أن الإنسان إنما يشهد ويسمع أشباحاً تلبس الأشخاص والأحداث ، وتحدث بأسمائها وتنطق بلسانها ، ويمثل على الحياة دورها . وإذا كان الناس متهمين بالخداع والكذب - من حيث هم ناس - فكيف بهذه الأشباح التي يخلقها الكاتب القصصي لها ، فينطقها باسمها ، ويمثل بها دورها الذي كان لها في الأحداث التي يعرضها ؟ .

ثم أمر آخر ، وهو أنه إذا جاز أن يكون أشخاص الحدث التاريخي أمناء فضلاء في أنفسهم .. فهل يكون لهم ذلك ، وقد بدل الكاتب خلقهم ، وجاء بأبدال لهم ، تتحرك في الحياة باسمهم وتنطق بلسانهم ؟ وإذا كان قد جاز للكاتب أن يعمل هذا في أشخاص الأحداث التاريخية ، أفلا يجوز له أن

(٦ - القصص القرآني)

يعمل أكثر من هذا في أبدالها التي جاء بها ، فيحرك ألسنتها بما لم يجز على لسان الشخصيات التاريخيه ذاتها ؟

كل هذا ممكن أن يقع في نفس من يقرأ أو يشهد القصة التي تقوم على هذا الأسلوب « الحضورى » . . أما الأسلوب « العيى » وهو أسلوب الخبر والرواية ، فلا يدخل على النفس منه إلا شئ واحد ، وهو الشك والارتياب في مضمون الخبر ، وذلك لا يكون إلا عن شك في أمانة ناقل الخبر وروايه . . وهذا ما لا يمكن أن يجيىء من جهة القرآن وأخباره التي يحدث بها . . كما أشرنا إلى ذلك من قبل : لأن هذه الأخبار من عند الله الذي تنزهت أخباره سبحانه — عن أية شائبة تشوب الصدق . . فإذا لم يكن الذين يستمعون إلى القرآن الكريم وإلى قصصه وأخباره — إذا لم يكن هؤلاء مؤمنين بالله ، فإن في آيات القرآن الكريم برهانا ذاتيا يقوم منها شاهداً على أن هذا القرآن هو كلام الله ، وأنه ليس لبشر أن يقول شيئاً مثله . . فإن نزعت به نفسه إلى الشك والارتياب في أن هذا كلام الله ، وأنه فوق حدود البشر ، فليجرب ، ولير نتيجة تجربته !!

الزمان ومكانه في القصص القرآنى :

والزمن له مكانه الملحوظ دائماً في سير الأحداث القصصية وفي تنميتها وإنضاجها . . وخروج الحدث القصصى عن حدود الزمن وقيوده يجعله في عزلة عن الحياة ، وفي انقطاع عن الروافد التي يتغذى منها . . أشبه بالشجرة تنفصل عن مغارسها في الأرض . . حيث لا ينتظر أحد منها بعد هذا ظلاً ، ولا ثمراً !!

ولهذا تقوم القصة الناجحة على ملاحظة العنصر الزمنى ملاحظة دقيقة واعية ، حيث تمسك الخيوط الزمنية بكل جزئياتها ، وتحركها بميمات معلوم ، فتطلع بها في الوقت الذي تستدعيه الأحوال ، كما تبعتها

عن مجال الرؤية في الوقت المناسب ، الذي يستدعي اختفاءها مؤقتاً
أو مؤبداً . . .

هذا ، وليس لاستخدام العنصر الزمني ، والانتفاع به في العمل القصصي ،
قاعدة محددة ، أو أسلوب مرسوم . . . وإنما هو أداة طيعة في يد الفنان . . .
أشبه باللون الذي يستعمله المصور ، ويجريه على اللوح الذي بين يديه . . .
ووضع اللون في المكان المناسب ، وبالقدر المناسب إنما هو رهن بما عليه
إحساسات الفنان ، وتستدعيه مشاعره . . . كذلك العنصر الزمني مع
الكاتب القصصي . . . يأخذ منه القدر المناسب للحال المناسب ، حسب
ما يعتدل منه في كيانه من مشاعر وأحاسيس . . .

والقصص القرآني ينظر إلى الزمن على أنه اليد الحاملة للأحداث ،
والحركة لها . . . وبغيره تهوى الأحداث وتتساقط ميتة بلا حراك . . .

ولمنا قد لاحظنا في الذي كان من حديثنا عن استخدام القرآن للأسلوب
الغيبى في الأخبار التي يقصها - أن أحداث قصصه كلها تطلع من آفاق
القرون الماضية ، والأزمان الخالية . . . وهذا ما يعطى مستمع القرآن
أو قارئه إحساساً خاصاً بالزمن على صورة طامة . . . هي صورة الماضي
البعيد .

وليس هذا كل ما للزمن في القصص القرآني . . . بل إن لكل قصة فيه
زمنها الخاص بها ، بل وأجزاء هذا الزمن الذي يطلع جزءاً جزءاً ، أو يخبئي
شيئاً شيئاً . . . ولا يزيد هنا أن نعرض الأمثلة والشواهد لهذا . . . فإننا سنرى
ذلك بوضوح عند نظرنا في القصص القرآني نظراً مباشراً ، فيما بعد .

غير أنه لا بد هنا من لفتة إلى شاهد من تلك الشواهد . . . لنترى فيه
ما يحقق هذا الرأي الذي نراه .

ولا تتخير قصة ما بالذات .. فإن القصص القرآني كله يتضح فيه هذا المعنى الذي أشرنا إليه ، على أمم ما يكون وأظهره .

فإذا أخذنا قصة يوسف - مثلاً - كشاهد لهذا ، فإننا نجد العنصر الزمني ممسكاً بها من كل جوانبها ..

فهي - كما يبدو في نظم القرآن ، وفي دلالة ألفاظه - أحداث من الزمن الماضي .. قد اقتطعت منه ، وجاءت في هذا العرض القرآني لها .

ثم نجد أجزاء هذا الزمن تظهر حيث يستدعيها الموقف ، وتقتضيها داعية الحال .

فهؤلاء إخوة يوسف وقد فعلوا فعلتهم به ، وألقوه في غيابات الحب - لم يستطيعوا أن يواجهوا أباهم بهذا الكذب الصراح ، وبأن الذئب قد أكله .. لم يستطيعوا مواجهة أبيهم بهذا في وضع النهار حيث ينكشف على ضوءه ما ينعكس على عيونهم من استخزاء وانكسار ، وما يظلال وجوههم من كسوف الكذب وخسوفه .. لهذا فقد ضبط القرآن الزمن الذي جاءوا إلى أبيهم فيه ، يخبرونه هذا الخبر المشؤم المكذوب .. فيقول الله سبحانه وتعالى : « وجاءوا أباهم عشاء يبكون » .. فهذه الجزئية من جزئيات الزمن ، قد حرص القرآن على الإشارة إليها ، لأن لها مكاناً في سير أحداث القصة . ذلك أن ظلام الليل الذي أظلم هذا الكذب ولغفه هو نفسه الذي تم على الكذب ، وألتي في روع الأب أن أبناءه لو كانوا صادقين لأسرعوا إليه مخبرين بالحدث في وقته ، لأن مثل هذا الحدث لا يسكت عليه لحظة . وإذن فإن هذا الحدث لم يقع على صورته التي صورته بها هؤلاء الأبناء .. ولهذا امتلأ قلب الأب بالشك في هذا الخبر ، فقال : « بل سوت لكم أنفسكم أمراً .. فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » .. لقد كان « ظرف »

الليل دثارا كثيفا احتسى فيه هؤلاء الأبناء، وداروا فيه ما كان يفضحه النهار منهم .. من وجل وخجل .

ثم نجد في القصة من جزئيات الزمن .. أن يوسف قد « لبث في السجن بضع سنين » .. وأن هذه المحنة مع امتدادها لم تنل من إيمان هذا النبي الكريم ، ولم تززع من ثقته بربه ، ورضاه بحكمه .. فلقد كان في هذا السجن داعية إلى الله بين أصحابه في السجن .. يكشف لهم الطريق إلى الخالق جل وعلا ، ويحلى عن قلوبهم ظلام الضلال والزيغ والكفر .. « يا صاحبي السجن! أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟ ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أتم وآباءكم ما نزّل الله بها من سلطان .. إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه .. ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

فهذه الجزئية من الزمن — « بضع سنين » — لها دلالتها العظيمة في الكشف عن معدن هذا النبي العظيم ، وما في نفسه من قوى الإيمان بالله ، ولو افتقدناها في القصة لافتقدنا هذا الإحساس ، وتلك المشاعر ، وهذا التعاطف الذي يصل بيننا وبين هذا النبي الكريم ، وما في نفسه من رصيد من الصبر والإيمان ^(١) !

هذا ، وليست دلالات الزمن منتهية عند اللفظ الصريح بها ، كيوم وليلة ، وساعة وشهر ، وسنة ، وبضع سنين ، ونحو هذا ، بل إن للزمن دلالات كثيرة لا تحصى ، تطل من ملامح الحدث ذاته ، وتبدو على سماته .. كأن يكون صغيراً فنراه كبيراً .. أو يكون في مكان فنراه في آخر .. أو يكون ابناً فنراه أباً ، أو طفلة فنجدها أمماً .. ففي كل هذا وأمثاله عناصر زمنية متجددة ، متحركة بالأحداث ، سائرة بها إلى مراحل وغايات ..

(١) انظر دراسة خاصة لسورة يوسف في آخر الكتاب ، كتطبيق لدراسة القصة القرآنية ، على ضوء هذا البحث .

ومرة أخرى نلقت النظر إلى أن استخدام العنصر الزمني في القصة ، —
تصريحاً ، أو تلميحاً ، وعلى وجه الاستقلال ، أو التضمن — هذا الاستخدام
لا يحقق الغاية المرجوة منه إلا إذا وقع ليد حكيمة قادرة على الإمساك به ،
وإطلاقه ، أو إمساكه بحساب ، وتقدير ، بحيث لا يطنى على الأحداث ذاتها ،
ولا يبتلعها ويطبق عليها فكيه الواسعتين الخيفتين .

* * *

وللحركة الزمنية اتجاه تتحرك فيه .. وهذا الاتجاه هو إلى الأمام دائماً ..
إذ ليس من طبيعة الزمن أن يتحرك إلى الوراء ، وأن يعود القهقري .

ولهذا ، فإنه من غير الطبيعي أن يخرج الزمن عن طبيعته تلك في العمل
القصصي .. حتى في القصص التاريخي الذي يعود بنا إلى الوراء ، ويجدد على
الزمن وجوده الذي ذهب .. ففي هذا القصص تبدأ الحادثة التاريخية من
نقطة انطلاق محددة من الزمن ، ثم تمضي متحركة إلى الأمام .. كما كان شأن
ذلك الزمن في سيره .

هذا ، وقد أباح الخيال القصصي لكتاب القصة أن يخرجوا بالزمن عن
طبيعته .. في كثير أو قليل — كما أباح لهم ذلك الخيال أن يخرجوا على طبائع
الأشياء فيلونوها بألوان وأصبغ غير ألوانها وأصبغها .

وفي هذا المجال تعددت صور هذا الخروج واختلفت أوضاعه .. ففرى
بعض الكتاب يبدأ الحدث القصصي من نهايته ، ويعرضه في الشكل الذي
انتهى إليه ، ثم يعود فيطلع به من جديد من أول خطواته 1 وغاية هذا
التدبير هي إثارة شوق القارئ واستحضار انتباهه كله من أول الطريق مع
القصة ، حيث تتجسم له المشكلة التي يحويها الحدث ، وتبرز له كاملة .. في
لحظة خاطفة . فإذا ثارت رغبته وتحركت أشواقه إلى معرفة مجرى الأحداث

التي انتهت إلى هذه النهاية - طوى الكاتب هذه الجزئية المتقدمة من الزمن، وبدأ القصة من أولها .. وبهذا يضمن الكاتب مشاركة القارئ له في سيره مع الأحداث، وفي خطوه معها، خطوة خطوة، ومرحلة مرحلة ١ .

وهذا اللون من ألوان التوزيع الزمني في القصص، وتحريك أجزائه في اتجاهات غير اتجاهاته الطبيعية - لم يتجه إليه القصص القرآني، ولم يأخذ به، بل أقام الزمن في قصصه على الوجه الطبيعي له، حيث يتحرك إلى الأمام دائماً ١ .

ولم يخرج القرآن في قصصه عن هذا الأسلوب حتى في الحدث الكبير الذي يمكن أن تعرض أجزائه مستقلاً بعضها عن بعض، وحتى ليكن أن يقدم فيه جزء على جزء مستصحباً معه زمنه في أي وضع يأخذه، من غير نظر إلى الترتيب الطبيعي لتتابع هذه الأجزاء .

في سورة آل عمران تذكر قصة مريم، وقد جمعت أكثر من حدث، في سلسلة من الحلقات، متدرجة مع الزمن سيراً إلى الأمام .. وذلك على الوجه الآتي :

١ - آل عمران وقد اصطفاكم الله سبحانه فيمن اصطفي من عباده : « إن الله اصطفي آدم، ونوحاً، وآل إبراهيم، وآل عمران على العالمين .. »

٢ - امرأة عمران، (أم مريم) وقد نذرت لله ما في بطنها ليكون في خدمة بيت الله : « إذا قالت امرأة عمران ربّ إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم .. فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى، والله أعلم بما وضعت، وليس الذكر كالأنثى، وإني سميتها مريم .. »

٣ - ثم هاهي « ذى مريم » تدرج في مدارج الكمال، وتنشأ على البر والتقوى « فتقبلها ربها بقبول حسن، وأنتها نباتاً حسناً، وكفلها زكريا، كلما

دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال : يا مريم .. أئنّى لك هذا ،
قالت هو من عند الله .. إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

٤ — ثم هذا فضل الله بطرق مريم ، فيجئها البشير السماوي بأنها
ستحمل غلاماً زكياً اسمه المسيح عيسى بن مريم : « وإذ قالت الملائكة
يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم .. »

٥ — ثم ها هو ذا المسيح يطلع على الدنيا حاملاً هذا النور في قلبه ، وفي
فه ، وعلى لسانه ، وبين يديه ، ومن خلفه : « ورسولاً إلى بني إسرائيل أئنّى
قد جئتكم بآية من ربكم ... »

وهكذا نرى التسلسل الزمني يجري مع الأحداث ، أو بمعنى أدق يدفع
هذه الأحداث الكبار على ترتيب تصاعدي .. الأجداد ، فالآباء ، فالأبناء
وهذا ما جرى عليه القصص القرآني كله .

مرة واحدة سلك فيها القرآن غير هذا الطريق .. هي قصة بني إسرائيل
مع البقرة التي أمرهم الله بذبحها .

ففي هذه القصة تجيء الأحداث على غير الترتيب الطبيعي لها في زمنها ..
فلقد قتل فيهم قتيل ، ثم اختلفوا فيما بينهم قتله .. وكادت تكون فتنة
فيهم وفساد كبير .. فظلبوا إلى موسى أن يأتيهم بمعجزة تكشف عن هذا
الأمر ، وتجيء وجهه .

وجاءهم النبي بمعجزة فاهرة في صورة فاضحة من السخرية بهم ،
والاستخفاف بمقولهم ، وبما يحتمل إليهم الغرور به من أنهم على شيء من
العلم والحكمة .

لقد دعاهم إلى أن يذبحوا بقرة ، ويضربوا القتيل ببعض لحمها فيصحو ،
وينطق باسم قاتله ؟

وعجبوا لهذا الأمر ، وكادوا ينصرفون عنه ؟ فاشأن البقرة وهذا القتل ؟ وعصوا عن أن الأمر أمر قدرة الله التي تمد الأنبياء بالمعجزات .. وأن هذه القدرة لاتتملق بذوات الأشياء وأشكالها .. وأنها تظهر في الذرة كما في الجبل العظيم . وفي الحجر الأصم ، وفي الإنسان الحي الناطق .

وإذن فليس الأمر متعلقاً بالبقرة أو غيرها ، وإنما البقرة وغيرها مجلى لقدرة الله ومظهر لجلاله وعظمته .. ؟

وهل عصا موسى التي رأوا ما رأوا من معجزاتها إلا قطعة من الخشب ، شأنها شأن أى عصا ، أو خشبة ؟ ولكنها إذ أمدتها القدرة الإلهية بأمدادها صارت إلى ما صارت إليه من آيات ومعجزات .

وإذا كان في البقرة واختيارها بالذات ، وجه من العجب والاستغراب . فهو الامتهان لعقولهم ، والجذع لأنوفهم ، وسوقهم سوق الأنعام .

ثم لقد استبد بهم الضلال ، وخيم عليهم العمى فأبوا أن يروا البقرة التي أمروا بتذبحها إلا أن تكون على حال وأوصاف على غير تلك الأحوال والأوصاف المعهودة في عالم البقر ، وإلا فلن يصح أن تحمل أى بقرة معجزة أو تتحملها ..

وكانوا كلما فتحوا باباً دفع بهم موسى إليه ، وسار معهم فيه ، إمعاناً في الهزء بهم ، ومضاغفة لإعنائهم والمشقة عليهم ، إذ أبوا إلا ركوب اللجاج والعناد .

وفي هذه القصة يقول الله تعالى : « وإذا قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة .. قالوا أتأخذنا هزواً ؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ، قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون .. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ قال إنه

يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسمى الناظرين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ، قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول ، تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق ، فذبحوها وما كادوا يفعلون .. وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ، فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون « (١) .

انظر .. كيف كان القوم على هذا القدر الكبير من الجهل الغليظ ، والعداوة الأحمق .. إنهم مازالوا في شك مما جاءهم به موسى ، وبما أراهم من آيات الله ، كما يقول الله سبحانه وتعالى فيهم وفي موقفهم من أحد أنبيائهم ، وهو يوسف عليه السلام : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات .. فأنزلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولا (٢) » . فهم لهذا يأبون أن يقولوا : « ادع لنا ربنا » .. لأنهم مازالوا في مربة منه ، وما زالوا يبحثون عن أرباب .. فما أشد ظلام هذه العقول ، وما أفسد طبيعة هذه الطباع . ثم انظر كيف ختمت القصة بما كان في واقع الأمر بدءاً لها .

وذلك لأن طبيعة الأمور في القصة قد انقلبت وكان أبرز وأكرم عنصر فيها وهو الإنسان قد صار في هؤلاء القوم مسخاً ، فناسب ذلك أن ينقلب وجه الزمن لهم ، وأن يدفع بهم إلى الحياة على أدبارهم !

« وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون .. فقلنا اضربوه ببعضها .. كذلك يحيي الله الموتى ، ويريكم آياته لعلكم تعقلون .. »

(١) سورة البقرة : ٦٧ - ٧٣

(٢) سورة غافر : ٣٤

أما المكان فليس له هذا الأثر البعيد في صنع الحدث ، وفي تطوره . . .
فقد يعيش الحدث ويتطور ، وينمو في مكان لا يتحول عنه . وقد لا يكون
في استصحاب المكان في رواية الأحداث أى أثر إلا إذا كان لهذا المكان
طبيعة خاصة يتأثر بها الحدث ، ولا يقع له هذا التأثير في مكان آخر . . .

والقرآن الكريم ينظر إلى المكان في قصصه على هذا الاعتبار أو قريب
منه . . . فهو لا يلتفت إلى المكان ، ولا يجرى له ذكرا . . . إلا إذا كان
للمكان وضع خاص يؤثر في سير الحدث ، أو يبرز ملامحه ، أو يقيم
شواهد العبرة والعظة منه .

وأوضح شاهد يظهر فيه لتحديد المكان قيمة نفسية وروحية تفتقد لها
الحادثة إذا هي لم تجيء في صحبة هذا المكان ، ولم تتلبس به - ما جاء في
حديث الإسراء ، حيث جاء ذكر الإسراء مقترنا بالمكان الذي بدأ منه والذي
انتهى إليه ، فقال تعالى : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام
إلى المسجد الأقصى » . . . فالمسجد الحرام في مكة ، والمسجد الأقصى في
بيت المقدس ، وبين هذين المسجدين : أو البلدين الحرامين كان مسرى
الرسول . . . ثم كان الليل - وهو الزمن الذي حدث فيه هذا الإسراء -
لوناً مطلوباً ، وبهذا تتضح معالم الحدث كلها وتتحدد وجوهه . وليس يغنى
في هذا المقام أن يجهل المكان الذي كان منه الإسراء أو الذي انتهى إليه ،
إذ تفتقد الصورة هنا هذا اللون الذي يشيعه ذكر المسجدين الحرامين في
النفوس من مشاعر الجلال والإعظام . إلى ما يبعثه ذكر الليل من خشية
ورهة ، يمزجان بمشاعر الجلال والإعظام فيتشكل منها جميعاً أحاسيس
تشيع في نفوس المؤمنين السعادة والرضا وتبعث في قلوب الكافرين والمنافقين
الحسرة والسكمد .

أما إذا لم يكن للمكان هذه الخاصية التي تجعل له وضعاً متفرداً بين

الأمكنة بحيث تهب منه على الحدث أنسام معطرة أو أنفاس محترقة ، فإن القرآن لا يلتفت إليه ، ولا يجعل له ذكراً .

ففي قصة أصحاب الكهف مثلاً .. لم يذكر القرآن الكريم شيئاً عن المكان الذي جرت أحداث القصة على مسرحه فلم يشر إلى البلد أو الإقليم الذي ينتهي إليه هؤلاء الفتية الذين أووا إلى الكهف .. ومع هذا فإن ظلال المكان تلح هنا وهناك في ثنايا القصة القرآنية لهذا الحدث .. فهؤلاء الفتية قد أجمعوا أمرهم على أن يعزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله ، وأن يلتجئوا إلى كهف بعيداً .. عن الأعين حتى تتاح لهم فرصة الهرب إلى بلد غير هذا البلد .. ثم نرى الفتية وقد حوam الكهف .. بعيداً عن المدينة وأهلها .. ثم هؤلاء هم يستيقظون بعد هذه النوم الطويلة ، ثم يبعثون أحدهم إلى المدينة ليمتار لهم طعاماً .. وهكذا نرى المكان يشارك في تحديد أبعاد الأحداث مشاركة تعين على تنمية الحدث وفي تحريكه ، ولكن في تناقل وتباطؤ .

ذلك على حين نرى الزمن في هذه القصة يروح ويغدو بالأحداث . .

فن الماضي البعيد تسلسل خيوط أشبه بخيوط الفجر ، تتقدم موكب الصباح . . ثم لا تلبث هذه الخيوط أن تتجمع فتتشخص منهما شخص خاص القصة .. فرى بضعة فتيان ظهروا وسط ظلام الإلحاد والكفر ، وقدر فوا ربههم وآمنوا به .. ثم إنهم لا يصبرون على هذا المنكر الذي عليه قومهم ، ويخشون أن يفضح أمرهم فيفتنوا في دينهم .. وهنا يزعمون مفارقة الأهل والبلد .. وهناك عند كهف على مراحل من المدينة يلقون بأنفسهم في أطوائه فيلقاهم الكهف ، ويقم عليهم سترأ .. ثم يغشاهم النعاس فينامون ، ويطول نومهم أكثر من ثلاث مئة سنة .. وهم في خلال تلك المدة يحيون مع الزمن .. فالشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم

ذات الشمال .. وهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال كما يتقلب النيام في نومهم .

* * *

هذا ، وبلاحظ أن المكان الذي نعينه في القصص القرآني مكان — مجرد مكان — بلا حدود ولا قيود .. وذلك في الأعم الأغلب من الأمكنة التي ذكرها القرآن في قصصه .

وقد يذكر القرآن المكان ذكراً محدداً ، كـ مصر ، ومدين ، والطور ، والأحقاف .. وهنا يكون لهذا الذكر داعية في تلوين الحدث القصصي بلون خاص ينفض عليه من هذا المكان ، فتبرز فيه من ملامح وآثار ، تقوى من دواعي العبرة والعظة التي يحملها .

ونذكر لهذا مثلاً :

في قصة يوسف تحدد المكان الذي 'حمل إليه ' يوسف « وأنه مصر .. وفي هذا ما يشير إلى تلك الغربية النائبة التي فصلت بين يوسف وأهله .. فأين أرض كنعان بالشام ، حيث أبوه وأهله ، من أرض مصر التي استقر فيها ؟

ثم إنه كان لا بد من أن يذكر ذلك المكان (مصر) الذي استقر فيه يوسف والذي سيكون مسرحاً لأحداث كثيرة ستقع في هذه القصة ، وأهم هذه الأحداث حلم « فرعون » وتأويل يوسف له ، ثم قيام يوسف على تدبير شؤون الحياة في مصر خلال تلك الأزمة العصبية ، ثم مجيء يعقوب وبنيه آخر الأمر إلى مصر ، واستقرارهم بها وتكوين النواة التي اجتمع عليها بنو إسرائيل في مصر ، والتي انتهى أمرهم فيها إلى يد فرعون ، الذي أخذهم بالبأساء والضراء ، حتى بعث الله موسى عليه السلام لاستنقاذهم من يده .. وفي هذا ما فيه من تذكير لأولئك اليهود الذين كانوا يقيمون بالمدينة ، والذين استقبلوا الدعوة الإسلامية باللجاج والعناد ، وأن الحال يقتضيه أن يذكرها

فضل الله عليهم فيما امتن به على آبائهم ، بما بعث فيهم من رسول نجاهم من العذاب المهين ، وهذا رسول كريم هو محمد عليه السلام ، قد جاء ليخلص الناس من العمى ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، فإن لم يستجيبوا له ، فإنهم لا بد مغرورون في هذا الضلال الذي يطبق عليهم من كل مكان .

وإذن فالزمان ، أولاً ، والمكان ثانياً ، عنصران عاملان في بناء القصة ، وفي تحريك أحداثها ، وفي إلباسها أثواباً من الواقع الذي يشد الناس إليها ، ويدنيهم منها ..

أما القدر الذي تشتمل عليه القصة منهما فهو رهن بالأحداث ذاتها ، وبقدرة الكاتب على تلوين قصته بهما ، ووضع القدر المناسب في الحال المناسب .

وسرى عند عرض ما نعرض من القصص القرآني كيف كان الإعجاز القرآني في بعث العناصر التي شاركت في الحدث القصصي ، بمنأى أمسك بكل القوى العاملة في حياة هذا الحدث ، ووضع كلامها بالموضع المناسب ، وبالقدر المناسب .. ومن ذلك عنصرا الزمان والمكان ، اللذان احتفظ لهما القرآن في قصصه بأعدل مكان وأنسبه .

الأسماء والمسميات :

ومن العناصر البارزة في مادة القصة ، وفي مسها بلهجات الحياة - ذكر أسماء الأشخاص ، وما لهم من صفات جسدية ، أو نفسية ، أو عقلية ، فذلك من شأنه أن يرفع لعيني القارئ أو السامع للقصة ، صوراً حية ، لها وجود حقيقي ، أو ما يشبه أن يكون حقيقياً ، وليس أدل على ذلك من أن هؤلاء الأشخاص الذين تعرضهم القصة يحملون هذه الأسماء التي كانوا يعيشون بها في الناس ، وفي الحياة ، معروفين بها ، مميزين عن غيرهم ، بما تميز به الأعلام أصحابها ..

وفي أحيان كثيرة تعنى الصفة عن « الاسم » فيمكننى بأن يقال :
طبيب ، أو مهندس ، أو سائق ، أو عامل ، بدلا من أن يقال محمد الطبيب ،
أو أحمد المهندس ، أو إبراهيم العامل .. وهكذا .

وفي أحيان أخرى ، الأمر إلى ذكر الاسم ، والصفة ، ويمكننى بأن يقال
إنسان من الناس ، أو أحد المسافرين .. مثلا ..

وهذا كله يرجع فيه إلى مكان « الشخصية » من القصة ، فإن كانت من
الشخصيات التي تدور حولها أحداث القصة ، كان لابد من الكشف عنها ،
بأن يذكر اسم صاحبها ، والوصف الذي له في المجتمع .. وإن كان ذاموقف
لا يتجاوز حواشى القصة ولا يبرح أطرافها فليس من الضروري أن يذكر
شيء عنه ، إذ يكفي أن يقال عنه إنه واحد من آحاد الناس ، يؤدي الدور
الذي وكل إليه القيام به في العمل القصصى .

هذا في القصص الأدبى الذي يصطنعه الكتاب من معطيات الخيال ، أو
يصنعونه من أحداث التاريخ .. في هذا القصص تكون الشخصيات التي
تظهر على مسرح الأحداث أو أكثرها من خلق الكاتب ، ومن مواليد
خياله ، ومن هنا لا يكون للكشف عن أسمائها أثر في وجودها الذي أقامها
الكاتب عليه لأنه معلوم - مسبقاً - أن هذه الأسماء مستعارة ، تلبس
أجساداً مستعارة أيضاً ، وهذا من شأنه أن يضعف الإحساس بوجود
الشخصية ، في الدور الذي تمثله .. ولهذا ، فإن الصفات ، لا الأسماء ، هي
التي تحدد معالم الشخص هنا ، وتكشف ظله ، وتحدث عن ذات قد يكون
لها وجود ، ولها مفهوم !

أما في القصص القرآنى ، فالأمر مختلف ! حيث أن كل مواده من أناس
وأشياء ، وزمان ، ومكان .. كلها من بين يدي الواقع المصطفى ، الذي لا تشوبه
شائبة من خداع أو وهم ، أو نسيان !

ولهذا ، فكل شيء في الحدث القصصى القرآنى ، له وجود ذاتى ، وله تاريخ ، وله صفات قام عليها ، وإسم عرف به !
ولهذا أيضاً ، فإنه إذا ذكر القرآن في قصصه أسماء الأشخاص ، فإنما يذكر شخصية تاريخية معروفة ، قد ذكرتها الكتب المقدسة من قبل ، أو حفظها تاريخ الجماعة التي عاشت فيها تلك الشخصية ، أو أنها ضاعت من حافظة التاريخ ، وبقى علمها عند العليم الخبير ..

فقد ذكر القرآن الكريم أسماء كثير من الأنبياء الذين ذكرتهم الكتب السماوية ، كما ذكر بعض الأسماء لشخصيات نهدت دعوة السماء ، وحادت الله ورسله ، كفرعون ، وهامان ، والسامرى ، وجالوت .. وهو إذ يذكر مثل هذه الأسماء فإن الوجود كله شاهد على وجودها ، فإن أنكرها أوجهاها بعض المعاندين والمكابرين ، فإن الواقع يحفظها ليوم يؤمن فيه المنكرون ، ويعلم فيه الجاهلون .

ومن هنا فلا يكون هناك من ينازع فيها ، أو يقول مثل هذه القولة الضالة : « إن هذا إلا أساطير الأولين » .. فإن وجد في الناس من يستبد به العناد والضلال فينكر الشمس في كبد السماء ، ويقول عن هذا القصص : إن هذا إلا أساطير الأولين - إن وجد ذلك الشخص ، فإن قوله تلك لا يتجاوز موقع قدميه ، بل تسقط على الأرض خجلاً ، وخزياً ، مما تنادى به شواهد التاريخ على كذب تلك القولة وضلالها .

ولهذا التأكيد البالغ لوجود الشخصيات التي ذكرها القصص القرآنى بأسمائها أثر بعيد في الأحداث التي تشارك فيها ، وفي الأعمال التي تضاف إليها ، حيث يرى المرء وحده الحركة بين الشخصيات والأعمال التي تصدر عنها ، وحيث لا تلوح لعين الناظر شخصيات مهزوزة متعددة تحاول كل منها أن تمسك بالحدث ، بعد أن يبرز ويأخذ مكانه في الوجود .. .

ولنضرب لذلك مثلاً ..

يوسف عليه السلام ، وقصته مع امرأة العزيز ..

إنها قصة ذات فصول متعددة ١٠٠

فهو ينشأ في بيت «العزيز» غلاماً ، حتى يبلغ أشده ، ويجاوز مرحلة الصبا ..
ثم تبدأ «الأزمة» في القصة ، حين ترى امرأة العزيز في يوسف شباباً
ناضراً ، وجمالاً مشرقاً رائماً ، وأدباً رفيعاً طالياً .. فتدعوها نفسها إليه ،
وتراوده عن نفسه .. ولبس في يوسف هذه الدعوة بالإباء والتعفف ، إنه يخاف الله
ويتقيه في دينه ، وفي مروءته التي تأتي عليه أن يلقي إحسان «العزيز» بهذه
الحياة ، إنه ظلم أفدح الظلم أن يجازى الإحسان بغير الإحسان !

ثم تتمقد سحب الضعف البشري فتلف في ضبابها المرأة وربيبها ..
وبستشعر يوسف مدميم العزيز فيحارل أن يخرج من هذا الضباب .. ويهيم
مسرعاً نحو الباب ، وتلحق به امرأة العزيز فتتملق بمقيصه ، ويتمزق منه
معلقة يدها به .

وهنا يكون «العزيز» قد وصل إلى الباب ، فيرى هذا المشهد فيلقاه
في دهش وذهول !

وهنا تبادر امرأة العزيز فتدفع التهمة عن نفسها ، وترمى بها على يوسف
في جراءة .. ثم لا تنتظر رأي العزيز في صحة هذا الاتهام ، فتغريه به ، وتعمل
على توكيده في نفسه بأن تطلب إليه رأيه في الجزاء الذي يجزى به هذا المتهم
البريء !! واستبقا الباب . وقد تقيصه من دبر ، وألقيا سيدها لدى الباب ..
قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم .

وهكذا تمضي الأحداث فيُدفع بيوسف إلى السجن ، ثم يخرج من السجن
ليتولى تدبير خزان فرعون ، ويدير شئون الملك !

ونعود إلى ما قصدنا إليه من سوق هذا المقطع من هذه القصة .. وهو
الترابط الوثيق بين «الشخص» والحدث أو الأحداث في القصص القرآني ..

حيث تظل شخصية يوسف هي هي ، على الوجه الذي تطالعنا به من أول القصة إلى آخرها ، وحيث نلقاها بعد ذلك مرات ومرات ، دون أن تتغير ملامحها ، أو تبهت مشخصاتها . . . ولو أن يوسف شخصية روائية لكان له في كل خطوة معنا في هذه القصة وجه ، ولكان له في كل مرة نلقاه فيها شخصية غير الشخصية الأولى ، ذلك أننا لانتزم كثيراً احترام الوضع الذي رسمه المؤلف لشخصيته ، بل نعمل دائماً - وبغير قصد - على أن نشاركه في خلق شخصياته ، وفي التصرف فيها حسب ما نرى ، وبما يتلبس بنا من ظروف وأحوال !

ومثل هذا أو قريب منه ، الشخصية التاريخية ، حيث أن القارئ السامع للقصة التاريخية يصحبه شعور بأن أحداث هذا القصة وأشخاصه قد لوئها المؤلف بخياله ، وأجرى عليها كثيراً أو قليلاً من التحوير والتبديل ، وهذا الشعور وحده كاف لأن يجعلنا في حلٍّ من أن نصنع صنيع المؤلف ، فنلون الأحداث والأشخاص ، ونغير ونبدل ، كما لون هو وغير وبدل . . . وهذا من شأنه ألا يقيم الأحداث والشخصيات على وجه واحد أبداً . . . بل تظل تهتز وتتغير وجوهها وشخصياتها من أول الطريق إلى آخره .

وهناك شخصيات لم يذكر القرآن اسمها ، ولم يكشف عن وظيفتها الاجتماعية في الحياة ، بل اكتفى بذكر بعض مآلها من صفات نفسية أو روحية ، مثل قوله تعالى في صاحب موسى ، وهو الخضر عليه السلام ، « فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علماً » (١) وقوله سبحانه في ذلك الرجل المؤمن من قوم فرعون ، والذي كان لساناً من السنة الحق في نصرة موسى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه . . . أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله » (٢) وكقوله سبحانه في صاحب سليمان الذي جاءه

بعرض ملكة ضبا : « قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن
يرتد إليك طرفك (١) » .. وهذا إنما كان حيث لم يتعلق غرض بذات الشخص ،
وبالوظيفة الاجتماعية التي له ، وإنما الشأن كله فيما يشتمل عليه كيانها من قوى ،
وما لهذه القوى من أثر في مجرى الحدث الذي تعرضه القصة .

وقد يعرض القرآن بعض الشخصيات مجردة من أى مشخص ، أو مخصص
لها مثل « رجل » .. هكذا ، بلا أى وصف له .. حيث يصدق على كل رجل
يكون قادراً على ملء هذا الفراغ الذي يملؤه رجل القصة هذا .

ويكثر هذا اللون في الأمثال التي يضربها القرآن لشرح حقيقة ، أو
توضيح قضية .. مثل قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً .. رجلاً فيه شركاء
متشاكسون ، ورجلاً مسلماً لرجل .. هل يستويان مثلاً ؟ الحمد لله بل أكثرهم
لا يعلمون » (٢) ومثل قوله سبحانه : « وضرب الله مثلاً رجلين .. أحدهما أبكم
لا يقدر على شيء ، وهو كمثل على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير . هل
يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم » (٣) .

ومثل قوله جل شأنه : « وضرب الله مثلاً .. قرية كانت آمنة مطمئنة
يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع
والخوف بما كانوا يصنعون » (٤) .

فهذه الشخصيات النسكيات لاندع وضرورة إلى تعريفها ، لأنها لا تؤدي
دورها في الحدث القصصي هنا باعتبارات خاصة مميزة لها ، وإنما هي مثل عام
لجنسها كله ، في ملاحيته للقيام بهذا الدور .. ومن هنا تكون صومية المثل ،
وصلاحيته الشاملة لجميع أفراد الجنس فيما ضرب له ، وسبق من أجله .
فالقرية الآمنة مطمئنة التي يسوق الله إليها الرزق من كل مكان ..

(٢) الزمر : ٢٩

(٤) النحل : ١١٢

(١) النمل : ٤٠

(٣) النحل : ٧٦

ثم تبطر وتكفر بأنعم الله ، فيذيقها الله لباس الجوع والخوف .. هذه القرية ،
هى مثل لجميع القرى ، ولجميع الأفراد ، والجماعات والأمم . كما يشير إلى ذلك
قوله تعالى عن تلك القرى التى أهلكتها : «وتلك القرى أهلكتنا لما ظلموا ،
وجعلنا لمهلكهم موعدا » (١)

وهذان رجلان : رجل سَلِمَ لرجل ، ملك خالص له ، والآخر فى ملك
جماعة مختلفة متشاكسة ، هذا يذهب به يمينا ، والآخر يريد أن يذهب به
شمالاً ، والثالث ، والرابع ، لكل منهما مذهب فيه .. فهل يستوى موقف
الرجلين فى المشاعر ، والعواطف والمدركات ؟ وشتان بين الرجلين .

وهذان رجلان أيضا ، أحدهما أبكم ، مغلق المشاعر والعواطف والمدارك ،
لا يفتح فيه بغير ، إنه مثل لكل إنسان منطوق على نفسه ، لا يحس بالحياة من
حواله ، ولا يشعر الناس ولا الحياة بوجوده .

وأما الآخر ، فهو إنسان يشعر بالناس من حوله ، ويقم بينه وبينهم
موازين الحق والعدل - إنه مثل لكل إنسان حى عامل فى الحياة ، سالك
مسالك الشرف والاستقامة .

فهل يستوى الرجلان مكانةً على موازين الرجال ؟ ذلك مالا يكون .

• • •

ولعمومية الشخصية التى تكون مضرِب المثل فقد سوغ ذلك لبعض
الباحثين أن ينظروا إلى تلك الشخصية نظرة لانتقيمها فى واقع الحياة ،
ولا تعطىها الوجود التاريخى ، فهى عندم شخصية قامت فى ظل الفرض
والتوهم . !

ولاشك أن لهذه النظرة ما يؤيدها فيما نضرب نحن من أمثال ، أو ما نحكي منها . . فنحن حين نقول : لو فرضنا أن رجلاً عمل كهذا ، وكذا . . فإننا لا نقصد رجلاً بعينه ، ولا تقع في تفكيرنا صورة محققة له . . ومثل ذلك تماماً . . قولنا : مثلاً لو أن رجلاً عمل كذا أو قال كذا .

ولأن شخصية المثل فرضية متوهمة ، غير محققة ، فقد رأى بعض الباحثين أن ذلك قد يصدق على الأمثال التي جاءت في القرآن الكريم التي أشرنا إلى بعضها . . ومن هؤلاء المرحوم الشيخ محمود شلتوت ، إذ أن لفضيلته هنا رأياً يفرق فيه بين أحداث القصص القرآني وشخصياته ، وبين أحداث الأمثال وشخصياتها ، حيث يرى أن الأولى من صميم الواقع الذي لاشك فيه ، على حين أن الأخرى قد تكون من الواقع أو مما لم يقع .

وفي هذا يقول الشيخ شلتوت : « إن هناك فارقاً بين ما ساقه القرآن حكايةً عن الأمم والرسل والأشخاص ، وما ساقه على أنه مثل ضربه للناس ، تقريباً لهم . فإن قصص الرسل وما التحق بها ، إنما هي حقائق ثابتة ، ووقائع حاصلة ، والقرآن مخبر بها ، لا مبتدع لها ، كل ما في الأمر أنه يقف عند مواطن العبارة فيها ، فيجلبها ، ويلفت إليها .

ثم يقول : « أما الأمثال فقد تكون حوادثها مبتدعة ، وأشخاصها مخترعة ، وقد تكون في نفس الأمر مصورة لماض وقع ، وتاريخ سلف . »
ويزيد الأمر وضوحاً فيقول : « وعلى هذا ينبغي أن تكون نظرنا إلى قصص القرآن وما ضرب من أمثال على هذا النحو :

١ - كل جاء حديثاً عن الأمم وأنبياهم ورسلهم ، وما أنبأ الله به عن أشخاص عينهم بما يفيد أنهم كانوا ، وكان منهم - يجب الإيمان به كما ورد في القرآن . فمن نفي شيئاً منه أو لم يلتزم مقتضاه فهو متبع غير سبيل المؤمنين .
المؤمنون مصدقون بما قصه الله عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب

ويوسف ويونس وموسى وعيسى ، وجميع الأنبياء والرسل ، ومصدقون بما قصه الله عن عاد وثمود ومدين وأصحاب الأبيكة وغيرهم من الأقوام والبلاد ، وتصديقهم بهذا شامل للتصديق بوجود الأشخاص والأقوام والبلاد ، وبالحوادث التي أسندت في القرآن إليهم .

٢ - أما ما جاء ظاهراً في أنه مثل ضرب ، من مثل قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً » أو « ضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم » أو « ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة » فيجوز للمؤمن أن يمتد أنه تقرب من الله وتمثيل . وهو بخلاف ما ذكر فيه لفظ المثل وأسند إلى أشخاص معينين مثل قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط » و « ضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون .. » فإنه ليس من قبيل التمثيل المبتدع ، وإنما هو تمثيل بناحية حقيقية ، وجدت في شخص واقعي يراد به لفت النظر إلى هذه الناحية والاعتبار بها ^(١) .

فالشيخ شلتوت يفرق بين القصص والأمثال من جهة ، ثم يفرق بين الأمثال المضروبة لمجرد التمثيل من غير تحديد أشخاص وأماكن ، والأمثال المضروبة وفيها أشخاص أو أماكن مذكورة بأعيانها وأوصافها .

ويرى الشيخ شلتوت أن الأمثال المضروبة لمجرد التمثيل المطلق يجوز للمؤمن أن يمتد أنها تقرب من الله وتمثيل ، ومعنى هذا أن أحداً لم تقع ، مثل قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . فهذه القرية - على هذا الرأي - يمكن ألا يكون لها وجود في الحياة ، كما أن الأحداث الجارية عابها لم توجد كذلك ، وإنما كل

(١) عن مجلة رسالة الإسلام التي تصدرها دار التقريب بالقاهرة .
(العدد الثالث من السنة السابعة ص ٢٤٣)

هذا من قبيل التمثيل، الذي يراد به توضيح الحقائق، وكشفها، بهذا التصوير
المجسد لها.

ونحن نخالف «الشيخ» في هذا الذي ذهب إليه في شأن الأمثال المضروبة
على هذا النحو، ونرى أن كل مثل ضربه القرآن، سواء جاء مطلقاً غير مقيد
بأشخاص ولا أمكنة، أو كان مقيداً بهما — هو من عين الواقع فعلاً،
وليس هو من قبيل الفرض الذي قد يقع أو لا يقع... لأن الإحالة على المتوهم
والتخييل، والتعليق على الفرضي والتمثيلي إنما يكون عند العجز عن الوقوع
على الواقع المحقق، وذلك منفي عن الله سبحانه وتعالى، وعن قدرته التي
لا يعجزها شيء... تعالى الله سبحانه، وتعالى قدرته عن ذلك علواً كبيراً.

هذا، وليس لكلمة «مثل» التي يقيد بها الحدث المضروب في مساق
المثل — ليس لها تسلط على هذا الحدث، حتى تنقله من الحقيقة إلى الخيال،
ومن الواقع إلى الوهم كما يكون ذلك للأمثال التي نضربها، ونفترض وقوع
أحداثها، وإن لم تقع أو لن تقع، فذلك أمر أثبتنا عليه حقيقة أمثالنا التي
نضربها، وأخرجناها من أول أمرها على هذا الوجه التخييل المفترض، وليس
كذلك ما كان من عند الله، فإن الأمثال التي يضربها الحق سبحانه وتعالى
لا تجيء إلا من موارد الحق، ولا تخرج إلا من صميم الواقع، سواء عرفنا
هذا الواقع أم جهلناه.

وعلى هذا، فإن كلمة «رجل» أو «رجلين»، أو قرية ونحو هذا مما جاء
في أمثال القرآن — إنما تدل على ذات أو ذوات معينة مشخصة، عاشت في
هذه الدنيا، وكان لها دورها المقدور في حدود زمانها ومكانها... هذا ما ينبغي
أن نؤمن به في شأن تلك الشخصيات أو الأماكن المجهلة، وهو أنها قد
وجدت فعلاً، وأنها كانت على الوصف الذي وصفها القرآن الكريم به...
أما الذي لا يحسب من الإيمان ولا يضاف إليه، فهو ما أطلته المفسرون على
هذه الذوات المجهلة من أسماء، فيقال: إن الرجل هو فلان، أو فلان، وأن

القرية اسمها كذا أو كذا .. فهذا ماسكت القرآن عنه، وأنه لأخرى بنا أن نحترم صمت القرآن ، وألا ندخل عليه هذه المقولات التي لا تستند إلى علم ، والتي لا تعدو أن تكون من قبيل الأوهام والظنون .

المرأة في القصص القرآني

للمرأة مكانها في الحياة مع الرجل ، ونشاطها الوظيفي لا يختلف عن نشاطه إلا بالقدر الذي يختلف فيه تكوينهما العضوي ، وما ينشأ عن هذا الاختلاف من وجود استعدادات خاصة في كل منهما ، تجعله أقدر على بعض الوظائف ، وأكثر استعداداً لها من صاحبه .

فالمرأة والرجل هما الإنسان . كل منهما ذهب بأحد شطريه .. فهما متماثلان ومتغايران في وقت معاً ، أشبه باليدين أحدها يمين ، والأخرى شمال !
وبهذه النظرة ينظر القرآن الكريم إلى المرأة في أحكامه وتشريعاته ، وفي أوامره وزواجره ، وفي تعاليمه ووصاياه .. فهو يسوي بينها وبين الرجل حين يكون الحكم متعلقاً بشأن إنساني ، يقوم على أصل الفطرة المركوزة في الإنسان .. ثم هو يفرق بينهما حين يكون الأمر شيئاً خاصاً بالرجل ، أو أمراً منوطاً بالمرأة . فقد أعتق الإسلام المرأة من الصلاة إذا كانت حائضاً ، أو نفساً .. لأن ذلك أمر من طبيعة المرأة وحدها .

كذلك فرض الإسلام القتال على الرجال ، ولم يفرض على النساء ، لأن القتال لا يلائم طبيعة المرأة ، التي تلد الحياة ، فيكون من التناقض في الطبيعة أن تقتل ما تلد !

وفي القصص القرآني يبرز وجه المرأة كعنصر أصيل من عناصر هذا القصص ، حيث تأخذ المرأة مكانها فيه كإنسان ، وكامرأة معاً .. ولهذا فإننا نشهدها في كل نشاط إنساني تحتمله إنسانيتها وأنوثتها ؛ في مجال الحدث القصصي .

فهي إنسان عاقل رشيد ، يزن الأمور بعقله ، ويتعرف مواقع الخير
ببصيرته ؛ ثم إلى جانب هذا العقل وهذه البصيرة إرادة قاطعة ، ورأى جميع ،
يقهر الحدود ، ويحطم القيود ، ليمبر عن مشيئته وإرادته على الوجه الذي
شاء وأراد .. وهي لهذا مناط للتكليف ، وأهل للشواب والعقاب .. شأنها
شأن الرجل سواء بسواء .. والمثل المائل هنا امرأة فرعون .. لم يضلها
زوره وبهتانه ، ولم يُخَفِّها بطشه وسلطانها ، فما استبان لها الهدى من دعوة
موسى ، وما أن اطمأن قلبها إلى ما يدعو إليه حتى خرجت عن سلطان
فرعون ، وتحررت من دائرة فلأسكه الذي كانت تدور فيه الدولة كلها معه ،
وبهذا استحقت أن تكون مثلاً مضروباً للعقل الحر والإرادة المتحررة ،
وكان لها هذا الذكر الكريم الذي ذكرها الله سبحانه وتعالى به في القرآن
الكريم ، حيث يقول جل وعلا : « وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة
فرعون . إذ قالت ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ،
ونجني من القوم الظالمين » (١) .

إنها امرأة فرعون .. لم يذكر القرآن الكريم اسمها .. لتكون هكذا
علم جنس للمرأة ، من حيث هي ذات مؤهلة بكل ما هو مؤهل به الرجل من
قوى عاقلة مريدة ، إن شاءت أن تهتدى كانت من المهتدين ، وإن شاءت أن
تضل كانت من الضالين .

إنها هنا في كمالها ورشدها تناظر الرجل العاقل الرشيد من آل فرعون ،
حيث خرج على سلطان فرعون ، ودخل في دين الله ، كما يقول سبحانه وتعالى :
« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه .. » (٢)

وكما في الرجال غواية وضلال ، يعمون عن الحق ، ويلجئون في الضلال

(١) التحريم : ١١

(٢) غافر : ٢٨

والنهي وإن كانوا في وجه صبح مشرق ، وبين يدي نور مبين - كذلك في النساء من تكابر الحق ، وتتأبى على الهداية ، وتجمح جاح الأتان الوحشى ، ولقد تبلغ المرأة في هذا اللجاج والجحاح مدى لا يكاد يبلغه الرجال .. وليس هذا بالبعيد عن طبيعة المرأة .. فهى - على أى حال - أضعف من الرجل ، وليس كالضعيف إذا ركب رأسه ، وجن جنونه .. إنه إذا انحرف لا يستقيم أبداً !

يقول تعالى في شأن امرأتين كانتا زوجين لديين كريمين :

« ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحَ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا . فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ » (٢)

وانظر .. إنهما امرأتان في بيت النبوة .. كل واحدة منهما امرأة نبي عملاً بيته أنوار السماء ، وتعدوا وتروح عليه ملائكة الرحمن ، وهى تشهد كل هذا وتحضره ، ثم هى مع ذلك تأبى أن تفتح عينها لتستقبل هذا النور . وتعيش فيه ، بل تذهب مذهب الخلاف والعناد ، وتتحول عن زوجها بكل كيائها إلى الجبهة المعادية له ، المتربصة به .. !

وهذا موقف تبدو فيه المرأة وكأنها خارجة عن طبيعتها ، منحرفة عما ينبغى أن يكون منها من القيام وراء رجلها .. تشدأزره ، وتأخذ بناصره ، وخاصة إذا كان بالمكان الذى يدعو فيه إلى الخير ، ويبشر فيه بالرحمة والمودة ، ثم لا يجد من الناس إلا نفوراً منه ، واستخفافاً به ، وعدواناً عليه ! إنها إن لم تنتصر له فى شخصه ، فلتنتصر له فى شخص رجلها وأبى أبنائها ، ولكنها مع هذا إنسان له عقل ، وله إرادة ، وله متجه يأخذه بما يراه عقله ، وتدفعه إليه إرادته .

وعلى أىّ فهذا مثل للمرأة المنحرفة ، ترى شواهدا قائمة في كل مجتمع بشرى ، فإذا كان في النساء - وهذا في الكثير الغالب - من يكن مع رجالهن أينما كانوا ، فإن فيهن أيضا هذا الصنف المشاكس المخالف الذي لا يرضى أن يعيش في غير الخلاف والمشاكمة ، حتى في مواقع الرحمة والرضوان ..

* * *

ثم إننا نرى - في القصص القرآني - المرأة « الأنثى » تستجيب لطبيعتها في طلب الزوج ، وفتح منافذ وصوله إليها ، في تल्पف ، ومداراة ، من غير أن يُخدش حياؤها ، أو يُجرح كبرياؤها ..

هذا ما يذكره القرآن الكريم في ابنة النبي الكريم شعيب مع موسى عليهما السلام .. « جاءته إحداهما تمشي على استحياء .. قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجرًا ما سقيت لنا^(١) .. » فهي إذ تمشي إلى موسى على خفر واستحياء ، إنما تجيء إليه في صورة أنثى تهتف بالرجل : أنها المرأة الصالحة له ، إن كان له في الزواج أرب ! .

وانظر في قوله تعالى : « تمشي على استحياء » .. يا الله ، وبالرعاة كلامه المعجز المبين .. « تمشي على استحياء » ! لقد تجسد الحياء فصار بساطاً ممدوداً تمشي عليه .. إنها لا تمشي على أرض ، ولا لكنها تمشي على « حياء » تتمتع فيه قدماها ، وتقتصر به خطاها ، وبضطرب له كيائها ! فإذا انتهت به إلى أبيها لم تشأ أن تترك الأمور تجري في مجاريها ، بل تأخذ مكانها في هذا الموقف ، وتدلّي رأيها ، وتفتح لأبيها مداخل الحديث إلى ما يوثق الصلة بين موسى وبين أبيها ، ويقيّمه قريباً منها .. لعل وعسى ! .

«.. فلما جاءه وقص عليه القمص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين .
قالت إحداها : يا أبت استأجره .. إن خير من استأجرت القوي
الأمين» (١) .

إنها هي تلكم التي مشت إلى موسى على استحياء ، ودخلت به بيت أبيها ،
وقد أغرت أباهما بالاستمساك به ، والحرص عليه .. «يا أبت استأجره» .
وهي تكشف لأبيها عن صفتين في موسى يزيدان الرغبة فيه ، وتؤكدان
الحرص عليه .. «إن خير من استأجرت القوي الأمين» ، ويشير هذا
التدبير اللطيف الحكيم ثمرة ، ويؤتى أكله ، ويستجيب الشيخ في الحال
لمقترح ابنته ، وقد أحس بما يدور في كيائها : «قال : إنى أريد أن أنكحك
إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج فإن آتممت عشرأ فبن عندك ،
وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين» (٢) .

ويقبل موسى هذا العرض الكريم ، فيقول : «قال ذلك بيني وبينك
أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ» ، والله على ما نقول وكيل» (٣) .

وما كان أبرع شعيب وأحكمه وأعدله فيما بينه وبين موسى من جهة ،
ثم فيما بينه وبين ابنتيه من جهة أخرى ..

إنه لم يشأ أن يفرض على موسى واحدة بعينها من ابنتيه .. فلهوسى أن
يختار من يشاء منهما .. فلقد رآها من قبل ، وليس من الحكمة ولا المصلحة
أن تفرض عليه واحدة منهما حتى ولو كان لموسى رغبة فيها ، وكان لها رغبة
فيه ، إذ أن هذا العرض من شأنه أن يزعج موسى وأن يصدم إرادته ،
ويصادر رأيه .. ثم إن موسى سيعيش في بيت شعيب ، فإذا لم يكن قد
اختار من وقعت في نفسه من ابنتي شعيب كان في ذلك تنغيص له ، واضطراب
لحياته الزوجية ، ومعادلة وموازنة دائماً بين الأختين في كل وقت .

ثم إنه بهذا التدبير الحكيم قد سوى في القسمة بين ابنتيه في هذا الخير الذي ساقه الله إليهما .. فالأب لا يؤثر بهذا الخير واحدة على الأخرى حتى ولو كانت الكبرى ، ولو أنه فعل لكان في نفس الأخرى مرارة ، وليس الشأن كذلك إذا كان الخيار لموسى ، أو بالتراضى بين الأختين !

وواضح من قول شعيب « إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين » أنه لم يفصح صمن له الخيار فيهما . أهو موسى أم شعيب .. وذلك أمر إن قام على هذا الوجه في هذا الموقف وفي مواجهة البنيتين ، فإنه قد ترك البت فيه لمجلس خاص بين موسى وشعيب ، فإذا انكشف الأمر بعد ذلك صمن وقع عليها الاختيار كان القطع بأن ذلك الاختيار كان عن موسى ، أو عن شعيب ، أو عنهما معاً — أمراً بعيداً ، وهكذا تتوزع الصدمة التي ربما تصيب التي لم يقع عليها الاختيار — بين هذه الاحتمالات .. فتخف وتهون !

ثم إننا نرى المرأة أيضاً أثنى يستبد بها الحب ويغلبها الهوى فتنبع داعيه ، وتميل معه ، وهي في هذه السبيل تندفع بكل عاطفتها ، وتستخدم كل ما أوتيت من دهاء ومكر !

وامرأة العزيز منع يوسف ترينا المرأة في هذا الموقف الذي كثيراً ما تشهده الحياة .. من الضعف البشري في المرأة والرجل على السواء .. وسنعرض لهذه القصة في موضعها من هذا البحث إن شاء الله .

ثم إننا نرى المرأة حين تعطفها عاطفة الأمومة على الطفولة فيخفق لها قلبها وتستجيش لها مشاعرها .. وهذا ما نراه في امرأة فرعون وقد فزعت أشد الفزع حين رأت الطفل الرضيع موسى ، وقد هم به جنود فرعون أن يقتلوه امتثالاً لأمره ، فصرخت فيهم : « لا تقتلوه » ، وهي تقدم لهذه الصرخة بتلك المقدمة الرائعة المؤثرة في مثل هذا الموقف : « قره عين لي ولك » ..

ثم تُنهي هذه الصرخة بمثل ما ابتدأتها به : « عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » ١٤
فهي كذلك جاءت الآية الكريمة مصورة لهذا الهياج النفسى ، وهذا الفزع
الرهيب : « وقالت امرأة فرعون : قرتُ عينى لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا
أو نتخذه ولداً » ١٥ (١)

وزنى المرأة فى القرآن ، ملكة ، ذات دولة وذات سلطان ، ولها فى قومها
المكان الذى اكتسبته بعقلها وحكمتها وتدبيرها ، قبل أن تكسبه بملكها
وسلطاتها .. يتمثل ذلك فى ملكة سبأ ، وما كان بينها وبين سليمان
عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

وتُعرض هذه القصة فى القرآن عرضاً مشيراً ، لما فيها من غرابة هذا الطائر
الصغير ، ذلك الهدهد الذى يكشف مملكة غاب عن سليمان مكانها .. وهو
الذى سُخرت له الريح ، وسُخر له الشياطين .

ولقد كان فى هذه الحادثة ومجيئها على هذا الوجه مادعا لبعض المتشككين
إلى القول بأن القرآن يقيم قصصه على غير الواقع ، وأن هذه الحادثة شاعدا
يشهد لهذا ، إذ كيف يخفى على سليمان مثل هذه المملكة العظيمة ، مع
ما يقال عن هذا الملك العريض الذى كان له ، وما سُخر لخدمته من قوى
خفية وظاهرة ؟

والجواب على هذا فى إيجاز ، هو أن سليمان - مع ما سُخر الله من قوى -
كان أمره فى هذا مقصوراً على حدود مملكة لم يجاوزها ، ولم يلتفت إلى
ما وراءها ، وإلا لكان قد ملك الدنيا .. وذلك أمر لم يشهد به التاريخ ،
ولم يكن مما تصلح عليه الحياة ! !

أما وسليمان يعلم لغة الطير - كما علمه الله - ، فليس فى الأمر غرابة أن يتلقى
من « الهدهد » هذا الخبر .. كما أنه ليس من الغرابة فى شيء أن يكون
« الهدهد » - وهو على فطرته - منسكراً لما عنيه القوم من ضلال وكفر

ونعود إلى موضوعنا لنقول : إن مملكة سبأ تمثل المرأة في مكان أخذك والقيادة .. وأنها لم تغلبها عواطف الضعف ، التي تتسلط على كثير من النساء في مثل تلك الأزمة ، التي أحاطت بها وهددت ملكها ، بل استقبلت الأزمة بجزان ثابت ، وعقل يقظ ، جمعت إليها ذوى الرأى والنصح في مملكها ، فمركهم في هذا الأمر ، وتلتزم بالرأى الذى ينبجلى عنه الموقف .

« قالت يا أيها الملاء أفقتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ، قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك ، فانظرى ماذا تأمرين .. » قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجملوا أعزّة أهلها أدلة .. وكذلك يفعلون .. وإنى مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ،^(١)

وينتهى الأمر إلى أن تحبب المملكة إلى سليمان معلنة ولاءها له ، ولكنة ولاء العقل ، للحجة الواضحة ، والمنطق السليم .
وستعرض هذه القصة فيما نختار عرضه من قصص القرآن .. فى آخر هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

وهكذا نرى المرأة فى القصص القرآنى فى كل مجال يمكن أن تكون فيه .. من أعلى مستوى تصل إليه ، إلى أسفل درك تتردى فيه .
وليس لهذا كان حديثنا عن المرأة هنا ، وإنما كان حديثنا للكشف عن الأثر الذى لها ، والدور الذى تؤديه فى القصة .. إذ المرأة - كما نعرف - هى ركن قوى فى بناء القصة أو المسرحية أو الرواية فى العمل الفنى للبشر .. وبعيد أن يتخلو عمل من هذه الأعمال من المرأة ، كمنصر فعال فى جذب القارئ أو المشاهد ، وذلك بما تستدعى الحال من عواطف الرجل نحو المرأة ، والمرأة نجاة الرجل .. والقصة أو الرواية أو المسرحية التى يتخلو من المرأة - وهيات - تبدو موحشة ، جافة ، مملة ، لا يصبر الناس طويلاً معها ولا يقفون كثيراً عندها .

والقصة القرآنية ، لا تتخير مادتها مما من شأنه أن يثير العواطف ، ويهيج الحواطر ، أو يلفت العقول .. لجماله وروعته ، أو لقوته وبأسه ، أو لغرابته وندوته .. إنما يفعل ذلك من يتخير لنفسه بضاعة يروج لها عند الناس بالخداع والتعويه !

ولهذا لم يكن مكان المرأة في القصص القرآني مستجلباً للانتارة والتشويق وإنما كانت المرأة حيث كان لها مكان في هذه القصص .

فإذا صح أن يستجلب أصحاب القصص لقصصهم ألواناً غريبة للانتارة والتشويق ، فإن ذلك شأن غير شأن القرآن ، الذي تقوم رسالته على التربية والتهذيب ، وإته لما ينافي تلك الرسالة أن يتلبس بها خداع ، أو يغشاها تمويه ، أو يختلط بها زيف أو تضليل ، لإلهاب العواطف ، وإهاجة المشاعر !

والقصص القرآني أخذ نهج القرآن الكريم كله ، في أنه الحق ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه كما يقول الله سبحانه وتعالى فيه : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » .

وقد أشرنا من قبل إلى أن الحوادث التي يشتمل عليها القصص القرآني إنما هي قطع من أحداث الحياة ، جاء بها القرآن ، وبعضها من الماضي البعيد أو القريب ، كما هي ، دون أن يدخل عليها شيئاً بغير حقيقة من حقائقها ..

نقول هذا لنقرر أن المرأة وهي - كما قلنا - عنصر أصيل من عناصر العمل القصصي لم يكن القرآن لينظر إليها في قصصه هذه النظرة ، ولم يكن يصطنعها لأداء هذا الدور العاطفي الذي يكتسب القصص لونا زاهياً معجباً .. وإنما يذكرها القرآن - حين يذكرها - لأنها تمثل واقعاً من الحياة ، وتشغل جانباً كبيراً من جوانبها .. فإذا استدعى القرآن حدثاً من الأحداث ، ليسوقه

مساق القصة ، للعبرة والعظة ، وكان للمرأة مكان في هذا الحدث ، جاء بها لتأخذ مكانها في تلك الحادثة ، على نحو ما وقعت عليه . .

أما إذا لم يكن لها دور ، ودور يستدعيه الموقف ، فلا يُجرى لها ذكر ، ولا يُفسح لها مكان في القصص القرآني .

فالمرأة في القصة القرآنية ليست مقصودة لذاتها ، بحيث تكون محوراً تدور حولها أحداث القصة ، أو تستجلب استجاباً لتؤدي دور التشويق والاستنارة ثم تمضي ! وإنما هي في مكانها الحقيقي في الحدث - إن كان لها مكان - وإلا فلا يرى لها وجه ، شأنها شأن أي شيء غريب عن الحادثة ، من أشخاص وأشياء . . ولهذا خلا كثير من القصص القرآني من المرأة . . كقصة أصحاب الكهف ، وقصة العبد الصالح وموسى ، وقصة ذي القرنين . . ومع هذا فقد كانت هذه القصص الثلاث ، وهي في سورة واحدة - سورة الكهف - في المستوى الذي جاءت عليه قصة يوسف - إثارة وتشويقاً ، وروعة ، وسطوة . وذلك شأن القرآن كله ، قصصه ، وغير قصصه ، ترغيبه ، وترهيبه ، وأمره وزواجره . . إنه يفيض عن الحق ، وينطق بالحق . . والحق إذا خلص من الشوائب ، وصفا من الأدران كان مستغنيا بذاته عن ألوان الجمال ، ورحلى الجلال ، فهو الجمال كله ، والجلال كله . . وما الحق الحق إلا القرآن ، وإلا كلمات القرآن .

وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن وجود المرأة في بعض القصص القرآني إنما هو بما استدعاه الحدث القصصي الذي كان للمرأة مكان حقيقي فيه ، غير منظور إليها نظراً خاصاً ، كلون من الألوان المشعة أو المضيئة في القصة .

ولعل المرأة في قصة يوسف تبدو - في ظاهرها - أنها تؤدي في القصة دور المرأة المستجلبة لإضفاء لون زاه على ألوانها ، وكأنها إنما قصد إليها لتخفف تلك الألوان الحزينة التي بدئت بها القصة . . من إلقاء يوسف في الحب ،

والحزن الذي ملأ قلب يعقوب وبيته عليه ، إلى المحنة التي وقع فيها يوسف ،
والمكر الذي مكر له به ، حتى ألقى في السجن بضع سنين ، ثم ما كان من
الابتلاء الجديد ، الذي ابتلى به يعقوب وأبناء يعقوب ، حين دبر يوسف لأخوته
هذا التدبير الذي أخذ به أخاه وردمهم إلى أبيهم من غير أن يصحبوه معهم -
لعل هذا الذي يبدو في ظاهر القصة من أحزان وآلام ، قد استدعى وجه المرأة
الذي خفف كثيراً من الألوان المعتمة التي تسبغ على وجه الصورة ، وأنها
كانت تظهر في الوقت المناسب ، حين يكفهر الجو ويعتم ، ولسكنها مع ذلك
لم تكن باللون الغريب على الصورة ، المستجلب لهذه المهمة ، وإنما كانت
جميع مواقفها في القصة ، المرأة التي تدعو إليها دواعي الحال ، وبقتضيتها
المقام . . ولهذا فإنها كما كانت لونا زاهياً في القصة ، كانت كذلك لونا من
ألوانها القائمة في أكثر من موقف . . حين أُلقت في وجه العزيز باتهام يوسف
ورمته بمحاولة العدوان عليها . . ثم بمطاردته وملاحقته بالوعيد والتهديد . .
ثم بإلقائه أخيراً في السجن .

ومالنا ولهذا كله . . والقرآن إنما ينقل أحداثاً واقعة ، ويميد وقائع
عرفتها الحياة ، وسجلها التاريخ . . فلا مجال إذن لإمكان القول بأن هذا
الحدث مفتعل ، أو أن هذه الشخصية أو تلك مستجلبه أو متخيلة .

ولكن الذي أردنا أن نوضحه هنا هو أن القرآن لم يمك من أحداث
الماضي في قصصه بهذا اللون الذي تقوم فيه المرأة بدور الاستنارة أو التشويق
أو الترفيه ، وإنما جاءت المرأة حيث كان لها في الحدث الذي تخير القرآن عرضه
- دور ومكان ، أيا كان هذا الدور وهذا المكان ، بارزاً أو باهتاً . :
عاطفياً أو غير عاطفي ، منحرفاً أو مستقيماً . . إنها إنسان من الناس ، وامرأة من
النساء ، يلقاها الحدث القصصي في الموضع الذي كانت فيه ، بلا تعديل .
ولا تبديل . إنها إنسان لها وجودها الإنساني ، وما يخضع له هذا الوجود
من ضرورات الحياة ، وما يتسلط عليه من مؤثرات الخير والشر . . ثم

إنها امرأة لها وجودها الأنثوي ، وما يخضع له هذا الوجود بحكم عواطفها ،
وميوها ، وما يشيع فيها من غرائز ، وما يحكمها من عواطف .

* * *

هذا وليس إغفال القرآن لذكر اسم المرأة في تلك المواضع التي كان للمرأة فيها شأن أو موقف — ليس هذا الإغفال عن استجابة للعادة التي يقال إنها كانت متحركة في العرب من تكريمهم لذكر أسماء نساءهم ، كما يقول بذلك بعض الباحثين .. إن ذلك القول مجاب للصواب ، في أكثر من وجه .

فأولاً : لم يُغفل القرآن ذكر المرأة باسمها إلا حين لم يكن للاسم غرض خاص يتعلق به ، من حيث هو في ذاته تلك .. و ذكر المرأة — من حيث هي امرأة — دون تعيينها بالإسم إنما يراد به حيث ذكرت ، التعميم ، بحيث تكون هذه المرأة دالة على جنسها كله في حين الحكم الذي أناطه القرآن بها ، أو الوضع الذي وضعها فيه .. ولو ذكرت المرأة هنا معينة باسمها لأفهم ذلك أن الحكم أو الوضع إنما هو لها بذاتها تخصيصاً فيها ، ليست في جنسها أو في الأعم الغالب من جنسها ، وهذا من شأنه أن يفهم غير المراد ، وأن يدخل الخلل والفساد على المعنى المقصود ..

فامرأة فرعون ، وامرأة نوح ، وامرأة لوط ، وامرأة أبي لهب ، وملكة سبأ .. كلهن نساء في تلك المواقف التي عرضهن القرآن فيها ، يمثلن جنسهن جميعاً ، حيث فيهن الكثيرات اللاتي قد يكن هذه المرأة أو تلك .. في رشدنا أو ضلالها .

أما حيث تكون المرأة على صفة خاصة تستقل بها دون النساء جميعاً ، فإن ذكرها باسمها يكون حينئذ أمراً لا مندوحة منه ولا معدى عنه ، فلا يكفي في مريم ابنة عمران أن يقال عنها : « امرأة أحصنت فرجها . فنفخنا فيه من روحنا » أو يقال عنها « واذكر في الكتاب بنت مهران صح

إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرأ سوياً . . إنها امرأة واحدة بين نساء العالمين جميعاً ، تلك التي كان لها هذا الشأن ، ولو أغفل ذكر اسمها هنا لأفهم ذلك أن هذا لها من حيث امرأة ، وكفى . . وكلا فإنها امرأة أراد الله سبحانه وتعالى أن يختصها بهذا الفضل العظيم ، وأن يجعلها وايتها آية للعالمين . فكان ذكرها باسمها هكذا « مريم » امرأة يقتضيه مقتضى الحال ! !

وليس هذا وذلك في شأن المرأة وحدها ، بل إن القرآن قد جرى عليه في شأن الرجال أيضاً . . فالرجال الذين لهم خصيصة ذاتية ليست لتسيرهم أو لأكثر جنسهم قد ذكرهم الله تعالى بأسمائهم . . كأنبياؤه الله صلوات الله عليهم ، أما الذين هم رجال مجرد رجال تتمثل فيهم خصائص الجنس فقد أغفل القرآن ذكر أسمائهم ، دلالة على أن هؤلاء الرجال يعيشون في الإنسانية ، ويوجدون في كل أمة ، وفي كل جيل !

وانظر كيف ذكر القرآن الكريم « زيد » الذي كان متبنياً للنبي صلى الله عليه وسلم فلما أراد الله تعالى إبطال التبنّي ، بدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل زواجه صلى الله عليه وسلم من مطلقة زيد متبناه ، قطعاً لتلك الأبوة التي كانت تقضى بما يقضى به حكم الابن الحقيقي من حرمة زواج مطلقة . . وفي هذا يقول الله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » (١) .

ثم يقول سبحانه بعد ذلك : « وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله . . ونخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي

لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً» (١).

وثانياً : لم يكن العرب - وخاصة في الجاهلية - يتكروهون ذكر المرأة باسمها ، زوجاً كانت أو بنتاً أو أختاً .. بل إن أسماء نسائهم كانت تجرى على ألسنتهم في مجالسهم وأخبارهم ، كما كانت تُذكر في أشعارهم وأخبارهم .. وقد سُمِّي كثير من الفرسان ، والمشهورين ، بل والملوك بأسماء أمهاتهم ، كما سميت كثير من القبائل باسم الأم دون الأب .

يقول الشاعر الجاهلي مفتخراً بنسبه إلى أمه :

أبا ابن دارة معروفاً بها نسي وهل بدارة يالللناس من عارٍ !

ويقول القتال الكلابي يفخر بأمه :

أنا ابن أسماء أعمامى لها وأبى إذا ترامى بنو الإيموان بالعار (٢)

وقد احتفظ العرب بأنساب نسائهم كما احتفظوا بأنساب رجالهم .. فكانوا يحفظون اسم المرأة واسم أمها وجدتها .. إلى أجيال كثيرة .. كما كان بعض المحبين يضاف إلى محبوبته ، فيقال . جميل بثينة ، وكثير عزة ، وقيس لبي .

فالعرب لم يسكنوا . يتخرجون في ذكر نسائهم بأسمائهن ، زوجات أو أمهات ، أو بنات ! وما فعله القرآن في الذكر أو الحذف كان لمقتضى الحال .

(١) الأحزاب ٣٧

(٢) الإيوان بكسر الهمزة جمع أمة . . مثل أخ وإخوان

الباب الثالث

الحركة والحوار

الحركة .. ثم تلوينها وتنويعها هي الروح الذي يسرى في كيان العمل القصصى، ويبعث فيه الحياة، ويجعل بينه وبين الناس تجاذباً وتجاوباً .. وإنه بغير الحركة، والحركة المتنوعة الملونة يفقد العمل القصصى حيويته، ثم حياته ويتحول إلى كتلة جامدة باردة من السكبات .

والحوار هو وحده من بين أساليب القول، هو الذي يعتمد عليه فن القصص، في خلق الحركة وتلوينها وتنويعها .

فبالحوار تتبادل الشخصيات مواقفها، وتزائل أماكنها، وتبدل أحوالها وأشكالها، على ماسترى من الأمثلة والنماذج التي تعرضها من القصص القرآنى .

الحركة في القصة :

والحركة هنا أعم من أن تكون حركة مادية، ينتقل بها أشخاص القصة من مكان إلى مكان، أو أن تختفى شخصية لتحل مكانها أخرى .. وإنما الحركة هنا تشمل هذا الانتقال المادى في تحركات الأحداث، والامكنة والأزمنة، كما تشمل تحركات الجوارى والأفكار، والعواطف، وغيرها، مما يتصل بالحياة الإنسانية، في مادياتها ومعنوياتها جميعاً .

فأنت ترى أن هناك خيوطاً كثيرة تتطلب مهارة فائقة، وحنفاً وبراعة حتى يمكن أن يلتحم منها نسيج الحركة في القصة، فلا تكون نسجاً مهلهلاً، أو خيوطاً معقدة، لا يعرف لها رأس من ذنب .

إن الحركات التي يبني عليها العمل القصصى أشبه بمجموعة من آلات الموسيقى، تنبعث منها أصوات مختلفة .. كل صوت له نغمته، ودرجته، وقراره

والمؤلف هنا هو ضابط الإيقاع ، الذي يمسك بهذه الأصوات الموسيقية فيسوى منها نغمًا متسقًا متجانسًا .. هذا إذا كان على علم بالفن ، وعلى بصير بالموسيقى ، أما إذا أعوزه العلم بالفن ، والبصر بالموسيقى فلن يخرج من هذه الأصوات إلا لفظًا ولغويًا ، لا مفهوم له ولا تأثير .

وبالحركة يستطيع المؤلف البارع أن يقيم من قصته عالمًا حيًّا ، تتفاعل كائناته وتتصارع ، وتتجاذب ، دون أن تنفصم عرا التلاحم بينها ، أو أن تنقطع أسباب الصراع ودواعيه بين شخصوها .. وبهذا يظل العمل القصصي وحدة واحدة ، ينمو عموماً طبيعياً ، متجانساً في جميع أجزائه ، كما ينمو الجسد الحي ، للكائن الحي .

وليس للعمل الحركي في القصة خط مرسوم يلتزمه الكاتب ، ويأخذ نفسه به ، وإنما هو أمر متروك له ، يذهب به المذهب الذي يعليه عليه شعوره ، وإحساسه ، في مواجهة الأحداث ، وفي تقديره لها ، وحسابه معها ، حسب النظرة التي ينظر بها إليها .

إن شعور الكاتب هو القوة التي يحرك بها أحداث قصته .. وهذا الشعور ليس على درجة واحدة في جميع الأحوال .. بل هو دائماً في تحول وتبدل .. ثم إن هذا الشعور لا يستطيع الكاتب أن يجمده في كيانه ، وأن يتمرف عليه إلا بعد أن يولد الحدث ، ويأخذ مكانه في مجريات الأحداث التي تسير فيها القصة ، ومن هنا كان من المتعذر جداً على الكاتب أن يحدد موقفه من الحدث ، وبالتالي يسكون من غير الممكن أن يقدر الاتجاه الذي يدفع بالحدث إليه ، وأن يحدد الدفعة التي يقف بها عنده .

وقد أشرنا من قبل إلى اختلاف الحركة وتلوونها وتنوعها ، ونميد القول هنا مرة أخرى لنؤكد هذا المعنى ونوضحه .. .

فالحركة ليست مقصورة على الحركة المادية ، التي تنتقل بها شخص من القصة من مكان إلى مكان ، أو تتحول بها من حال إلى حال .. وإنما هناك

حركات داخلية لا تكاد تحس ، وهي في الواقع أكثر فاعلية ، وأقوى تأثيراً في تفاعل الأحداث وفي إنضاجها .

فهناك حركات ذهنية ، تتصارع فيها الخواطر والأفكار ، في حركات سريعة مطلقة من قيود الزمان والمكان ، وهناك كذلك حركات نفسية تغلي فيها العواطف وتغور ، دون أن تصطدم بحاجز من حواجز الأمكنة والأزمنة . وقد تبرز هذه الحركات جميعها فتكون حركة واحدة ، تضبط موقف الحدث من القصة ، وتحدد وجهة سيره فيها .

الحركة في القصة القرآنية :

والقصص القرآني يستخدم الحركة استخداماً لم تستطع اللغة - أي لغة - أن تبلغ شيئاً مما بلغه القرآن في هذا المجال ..

حين يدعو القرآن حدثاً من الأحداث إلى اتجاه من الاتجاهات التي يريدها له ، فإنما يحركه من أعماقه ، فينتجه إلى غايته اتجاه السهم إلى الرمية دون أن يتوقف ، أو ينحرف .. ذلك أن القرآن يمسك به من جميع أطرافه ، ويستولى على كيانه كله ، فلا يكون هناك خلخلة أو انقسام بين ظاهر الشخصية وباطنها .

ومفهوم هذا أن القرآن حين ينطق شخصية من الشخصيات فإنما يحمل على لسانها ما يدور في خاطرها ، وإن كانت من الشخصيات التي تلزم الصدق .. أما إن كانت من تلك الشخصيات التي تراوغ وتجادع وتناقض ، فإنه لا يدعها تنطق بما نطقت به دون أن يفضحها ويكشف أمرها ويعلن عما أخفته ، وأضرته .

في قصة يوسف مثلاً ، نجد هذا الكيد الذي بيته أبناء يعقوب لأخيه يوسف ، قد فضحته تلك الكلمات المموهة المزوقة التي تقدموا بها إلى أبيهم ليأذن لهم في أن يصحبوا يوسف معهم .. « مالك لتأمننا على يوسف ، وإنا

له لناصحون ؟ ، وما لهم لا يأمنهم أبوم على أخيهيم ؟ ومتى كان الأخ غير مؤتمن على أخيه ؟ . إن هذا الادعاء الذى يدعونه على أبيهم ، وهذا الدفع الذى يدفعون به ما تخيلوه من اتهام أبيهم لهم بالتهاون والتفريط فى شأن أخيهيم - لهو الدليل الصارخ على الشر الذى يبيتون ، وعلى العدوان الذى يضررون . « وإنا له لناصحون » .. وهذا التوكيد القاطع الجازم إنما يدفعون به اتهاماً خفياً يتخيلونه فى صدر أبيهم منذ عقدوا العزم على هذه الفعلة الشنيعة ، فلقد داوروا الأمر فيما بينهم زمناً قبل أن يطلبوا إلى أبيهم هذا الطلب .. « إذ قالوا لـيوسف وأخيه أحب إلى أئبنا منا ، ونحن عصبه إن أبانا لى ضلال مبين .. اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين .. قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ، وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » .. وحين استقر بهم الرأى على هذا التدبير تقدموا إلى أبيهم فى هذا الأسلوب المفضوح : « يا أبانا .. مالك لا تأمنا على يوسف ، وإنا له لناصحون ؟ أرسله منا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » .

ولم كان « غد » هو الميقات الذى جعلوه موعداً لأخذ يوسف معهم ؟ إما أن يكون ذلك لأن حديثهم مع أبيهم كان فى المساء بعد انتهاء يومهم فى المرعى ؛ وبعد أن اجتمع شملهم فى العشاء أو السمر . إذن فهم قد اختاروا هذا الوقت ليخفوا فى ظلمة الليل ماقد يبدو على وجوههم من انفعالات تكشف عما يبتوه ودبروه . وإما أن يكون ذلك فى مطلع صبح يوم جديد ، حين هموا بالخروج إلى المرعى .

وإذن فهم فى استخزاء من أن يطلبوا هذا الأمر منجزاً .. إنهم فى ضعف ظاهر ، تنوء قواهم بهذا الحمل الذى حملوه بين أضلعهم ، وأجموا أمرهم عليه . لقد أثبت علم النفس الحديث أن المجرم يحوم حول مسرح جريمته بعد

أن يرتكبها ، وهاهو ذا القرآن يسبق إلى ذلك ، ويتجاوزه ، فيكشف عن حقيقة أخرى ، وهي أن المجرم يحوم حول مسرح الجريمة قبل أن تقع ، وذلك بما يطلع عليه منها من خواطر وتصورات !!

فانظر إلى هذه الحركات النفسية كيف ضبطها القرآن ضبطاً محكماً ، وكيف أحالها إلى كلمات تنطق بهذا المسكنون في الصدور وتكشف عنه ! وسنرى كيف كان الحوار قوة دافعة للحركات بصورها وأشكالها ، وأنواعها في القصص القرآني كله .

ففي هذا الحوار أخرج القرآن خبايا النفوس ، وكشف عن طوايا الصدور ثم أخذ الأحداث بها وأجراها على حسابها ، فكان هذا التلاحم بين المواقف والأحداث ، حتى في مجال التضاد والعدا !

الحوار في القصص القرآني :

الحوار - كما قلنا - هو الروح الذي يسرى في كيان العمل القصصي ، وبغير الحوار يتحول هذا العمل إلى كتلة باردة متحجرة من الكلمات ! وقلنا كذلك إن التلوين والتنويع هو الذي يعطي الحركة التي يخلقها الحوار جمالاً ، ورشاقة ، وحسناً مجدداً لا يملئ النظر ، ولا تزهد فيه النفس .

والحوار في القصص القرآني يقهر دونه الوصف ، ولا يبدل عليه إلا بالحضور والمشاهدة . . غير أننا نشير إلى ملحظ يتصل بأسلوب الحوار ، وهو أنه يعتمد غالباً على الحكاية . . حكاية مقولات القائلين ، ونقلها على ألسنتهم .

وأسلوب الحكاية في فن القصص على يسره وسهولته من أعقد الأساليب وأشقها في إقامة بناء فني متماسك ، لا يعلو وجهه السأم والملاة .

ذلك أن القصص الذي يقف عند مجرد الحكاية لمقولات القائلين ونقلها عنهم ، إنما هو آلة ناطقة تحكي ما وقع عليها من أصوات ، دون أن تحمل شيئاً من ملابسات الموقف ، وما يدور فيه من إشارات وحركات ، وخلجات

نفوس ، وخفقات قلوب .. إلى غير ذلك مما ينقذ من الاحتكاك الحوارى من شرارات هى التى تبعث الأضواء فى كيان العمل القصصى ، وتشيع الحرارة والحياة فى أوصاله . فالحوار الذى يعتمد على الحكاية إن لم يقع ليد صانع خبير حاذق كان مزلقا يسقط به العمل القصصى ، ويثقل ويبرد !

وحين نقف بين يدي موقف من تلك المواقف التى أدار فيها القرآن الحوار بين شخصيات الحدث القصصى ، نجد المشهد كله حاضراً مشخفاً بملأ الأسماع والأبصار ، بكل خلجة أو خاطرة وقعت فيه .

وفضل القرآن هنا إنما يظهر أكثر ما يظهر فى ملء تلك الفراغات التى تقع بين ثنايا الحوار ، وذلك على الوجه الذى يجعل للقارى منافذ ينفذ منها إلى القصة ، ليملا الفراغات التى تركت عن حكمة وتدبير ، ليتحرك فيها بعقله ، ويخيهاله ، وليكون له فى القصة موقف ما ، يصله بها ويشده إليها .

وللقرآن فى هذا المجال المثل الأعلى فى الإمساك بزمام الموقف الحوارى وإدارته على الوجه الذى يقيم منه معجزة قاهرة تخضع لها الأعناق !

ولم يلتزم القرآن نهجاً واحداً فى إقامة البناء الحوارى ؛ لأن ذلك معناه الخضوع للآلية الحتمية ، التى من شأنها أن تقضى على الحرية المطلقة ، التى ينبغى أن يولد العمل الفنى فى جوها ، وأن يتنم أنسامها ؛ وإلا اختنق ومات ، أو ولد ميتاً !

لهذا نجد القرآن يذهب بالأسلوب الحوارى كل مذهب ، ويلونه ألواناً مختلفة ، حسب مقتضى الحال ، وداعية المقام .

فهو حينما يختصر الأحداث ، ويعرضها عرضاً سريعاً ، تطوى فيه التفاصيل ، وتعنى فيه الإشارة اللامحة ، واللمحة الدالة عن العبارات المبسوطة ، والأساليب الكاشفة ..

وأحياناً يفصل الأمر تفصيلاً ، حيث لا يكون غير الكلمة ما يغني غناءه
ويستد مسدّها ..

وفيما بين الأمرين درجات متفاوتة .. في الإيجاز والتفصيل .
ونود أن ننبه إلى أننا لا نقف عند الحوار هنا من حيث امتداده أو
قصره . وإنما نقف منه من حيث تصوير الموقف .. تصويراً تاماً يتناول جميع
أجزائه ، أو تصوير جانب منه ويترك الجانب أو الجوانب الأخرى ، لدلالة
الحال عليها ، وعدم اقتضاء الموقف لها .. فقد تكون الصورة صغيرة
ولكنها تشتمل على كل أجزاء الموقف ، وقد تكون كبيرة ولكنها لا تظهر
إلا جانباً منه .

هذا ما قصدنا إليه في القول بالاختصار والتفصيل ..
وعلى هذا فقد نشهد مشهداً قصيراً ، ولكنه يجمع أجزاء الحدث كلها ،
بحيث يرى المشاهد جميع الوقائع التي شاركت في بناء الحدث ، وعملت على
إنجائه واكتماله ..

وقد نقف بين يدي مشهد طويل ، ولكن نرى فيه لحظات كثيرة ،
وخلجات هنا وهناك ، يحاول الإنسان ملئها بما بين يديه في مسافات القصة
من دلالات وأمارات .

فن المشاهد القصيرة التي يظهر فيها الحوار مفصلاً غير مجمل ، هذا المشهد
الذي كان بين موسى وبين ابنتي شعيب ..

— « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمةً من الناس يسقون .. ووجد من
دونهما امرأتين تزدودان .

« قال :

— ما خطبكما ؟

« قالتا :

— لانسقي .. حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ! »

فهذا التفصيل في جوابها على سؤال موسى كان أمراً لا بد منه .
إذ لا يستطيع موسى أن يكشف عن تلك الحال التي وقفت بهما بعيداً عن
مورد الماء ليسقيا حين يصدر الرعاة - لا يستطيع موسى أن يكشف عن تلك
الحال على هذا الوجه الذي استبان له من قولها .. فقد كان يمكن أن يكون
تأخرها حياءً وابتعاداً عن موطن الاحتكاك والتزاحم والتدافع مع الرجال .
وقد يكون لداعية غير هذا . فلما صرحتا له بحالهما ، وأنهما ضعيفتان ، وألا
رجل لهما يرفع الماء من البئر ، وأن أباهما شيخ كبير - عرف حقيقة الموقف ،
وعالجه على الوجه الذي ينبغي ، مما تقتضيه المروعة والرحمة معاً .

وانظر إلى هذا الخلق المندس في قوم شعيب ، وإلى ما ضمت عليه قلوبهم
من غلظة وقسوة ، وإلى ما انطوت عليه نفوسهم من أنانية وأثرة . لا يلتفتون
لفتة إلى هاتين البنيتين الضعيفتين ، ولا يسقون لهما ، ولا يخلطونهما بهم في هذا
الموقف ، بل يدعونهما وشأنهما ، ولو ماتت ماشيتهما عظاماً ، وأسلفهما
الظلام للوحوش واللصوص .

ومثل هذا الموقف ، ما كان بين موسى وشعيب حين التقيا ، وحين
لفتته إحدى ابنتيه إلى الاحتفاظ به عندهم :

— « قالت إحداهما يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين .
» قال :

— « إني أريد أن أنسكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى
حجج ، فإن آمنت عشراً فن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن
شاء الله من الصالحين .
» قال :

— ذلك بيني وبينك ، أيما الأجلين فضيت فلا عدوان عليّ ، والله على
ما نقول وكيل .

فإنه شعيب لم تقف عند حدود دعوة أبيها إلى استئجار موسى ، بل أغرتة

بذلك ، وحرّضته عليه ، حين كشفت عن الصفات الطيبة التي يشتمل عليها ،
والتي هي مطالب كل من يريد عاملاً يعمل له ، ويتولى شأننا من شئونه ..
ولم تقل : « إنه قوى أمين » ، بل إنها جعلت ذلك قضية من القضايا المسلم بها .
« إن خير من استأجرت القوى الأمين » !!

وشعيب حين يدخل في صفقة مع موسى يقدم له شروطاً واضحة مفصلة
لا تحتاج إلى تخرّيج وتأويل ؛ فكل كلمة أخذت مكانها من المحتوى الذي يقوم
عليه هذا العرض المعروف .

ويتلقى موسى هذا العرض الواضح المفصل بإجابة واضحة مفصلة ، لا لبس
فيها ولا غموض .

وهكذا شأن العقود المبرمة بين الناس ، ينبغي أن ترتفع منها الجهالة ،
وأن تقع واضحة كل الوضوح .. في كل طرف من أطرافها .. !

ومن المشاهد الطويلة التي لم يتقصّ فيها القصص القرآني كل جزئيات
الأحداث ، ولم يتتبع كل خطوات تحركاتها ما كان في قصة يوسف ، حيث
ترك القرآن كثيراً من المواقف والحركات والأحداث ، وطوى كثيراً من
الأيام والشهور والأعوام ، التي تحتاج إليها الأحداث لنضجها واستوائها .
ومن ذلك :

١ — ما كان بين التقاط يوسف من الجب ، ووصوله أرض مصر ، ودخوله
في بيت العزيز .. فإنه لم يجر لسكل هذا ذكر في القصة ..

« وشروّه بثمن بخسٍ دراهم معدودةٍ وكانوا فيه من الزاهدين .. » وقال
الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرى مشواه .. هكذا تطوى هذه المسافات
البعيدة الطويلة في الأمكنة والأزمنة .. إذ لا متعلق لها في مضمون القصة
ومحتواها .. ثم هي أيضاً معلومة بداهة ، يتصورها القارئ على أي وجه شاء ،

ويسلك بها أى طريق أراد .. مادام سينتهى آخر الأمر إلى مصر، وإلى بيت العزيز، وفي هذا المجال يتحرك ذهن السامع أو القارىء، ويتجدد نشاطه، وتستيقظ ملكاته.

٢- في الموقف الذى يبين يوسف وامرأة العزيز .. نجد القصة تضعنا وجها لوجه أمام الأزمات التى بلغتها الأحداث، ودون أن تشير إلى شيء من هذه الأحداث، ودون أن تكشف عن قليل أو كثير منها. « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب، وقالت هيت لك قال: معاذ الله .. إنه ربى أحسن مثواى، إنه لا يفلح الظالمون .. ولقد همت به، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء .. إنه من عبادنا المخلصين » ..

إنه لا شك بأن هذا ليس أول موقف لامرأة العزيز من يوسف .. إذ لابد من مقدمات كثيرة ومحاولات، ومراودات، استمرت زمنا، ربما كان ذلك من بفاعه يوسف إلى أن بلغ أشده واستوى .. وأن هذا الموقف الذى شهده العزيز لم يكن إلا بعد أن نضجت الأحداث واستوت، فدفعت بها وبه إلى هذا الموقف المتأزم.

٣- وفي الموقف الذى كان من أحد صاحبي السجن، وذهابه إلى يوسف، ليقص عليه رؤيا الملك، وليعرف تأويله له - نجد الرجل ينتقل فى لحظة خاطفة من بيت الملك إلى يوسف فى السجن ..

« وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون .. يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر، وأخر يابسات » ..

وفى هذه الحركة المنطلقة انطلاق السهم ما ينبىء عن الالهفة اللاهفة إلى تجلية هذه الحيرة، وكشف هذا اللبالب الذى وقع فى محيط الملك، وعصف بكل شيء حوله .. إن القارىء نفسه ليستح هذا الرسول وينقله على أجنحة الخيال، ليعود بالخبر اليقين، قبل ارتداد الطرف، ولو أن الرسول تباطأ أو استأنى

بحيث يعرج على شيء هنا أو هناك دون أن ينطلق هذه الانطلاقة المجنونة الصارخة - لرمته قوارص الكلم من كل مشاهد أو سامع أو قارئ، ولما سلم من ركلة رجل، أو ضربة يد، ولو في الوهم والخيال ١١

٤ - وفي الرحلات التي قام بها أبناء يعقوب من الشام إلى مصر، ومن مصر إلى الشام، ثم من الشام إلى مصر، وفي رحلة يعقوب أخيراً من الشام إلى مصر. في هذه الرحلات جميعها كانت تطوى المسافات المسكانية والزمانية، وبنقل المشهد في لقطة « سينمائية » وكأنها عين تفتتح على مشهد ثم تغلق لتفتتح على مشهد آخر يمثل نقلة بعيدة في مجرى الأحداث، دون أن يجد المشاهد خلخلة، أو يحس انقطاعاً في تدفق هذه الأحداث.

* * *

وللحوار في القصص القرآني ممة خاصة، لانجدها أثرأفي القصص الأدبي على الإطلاق، وهي تلك الذاتية التي يحتفظ بها هذا الحوار لشخصيات المتجاورين.. ذلك أننا في القصص القرآني لانجده فرصة أبدأ تنقلت فيها من هذا الشعور الذي يستولى علينا من أننا إزاء شخصيات واقعية، لها وجودها الذاتي، ولها منطقها وتفكيرها، ولها متزعبها وإرادتها في الموقف الذي تقفه في الحدث، وفي الأسلوب الذي تعبر به عن موقفها، دون أن نستشعر بأن ملقنا من ورائها بلقنها الكلمات التي تلقها في المشهد، أو يحركها الحركة التي تؤديها فيه.. على حين أننا نجد ذلك الشعور غامراً فياضاً في أكثر موافق القصص الأدبي، حيث نرى الأشخاص يتحدثون ويتحركون بما يضعه المؤلف على ألسنتهم من كلام، وما يشير إليهم به من حركة..

ولعل أوضح مثال لهذا.. الحديث الذي حكاه القرآن على لسان الهدهد في موقفه مع سليمان، حيث لا يشعر القارئ أو السامع أنه في مواجهة حيوان أعجم، وأن هذه الكلمات التي نقلت عنه ليست إلا تخميلاً أو تعبيراً عن واقع الحال، وإنما نشعر شعوراً صادقاً بأن هذا الحيوان قد نطق فعلاً

بهذه الكلمات، وأن مناطق به إنما كان تعبيراً صادقاً وتصويراً صحيحاً لمشاعره ومدركاته، وأن كل كلمة قالها إنما هي منه عن علم وفهم ووعي: «قال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنياً يقين، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدم عن السبيل فهم لا يهتدون» .

من أجل هذا كان الحوار القصصى القرآنى ذا أثر بعيد في إحياء المشاهد التي ضمَّ عليها الحدث القصصى، وفي إقدارها على التأثير بالكلمة تأثيراً لا يبلغه التأثير بالصورة أو الحركة في العمل السينمائي أو المسرحي ..

إننا في هذا الحوار نتلقى الكلمات من فم أصحابها، حية، نابضة بالمشاعر والأحاسيس، فلا نسمع الكلمات حتى نجد صاحبها معها، ينطق بها مخملة بمخارجاته، ونبرات صوته، وما انطبع على وجهه من آثار.

استمع إلى قوله تعالى فيما كان بين موسى وفرعون في موقف من تلك المواقف التي كانت بينهما :

« وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين، قوم فرعون ألا يتقون؟ قال رب: إني أخاف أن يكذبون، ويضيق صدري ولا ينطق لساني فأرسل إلى هرون، ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون، قال: كلا فاذهبا بآياتنا إننا معكم مستمعون، فأتيا فرعون.. فقولا إنا رسول رب العالمين، أن أرسل معنا بنى إسرائيل.. قال: ألم نريك فيما وليدأ ولبثت فينا من عمرك سنين، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين» (١).

ولا بد من وقعة هنا مع هذا الإعجاز المبين الذي يتحدى قدر البشر في كل ما أوتوا من وسائل الإبانة والتصوير.

فهذه المناجاة التي كانت بين الله - سبحانه - وعبيده موسى، وما حملت

هذه المناجاة من كلمات الله - سبحانه - إلى موسى وأخيه هارون : « فأتيا فرعون
فقلوا إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بنى إسرائيل » .

هذا الأمر الذى تلقاه موسى من ربه نراه يصل إلى سمع فرعون فور
تلقى موسى له ، ونجد فرعون يلقاه بالجواب ، دون أن يجرى ذكر للقاء
موسى بفرعون ، ودون أن يحكى القرآن كيف كان هذا اللقاء ، ولما افتتح
به الحديث بينهما ، فكل هذا وكثير غيره مما اشتمل عليه الموقف ، وما قدم
له به - لم يجز له ذكر ، بل نجد أنضنا وقد انتقلنا من مشهد المناجاة بين
موسى وربه فى طور سيناء إلى مجلس فرعون فى مصر وهو يلقى موسى
بهذا الجواب .

— قال :

« ألم نريك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك
التي فعلت وأنت من الكافرين » .

— قال :

« فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففرت منكم لما خفتكم فوهد لى ربي
حكما وجعلنى من المرسلين ، وذلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ؟
قال فرعون :

— وما رب العالمين ؟

— قال :

« رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين .

قال لمن حوله - ألا تسمعون ؟

قال : ربكم ورب آبائكم الأولين .

قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون » .

قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون .

- قال :

لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين !

- قال :

أولو حنثك بشئ مبين ؟

- قال :

فأت به .. إن كنت من الصادقين .

- فألقى عصاه .. فإذا هي ثعبان مبين .

ونزع يده . فإذا هي بيضاء للناظرين .

- قال للهلاً حوله :

إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره . فإذا تأمروني ؟

- قالوا :

« أرحبه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم »^(١) .

هذا هو المشهد الأول من الموقف ..

وأنت ترى أثر هذا « الحضور » القوري المفاجئ ، الذي يتكلم من

موقف إلى موقف في لحظة خاطفة ، وتطوى فيها أبعاد الزمان والمكان دون أن

يفتقد المرء مكانهما ، أو أن يخلى شعوره منهما .. إن الحضور يدلف بك من

غير أن تشعر إلى مسرح الحادثة ، وإذا أنت ترى وتسمع كل ما وقع

وما جرى في هذا الموقف ، وكأنك واحد من حضروه أو شاركوا فيه .

ثم انظر كيف أراد فرعون أن يفجأ موسى بهذه الفعلة التي كانت منه

يوم قتل المصري ، وذلك ليدخل في روعه أنه سيؤخذ بهذه الفعلة ، وأنها

لم تنس ، ولم تذهب معالمها . وبهذا يشغل موسى عما جاء له بهذا الهم الجديد

الثقيل ، الذي ألقى به عليه .. : « وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين » .

ثم انظر كيف كان جواب موسى .؟. إنه لم ينكر التهمة ، ولكنه أنكر دوافعها ، فهو لم يكن كافراً ولا جاحداً أفضل مصر والمصريين عليه، وأنه ما قتل المصري إلا عن جهل وغفلة كانت منه ! « فعلتها إذن وأنا من الضالين » .
ثم انظر كيف تنطلق الكلمات في هذا الحوار متلاحقة متدفقة ، كأنها السهام يتراسقها المتحاربون في ميدان القتال ..

ولعلك تلحظ أن الحوار يبدأ مناوشة وتجرشاً ، فتجد في كلماته تناقلاً وبتشاكاً . كما تجد في أسلوبه امتداداً وطولاً ..

- « ألم زيك فينا وليدا . ولبتت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ؟

- « قال .. فعلتها إذن وأنا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم ، فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين . وتلك نعمة تمنّتها على أن عبّدت بنى إسرائيل » .

إنك لو ذهبت تسرع في القراءة بهذه الآيات لما استجاب لك لسانك ، ولما استطعت أن تمضي بها في غير الوقت المقدور لها، دون أن يضطرب ويتعثر! ثم بعد أن يحمي الصراع ويشهد . . تجيء كلمات الحوار قوية متقطعة ، تجرى في خفة واندفاع وتراشق ، أشبه بالرمي بالسهام .

- قال فرعون :

ومارب العالمين ؟

- قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ؟

- قال لمن حوله .. ألا تستمعون ؟

- قال : ربكم ورب آبائكم الأولين !

- قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون .

- قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون .

- قال : لكن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين !

- قال : أولو جئتك بشيء مبین ..

- قال : فأنت به إن كنت من الصادقين .

- فألقى عصاه ، فإذا هي ثعبان مبین .

ونزع يده .. فإذا هي بيضاء للناظرين ..

إنها كلمات.. بل هي سهام تنطلق من أقواسها .. بلا توقف أو انحراف !
فهذا العرض السريع الذى تنتهى به الحركة البطيئة التى بدأت بها القصة ،
أو بدأها المرقف هو تصور صادق دقيق لسير الانفعالات المتولدة فى الحوار ،
ونموها ، حتى إذا بلغت غايتها وامتلات بها الصدور ، انطلقت فى قوة واندفاع ،
كما يندفع الماء من وراء السد .. حين علاه وجاوز مده .

هذا ويبدو أن هذه اللقبة كانت هى أول لقاء بين موسى وفرعون ..
إذ فى هذا اللقاء يجابه فرعون موسى بما كان منه من قتل المصرى ، وهو الأمر
الذى من أجله فرّ من مصر إلى مدين .. ثم كان بعد هذا لقاء آخر بينهما ،
بعد أن توعد فرعون بأنه سيألقى سحره بسحر مثله : « قال للملأ حوله :
إن هذا الساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فإذا تأمرون ؟
قالوا : أرجه وأخاه ، وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحار عليم ،
ثم إنه بعد أن استوثق فرعون مما جمع ، دعا موسى إليه ليختبر ما عنده مرة
أخرى ، مقدراً أن موسى ربما يكون قد تخاذل أو رجع عن موقفه ، بعد أن
علم ما أعد له فرعون ، وما جمع من كيد وسحر !

وفى هذا اللقاء يحتدم الصراع ، وتشد وقدة التحدى ، وتنطلق الكلمات
فى قوة واندفاع أشبه برميات الرصاص .

وما إن يلتقى موسى بفرعون حتى يفجأ فرعون بهذا السؤال :

- قال : فن ربكما يا موسى ؟

- قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خَلْقَهُ ، تمَّ هدى .

- قال : فما بال القرون الأولى ؟

- قال : علمها عند ربى ، فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدياً ، وسلك لكم فيها سبيلاً ، وأنزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا . وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى .. منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى .

- قال : أجمتُنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ، فلنأتيناك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى .

- قال : موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشُر الناس ضحى .

- فتولى فرعون فجمع كيدَه ثم أتى .

- قال لهم موسى : ويلكم لا تفترُوا على الله كذباً ، فيسحقكم بعذاب ، وقد خاب من افترى .

- فتنازعوا أمرهم بينهم ، وأسروا النجوى .. قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاك من أرضك بسحرهما ، ويذهبان بطريقتكم المثلى .. فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفواً ، وقد أفلح اليوم من استعلى ..

- قالوا ياموسى : إما أن تلقى ، وإما أن نكون أول من ألقى .!

- قال : « بل ألقوا ..

» فإذا جالهم وعصيمهم يخيل إليهم من سحرهم أنها تسعى .. فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، قلنا: لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى .

فألقي السحرة سجداً .

- قالوا آمنا برب هرون وموسى .

- قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم .. إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ،

فلا تقطن أيديكم ، وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبتكم في جذوع النَّجْلِ ،
ولتعلمن أننا أشدُّ عذاباً وأبقي .

— قالوا : لن نُؤمِّرَكَ على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت
قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا ربنا ليغفر لنا خطايانا ،
وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبني (١) .

والآيات في غير حاجة إلى شرح أو تعليق ، فهي من الواضح بحيث تكاد
تكون شخوصاً ماثلة ، تغدو وتروح ، وتجادل وتجاور .

ولسكن مع هذا لا بد من الإشارة إلى تلك العناصر التي دخلت على الحوار
وقطعت ما بين المتجاورين ، وأخذت الموقف منهم لتبدل رأيها فيما يتجاورون
فيه ، أو لتقيم لأحد الطرفين حجته ، أو تقوِّم منطقته .

وهذا عمل لا يكون في غير القرآن ، ولا يقع في قصص غير قصصه ، حيث
تقوم قدرة الله ، وعلمه وتدبيره على كل شيء ، وحيث لا تقع حركة ، أو
تكون همسة في مواقف القصة إلا على هذا التقدير . . . ومن هنا كان تقلاب
الأمور فيها على هذا الوجه أمراً متوقفاً ، غير منكر ولا مستغرب ، على حين
أن ذلك في العمل الأدبي الذي يخلى فيه الكاتب مكانه للمتجاورين بعد تطفلا
وتحكما ، لا تدعو إليه ضرورة ، ولا يحتمله الوقف ، أو يتقبله واقع الحال .

فانظري جواب موسى عن سؤال فرعون : « فما بال القرون الأولى ؟ »
تجد أن موسى لا يكاد يعطي الجواب الذي رآه في قوله : « علمها عند ربي في
كتاب لا يبطل ربي ولا ينسى » - لا يكاد ينطق بهذا حتى ينطق الحق بما ينطق
به الوجود كله ؛ مكلا هذا الجواب . . . « الذي جعل لكم الأرض مهيداً ،
وسلك لكم فيها سبلاً ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات
شقي ، كلوا وأرعوا أنعامكم ، إن في ذلك لآيات لأولى النهي ، منها خلقناكم ،

وفيه نعيديكم ، ومنها تخرجكم تارة أخرى .. ولقد أرينا آياتنا كلها ، فسكذب وأبى .

فهذا قول الحق ، نطق به الحال ، وشهد له كل موجود .
وانظر إلى قوله تعالى : « وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى » وكيف جعل إنزال الماء مضافا إلى الله وحده ، على حين أن إخراج النبات من الأرض قد جعله إلى ضمير المتكلمين ، أو المتكلم المعظم نفسه .
وفي هذا ما فيه من إفساح المجال لإدخال العنصر الإنساني مع قدرة الله في إخراج النبات من جهة ، ولتفرد الله وحده — على الحقيقة — في إخراج هذا النبات .

فسبحان من هذا كلامه !

ثم انظر إلى موقف موسى حين ألقى السحرة بسحرهم : « فأوجس في نفسه خيفة موسى » ، وكيف كانت نجمة السماء في هذا الموقف الحرج .. « قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى » (١) .

فلن هذا الكلام ومن أين جاء ؟

إنه من عند الله ، وقد سمعه موسى بأذنه ، أو بقلبه .. فواجه الموقف ثابتاً ، بعد أن رد إليه هذا الحديث ماغرب عن عزمه وقوته .

أفيكون في القصص غير القرآني مكان لمثل هذا الأسلوب من القول ؟
إنه بعد شيئاً غريباً ، أو خطأ قد وقع !

وهكذا تتوزع في مشاهد القصة ألوان كثيرة تبيح من عل ، وتمسك بعيزان الحوار ، وتقيم وجهه على الحق والعدل .

* * *

ومثل آخر للحوار المنطلق السريع الذي يناسب الموقف المتأزم ، الذي يكظم النفوس ويحرج الصدور . موسى وهرون :

كان موسى على موعد مع ربه ، ليتلقى الألواح ، وما فيها من أحكام وعظات .

وعاش بنو إسرائيل تلك المدة التي بُعد فيها موسى عنهم - عاشوها في مباحكات ، ومجادلات ، وسفسطات .. وانتهى بهم هذا الموقف إلى ما انتهى إليه كل موقف تلتوى فيه الطبائع ، وتماكر العقول .. فاحرفوا عن عبادة الله الذي فعل بهم ما فعل من خير وبر ، واتخذوا العجل إلهًا .

ورجع موسى ليجد هذه المأساة تقع في قومه ، وتعصف بهم .

استمع إلى ما يقص القرآن عن هذا الموقف :

- « فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ، قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أفتال عليكم العهد ، أم أردتم أن يخل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ؟ !

- قالوا : ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقدفناها ، فكذلك أتى السامري . فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ، فقالوا هذا إلهكم وإله موسى .. فنسى ، أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً » .

وكان هرون هو خليفة أخيه على بني إسرائيل ، فوقف في هذا الأمر موقف المرشد الناصح .

- « ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم : إنما فتنم به ، وإن ربكم الرحمن ، فاتبعوني . أطيعوا أمري ، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى » .

وما كان لهرون أن يفعل أكثر من هذا ، فقد أدى النصيحة لقومه . لكن القوم في لجاح وغناد ! ولا يجد موسى إلا أخاد يصب عليه وقدة غضبه ويفرغ فيه شحنة ثورته !

- قال : ياهرون : مامنك إذ رأيتهم ضلوا ؟ ألا تَتَّبِعَنِي ؟ أفصيت
أمرى ؟

أرأيت إلى هذه الكلمات المختنقة ، المتفجرة .. ألا تتبعني ؟ أفصيت
أمرى ! ؟

إن موسى يقول هذه الكلمات مصحوبة بما تنطق به من صراع مادي
تنطلق في مجاله ، فأخذ برأس أخيه ، وبلحيته في عنف وتعنيف ، ولا يجد
هرون إلا هذه الكلمات اللينة الهينة ، يستعطف بها أخاه ، ويدعوه إلى الرفق
به والرحمة له .. قال :

- « يا ابن أم .. لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي .. إني خشيت أن تقول فرقت
بين بني إسرائيل ، ولم ترقب قولي » .

ويترك موسى أخاه .. ابن أمه ، أصل الحنان والرحمة .. ويلتفت إلى
السامري ، صاحب هذا التدبير ، وسبب هذه الفتنة ..

- قال : فما خطبك يا سامري ؟

- قال بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ،
وكذلك سولت لي نفسي !

- قال : فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس ، وإن لك موعداً
لن تخلفه ، وانظر إلى إهلك الذي ظلت عليه عاكفاً ، لنحرقنه ، ثم لننسفنه
في اليم نسفاً .^(١)

وإليك لترى في هذا التفاوت في مراحل الحركة الحوارية وتقلبها بين

الإبطاء والإمراع ، واللين والشدة ، والضعف والقوة - ترى في هذا التفاوت صورة صوتية مسجلة لهذا الموقف كله ، لم تدع منه خلعاً من خلجات النفوس ، ولا نفثة من نفثات الصدور إلا أمسكت بها ، وجاءت بكل جزئية من جزئياتها .

وواضح أن أية صورة من صور البيان لا يمكن أن تقف إزاء هذا البيان السجوى ، دون أن تذلل وتستخزي !

* * *

وطبيعي ألا يسجل القرآن الكريم كل مراحل الحوار تسجيلًا كاملاً كما تسجله أدوات التسجيل ، فذلك مما لا تقبله بلاغة القرآن ، ولا يحتمله إيجازه وإعجازه ، وإنما يمسك القرآن من الموقف الحوارى بالعناصر الحية منه ، وبالمشاهد البارزة فيه ، مما من شأنه أن يجلي الموقف ويحدد معالمه ، ويكشف حقيقته ، ثم يكون للناس بعد ذلك أن يملأ الفراغات ويلونها ، بما يسمع به إدراكه ، ويمدده به خياله .

وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة للحوار المركز المضغوط الذى يحمل فى كلمات قليلة عناصر قصة كاملة ، يمكن أن يذهب بها الخيال مذاهب شتى ، ولكن - مع ذلك - فإنه مهما جناح الخيال ومهما يمد بصاحبه عن الحقيقة سيجد نفسه دائماً مشدوداً إلى نقطة الانطلاق التى بدأ منها ، وأنه بطرف ما يطوف ثم يجيئ آخر الأمر ليصف جناحى خياله أمام كلمات القرآن ، حيث لا يجد السكن والطمانينة والروح إلا فى ظلالها .

فهذه مريم ، وقد جاءها من ربها من يبشرها بكلمة منه ، اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، فنتلقى هذه البشرى فى جزع ، وفى استنكار . . . إذ من أين لها بالولد ، ولم يمسسها بشر أو لا يجيئها البشير بأكثر من أن ذلك هو ما قاله الله وأنه هين عليه . . . سبحانه . . . ثم ينتهى الموقف عندهذا ، ولكن تتصل به نتائجه اتصالاً فورياً مباشراً . . . فهأهى ذى مريم تحمل ، ثم تضع وليدها ، وكأنها حملت به ووضعت فى نفس الموقف الأمر الذى حمل بعض المفسرين على القول بأن الحمل والولادة كانا فى يوم واحد !

« واذكر في الكتاب مريم إذ اقتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فأنخذت
من دونهم حجاباً ، فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشراً سوياً . .
— قالت :

إني أعوذ بالرحمن منك ، إن كنت تقياً .

— قال :

إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً . .

— قالت :

أنيّ يكون لي غلام ، ولم يحسنى بشر ، ولم أك بغياً . . ؟

— قال :

كذلك ، قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ،
وكان أمراً مقضياً . فحملته ، فأنبذت به مكاناً قصياً ، فأجاءها المخاض
إلى جذع النخلة . قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً . .

* * *

إن حبكة الحوار ، واختيار الكلمات المناسبة لكل حال يتلبس
بها المتحاورين هو الذي يبعث الحياة والحركة في القصة ، وهو الذي يجعل
للكلمات دلالة ذاتية تستغني بها عن التشخيص والتخييل ، وعن تهيئة الجو
المناسب للحركة المسرحية التي تنقل الأحداث وتجسمها .

وليس في القصص الأدبي قصة تقوم فيها الكلمات مستغنية عن
التشخيص والتخييل ، إذا أريد لها أن تدل على وجودها ، وأن تفصح عن
مضمونها .

ولكن القصص القرآني يؤدي بكلماته مالا يؤديه التشخيص والتجسيم
والتخييل .

ولهذا ، فإن عميل القصص القرآني — إن أريد تمثيله — يذهب
بكثير من القوى الكامنة في كلماته ، وأن مقاييس الحركات المسرحية
لا تستطيع أن تنضبط على ما توحيه الكلمات بذاتها من حركات !

* * *

الباب الرابع

القوى الغيبية في القصص القرآني

القصص القرآني وحنمية التاريخ :

القصة القرآنية وإن تكن سماوية المنزلة فإنها تمثل على أرض البشر ،
ليعيش فيها الناس ، ويسكنوا إليها ويتجاوزوا معها ، وينفعلوا بها ، ويتلقوا
العبرة والعظة منها .

من أجل هذا كانت القصة القرآنية منتزعة من الواقع الوجودي للناس ..
في أحداثها وأشخاصها ، وأمكنها ، وأزمنتها . . لا ينكر الناس منها شيئاً ،
ولا يبعد عليهم منها شيء . . فهي وإن تكن قد ذهب أشخاصها ، وبعد
زمانها . واندرت مكانها ، إلا دائماً بمنهج من الناس ومحضر ، حيث يرون أشباهها
في كل زمان ومكان . . .

إن حنمية التاريخ أمر يشهد له القرآن أبلغ شهادة في هذا القصص
الذي ما جاء به إلا ليكون عبرة وعظة ، يمجدها أولو الألباب ، ويتلقاها
ذوو النهى ، حين يقاميس الحاضر بالماضي ، وحين ينظر فيما سيكون على
ضوء ما كان . . فإن التاريخ - كما يقوونون - يعيد نفسه . .

ألا إنما الأيام أبناء علة وهنئ اليبالي كلها أخوات

وما جاء القصص القرآني إلا ليرفع لأبصار الناس وبصائرهم شواهد من
تاريخ الإنسانية ، تتأمل فيه مواقفها ، وتتشابه طوائفها ، فالناس هم الناس ،
تحكمهم نوازع ، وتتحكم فيهم طبائع ، وينتظمهم وجود تجري عليه سنن الخالق
صبحانه وتعالى . . « سنة الله في الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله

تبديلاً (١) . . . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا
تحويلاً (٢) . . .

ما في القصص القرآني من خوارق :

ومع أن القصص القرآني ينقل الواقع نقلاً يحفظ عليه كل موجوداته ،
لا يفلت منها شيء ، فإن هذا الواقع يشتمل على عنصرين بارزين لهما أثرهما
الواضح في منح القصة القرآنية قوة وحيوة وتأثيراً ليس لغيرها من القصص
أن يملك وسائله ، أو يجرد عن تلك الوسائل عوضاً ، في تشخيص الأحداث ،
وتمثيلها على المسرح أو السينما ، وإلقاء الأنوار والظلال عليها . . . ! فإن ذلك
كله لا يبلغ شيئاً مما تبلغه القصة القرآنية وهي في إطار الحروف والكلمات !
هذان العنصران هما :

أولاً : المعجزات والخوارق :

ففي القصص القرآني كثير من المعجزات والخوارق التي تطلع بين أحداث
القصة فتحدث دويهاً هائلاً ، وتثير زلزلة عاتية ، ينقلب بها وجه الأحداث ،
ويتحول سيرها ، أو يتوقف !

ومعلوم — مقداً — أن هذه المعجزة ، أو هذا الخارق الذي دخل على
أحداث القصة ، ليس من تدبير الإنسان ، ولا من عمل الطبيعة ، وإنما هو من
تدبير الله سبحانه وتعالى ، ومن تقديره . . . !

ولذا فإن هذا العنصر يدخل دخولاً مفاجئاً مباغتاً ، لا يتوقمه أحد
من يشترك في الصراع المحتدم على مسرح الأحداث ، أو الذين يشهدون هذا
الصراع !

فتتلاً . . . في الموقف الذي كان بين موسى وفرعون . . . حينما خرج موسى

(١) سورة الأحزاب : ٦٢

(٢) سورة الإسراء : ٧٧

بقومه هرباً من فرعون وملئه ، ثم كان أن اتبعهم فرعون وجنوده ، حتى
لحقوا بهم وقد بلغوا ساحل البحر . . . وهنا لا يكون للأحداث طريق
تتجه إليه إلا أحد طريقين : إما أن تستسلم الجماعة الضعيفة للقوة الغالبة الباطشة ،
وإما أن تشتبك في معركة يستأصل فيها فرعون من بقي من بني إسرائيل . .
ويقص القرآن هذا الحدث في أكثر من موضع . .

ففي سورة الدخان : يقول الله تعالى : « فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . .
فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون ، وأترك البحر رهواً إليهم جند مفروقون ^(١) .
وفي سورة الشعراء يقول الله تعالى : « فأتبعوهم مشرفين ، فلما تراء
الجمعان قال أصحاب موسى إننا لمدركون ، قال : كلا ، إن معي ربي سيهدين ،
فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانقلب فكان كل فرق كالطود
العظيم وأزلقنا ثم الآخرين ، وأنجينا موسى ، ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا
الآخرين ، إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ^(٢) .

وفي سورة طه تجيء الحادثة هكذا : « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر
بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ، لا تخاف دركاً ولا يخشى ، فأتبعهم
فرعون مجنونه فغشبهم من اليم ما غشبهم ، وأضل فرعون قومه وما هدى ^(٣) .
وكما هي عادة القرآن في تصوير الأحداث ، وعرضها من وجوهها المختلفة -
جاءت هذه الحادثة مصورة هذا التصوير الدقيق ، في هذا الإطار المحكم الموجز .
وإنك لتستطيع أن تضم هذه « اللقطات » الثلاث للحادثة بعضها إلى
بعض ، فتجد فيها الحادثة كلها . . بأبعادها وأعماقها .

فهذا موسى يدعو ربه ليكشف هذا البلاء المحقق به من فرعون وقومه :

(١) الدخان : ٢٢ - ٢٤

(٢) الشعراء : ٥٩ - ٦٦

(٣) طه : ٢٦ - ٢٧

« فدعاه ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ». ويجيء إليه صوت الحق مؤذناً
بكشف هذا البلاء : « فأسرى بعبادى ليلاً إنكم متبعون ، وأترك البحر
ر هوأ إنهم جند مفرقون (١) » ، ويستجيب موسى لأمر ربه ، ويسرى بقومه
مزوداً بهذا الوهد الصادق الذى لا يخلف .. يسرى موسى بقومه ليلاً متجهاً
إلى سيناء . وترسم لعينيه صورة البحر معترضاً طريقهم ، وتماوج الخواطر
فى صدره . فيجيشه وحى السماء يحثه أن يمضى فى طريقه على العزم الذى اعتمده ..
« أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً ، لا تخاف دركاً
ولا تخشى (٢) » فلقد وضحت الصورة لعينى موسى ، وتحقق من المصير الذى
هو صائر إليه ، ولكن قومه لا يعلمون عن هذا المصير شيئاً ، حتى إذا بلغوا
البحر ؛ « قال أصحاب موسى ، إننا لمدركون .. قال كلا ، إن معى ربي
سهيدين ، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق ، فكان كل
فرق كالطود العظيم ، وأزلفناهم الآخريين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ،
ثم أغرقنا الآخريين (٣) » .

فانظر إلى هذه القوة الغيبية الخارقة .. إنها تجيء على غير أى تقدير
يقدره الناس ، وعلى خلاف أى حساب يحسبونه .. فتتحكم فى الموقف وتصرفه
على الوجه الذى تريد ، دون أن يملك أحد لها دفعاً ، أو يعرف له معها
حساباً .. إنها هى التى تملى إرادتها دون توقف على قبول أو رفض من أحد .

وتأخذ هذه المفاجأة العجيبة المذهلة بعقل فرعون ، وتذهب بحجروته
وكبريائه ، فيذل ويخضع فى غير خجل أوحياء وينطق بتلك الكلمة التى أباهما
من قبل وأخذ موسى بالتهديد والوعيد من أجلها ، من بعد ما جاءه بالبينات
من ربه ..

(١) سورة الدخان ٢٣ - ٢٤

(٢) سورة طه ٧٧

(٣) سورة الشعراء ٦٠ - ٦٦

« وجاوزنا بنى إسرائيل البحر ، فأنسبهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين (١) » . فهذه هى « اللقطة » الأخيرة من هذه الحادثة ، وهى المشهد الختامى لها ، حيث تنتهى بها الأزيمة إلى هذه النهاية التى يختم بها هذا الصراع بين الحق والباطل ، فيحق الله الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين » . ومع هذا ، فإنه سرعان ما نسى بنو إسرائيل هذا الفضل السماوى ، وسرعان ما تنكروا له ، فاتخذوا العجل إلهاً معبوداً من دون الله ، فكان جزاؤهم أن غرقوا فى رمال الصحراء أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، تتقاذفهم الأمواج وترى بهم فى كل اتجاه .. ثم لا تزال هذه اللعنة قائمة عليهم أبداً الدهر ؛ لا يجتمع لهم شمل بعدها أبداً .

* * *

وفى مثل مضروب لرجل صاحب الجنيتين وصاحبه الذى يحاوره .. شىء كهذا الذى فى قصة موسى وفرعون هذه .

فى هذا المثل يقول الله تعالى : « واضرب لهم مثلاً رجلين ؛ جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ؛ وحففناهما بنخل ؛ وجعلنا بينهما زرعاً .. كلنا الجنتين أنت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ؛ وخـبـرنا خلالهما نهراً ، وكان له نهر .. فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً .. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبديد هذه أبداً ؛ وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ، قال له صاحبه وهو يحاوره : أـكـفـرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ؛ لـكـنـتـا هو الله ربي ولا أشرك بربى أحداً ؛ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا ترة إلا بالله ، إن ترى أنا أقل منك مالا وولداً ، فعسى ربي أن يؤتيهينى

خيراً من جنتك ، ويرسل عليها حساباً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً ؛ أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً (١) .

هذا هو الموقف في هذا المثل .. تسير فيه الأحداث سيراً طبيعياً .. إنسانان من الناس يتجادلان في أمر تختلف فيه مذاهب الناس ومنازعهم في الحياة .. الاستكثار من المال والزهو به ، واتخاذ وسيلة للفخر والمباهاة أكثر منه سبيلاً إلى الحياة الطيبة السكريمة .. فالناس يختلفون في هذا أشد الاختلاف . منهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق للخيرات . وقد أمسك القرآن الكريم بالصورة البارزة من صور هذا الخلاف .

فهذا رجل آتاه الله نعماً سابغة فأشتر وبطر ، وجعل وجوده كله لعبادة هذه النعم وامتمراضها في مجالات التباهي والتعالى على الناس ؛ ورجل آخر يواجه هذا التحدي بالمال وكثرته غير مكترث به ، فهو يدعو صاحبه في وداعة ولطف أن يترفق بنفسه ، وأن يتخفف من هذا الغرور الذي يملأ كيانه ، وأن يعود إلى ربه بعد أن أضله المال وأغواه ، والرجل سادر في غيه لا يسمع لقول ؛ ولا يستجيب لناصح ، ويتأزم الأمر بين الرجلين ويصل إلى مرحلة التحدي !

فصاحب الجنتين يتحدى بهما القدر ، فهما باقيتان أبد الدهر .

وصاحبه يفرغ إلى قدرة الله أن تبطل هذا التحدي . ويفترق الرجلان دون أن ينتهي الخلاف بينهما . كل على رأيه . ويظل حل الخلاف معلقاً . لا يدري أحد متى يحل ، وعلى أي وجه يكون حله !

ويجيء يوم ! فإذا صبحه ينكشف عن حدث مروع ؛ تهتز له آفاق الجهة التي يعيش فيها هذان الرجلان .. لقد أصبحت الجنة أترأ بعد عين .. فلقد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم !

والقصة لم تشر إلى الزمن الذي مضى بين هذا الموقف الذي كان من الرجلين ، وبين التدمير الذي أصاب الجنتين .

فنحن لانحس في القصة بأن فاصلا زمنياً قد حدث ، وإنما ننتقل من الحوار فجأة إلى مشهد نطلع منه على الجنتين وقد ذهبتا ليد الهلاك والتدمير وعلى حطام هاتين الجنتين يقف صاحبهما ينتحب ، ويلطم !!

في هذا يقول الله سبحانه : « وأحيط بشعره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ، ويقول ياليتني لم أشرك بربى أحداً .. ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً » .

وليس من شك في أن هذا الحدث المفاجيء لم يكن متوقفاً أن يحىء على تلك الصورة التي تذهب بالجننتين جملة ، وفي لحظة خاطفة !

وغاية ما كان متوقفاً هو أن يذهب الزمن بالجنتين أو بصاحبهما ، بعد أن يستوفي كل منهما عمره .. أو أن يكون ذهاب الجنتين شيئاً فشيئاً ، وزمناً بعد زمن ؛ على نحو ما يصيب كل معمر ، وبزل بكل موجود .

* * *

نقول إن هذه القوى الغيبية التي تحييء في القصص القرآني هي عنصر من العناصر الفعالة في هذا القصص ، لما تشير من تلك الانفعالات القوية الحادة التي تملك على الإنسان أحاسيسه ووجدانه .. الأمر الذي لا يمكن أن يجده في غير القصص القرآني ، فإن وجدناه فإنما تكون نظرتنا إليه نظرة شك وارتياب . لأن هذه القوى الخارقة التي ترى في مشاهد القصص غير القرآني ليست إلا خيالاً في خيال ، لا يقيم لها الناس مكاناً في الواقع .

هذا ويلاحظ على هذه القوى الغيبية التي تصعب القصص القرآني أنها ليست إنسانية الصنع ، ولا هي مما يقع في قدرة الإنسان .. الأمر الذي لو كان لكان من شأنه أن يحدث فرقة كبيرة في مجال الحديث القصصي ، كما أنه

يحدث انفصالا في الشعور تنقطع به سلسلة التفكير ، وتمزق معه وحدة الإحساس بالعمل الفني .

ذلك أنه إذا كان للمفارقات التي تصحب سير الحدث القصصى آثارها وفعاليتها في الإثارة والتشويق ، وتلوين العواطف بمختلف الانفعالات ، وتجريك الإحساس في كل اتجاه ، إلا أن هذه المفارقات إذا بعدت عن المجال الذي تتحرك فيه الطاقة الإنسانية أحدثت آثاراً سيئة يترتب عليها تمزيق في وحدة الشعور ، وشرود في التفكير يبعد عن مسرح الحدث القصصى !

ولكن هذا التقدير يقع على غير وجهه في القصص القرائى .. فإنه على الرغم من تلك المفارقات البعيدة بحداً يجاوز كل مدى - فإن هذه المفارقات حين تظهر على مسرح الأحداث ، وحين تطلع هذا الطلوع المفاجئ ، المباغت ، فإنها تلتقط مشاعر الإنسان من كل اتجاه ، وتجيء بها من كل ناحية كانت قد ذهبت إليها مع مطالع الأحداث ، وإذا الإنسان كله بجوارحه ومشاعره ووجداناته ، وأفكاره ، بين يدي هذا الطارق المعجز الخارق .. لانتقلت منه خاطرة أو خالجة .. إنه ينسى كل شيء سبق هذه المعجزة ، بل إن هذه الأحداث التي تقدمت ظهور المعجزة هي التي تفر من بين يدي المعجزة ؛ ونحلى لها المكان كما نحلى خيوط الفجر مكانها لأشعة الشمس !

إن صدق الحدث الذي تحمله المعجزة معها ، وواقعيتها هي التي تجمع الناس عليه ، وتمسك بهم ليشهدوه .. وما كانت غرابة الحدث ، وروعته بالنسبة إلى تصرف الناس عنه ، أو تنفرهم منه ، بل إن ذلك مما يشوق الناس دائماً أن يشهدوه ، وأن يشغلوا به عن كل شأن دونه .. متى كان هذا الحدث واقعاً تحت حواسهم موقع العيان والمشاهدة .

ولكن الذي ينفر الناس من الحدث الغريب في القصص ، ويدعو إلى انخلاع إحساسهم عنه ، هو استبعاد وقوعه .. هذا الاستبعاد الذي يلقي على شعورهم أنه مجرد خيال ملق ، أو وهم خادع . فيرجونه بهذه القولة التي

تنطلق من أفواههم من غير شعور : « شئ غير معقول » أو « مش معقول » كما يقولون !

إن المعجزة التي صحبت الحدث في القصص القرآني أمر قد وقع ، وشهده الناس ، وسجلته التاريخ ... وإذن فإن ظهور هذه المعجزة بعد ذلك ، وإعادة عرضها على مسرح الحياة من جديد بهذا الأسلوب المعجز - إنما هو ظهور خارقة من خوارق الحياة ، يعيش فيها الناس بكل وجودهم ، كلما طلعت عليهم في أية صورة ، وعلى أي حال ، في هذا العرض الرائع المعجز الذي يعرضها القرآن فيه .

ثانياً : النظم القرآني :

وإذا كان للمعجزات والخوارق التي صحبت القصص القرآني هذا الأثر العميق في « حبكة » القصة ، وإمدادها بهذا المدد الغزير من عناصر التشويق والإثارة - فإن النظم القرآني ذاته قوة غيبية ، أشبه بتلك القوى الحسية التي نشهدها في الحدث الإعجازي .

ذلك أن نظم القرآن قد جاء على صورة معجزة متحدية .. في مجال الكلمة ، وفي مقام البلاغة والبيان .. بالأسلوب الكلاسي .

فكل معنى انتظمه النظم القرآني وحملته ألفاظه هو معجزة تتحدى القدر البشرية وتستعلي عليها جميعاً .. !

وعلى هذا نستطيع أن نقول إن القصة القرآنية - وإن تسكن أحداثها مما يفرض به واقع الحياة ، ومما يعيش فيه الناس - فإنها تشتمل دائماً على قدر من الإعجاز ، إن لم يكن في الحدث ذاته ، فإنه في النظم القرآني ، من حيث هو إعجاز بما اشتمل عليه أسلوبه من قوى مدركة وغير مدركة ، يعجز الناس جميعاً عن الجرى معها ، أو التعلق بأذيالها .

فالحدث أياً كان ، هو في معرض النظم القرآني معجزة قاهرة ، تمنو لها الوجوه ، وتخضع أمام جلالها الرقاب .

وإذن فالتقايس التي يخضع لها فن القصص الأدبي لا ينظر فيها إلى هذين العنصرين اللذين اشتمل عليهما القصص القرآني ، إذ هما مما انفرد به القصص وحده ، وهما : المعجزات والخوارق الغيبية التي تتدخل في سير الحدث القصصي ، ثم النظم القرآني الذي هو في ذاته معجزات وخوارق غيبية تطلع من كليات القرآن وآياته ، فتبهير ، وتمجز .

وهنا نسأل ، أو نتساءل :

هل يتأثر الحدث الذي تعرضه القصة القرآنية بأسلوب العرض الذي يجيء في هذا النظم المعجز ، أو بمعنى آخر .. هل تتغير ألوان الأحداث وطعومها وأشكالها حين يجلبها هذا النظم المعجز ، محمولة في هذا الأسلوب الإعجازي .

إننا نشهد الحدث الواحد تختلف صورته ، وتتغير وجوهه حسب الأسلوب الذي يعرض به ، والشخصية التي تعرضه وتصوره .. وإنه مهما بلغت دقة المعارضين وقدرتهم على التزام الأمانة في النقل ، والخبرة في حكاية الواقعة — فلن يجيء صور العرض على وجه سواء .. بل إننا نجد كل عارض قد نظر إلى الحدث بعينه هو ، ومن الزاوية التي وقف عندها منه ، وأن تفاعلا قد وقع بينه وبين عناصر الحديث ، وأن صورة خاصة لهذا الحدث قد تمثلت في خاطره .. فإذا راح ينقل هذا الحدث بقلبه أو بلسانه فإنه لن ينقل إلا هذه الصورة التي تتخيل له ، وتتمشى على مسرح تفكيره .. ومن هنا نشهد الحدث التاريخي يقع لأيدي القاصيين فيخرج في صور وأشكال شتى تتعدد بتعدد المتناولين له ، وإن بلغوا ما بلغوا من عدد !

وسؤالنا الذي سألناه آنفاً يقع في دائرة هذا المعنى .. فهل يكون جوابه في هذا المضمون . ؟ بمعنى أن الأحداث التاريخية التي يعرضها القرآن في أسلوبه الإعجازي تأخذ لونها من هذا الأسلوب ؟ وإذا كان كذلك فكيف يتفق هذا مع ما هو معروف مقرر من أمر القرآن ، وما جاء به من الصدق الذي لا تعلق به شائبة ريب .. « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » .

« وإنه لكتاب عزيز .. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » !

كيف يكون هذا وذاك ؟ وكيف يجتمعان ؟

لقد عرضنا في مبحث سابق لشبهة قريبة من هذه الشبهة ، وهي ما يحدث به القرآن على السنة غير عربية ، وأنه ينقل إلى العربية مقولات لأقوام وجماعات وأفراد ، جرت بغير اللسان العربي . وعرضنا لما يقال من أن هذا النقل من لسان إلى لسان فيه مغايرة واضحة بين منطوق اللسانين ، وإن يكن المعنى هنا وهناك مسامتاً أو مقاربا .. ولكن مع ذلك .. فإن الخلاف بين الواقع وصورته واضح ، ولو في الشكل لا في المضمون .. وهذا أقل ما يقال فيه : إن القرآن لم ينقل الواقع كما هو !! .

قلنا هذا من قبل ، وقد ردّدنا هناك على هذا الاعتراض بما يدحضه ، فلا ضرورة لإعادته هنا ، ولكن مع هذا يبقى سؤالنا الذي سأله آتفاً بغير جواب .. فإن جوابنا هنا عن سؤال غير هذا السؤال ، وإن كان من واديه ، وعلى امتداده .

وإذن فهناك جوابنا على هذا السؤال :

إن أسلوب القرآن — هذا الأسلوب المعجز — ليس إعجازه في عرض الحقائق والأحداث على وجه تتكامل فيه هذه الحقائق ، وتوازن الأحداث إلى غاية يعجز البشر عن تسويتها على هذه الأوضاع ، أو إخراجها على هذا الوجه من السكّال والتمام .

ليس إعجاز القرآن في أنه يضفي على الحقيقة التي ينقلها إضافات جديدة تكمل ناقصها ، وتعديل معوجها ، أو بعكس هذا .. فتنقص التكامل ، وتعوج المعتدل .

ليس هذا من الإعجاز القرآني في شيء ، وإن كان مثل هذه التصرفات أموراً لازمة في الأعمال الفنية كلها ، وليس إعجاز القرآن في شيء من هذا .

وإنما إعجاز القرآن الذي يظهر من خلال نقل الحقائق ، والوقائع والأحداث ، هو في الصدق الخالص .. الصدق المطلق .. المصنوع من كل تسميق أو تزويق .

إعجاز القرآن هنا هو في نقل ما ينقل من الواقع البعيد أو القريب .. نقلاً دقيقاً أميناً ، يمسك بالحياة كلها في محيط الحدث الذي ينقله ، فلا يفلت منه شيء .. فتري في كلمات القرآن مشاهد الحياة التي كانت ملتبسة بالحدث .. من زمان ومكان ، وأشخاص وأشياء .. وإذا أنت تشهد ، وتري ، وتسمع ، وتشارك بماطقتك ، وتفكرك في هذا الصراع ، الذي كان يدور يوماً من الأيام على مسرح معركة من معارك الحياة .

الحقيقة المكشوفة ، والحقيقة المكسوفة :

على أن هناك خلافاً بين أرباب الفنون ، في طبيعة العمل الفني ، والوجه الذي يجب أن يخرج إلى الحياة به .

أبكون العمل الفني مجرد محاكاة للطبيعة ، ونقل للواقع كما هو ، دون الخروج عليه ، ومجاورة حدوده !

أم أن العمل الفني هو تلوين للطبيعة ، وتجويز في صورها وأشكالها ، وخلق تراكيب جديدة ، وصور جديدة .

والرأي الأول مذهب المدرسة الواقعية ، التي سادت التفكير الإنساني في هذا العصر ، بعد هذه الكشوف العظيمة التي انتهى إليها العقل من اتصاله المباشر بالطبيعة ، وتحديد نظره في الواقع المحسوس وحده ، دون التفات إلى ما وراء الطبيعة .

وهذا المذهب الواقعي وإن يكن قد أثمر هذا الطيب الوفير في مجال العلم ، فإن تطبيقه في دائرة الفن لم يسلم من بعض الآثار السيئة التي تركها في الفن .. إلى جانب الآثار الطيبة التي تركها فيه كذلك !!

فإنه مما لا شك فيه أن الفنون عامة قد كسبت الشيء الكثير من هذه الفتوحات الواسعة في ميادين العلوم المختلفة ، إذ أن هذه العلوم هي «خيار» الفنون وبذورها ، كما أن الفنون هي مذاقات هذه العلوم وطومومها .. فما الفن في حقيقته إلا الثمرة الناضجة في شجرة العلم ، وإلا الروح السارية فيه ، والنظام الممسك به .. وإنه على قدر ما في العلم من أمارات الصحة ، ودلائل السلامة ، ومخايل الحق ، يكون حظ الفن المتولد عنه من السلامة والصحة والإشراق .

ذلك أمر لا شك فيه ، ولا ارتياب ! .

ولكن الذي ينبغي أن يلتفت إليه هنا هو أن الفن شيء ، والعلم شيء ، وإن جمعهما أصل واحد .. فهما ابنا الطبيعة .. هما أخوان ، وإن لم يكونا توأمين !!

العلم يكشف أسرار الطبيعة ، ويفك طلاسمها .. والفن يكشف عن جمالها ويبرز مفااتها .. العلم وليد الطبيعة ، والفن وليد هذا الوليد .. فلحمة النسب بين العلم والفن ذاتية ، وشائج القرى متلاصقة !

وعلى هذا ، فإن ضبط الفن وقياسه بالمقاييس العلمية فيه اعتداء على ذاتية الفن ، وفيه تضييع لشخصيته .

فليأخذ الفن ما يأخذ من العلم ، ولكن على شرط أن تنضج هذه المادة العلمية في بوتقة الفن ، وتتشكل في قوالبه !

وينبغي على هذا أن واقعية الفن التي تقول بها المدرسة الواقعية — هي وجه من وجوه العمل الفني ، بل هي الوجه الذي إن فات الفن لم يكن له وجه تتملاه العيون ، وتعشقه القلوب ، وتمسك به العقول .

ثم إن الفن بما له من قدرات خاصة هو الذى يجلب هذا الوجه في معارض مختلفة .. لا تحصى ولا تضبط !

* * *

أما المذهب الآخر فيذهب إلى أن الفن ليس هو المحاكاة المطلقة للطبيعة، ونقلها كما هي في إطار العمل الفني ، ولو كان الأمر كذلك لما كان للفن وظيفة في الحياة ، ولما كان للناس داعية إليه .. لأن الطبيعة أكثر صدقا ، وأوضح بياناً من الصورة الفوتوغرافية المنقولة عنها في الإطار الفني .. وكان الاتصال المباثر بالطبيعة حينئذ أولى وأجدى من النظر في الأعمال الفنية التي لاتعدو - في أحسن أحوالها وأصدق صورها في هذا الفهم - أن تكون فرعاً لأصل ، وظلاً لشخص ، وصورة في صفحة مرآة !

إن العمل الفني لا يستحق أن يوصف بهذا الوصف إلا إذا خلع على الواقع الذى يعمل فيه لونا جديداً يراه الناس عليه ، فيعجبون ويدهشون ، لما طلع عليهم من تلك الأشياء التي رأوها من قبل ولم يلقفهم منها ما لفقهم إليها وهي تعرض في هذا القالب الفني الذى ظهرت فيه .

ويجب أن نعلم أن عمل الفن هنا لم يسكن إلا غوصاً في أعماق الواقع ، وإلا تهدياً إلى بعض ما في هذه الأعماق من حقائق ، ثم تجليتها وعرضها بحيث يرى الناس على السطح ما كان يراه الفنان في الأعماق !

فالفنان في عمله ، رائد يكشف للناس من مشاهد الواقع ما يمكن في الأعماق ، وهو في عمله هذا لا يمدو أن يلتقى مزيداً من الأضواء على المناطق المظلمة من هذا الواقع ، وبهذا يقع في مجال الرؤية لهم ما كان محجوباً عن أبصارهم ، ملفقاً في ضباب الحياة وغيوماً .

إن الفن يفتح بأرواحه العطرة وأندائه الندية أحكام الأشياء التي يلتقى بها ، كما تفتح أنسام الربيع وأنداؤه زهر الياض ، فتظهر فتنتها ، وينطلق عبرها .. وما أضاف هذا أو ذاك - الفن والربيع - شيئاً إلى الواقع ، أو

أخذ منه ، وإنما هيأ للواقع الوضع أو الأوضاع التي تنطلق منها قواه ، وتظل منها وجوهه !

والحق أن المذهب الذي يدعو إلى الواقعية في الفن لا يمكن أن تتحقق دعوته في أي عمل فني .. إذ من المستحيل استحالة مادية أن تنقل الحقائق ، ثم يكون هذا المنقول هو الحقيقة ذاتها ، أو الشيء نفسه ! .

إن أي عمل فني هو في مقابل الواقع الذي يمثله — شيء آخر غير هذا الواقع ، وإن تكن فيه مشابهة منه ، ودلالات عليه !

فالصورة المنقولة نقلاً دقيقاً لأي شيء من أشياء الحياة .. هي شيء آخر غير هذا الشيء ! وإنه مهما تبلغ الدقة في التزام وجوه التشابه في المساحة واللون والملمح والسمات ، وغير ذلك من مقومات هذا الشيء — فإنه يبقى بعد ذلك شيء لا يمكن أن يخضع أو يستجيب لعمل الفنان هنا ، وهو تجسيد الصورة .. فإذا أمكن تجسيدها في فن النحت فإنه لا يمكن منحها الحياة إن كان الشيء ذا حياة ، أو إعطاؤها الطعم والريح إن كان الشيء ذا طعم وريح . وهكذا .

وفن القول تظهر فيه هذه الظاهرة أكثر من غيره من الفنون .. فإنه ليس بين الصورة المرشمة من الكلام وبين الشيء الدالة عليه هذه الصورة . شيء من التشابه الذي يقع تحت الحواس ، وشتان — في ظاهر الأمر — بين كلمات مكتوبة أو منطوقة ، وبين شيء تتحدث عنه هذه الكلمات كشجرة ، أو نهر ، أو إنسان ، ونحو هذا ..

وعلى هذا فالواقعية على إطلاقها هذا لا تتحقق في الفن أبداً ، ولانظن أن أصحاب هذه الدعوة يريدونها على هذا الوجه ، وإنما هم يقصدون بالواقعية — في فن القول مثلاً — الوقوف عند مدلول الكلمات ، ونقل الشيء المراد نقله بها في محمول لا يتجاوز المدلول اللغوي الذي استدعيه حقيقة هذا الشيء ، دون تزيده أو إضافة أو حذف ، ودون استخدام المحاز وألوان الخيال .

وحق لو استطاع الفنان أن يلتزم حدود الواقع في عمله الفني ، وأن ينقل بوسائله الأشياء كما هي - وهيئات - فإن هذا العمل - وإن كان واقعياً بهذا المفهوم الذي أشرنا إليه .. فهو - على ما به - يؤدي وظيفة حيوية في الحياة لا يمكن أن تكون الأشياء في ذاتها بديلاً عنه .

فنحن في فن القول مثلاً ، نستحضر الغائب البعيد ، ونستدعي الضال والشارد من أشياء الحياة وأحداثها في كلمات معدودة ، ونستعرض ألوانا من الوجود في كتاب ، أو صفحات من كتاب .. وهذا عمل لا يمكن أن يحصله أو نشهده إلا في حضور الكلمة ، وبما تحدث به .

وتصور معركة حربية استمرت أياماً أو شهوراً أو سنين ، وتنقلت في ميادين مختلفة ، وجمعت جيوشاً جرارة تملأ السهل والوعر ، وحملت معدات وأدوات لا تحصر ولا تعد .

هذه الأحداث التي تملأ حيزاً كبيراً من الزمان والمكان .. أيمن أن تظل هكذا فائمة على وجه الطبيعة ، يراها الناس ويشهدونها على حالها هذا في زمانها ومكانها ، وإذا كان ذلك ممكناً - وهو مستحيل - فهل كان في استطاع كل إنسان أن يشهدها ، ويستصحب أحداثها .. ذلك ما لا يقع في تصور أبداً .

ولكن الفن - وفن القول بخاصة - يستطيع أن يحتفظ بهذه الأحداث - جميعها في صور من الكلمات ، تنطلق منها الأحداث ، وتنحرك المواقف ، كلها نظرنا في وجه العمل الفني ، وتابعنا السير معه .

ونخلص من هذا كله إلى أن الحقيقة تظهر في العمل الفني ، إما واقعاً مجرداً لا يتصل به شيء من الظلال والألوان - وهذا بعيد - وإما أن يتلبس هذا الواقع بشيء من عاطفة الفنان وروحه ، فيجيبه الواقع فيسه ملونا بألوان وأطياف ، وهذا يتلاءم مع الفن ، ويجري مع طبيعته .

وهنا نعود لنسأل عن شأن القرآن في نقل الواقع - من أشياء وأحداث - في نظمه الذي جاء عليه .

أهذا النقل هو نقل الواقع عينه ، وإحضاره بذاته ؟
ذلك مستحيل .. في ناموس الوجود الذي أقامه الله على هذا النظام ..
ولو كان ذلك ممكناً للزم وقوف الزمن فلا يتحرك .. وتجميد الأشياء
فلا تتحول ، ولا تبرح مكانها !

أم أن هذا النقل تصوير لهذا الواقع ومحاكاة لما كان ؟
ونعم .. هو تصوير للواقع ومحاكاة له .. ولكن هذه المحاكاة ماهي ؟ :
أهي محاكاة مغلقة .. صامتة .. جامدة .. تضع الواقع كما هو في إطار
من الكلمات أشبه بمحتوى الزمان والمكان للشيء الواقع بهما ؟ أم هي محاكاة
تنطق الصامت ، وتحرك الجامد ، وتندسس إلى أعماق الأشياء فتخرج
مكثونها وتستخرج مضمونها !

والذي ينظر في كلمات القرآن ببصيرة نافذة ، وقلب جميع ، يرى أن هذه
الكلمات لها دلالات ظاهرة هي التصوير الصامت للأشياء .. ثم يجرد وراء
هذه الدلالات دلالات أخرى ، بعضها وراء بعض .. كل دلالة منها تطلع
من أفق .. وهي في جميع آفاقها تحدث عن حقيقة الشيء ، وتكشف عن
مضامينه وخفائيه !

والمثل الذي تقدمه من قصة داود لا يجوزنا إلى مثل غيره في هذا المقام .
انظر إلى قوله تعالى : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب .. »
إذ دخلوا على داود ففرغ منهم .. قالوا لا تخف .. » - انظر كيف كان
إعجاز القرآن في هذه الكلمات الممدودة ؟ وكيف أقام منها عالماً فسيحاً ،
ننتقل فيه من معنى إلى معنى ، ونستقبل منه أمواجاً متتابعة من المشاعر
الإنسانية المتضاربة المتناقضة ؟ ؟

والقصة قد جاء بها القرآن في آيات معدودات .. يقول تعالى : « وهل
أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففرغ منهم ، قالوا

لا تخف ، خصمان بنى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطيظ ،
واهْدنا إلى سواء الصراط . . إن هذا أخي له تسع وتسعون نجمة ، ولي
نجمة واحدة ، فقال أ كفلنيها وعزني في الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال
نمجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبنى بعضهم على بعض ،
إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم . . وظن داود أنما افتناه ، فاستغفر
ربه ، وخرّ راكماً وأُتاب . . فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لولياً وحسن
مآب . . ياد داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق .
ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله « (١) .

والآيات تشير من طرف خفي إلى أن شيئاً ما قد كان من داود ، وأن هذا
الشيء مما لا ينبغي أن يكون من نبي ، وإن جاز أن يقع من غير الأنبياء !

ولم تكشف الآيات عن الأمر الذي حدث من داود ، إذ لا يتعلق به
من حيث ذاته غرض . وإنما المتعلق في صفة هذا الأمر . وأنه بصفته الكريمة
تلك لا يصح أن يكون من نبي ، كما أن في الإضراب عن ذكره رعاية لمقام
هذا النبي الكريم ، وحماية لمشاعره من أن تؤذى أو تجرح ، أو تخدش . .
هكذا أولياء الله . . عند الله .

والسكبات في ظاهرها تنقل الواقع كما هو ، وكما تراه كل عين : خصمان
يقْتَحِبان على داود مجلسه ويدخلان عليه من السور ، لا من الباب . . فيفزع
لهذا الحدث المفاجيء الذي يجيء على غير المعتاد ، وفي غير استئذان ! . .
والخصمان يبادران إلى اطمئنان داود ، وإذ هاب الفزع الذي هزَّ كيانه . .
« لا تخف » .. ويكشفان له عن حقيقتهما ، ليزداد اطمئناناً ، وليذهب
ما به من روع .. « لا تخف .. خصمان بنى بعضنا على بعض » ١١ .

هذه هي الحقيقة في ظاهرها .. لم يف منها شيء كما وقعت وكما صورتها كلمات القرآن . ولكن هناك صور غيبية تطلع من وراء هذه الصورة الظاهرة ، وتراءى في أضواء الكلمات القرآنية ، وتتهامس في ظلالها كلما فتحت لها قلبا ، ووجدت إليها نظراً .. وإنك لترى في الآية السابقة كيف أتت كلمة « تسوروا المحراب » قد دلت على أكثر من معنى يقوم وراء المعنى الظاهر « للتسور » .. فإن هذا التسور يدل على أن اختلالا دخل مملكة داود ، وأن هذا الاختلال كان من جهته هو ، ولهذا فقد أخذ نصيبه من نتائجها ، وهام أولاء رعيته لا يدخلون عليه المحراب من أبوابه . فلقد انقلبت الأوضاع ، واختلت أسس النظام .. ثم إنك لتجد في كلمة « ففزع منهم » أن الفزع هنا ينبىء - فوق حقيقته اللغوية - عن معنى آخر ، وهو انقلاب الأوضاع أيضا ، حيث يفزع القاضى من المتقاضين ، وكان الأمر على عكس هذا ؛ لو أن الأمور كانت تسير سيرها الطبيعي .. وإنك لترى شيئا مثل هذا في قوله تعالى : « فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط » فإرأى الناس الخوصوم يدعون القضاة إلى أن يحكموا بالعدل ، إذا ما قام القضاء في مجلس القضاء إلا لهذه الغاية ، ولكن في هذا الكلام غمزا لداود ، وتلميحا ، وأن ميزان العدالة قد اهتز من قبل هذا الموقف هزة شاع أمرها في الناس وذاع ، حتى عرفه هذا الخصمان اللذان لم يعرف داود لهما وجها من قبل .

وهكذا نجد الآيات القرآنية لم تقف عند دلالتها اللفظية ، بل أدت هذه الدلالة ، ثم تجاوزتها إلى دلالات أخرى ، تسكت وتقل حسب العين الناظرة إليها ، والقلب المتبحر نحوها .

ولعل هناك من يعيد هذا السؤال : أليس القرآن بدلالانه الخارجة عن المدلول اللفظي لم يلتزم الواقع ولم ينقل الحقائق كما هي ، ولم يصور الأشياء كما تقوم عليه في مرأى العين ، وإذن فقد وقع خلل في عرضها الحقائق على وجهها الذي قامت عليه .. فكيف هذا !

وقد أجبنا على مثل هذا الاعتراض ، وقلنا إن الدلالات اللغوية لأنفاظ القرآن هي معرض الحقائق كما تبدو في ظاهرها . ثم إن للقرآن - شأن فنون الرقيقة - نفوذاً إلى أعماق الأشياء ، وتصويرها من الداخل كما صورها من الخارج ؛ وليس في هذا بعد عن الحقيقة ، بل هو في الصميم منها .

وهل في مدلولات الآية السابقة في قصة داود شيء لم تكن دلالة الحال تنطق به ؟ وهل شيء من هذه الخلجات ، وتلك الخواطر التي كشفت عنها الآية لم يكن من مقتضيات الأمر الواقع في مجرى الأحداث ولوازمه .

تعقيب القرآن على الأحداث :

وللقرآن الكريم منهج خاص في إخراج الحدث ، وتصوير الواقعة .. فهو فوق ما تضمنت كلماته ، وما تحمل آياته من حقائق وصور يلتقطها من داخل الأشياء وأصاقها - هو فوق هذا يجيء في أعقاب الحدث أو الواقعة أو الحكم بصورة مستقلة ، تكون أشبه بالتعليق عليها أو التلخيص لها .. وأكثر ما يرى ذلك في فواصل الآي ، التي هي أشبه ما يكون بلسان الحال الذي ينطق بالمسكوت عنه في أعقاب الأحداث والوقائع .. كما أن كثيراً من الآيات تقع موقع الفاصلة في الأحداث الكبيرة .

وفي قصة داود التي أشرنا إليها من قبل ؛ كان ختام هذه القصة هو قوله تعالى : « وإن كثيراً من الخلقاء ليبغى بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل مالم » .. وهذا القول يمكن أن يكون صادراً عن داود نفسه ؛ أو أنه مقول للسان الحال التي نطقت بما يشهد له الواقع . أو أنه مما وقع في نفس الخصمين حين استبان الحق لهما .. أو أنه لهؤلاء جميعاً ، وقد نطقوا - في علانية أو في سر - بهذا القول .

وفي هذه القصة أيضاً جاء ختام آخر لها هو قوله تعالى : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى ، فيضلك » (١١ - القصص القرآن)

عن سبيل الله ، إن الذين يضادون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ، وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا .. ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب^(١) .

فهذا كله تعقيب على القصة . أو قل هي الحقائق المضرة في ثنايا القصة ، والتي تنكشف لبعض الناس ولا تنكشف لكثير منهم .. فكان إبرازها على تلك الصورة في أعقاب القصة مما اقتضته حكمة الحكيم العليم .. حرصاً على تمام الإفادة مما في القصة من عبر وعظات ، ورحمة بمن قصرت أفهامهم عن أن تدرك شيئاً وراء ظاهر القصة ، أو أدركت شيئاً وغابت عنها أشياء .

إن هذا الأسلوب من البيان ينتظم القرآن الكريم كله ، حيث تختم آياته كلها - إلا ما ندر - بالفاصلة التي هي - كما قلنا - تعقيب على ما تحمل الآية في كيانها من حقائق ، وأحداث ومواقف .

والقصص القرآني يجتمع له مع هذا الأسلوب أسلوب آخر .. فهو يشارك القرآن كله في أن الآيات التي تشتمل عليها القصة تختم بالفواصل على نحو غيرها من الآيات .. ثم إن القصة تنتهي بآيات خارج إطارها تكون أشبه بالفاصلة ، وفيها التعقيب السكلي على القصة ، وما فيها من عظات وعبر .

وواضح من هذا أن ما يجيء من آيات خارج إطار القصة لتلخيصها ، أو لإبراز مضمونها ، وكشف مواقع العبرة منها - هذه الآيات ليست من أحداث القصة ، أو بمعنى أوضح ليست من الواقع الذي ننقله إلينا القصة ، وإنما هي إضافات جاء بها القرآن بعد أن أنهى القصة ، وأوقف سير الأحداث عند الغاية التي أجزاها فيها .. وهذا ما جمعنا نحسب هذه الإضافات بحساب القوى الغيبية التي بدخل بها القرآن على أحداث القصص ، إذ كلاهما قوى غير منظورة

وإن كانت القوى الغيبية غير متوقعة أو متوهمة ، على حين أن ماتحمسه الإضافات من معان كان في مجال التوهم أو الظن أو اليقين ، عند من شهدوا القصة أو شاركوا في أحداثها ، على حسب درجاتهم من الإدراك ، ومنازلهم من الفهم .

قيمة هذه العناصر في العمل القصصي :

هذه العناصر التي عرضناها في هذا الفصل .. ما أثرها في القصة القرآنية ؟ وهل إذا خلا القصص القرآني منها فقد شيئاً من معطياته التي يجدها الناس منه ؟

فإذا لو أن المعجزات والحوارق التي دخلت في القصص القرآني قد أخلت مكانها الذي تأخذها في القصة .

وماذا لو جمدت ألفاظ القرآن على المعنى الذي يحمله منطوقها دون أن ينكشف منها شيء وراء هذا المنطوق .

ثم ماذا لو حذفت هذه الفواصل وتلك الإضافات التي ينكشف بها ما توارى في ثنايا الأحداث ، وما استتر في أطواء النظم .

ونقول : إن سلب القصص القرآني هذه العناصر التي شاركت في بنائه ، والتي لها آثارها البارزة في وجوه الإعجاز التي تطلع من القرآن الكريم فتخضع له الأبصار ، وتخضع الرقاب . إن سلب هذه العناصر معناه انزعاع أعصاب الكائن الحي من جسده بحساب أنها شيء زائد عن حقيقة وجوده .. فهذه القوى التي تضم عليها نظم القرآن واحتواها قصصه ، هي من صميم هذا النظم لا تقوم حقيقته إلا بها مجتمعة ومتفرقة .

ونسأل : لماذا تجلي هذه القوى الغيبية من الحوارق والمعجزات - لماذا تجلي عن مكانها من القصص القرآني . أليست واقعا مشهوداً كان له دوره في الحدث القصصي . وكيف لو نقل الحدث بغير هذه الحوارق والمعجزات التي

صحته ؟ أليكون ذلك النقل صادقاً أميناً ، يتناسب مع ما ينبغي لمقام القرآن
ولأخباره من أمانة وصدق ؟

ونسأل أيضا : كيف يطلب إلى القرآن أن يتخلى عن خصائص اللغة في
جانبا الفنى . وبأى لغة يتحدث القرآن إذن . إن اللغة العربية - وكل لغة -
لها خصائص تظهر فى أعمالها الأدبية من منشور ، ومنظوم .

فالقول بأن القرآن - لكى يجىء بالصدق الخالص فى تصوير الأحداث -
يجب أن يجرد اللغة من خصائصها الفنية ، وألا يتناولها إلا بحجفة ، لا ورق
فيها ، ولا زهر ، ولا ثمر ولا حياة . بل هكذا أعواداً من الحطب ، يجمعها
كما يجمع حزم الحطب .

هذا القول فيه جور صارخ واعتداء أليم على الحق ، بل هو فى صورته
تلك قتل لكائن حى لا ذنب له ، إلا أنه حوى الجمال كله ، واشتمل على
الحسن جميعه !

إن الإيحاءات التى تبعثها الكلمات القرآنية فى مجرى الأحداث ليست
غريبة عن هذه الأحداث ، بل هى من صميمها ، بل إنها القوة المحركة لها ،
والحياة المتدفقة فى كيانها ، وإن كان لا يرى لها وجه فى الظاهر .

انظر - مثلا - المحتوى التصويرى لقصة داود فى إطارها اللفظى ، والى
تحدثنا عنها أحاديث مختلفة فيما سبق .. ثم عد وانظر فيما يشيع حول هذا
المحتوى من ظلال وألوان .. فإياك لتجد نفسك أمام حشد كثير من الصور
التي يكمل بعضها بعضا ، حتى يتشكل منها آخر الأمر « ملحمة » تقور فيها
الأحداث فوران القدور ، ترمى بزبدها ، حتى ينكشف صريحها .

فهناك الصورة القموغرافية التى سجلتها الألفاظ لأبعاد القصة ، فى حدود
المساحة المكانية والزمانية التى تتحرك فيها الكلمات .

وهناك القوة الغيبية الحارقة التى مكنت الخصمين من أن يخترقا الحجب
والأسوار وأن يصلوا إلى « داود » ويفجأه فى مكانه الأمين .

ثم هناك الإشعاعات والإيماءات المنطلقة من كلمات : « فزع منهم » و« لا تخف » و« احكم بيننا بالحق ولا تشطط » .. وهكذا من الكلمات التي أوحى إلينا بمدلولات كثيرة أشرنا إلى بعضها فيما مضى لنا من حديث معها، والذي يزيد أن تقرره هنا هو أن هذه العناصر جميعها — ما ظهر منها وما استتر — لم يدخل عليها غريب ، ولم يختلط بها شيء من غير الواقع الذي كان ، والذي لا يمكن لغير النظم القرآني أن ينقله على هذا الوجه من الصدق والدقة والوضوح !

° * °

هذا ، وهناك قوة غيبية يؤمن بها المؤمنون بالله وحدهم لا يشاركون فيها غيرهم ممن ينكرون الله — هذه القوة هي « القدر » الذي يتحكم في مصائر الأمور ، وبقيمها على الوجه الذي يريد ، دون أن يملك الناس لها دفعا ، ولا يستطيعوا عنها حولا .

هذه القوة الغيبية التي يؤمن بها المؤمنون لها دورها في القصص القرآني إذ كان منظورا إلى أحداثه ومواقفه من خلالها ، حيث كانت تلك القوة هي المسكة بكل الخيوط التي تتحرك الأحداث والوقائع والأشخاص في مجالها .

ومن أجل هذا ، كان لابد من أن يحسب حساب هذه القوة في دراسة القصص القرآني ، وأن يبحث عن آثارها الفنية فيه ، وهل كانت قيادا يمسك شخصيات القصة وشخوصها ، ويحول بينها وبين الانطلاق إلى الغايات التي تريدها ، أم أنه كان مجرد متفرج يرسل القوى المتصارعة من بين يديه ، ثم يدعها تتصارع وتتقاتل بما فيها من قوى وما معها من أسلحة !

إن مفهوم « القدر » عند كثير من الناس — حتى المؤمنين — أنه معمل إلى ؛ تخرج منه الأحداث مصبوبة في قوالب معسدة من قبل ؛ على وجه لا يملكون معه فيها شيئا ، فليست الحياة — على هذا المفهوم — إلا رواية

سينمائية قد مثلت، وصورت في « استديو » خاص، ثم أعدت للعرض؛ وهاتين
ذيتي بد القدر تدير آلة العرض منذ الأزل فتتحرك عجلة « الفيلم » وتقع
الأحداث المضجرة فيه على « الشاشة »؛ فإذا الحياة كلها في مشاهد متصلة
متباعدة!

فهل « القدر » على هذا المفهوم؟

أو بمعنى آخر: هل جاء القصص القرآني على هذا المفهوم للقدر؟
ذلك ما نريد أن نكشف عنه في الباب التالي الذي جعلناه باباً مستقلاً في
هذا البحث.

الباب الخامس

القدر وحسابه في القصص القرآني

القصص القرآني جزء من الرسالة الإسلامية التي حملها القرآن الكريم ، ويحمل هذا الجزء عبء الجانب التربوي عن طريق العبرة والعظة .. ولهذا كان القصص محكوما بالإطار العام للدعوة الإسلامية ، ملتزما الأصول التي قامت عليها .

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل ..

قلنا في أكثر من موضع : إن القصص القرآني ينقل الحدث التاريخي بأشخاصه ومشخصاته نقلا تعجز أدوات التسجيل والمحاكاة كلها عن تحقيق بعضه ، بله كله .

وقلنا كذلك إن القرآن في قصصه يحكي مقولات المتحاورين والمجادلين والناطقين في الحدث الذي يقصه — يحكيها كما هي في مضمونها ومفهومها ، وإن جاءت بلسان غير لسانهم ، وبلغه غير لغتهم .

ومعنى هذا أن ينقل القرآن ما جرى على تلك الألسنة من حق أو باطل ؛ ومن هدى أو ضلال ، ومن إيمان وكفر ، ومن تقديس أو تجديف . وهذا ما يقتضيه الصدق الذي جاء عليه ، والحق الذي نزل به .

وطبيعي ألا يترك القرآن هذه المقولات المنحرفة الضالة ، وهذه المواقف المعوجة المليئة ، دون أن يعلق عليها ، وأن يكشف عن رأيه فيها ، وعن موقفه منها .. ولوتركها تمضي هكذا لغرت بكثير من الناس وللصق زورها وهتانها بكثير من العقول .. فكان من التدبير الحكيم ، ومن التربية القويمة المنكينة عرض هذا الضلال ثم التأثيم له ، والزواجة عليه ، والتشنيع به ، حتى يقع في النفوس موقع الازدراء والمقت ، ثم القلي والتجنب .

ولقد حكى القرآن مقولات الكفار في الله سبحانه وتعالى ، وفي النبي الأمين ، وفي القرآن الكريم ، ثم سفها ، وسفه القائلين بها ، ودرمام منها بسهام قاتلة ، فلم تقم لهم بمدتها قاعة .

فهو مثلاً يحكى قول الكفار من قريش ، وينقل مقولاتهم في القرآن ، وضلالاتهم فيه ، إذ يقول :

« وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه ، وأطانه عليه قوم آخرون » ثم يضرب وجوههم بهذا الرد المفعم الدامغ : « فقد جاءوا ظلماتاً وزوراً » (١) .

وهو ينقل مقولة أهل الكتاب الذين يجعلون لله سبحانه ولداً ، فيقول : « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً .. ما لهم به من علم ولا آباء لهم » .

ثم يرحمهم بهذا الشهاب الملتب : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً » (٢) .

وهو يعرض زعمة من زعمات الملحدين من العرب عن ملائكة الرحمن ، وأنهم أناس .. فيقول :

« وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً » .

ثم يسوقهم هذا السوق العنيف إلى ساحة الاتهام ، ليقيموا برهاناً على هذا البهتان « أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون » (٣) .

وفي القصص القرآني يجري القرآن على هذا الأسلوب نفسه ، فينقل ما ينقل على ألسنة الضالين والمنحرفين .. ثم يرد هذا الضلال ، ويسفه هذا الانحراف ، إما على لسان الشخصية التي تقف في الطرف الآخر المواجه للمنحرفين والضالين ، وإما بأن يدخل القرآن — في الوقت المناسب — فيقول هو الرد ، وكأنه لسان الحال ، وصوت الوجود يدخل في الدعوى من

(١) سورة الفرقان : ٤ (٢) سورة الكهف : ٤

(٣) سورة الزخرف : ١٩

كل جهة ، فيستولى على زمام الموقف كله .. حيث يكون لهذه المفاجأة وقمها الزلزل في نفوس المعاندين المكابرين .
ونستطيع أن نقدم مثلاً لذلك من موقف إبراهيم من قومه ، إذ يجاجونه ويجادلونه في الله .

ففي هذا الموقف يقول الحق جل وعلا في سورة الأنبياء

« إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه :

— « ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟

— « قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين !

« قال :

— « لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين .

« قالوا :

— « أجتئنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟

« قال :

— « بل ربكم ربُّ السموات والأرض الذي فطرهنَّ وأنا على ذلكم

من الشاهدين . »

ويضمير إبراهيم في نفسه أمراً ، تتخلق صورته في كيانه ، وتتحرك كلماته من وراء شفثيه ، دون أن يسمعه أحد من شهود هذا الموقف .. ولكن القرآن يصرح به ، بعد أن أصبح الحديث تاريخاً .. فيقول الله سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم :

« وتالله لأكيدنَّ أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . »

ثم يصور القرآن ما كان من إبراهيم لتحقيق هذا القول الذي أضمره :

« فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لملهم إليه يرجعون . »

ويتجدد المشهد مرة أخرى .. ويقف إبراهيم وقومه وجهاً لوجه .

« قالوا :

— « من فعل هذا بآلهتنا ، إنه لمن الظالمين ؟

« قالوا :

— « سمعنا فتي يذكرهم يقال له إبراهيم ا

« قالوا :

— « فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون .

« قالوا :

— « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟

قال :

« بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ؟

وبلا وعى ولا تفكير ؛ ينزلق القوم في هذا المزلق الذى دفعهم إليه إبراهيم .. فيرجع بعضهم على بعض باللائمة أن تسروا في اتهام إبراهيم وحملاه ما وقع لأصنامهم من تحطيم وتكسير : « فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون » .. ثم تصدمهم الحقيقة الفاضحة المخزية حين يلتقون بأصنامهم فيستخزون أن يسألوهم هذا السؤال الذى لغتهم إليه إبراهيم : « ثم نكسوا على رؤوسهم .

— « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون !

قال :

— « أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم .. أف لكم ولما تعبدون من دون الله .. أفلا تعقلون ؟

« قالوا :

— « حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين .

وهنا تجيء نجدة السماء ..

« قلنا :

« يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم !
« وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين (١) . »

إن القرآن يوضح هذه الانحرافات العقلية ، والنفسية ، والخلقية ، التي تجرى في أحداث قصصه ، فيردها على أصحابها ، أو يقيمها على الوجه الذي يقتضيه الحق والعدل اللذين قام عليهما دين الله ، وجاءت بهما شرائعه .

* * *

ولعلّ أبرز صورة يلتزم فيها القصص القرآني رطابة الأصول التي قامت عليها الشريعة الإسلامية هي الصورة التي تحتكم إلى القَدَر عن الوجه الذي صورته الشريعة الإسلامية له ، وأقامت مفهومه عليه .

فالأحداث التي عرضها القصص القرآني تخضع في أشخاصها وأشياءها للقَدَر على هذا المفهوم الذي حدده الإسلام .

والقَدَر - كما يراه الإسلام - ليس شبحاً قائماً وراء الأشخاص والأشياء يشارك في صنع الأحداث مشاركة مباشرة ، يراها الناس رأى العين ، أو يرقبون خط سيره الذي يسير فيه إلى فائته .. وإنما القدرة قوة خفية مضمرة في كيان الوجود ، لا يعرف الناس من أمرها شيئاً ، إلا بعد أن تقع الأحداث ، وتظهر نتائجها ، حيث تجيء على خلاف ما حسبوا وقدروا .. فيقولون : « قَدَرٌ جرى » .. إن كانوا مؤمنين بالقدر ، أو يقولون : « طبيعة تقذف بموالبها » إن كانوا لا يؤمنون به ، أو بصمتون لا يقولون شيئاً .. إن كانوا في غفلة عن هذا وذاك .

فالناس ، والأشياء ، والحياة كلها تبدو في ظاهرها مطلقة لاسلطان لشيء عليها إلا هذه القوانين الطبيعية التي تربط بها ، من أسباب ومسببات ، وعلل

ومعولات .. ولكن هناك أمور تقع على غير ما عرف الناس من علل وأسباب ، إذ أن عللها وأسبابها بعيدة عن مناطق الرؤية التي استطاعت الإنسانية أن تصل إليها وتقع على روابط العلية والسببية بين الأشياء فيها .

ولو أن الناس استطاعوا أن يجدوا لكل حدث علة وسبباً يدخلانه بهما في منطقة المعقول ، لما كان هناك قدر بالمعنى المفهوم عند من يؤمنون به .

وأما والناس مهتماً بلغوا من علم ومعرفة - فإنهم لن يصلوا أبداً إلى تلك الغاية التي يجدون عندها السبب لكل حدث ، والعلة لكل واقعة - فإن القدر سيظل واقفاً في حسابهم ، يطلع عليهم من وراء المجهول من حيث لا يحتسبون .

فقد يدرك الناس - عن طريق الطب مثلاً - أن هذا الجنين قد ولد ميتاً قبل تمام حمله ، لسبب كذا ، أو كذا ، أو أن ذاك الطفل قد مات بعد ولادته بسنة أو سنتين ، لعلة كذا أو كذا .. قد يدركون هذا وذاك ، ولكن تبقى بعد ذلك الذي عرفوه من أسباب وعلل وتبقى أسباب وعلل لا يتقنون عليها ، ولا يجدون إلى إدراكها سبيلاً .

لماذا يموت هذا الجنين ! ولماذا لم يستوف حظه من الحياة ، ويأخذ مكانه في الناس . وماذا كانت الغاية من حمله تلك المدة التي قاست فيها أمه ألم الحمل ، ثم الولادة العسيرة .. ثم لماذا ولد هذا الطفل .. ثم باكرته المنية في طفولته ولم ولم إلى كثير من الأسئلة التي لا حصر لها ، والتي لا يجد الناس لها جواباً ، ولا يعرفون لألغازها حلاً .. ذلك أن الذي يريد أن يصل إلى مفهوم لمثل هذه الأحداث ينبغي أن يكون قائماً على هذا الوجود كله . بأزمته وأمكانته ، ليصل الشيء بجميع أسبابه القريبة والبعيدة التي قد تمتد فتتناول أزماناً متباعدة تتجاوز مئات القرون عدداً .. ماضية ومستقبلية ، وقد تتوزع في أجيال متعددة .. غابرة وآتية .. وهذا في الحدث الواحد ،

على صغره وضآلته ، فكيف بالأحداث وقد تداخلت وتشابكت على تطاول الأزمان ، وامتداد الأمكنة ؟ إن ذلك لن يكون في مستطاع الناس أبداً ، ولو اجتمعوا له ، ورسدوا وجودهم كله للعمل من أجله .

وإذن فالقدر غيب محجوب عن الناس .. أو بمعنى أدق هو تلك المنطقة التي لا تنكشف للناس منها مصائر الأمور ، فلا تقع في دائرة المعقول أو المحسوس لهم قبل أن تقع ، وتصبح أمراً نافذاً لا مرد له .

وبهذا المفهوم نستطيع أن نقرر أن منطقة القدر تتسع وتضيق ، حسب ما عند الناس من علم ومعرفة ، وأنه كلما ازداد علم الإنسان واتسعت معارفه ضاقت دائرة القدر بالنسبة له ، إذ يستطيع أن يرجع كثيراً من الأحداث والوقائع إلى علل وأسباب .. ولهذا كان الإنسان الأول يكاد يكون محكوماً حكماً مطلقاً بالقدر ، حيث لا يكاد يعرف لأى شيء علة أو سبباً .

ثم كان الإنسان كلما اتسعت معارفه بالسكون خفت وطأة القدر عليه ، وانكشف ظل سلطانه في عينيه ، ومع ذلك فإنه - كما قلنا - ستظل هناك منطقة فسيحة رحيمة للقدر ، لا يستطيع الإنسان أن يرى فيها رؤية كاشفة مهما بلغ من معرفة ، أو أوتي من علم .

وتقيم لهذا شاهداً من كتاب الله الكريم .

ففي قصة موسى ، والعبد الصالح ؛ نجد الأحداث تجري في اتجاهين متخالفين : اتجاه يسير فيه الظاهر على مستوى الحياة التي يحكمها منطق الناس وتحتمله مدركاتهم ، وتناهل عقولهم .. واتجاه آخر على مستوى عال بعيد عن مأنوف الحياة ، وخارج عن نطاق الإدراك الذي يتعاملون بمقتضاه .. إنه على أعماق بعيدة لم تصل إليها رؤية الناس بعد .. وهي بات أن تبلغها يوماً ؟

فهذه سفينة يعمل عليها جماعة من السكادحين في سبيل العيش ، هي كل ما يملكون .. يركبها موسى والعبد الصالح وكانهما بعض المتعاملين معها .

للانتقال من جهة إلى أخرى ، لقاء أجر معلوم .. وإذا بالعبد « الصالح » يتدسس إلى السفينة فيحدث فيها خرقاً .. ويسبب لها عطياً .. ويرى موسى هذا المشهد فلا يملك أن ينكر على صاحبه فعلته تلك .. وحق له أن ينكره ، ويألم له .. ويصرح موسى بهذا الإنكار ، ويكاد يصرخ به في وجه صاحبه ، ويدينه به أمام أصحاب السفينة ، وعلى أعين الناس ، ولكنه يذكر العهد الذي أخذه عليه صاحبه .

« إن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً » ..

ومع هذا فإنه لا يحتمل هذا التمزق في وحدة تفكيره ، فيهمس في أذن صاحبه منكرًا هذه الفعلة :

« أخرقها لتفرق أهلها ؟ .. لقد جئت شيئاً إمرأاً » !!

وهذا أقل ما يقال في مثل هذا المجال !

وينبه العبد الصالح موسى إلى ما اشترط عليه في صحبته له ، فيقول :
« ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً » ؟ ويمتدح موسى لصاحبه : « قال لا تأخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً » .. إن الأمر الذي وقع أمر شنيع لا يمكن السكوت عليه .. فرفقاً بي !!

ويصحب موسى صاحبه على مضض ، لعله يكشف من أمره شيئاً جديداً .
ومضيان .. فيلتقيان بغلام .. ثم لا يلبث العبد « الصالح » أن يجد فرصة مواتية له ، فيقتل هذا الغلام ! بلا ذنب فعله ، ولا جريمة أتاها - بالنسبة لموسى وصاحبه على الأقل - فهو لم يمرض لهما بشيء ، ولم يلقهما بسوء من قول أو عمل ، بل إنه لم يعرض لأحد من الناس بسوء !

ويفرغ موسى ، ويكرب لهذا الاعتداء الصارخ ، على هذا الطفل البري ، وهذا الاسترخاء المهين لأدمية الإنسان ولحرمة دمه .. ولولا بقية صبر عند موسى لفتك بصاحبه ليقيده منه لهذا الغلام المقتول ، الذي يشعر موسى

في قرارة نفسه أنه شريك في دمه .. ولكن موسى يؤثر الصبر هذه المرة أيضاً ، ليرى من صاحبه جديداً ، لعله يلتقي أضواء على فعلاته تلك .. ولولا هذا لآثر التحلل من الشرط الذي كان بينه وبين صاحبه .

وينطلق موسى مع صاحبه بعد أن يقف موقفاً لائماً غامباً منكرراً : «أفتلت نفساً زكية بغير نفس .. لقد جئت شيئاً نكرراً يا موسى» ويلقاه صاحبه بهذا الجواب : « ألم أقل لك : إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ » .

ويحسم موسى هذا الموقف المتماوج بينهما بقوله : « إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ! قد بلغت من لدني عذراً » .. لقد فاض الإباء وطفح السكيل ! :

وينطلق موسى وصاحبه حتى يصلوا إلى قرية من تلك القرى القائمة على طريقهما ، ويستطمان أهلها ، فلا يحصلان على شيء ، ولا يجدان يداً تمتد إليهما بخير ، ويلحان بين بيوت القرية يتنا متداعياً تكاد جدره أن تنهوى وتتساقط ، ويمد العبد الصالح يده إلى هذا البناء المتداعي فيقيمه ، بلا دعوة من أحد ، ولا أجر يأخذه على هذا العمل الذي بذل له ما يذل من جهد ! .

ويضيق صدر موسى لهذا الموقف المتناقض أشد التناقض .. أناس يلقونهم هذا اللقاء الجافي البعيد عن المروءة والخير ، ثم يكون من هذا العبد الصالح أن يعمل على إصلاح أحد هذه البيوت التي تضم بين جدرانها أولئك القوم .. من ذوى المروءات الساقطة ، والنفوس المنكدة التي استبد بها الشح وملكها الأثرة ! ؟

ويطفح السكيل بموسى ، فيلقى إلى صاحبه بتلك الفاصلة التي تقطع ما بينهما من ضجة : « لو شئت لآتخذت عليه أجراً » ! .

ويتنفس موسى الصعداء ، ويخرج من هذه الدوامة التي كادت تضطرب في كيانها ، وتكاد تفسد عليه عقله ورأيه وتدييره .. ! فلقد أجهده أيها الجهاد

هذا الشوط الذي قطعه مع صاحبه .. إنه كان معه كمن يمشي على رأسه، فيرى الأشياء على غير وضعها الذي اعتاد أن يراها عليه ، ويأخذها به ! ويفترقان إلى غير لقاء .. ولكن بعد أن يكشف العبد الصالح لموسى الغطاء عن هذا الغيب المستور !

ونستمع إلى القصة من آيات الكتاب الكريم، حيث يقول الله سبحانه: « فوجد عبداً من عبادنا ٠٠٠٠ » إلى قوله تعالى « ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً^(١) » .. فنجد موسى يدور في فلك ، وصاحبه يدور في فلك آخر ، كل منهما يريد أن يجذب صاحبه إليه ، دون جدوى .. موسى يدور في فلك الواقع الذي يعرفه الناس، والعبد الصالح يدور في فلك علوي تدور فيه أفلاك العوالم كلها في الأرض ، وفي السماء ..

وانظر كيف رضى موسى كل الرضا عن فعل صاحبه الذي أنكره من قبل أشد الإنكار ، وذلك حين كشف له عن وجه الحقيقة المطوية في ظلم الغيب ، وأن السفينة التي خرقتها العبد الصالح ، لو علم موسى ما يعلم العبد الصالح بشأنها ، وما يحيط بها وبأصحابها - لو علم موسى هذا لخرقتها بيده، قبل أن يخرقتها صاحبه . وكذلك لو علم من أمر الغلام ما يعلم العبد الصالح لقتله، ولو علم من أمر الجدار الذي يريد أن ينقض ما يعلم العبد الصالح لأقامه بيده ..

* * *

ففي هذا المثل الذي بين موسى وصاحبه يتضح لنا القدر ، وينكشف لنا مفهومه في صورة واقعة .. فهو يمثّل الإنسان من حيث هو كائن محدود القدرة ، لا يرى من الأشياء إلا ما على السطح ، أو ما وراء السطح بقليل .. أما أعماق الأشياء، وأما صميمها فليس له إليه سبيل مهما يبلغ علمه، ومهما تكن

(١) سورة الكهف : الآيات ٦٥ إلى ٨٢ .

معارفه .. إن له حدوداً لا يتجاوزها ، وله مجالات لا يخرج عليها ، وهو في هذه الحدود يعمل ، وفي هذه المجالات يتحرك ، حسب تقديره ، وتفكيره .. ثم مع هذا فإن الأشياء تتحرك حركتها الطبيعية المقدرة لها .. وهي حركات قد تتفق بعضها مع حركات الإنسان ، وقد لا تتفق أو ما أكثر ما لا يتفق ، وما أقل ما يتفق .

وهنا نستطيع أن نحدد مكان الإنسان من القدر .. وتعرف إلى المجال الذى يعمل فيه كل منهما .. الإنسان والقدر ..

فالقدر هو « دولاب » تتحرك كل أجزائه حسب القوى التى أودعها الخالق جل وعلا فى كل موجود . وكل موجود يتحرك حركته فى الاتجاه ، وفى المدى المقدر له .. تماماً كما يرى ذلك فى « دولاب » بخارى أو كهربائى يدور بجميع قطعه وأجزائه . ثم إن جميع هذه الأجزاء وتلك القطع مع اختلاف حركاتها تحقق آخر الأمر غاية واحدة وتعمل جميعها لهدف واحد ، وقد اتسقت أجزاءها ، وتجاوبت اتجاهاتها . فلا يرى الرأى منها إلا حركة واحدة ، وإلا اتجاهها واحداً .. هكذا يرى المهندس الميكانيكى ، أو الكهربى حركات الجهاز الذى يقوم عليه ، ويديره ، إنه يعرف وضع كل قطعة منه ، كما يعرف وظيفتها ودورها الذى تؤديه .. أما من ينظر إلى مثل هذا الجهاز بغير علم فلا يرى فيه إلا عوامل صاخبة مضطربة يضرب بعضها وجه بعض أو ذلك هو الوجود كما نتظر نحن إليه ، فلا نرى فيه - لعلنا القاصر ، أو الجهلنا المطبق - إلا فوضى ، وإلا اضطراباً ، وإلا تخالفاً وعناداً بين كل موجود وموجود ، بل فى كل موجود .. أما الصانع القدير ، فقد أخرج هذا الوجود على هذا التصميم المحكم الذى يمسك النظام والاعتدال ، والتناسق ، والتناغم ، والتجاوب بكل ذرة من ذراته .. « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت .. فارجع البصر هل ترى من فطور .. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير »

هذا ، والملاحظ - فيما نعلم - أن جميع المخلوقات التي تساكنتنا في هذا الكوكب الأرضي مستسلمة لقدرها استسلام الآلة السليمة ليد صانعها الماهر الحكيم ، أشبه بالأعضاء في الجسد الصحيح المعافى ، تؤدي وظيفتها في انسجام مع بقية الأعضاء دون إرادة أو شعور .

فذلك شأن الكائنات التي تساكنتنا على هذه الأرض ، متحركها وساكنها ، أحيائها وحياداتها .

أما الإنسان فشأنه غير هذا الشأن . فهو وحده - من بين هذه الموجودات - هو الذي يتحرك ويعمل ، وقد صحبه في هذا العمل وتلك الحركة ، شعور وإرادة ، حتى لسكان أعماله وحركاته وليدة شعوره وإرادته . وعن هذا الشعور وتلك الإرادة يبدو الإنسان وكأنه عالم وحده ، منفصل عن هذا العالم ، مستقل بوجوده ، وبحركاته وأعماله . . . ولو فقد الإنسان هذا الشعور لسكان شأنه شأن سائر الموجودات في الخضوع الآلي ، والاستسلام المطلق ، والاندماج الظاهر والباطن في الحركة العامة للوجود .

ونحن ، وإن كنا قد جعلنا الإنسان وحده بين الكائنات في العالم الأرضي هو الذي له فلك خاص ، أو دولا ب خاص يدور به إزاء الدورة العامة للقدر - فذلك لأننا لانعرف - في مدى علمنا - غير الإنسان كائنا آخر له إرادة ومشية يملك بهما أن يتحرك كيف يشاء ، دون أن تخرج به مشيئته تلك عن الاتجاه العام الذي تأخذه حركة القدر . فالإنسان في ظاهره متحرك بإرادته ومشيئته ، ولكنه في واقع الأمر متحرك بمقتضى النظام العام الذي يتحرك به دولا ب الوجود كله .

انظر ..

لقد كان موسى يسير في اتجاهه الإنساني . .

وكان العبد الصالح يسير في اتجاه الدولا ب القدرى .

وكل ما في الأمر أن الحركة القدرية . في هذه المرحلة القصيرة التي صحب

فيها صاحبه - قد وجدت في العبد الصالح مفسراً يفسرها لموسى ، ويكشف له عن حكمة هذه الفعلات التي بدت متناقضة لمعنيه ، ولولا هذا لظلت في عيني موسى ، وفي تفكيره قدراً لا يدري له متأولاً .. تماماً كما يقع لمعنى الواحد منا كل يوم مئات من الأحداث ، في نفسه وفي غيره ، دون أن يعرف وجه الحكمة فيها ، ولو أننا وجدنا مثل هذا العبد الصالح ليكشف لنا ما وراء هذه الأحداث لما أصابنا هم ولا ابتنا على قلق لما وقع أو يتوقع من سوء ، ولبدت لنا هذه الأحداث آخذة أتم وضع وأصلحه لها ، ولنا ، ولنظام الوجود كله .

وإذن فالعلماء الماديون الذين ينكرون القدر ، هم محقون ومبطلون في آن .

هم محقون لأن كل ما يمكن أن ينسب إلى القدر ويضاف إليه ليس شيئاً خارجاً على سنن الكون ، ولا مطلقاً من العزل والأسباب التي تحكم الوجود وتمسك بكل موجود .. وغاية ما في الأمر أن هذه العلة ، وتلك الأسباب مطوية عنا ، بعيدة عن واقع علمنا .. وأنها لو انكشفت لنا لما كان فيها إلا ما زاء في كل أمر نعلمه ، ونعلم العلة والأسباب المتحركة فيه .

وهم مبطلون لأن العلم الذي في أيديهم ، والذي يستطيعون به النظر في الوجود علم محدود لا يحمل من الطاقات الضوئية إلا شمعاعات باهتة متكسرة لاتنفذ إلى أعماق الوجود ، ولا تكشف إلا بعض ما يظهر على حافته وحواشيه وعلى هذا ، فإنه سنظل موجردات الوجود كلها - فيما عدا هذه القشور منها - بعيدة عن تناول العلم ، مجهولة الأسباب والعلة .. وهي التي تطلع علينا حين تطلع قدراً مقدوراً ، لانعرف لها تأويلاً ولا ندري لها تفسيراً .

* * *

والقصص القرآني يقف من القدر موقفاً محايداً .. فيدع الأمور تجري على طبيعتها التي اعتاد الناس أن يروها عليها .. إلا أن تكون الحياة في مواجهة معجزة من المعجزات التي يجريها الله سبحانه وتعالى على يد رسله .. أما في غير هذا الموقف فشكل شيء يسير على ما لوف الحياة التي يحياها الناس بخيرها وشرها .

ففي قصة موسى مثلاً : نرى هذا الصراع الإنساني يسير في اتجاه الحياة ،
وحسب تقدير الأشخاص بينما يسير القدر في طريقه ، بالغاً غاياته ، دون أن
ينصرف يمنة أو يسرة بتلك الحركات التي تدب على الأرض .. تماماً كما يتحرك
الأرض وتدور حول نفسها من المشرق إلى المغرب من غير أن يتأثر دورانها
بحركات الكائنات التي عليها ، سواء ما كان منها يتحرك حركة موافقة لحركتها
أو مخالفة لها .

فأخوة يوسف يدبرون أمراً ، ويحركون له الأحداث على ما دبروا
وقدروا .. ولكن القدر يمضي في حركته .. وإذا يوسف المقدور له - في
تقديرهم - بل وفي تقديره هو ، وتقدير من شاهدوا الأحداث الممسكة به
أن يهلك في الجب ، أو يموت في السجن ، أو يفرق في الإغراء ، أو يضل في
مناهات الحياة - إذا به يصبح صاحب أمر ونهي ، وذا دولة وسلطان .. ،
ولا يقف الأمر عند هذا ، بل يصير الأمر بإخوته إلى أن يقفوا بين يديه ،
باسطين وجه الضراعة والرجاء والمغفرة .

وموسى .. تلقى به أمه في اليم ، وولقى به اليم بين يدي عدوه الذي كان
يطلب دمه ، والذي ألقى به في اليم فراراً من هذا البلاء الواقع ، إلى هذا
البلاء المتوقع - موسى هذا يستقبل البلاء كما يستقبله الناس ، ويعيش فيه هو
ومن حوله أياما وسنين .. ثم إذا هو الذي يذل فرعون ، ثم يسوقه إلى الموت
غرقاً ..

إن القدر في القصص القرآني - كما هو في مفهوم الشريعة الإسلامية -
ليس له دور ظاهر في مسرح الأحداث .. سواء في ذلك عند المؤمنين به
والمنكرين له .

فالأحداث التي يضمها القصص القرآني تجري في محيط الأسباب
والمسببات على نحو ما يألف الناس ، وما يقدرون .. دون أن تخرج الأشياء
عن هذا المدار الذي يربط بين أسبابها ومسبباتها ، اللهم إلا أن يكون الناس
في مواجهة معجزة متحدية - كما أمرنا إلى ذلك من قبل - فإنهم إذ ذاك

يكونون قد هيئوا أنفسهم لتلقى انقلاب عظيم ، لا يجدون له تأويلاً ولا تعليلاً بما بين أيديهم من علم يكشف لهم ما يعرفون من علل ومعلولات وأسباب ومسببات وبهذا يخضعون ويستسلمون استسلام قهر واستخزاء ، لا تسليم إدراك واقتناع .. وفي هذا يقول الله تعالى : « إن نشأ نزل عليهم من السماء آية ، فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

ولكن شتان بين إيمان المؤمنين بالقدر ، ونكران المنكرين له ، بعد أن تنجلي الأحداث عن نتائجها المقدورة لها .

إن المؤمنين بالقدر يستقبلون نتائج الأحداث أيّاً كانت ، في رضى واطمئنان .. إذ هم مؤمنون بأن ما وقع إنما هو بقضاء الله وقدره ، وأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . فإن كان خيراً حمدوا الله وشكروا له ، وإن كان شراً صبروا لحكم الله ، ورضوا بقضائه .

ونجد أمثلة هذا كثيرة مشبوبة في القصص القرآني ، في كل موقف يتجلى عن نعمة أو نقمة ، وينكشف عن خير أو شر .

ففي قصة يوسف مثلاً .. يذكر يوسف لصاحبي السجن ما أنعم الله به عليه من الإيمان والعلم والنبوة المتوارثة في بيته فيقول : « واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون »

ويعقوب حين يجيئه أبنائه بهذا الخبر المزيج عن يوسف ، وأنه قد أكله الذئب .. فيقول : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل .. » .
وحين يجيئه أبنائه بعد هذا بفقد أخيه لأبيهم عند ملك مصر .. « بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، عسى الله أن ياتيني بهم جميعاً » .
إن النعمة ، والنصر ، والخير .. لا يدخل منها على قلب المؤمن بالقدر زهو ولا خيلاء .. لأنها من عند الله .

وإن البلاء ، والشدة ، والضر .. لا ينال منها من قلب المؤمن بالقدر

يأس ولا فئوط من روح الله: « إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون ». الكافرون بالله ، وبما قدر الله .

والقدر - بهذا المفهوم - لا يخلى المؤمن به من مسؤولياته إزاء الحياة . وإزاء التكليف المنوطة به فيها .. فهو مطالب بأن يجهد جهده ، وأن يبلى بلاءه في كل أمر يعرض له ، وأن يلقاه بكل حوله وحيلته ، وأن يجسئ إليه بعلمه وأسبابه التي يراها ، ويقدرها .. فإن هو فرط أن قصر ، كان ملوماً ، وكان أهلاً للجزاء الذي يناسب تعريطه وتقصيره ..

فليس إيمان المؤمن بأنه سائر آخر الأمر إلى المصير الذي تؤدي به إليه الحركة العامة للوجود ، دون ، أن يؤثر تقديره وتدييره وعمله أي تأثير في هذا المصير - ليس هذا الإيمان بالذي يخلى المؤمن من المسؤوليات المنوطة به .. فهو مطالب بأن يقدر ، ويفكر ، ويدبر ، ويعمل بالقدر الذي يسفقه به تفكيره ، ويحتمله جهده .. وهذا - على الأقل - هو الذي يعنيه من المسؤولية إزاء عقله وضميره ..

ولقد ذهب الإسلام في هذا المجال - إلى أكثر من هذا المدى في أخذ الإنسان بعالم الأمور وأسبابها ، وفي احتمال تبعاتها .. حتى مع رسله الذين تظاهروا بالمعجزات ، وتقوم إلى جانبهم قوى غيبية تخدم بما وعدوا من العصمة والنصر .

فلقد كان أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام أكثر الناس عملاً في هذه الحياة ، وأكثرهم حملاً لأعبائها ، وتلقياً لمساءاتها ، واحتمالاً لشدائدها . فلقد كان الواحد منهم يقوم وحيداً في وجه الحياة وقد طمست معالمها الضلالات والسفاهات ، وملك زمامها الضلال والسفهاء ، فيؤذن في هذا الركب المنحدر في قوة إلى مهاوى الهلاك : أن قفوا .. وأن عودوا أدر اجكم إلى ما أدلكم عليه من مواطن الحق والخير .. فلا يسمع إلا تحميقاله ، وتطاولا عليه ، ولا يستقبل منهم إلا السكيد وإلا الضر والأذى ، في ألوان متعددة ، وصور شتى .

ومع كل هذا فقد كان رسل الله دائماً في الميدان .. ميدان المعركة ،

يعملون بكل قوة ، ويحاربون بكل سلاح من أسلحة الحق ، آخذين بكل سبب من أسباب النجاح والظفر .. لا يلقاوم أبداً على طريق الجهاد والكفاح هذا الصوت المنسكر الذي يلبس الحق بالباطل ، والهدى بالضلال .. ذلك الصوت الذي يهتف بالضعفاء : أن دعوا الأمور تجري في أعنتها ، وأن اتركوا ما أنتم فيه من جهاد ومجاهدة ، فما وراء ذلك إلا ما قدر الله ، وما أراد الله !

ونعم .. وإنما لكلمة حق أريد باطل ! .

فما وراء ما نعمل ، وما نبذل من جهد ، وما نبلى من بلاء إلا ما قدر الله وما أراد الله .

ولكن من لنا بعلم ما قدر الله وما أراد الله قبل أن يقع هذا الذي قدره الله وأراده ؟ .

أنفق هكذا بالاحراك .. فلا تتكلم كلمة ، ولا تخطو خطوة ، ولا تحقق فكرة .. انتظراً لما قدر الله وأراد الله ؟ إن ذلك تعطيل للقوى التي أمداها الله بها ، وإهدار للعقل الذي وهبنا الواهب إياه ، بل إن ذلك ليضع الإنسان في مرتبة الجماد الذي لا يتحرك ، بل إن الجمادات نفسها تصادم ، وتتحرك ، وتتغير أوضاعها ومعالمها .. ومن يدري ؟ فلعلها تحوى في كيانها إرادة ، وعقلا ! .

أفيكون الإنسان ، وهو سيد هذا الكوكب الأرضي ، في مرتبة دون الجماد ؟ .

إن كل كائن حي .. يتحرك الحركة أو الحركات التي تبلغ به الغايات المقدورة له ..

فالبدرة في الأرض تنفعل بكل كيانها لتصدع وجه الأرض حتى ترى النور ، ثم تثبت جذورها وتمد أصولها وفروعها ، حتى تكون شجرة مزهرة مشجرة .

والحيوانات كلها تقدو وتروح ، وتعمل وتناضل ، وتدافع وتقاتل ، دون أن تسكن هذا السكون الهامد ، الذى تدعو إليه هذه الدعوة اللئيمة ، التى تتمسح بالقدر ، فراراً من مسئوليات الحياة ، وضعفاً وخوراً عن حمل أمانة الانسان ، كإنسان عاقل ، مریداً .

فإلى اليوم الذى يستطيع فيه الإنسان كشف كل ما فى هذا الوجود من علل وأسباب ، وربط هذه العلل والأسباب فى سلسلة الأحداث صغيرها وكبيرها ، فى ماضى الزمن ، وحاضره ، ومستقبله - إلى هذا اليوم - وهيات أن يكون - ينبغى أن نعمل وأن نعمل ، فى كل مجال ، وفى كل اتجاه ، بما يتسع له علمنا وتقديرنا ، دون أن يكون فى ذلك مصادمة للقدر ، أو اعتراض عليه ، أو إنكاره .. فالقدر ماض فى طريقه ، ونحن ماضون فى طريقنا .. التى هى طريق القدر الذى لا نواه ..

كان ابن الرومى الشاعر العباسى المعروف ، من المتشائمين الذى لا يتوقعون من الحياة خيراً .. وكانت تتمثل له مصارعة فى كل يوم مرات .. فى عصفه وريح ، أو نعبه غراب أو صياح ديك ، أو وجه إنسان .. ومع هذا فقد كان يلقى بدلوه فى الحياة ، بيد مرتعشة وقلب مضطرب منخوب الآن هذه الحركة على ما بها خير من السكون .. لأن السكون لا يجيئ بشيء ..

ولقد كانت فكرة القدر هذه تنازعه ، ولعله ركن إليها فترة من حياته ، ولكنك وجدتها معطلة لوجوده ، قاضية عليه ، بالموت قبل أن يجيئه أجله .. فكان يضرب فى الحياة ضربات تدل على أنه حى فى الأحياء .. وهى ضربات لا يرجو من ورائها خيراً ، بل ربما كان يقدر فى أعقابها العطب والهلاك .. وهل يملك الإنسان الذى غرقت به السفينة فى وسط المحيط وهو مستيقن أنه هالك لا محالة - هل يملك إلا أن يضرب يديه ورجليه ، وأن يقاوم بكل كيانه حتى تخمد أنفاسه ؟ إنه ليس الإنسان وحده ، بل إن ذلك طبيعة قائمة فى كل حى ..

ولابأس من أن نمرض هنا بصورة من هذه المشاعر المتوترة التي كان يعاينها ابن الرومي في موقفه من الحياة ، وتردده بين الإقدام والإحجام ، في خوض معاركها .. يقول ابن الرومي :

أذاقتني الأسفار ما كره الغنى إلى وأغراني بترك المطالب
فقدمت رجلاً رغبة في رغبة وأخرت أخرى رهبة للمطالب
أخاف على نفسي وأرجو مفازها وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غابتي قبل مذهبي؟ ومن أين والغايات بعد المذاهب؟

وهذا البيت الأخير لابن الرومي هو الصرخة المنطلقة من صدر الانسانية كلها ، في مواجهة الحياة والقدر معاً .

ألا من يريني غابتي قبل مذهبي؟ ومن أين والغايات بعد المذاهب؟
هذه هي المشكلة !!

فلو رأى الانسان الغايات قبل مذهبه إليها لما ذهب !

ولم يذهب ؟ وهي صائرة إليه إن لم يصر هو إليها !

أما والغايات إنما تجيء بعد المذاهب ، ووجود الأمور إنما تنكشف بعد معالجتها ، فذلك هو المحيط الذي يشد الناس إلى غابتهم ، ويسوقهم إلى قدرهم المقدور .

* * *

انظر !

في نظرة الاسلام إلى القدر تلك النظرة التي يبدو منها غائباً كحاضر ، وحاضراً كغائب ، في هذه النظرة يقوم القدر في الناس سلطاناً رحيماً ، يفيثون إلى ظله الظليل إذا أضناهم السير ، ولفحهم الهجير !

فالقدر في التفكير الإسلامي لا يلتقي به المسلم إلا عند آخر المطاف من

سعيه الذي يسعى ، وعمله الذي يعمل !

وفي هذا اللقاء يلتقي الإنسان بوجوده كله ، وبما أصاب أو أصيب به في ساحة القدر ، فإن كان قد أصاب خيراً لم يقل قوله قارون من قبل . « إنما أوتيته على علم عندي » بل قال قول المؤمنين الشاكرين . . كما قال يوسف لصاحبي سجنه : « لا يأتيك طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله ، قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربى (١) » وقوله لهما أيضاً : « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس » .

وإن أصابته مصيبة قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . . أو قال : « صبر جميل » .

أما غير المؤمن فإنه لا يلتقي بهذا الوجه الكريم أبداً ، ولا يصفح هذه اليد الرحيمة في سراء أو ضراء ، إن أصاب خيراً أشرب ويطر ، ووطنى وبنى : « أفرايت الذي كفر بآياتنا ، وقال : لأوتين مالا وولداً ، أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً » . . وإن أصابته مصيبة احترق في نارها كدأ وحسرة ، دون أن يجد لمصيبته عزاء من إيمان ، أو مواساة من قدر .

في غزوة « أحد » أصيب المسلمون بامتحان من الله ، فاستشهد منهم سبعون شهيداً . . وكان في هذا مقولات للمنافقين - كعبد الله بن أبي بن سلول ، ومن انضوى تحت لوائه ، وكانوا قد خرجوا مع المسلمين ، ثم اتخذوا عنهم . وفي هذه الواقعة يقول الله تعالى : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم في أخراكم ، فأثابكم غمماً بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون . . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة بعاساً ، يغشى طائفة منكم » .

ثم يكشف الله سبحانه عن نفسية المنافقين : « وطائفة قد أهملهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ، ظن الجاهلية . . يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ »

قل : إن الأمر كله لله . . . يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك . . . يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا .

ويرد القرآن على هذا القول المنكر : « قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » . فهذا هو القدر بسططانه ، قد ظهر مستعلناً في هؤلاء القتل الذين استشهدوا في تلك المعركة . . . إنهم يساقون بسططان القدر إلى قدرهم ، وإلى حيث لقوا مصارعهم . . . « لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » . . . أى لو لم تكن حرب ، أو لو لم تدعوا إلى هذه الحرب ، ولم تخرجوا إليها لخرج إليها هؤلاء الذين كتب عليهم القتل ، ولا ضجعوا ضجعتهم تلك التى ترونهم عليها فى ساحة المعركة . . . إنه القدر الذى لا يغالب .

ثم يعزى الله المؤمنين بما أصابهم فى شهدائهم هؤلاء : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ، وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا ، وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير (١) » .

و « لو » هذه ، هى التى تدمى قلوب الذين لا يعرفون القدر ولا يتعاملون معه فى أعقاب الشدائد والملمات ، وهى التى تنسكأ جراحهم كلها عمات يد الزمن على التثامها .

ومن هنا كانت كلمة « لو » من الكلمات التى أنكرها الإسلام على المؤمنين أن يذكرها فى معرض الندم على ما فات ، أو الأمل فى المرتقب ، فيقول النبي الكريم فيما رواه مسلم عن أبي هريرة : المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . . . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء الله فعل .

فإن لو تفتح عمل الشيطان . . . وعمل الشيطان الذي تفتححه (لو) هو السخط على الأقدار ، وعدم الرضا بما قدر الله ، واليأس من رحمته .

* * *

وهنا أمر يحسن أن نقف عنده ونلتفت إليه لفترة ، وهو أن الرضا الذي يستقبل به المؤمن ما يقع من مقدرات القدر - هذا الرضا ليس من قهر وإلزام ، وإنما هو عن إرادة واعية مدبرة مقدره ، ذلك أنه ليس من الدين ، ولا في الدين - أعني الإسلام - ما يحول بين الإنسان وبين حقه الطبيعي في معالجة الواقع ، وفي محاولة تغييره بكل ما يملك من وسائل كريمة سليمة .

وأحسب أن هذه المأثورة الإسلامية : « لو اطلعتم الغيب لاخترتم الواقع » قد فهمت في كثير من الأحيان فهماً غير سليم ، فهي ليست دعوة استسلام ذليل ، ولا صفة رضى مكبوح ، وإنما هي كلمة عزاء ، ولمسة تسمية وتطبيب ، تذكر حين تكون المصيبة ، وحين يقع الخطب ، فتذكر برحمة الله وبفضله ، وبحكمته وتقديره وقدره ، فتتقن النفس إلى الوداعة والسكون ، ويسكن القلب إلى الطمأنينة والرضا ، وعندئذ يجد المرء عقله ، وعزمه ، ووجوده ، فيواجه المصيبة ، ويلقى الخطب بما في وسعه من حول وحيلة . . . ولربما وجد لهذا الضيق فرجاً ، ولهذا الهم مخرجاً . . . وكان من الممكن لو لم يتلق هذا العزاء ، ولو لم يستقبل هذه اللمسة - أن تحطمه المصيبة ، وأن يدمره الخطب فلا تقوم له قائمة بعد يومه هذا .

نقول : إن الرضا بالواقع البغيض الكريه ليس في الإسلام ، ولا من الإسلام . . . لأن ذلك معناه إهدار لعقل الإنسان أن يفكر ، وتعطيل لإرادته أن تعمل ، ووقوف بالحياة أن تتحرك ، بل وتمسكين للشر أن يستشري ، واعتراف للباطل أن يقيم حيث يشاء آمناً مطمئناً ، لا يلقاه أحد بإنكار ، ولا يزعه منكر بسوء .

وكلا . . . فإن هذا غير سبيل الأحياء في الحياة ، كما هو غير سبيل الدين والمتدينين .

وفي القصص القرآني هدى راشد قويم في هذا الموقف الذي لبس فيه كثير من المتدينين مسوح الذلة والمهانة ، فذلوا وهانوا ، وبشروا في الناس بالذلة والهوان ، حين ألقوا إليهم بمثل هذه القولة : « لو اطعمتم الغيب لا اخترتم الواقع » ، كلما غلت في صدورهم مراحل الثورة على الظلم ، أوهمت في أنفسهم بوادر الثورة على الظالمين والمستبدين .

وتاريخ الإسلام يحكي فصولاً طويلة مثل فيها هذا الدور الغبي الدخيل على الإسلام ، فقتل في الناس العزمات الصادقة ، وأطلقاً من صدورهم التزات المتوثبة للملافة البغي ، وردع الباغين .. وما استطال حكم أمراء السوء ، ولا امتد سلطان الملوك والسلطين الباغين المفسدين ، إلا حين شغل الناس عنهم بالالتفات إلى هذه المأثورة وأمثالها .. بعد عرضها هذا العرض المقلوب ؟

ولقد كاد ينسينا هذا الاستطراد أن نعد البصر إلى القصص القرآني ، فنأخذ منه الشاهد المبين ، لهذا الموقف ، الذي ينبغي للمسلم أن يقفه إزاء المقدور ، بعد أن يقع .. فنقول :

إن هذا القصص كله هو في الحقيقة ثورة على الواقع بعد أن وقع . فاجاءت دعوات الرسل إلا في أعقاب أوبئة عقلية ، ونفسية ، واجتماعية .. قد أصابت الناس في عقولهم فأظلمت ، واشتملت على أنفسهم ففسدت ، وسرت في مجتمعاتهم فاستوحشت .. فكان على رسل الله أن يعملوا جاهدين على تغيير هذه الأوضاع المستقرة ، وإخراج الناس من عقولهم تلك الظلمة ، ومن نفوسهم الفاسدة ، ومن طبائعهم المتوحشة ، وإلباسهم لباس الإنسانية العاقلة الرشيدة الكريمة .

إن مهمة الرسول — أي رسول من رسل الله — هي التغيير الذي يكاد يكون تاماً شاملاً لهذه المقدورات ، التي استسلم لها الناس ، وطاشوا فيها ، ولو كان من شأن الدين أن يدعو الناس إلى الاستسلام للحياة وأخذها كما هي ، أو كما يجدها الناس عليها — لما كان للرسل مقام بين الناس ، ولما

كانت لهم رسالة فيهم ، ولا دعوة يدعوهم إليها .. إذ الدين في صميمه هو دعوة جادة إلى تغيير وجه الحياة ، ذلك الوجه الذي يواجهه الرسول ، ويجد الناس عليه ..

ولا يزيد هنا أن نذكر لهذا شواهد من القصص القرآني .. فالقصص القرآني كله - كما قلنا - شاهد له ، يحدث به .

وإنما الذي يزيد أن ننبه إليه هنا هو أن هذا التغيير الذي كان يقوم له رسل الله ، ويدعون إليه ، ويقطعون حياتهم في جهاد ونضال من أجله - كثيراً ما يفوتهم إدراكه ، ولا يظفرون بما يريدون منه . ولكن هذا لا يمنع الرسل من أداء رسالتهم إلى أقوامهم . ودعوتهم إلى الله بكل ما استطاعوا من صبر واحتمال على هذا المكروه الذي يلقونه من أقوامهم .. وذلك لأمرين : أوها إقامة الحجّة على الناس ، وأخذ الظالمين منهم بالعذاب الأليم ، وثانيهما : إناحة الفرصة للرسول ليجاهد هذا الجهاد العظيم في سبيل الله، فيرفع الله بذلك درجته عنده .

فقوم نوح - مثلاً - جاءهم نوح يدعوهم إلى أن يغيروا ما بأنفسهم من كفر وضلال ، وأن يخلصوا قلوبهم ووجوههم لله وحده .. وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يغدو عليهم ويروح بالآيات والعظات ، فما استجابوا له ، ولا استقاموا على الطريق الذي يدعوهم إليه .. حتى لقد ضجر ومل ، وجار إلى ربه طالباً العون والنجدة .

« قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدكم دعائي إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم ، جعلوا أذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكباراً ، ثم إني دعوتهم جباراً ، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ، ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً ؟ ألم تروا

كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً ، وجعل الشمس سراجاً ، والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ، والله جعل لكم الأرض بساطاً ، لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ، قال نوح رب إنهم عصوني ، واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً ، ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا : لا تذرنا آهتكم ، ولا تذرنا ودأً ولا سواطاً ، ولا يغوث ويغوث ونسراً ، وقد أضلوا كثيراً ، ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً .. مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ، وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك أن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً (١) .

حتى إذا بلغ الكتاب أجله بهؤلاء المناكيد ، أتاهم الله من حيث لا يحتسبون : « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحيناً ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مفرقون ، وبصنع الفلك ، وكلها مر عليه ملاً من قومه سخروا منه ، قال إن تسخروا مني ، فإننا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل علينا عذاب مقيم ، حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ، ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل » (٢) .

وهكذا أخذهم الطوفان ، وهم ظالمون .. « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخلاه أليم شديد » (٣) .

* * *

(١) - سورة نوح : ٥ - ٢٥ .

(٢) - سورة هود : ٣٦ - ٤٠ .

(٣) - سورة هود : ١٠٢ .

الباب السارِسُ

الصراع في القصص القرآني

الصراع وواقع الحياة :

الحركة هي مبعث القوة في الوجود ، وهي « المولد الديناميكي » لكل الطاقات العاملة في مسرح الحياة .. وهي سر هذا التفاعل المتصل بين الكائنات جميعها .. من الذرة إلى الجبل ، ومن قطرة الماء إلى المحيط العظيم ! ..

فهذه الجدة التي تلبس الوجود كله حلا مختلفا الأشكال والأصباغ كل آن ، إنما هي من نسيج الحركة ومن صنع يديها .. وأنه لولا هذه الحركة الدائبة الشاملة ، لجمد الوجود ، وأكله الصدا والعفن ، كما يأكل الصدا الحديد ، وكما يتهرأ الجسد ويتحلل ، حين تزايله الحياة ، فيبرد ويسكن ! ..

والحركة في مظهرها صراع عنيف بين الموجودات .. كل موجود يريد أن يحقق ذاته على نحو ما .. فبعض الموجودات يكون تحقيق ذاتها بإفناء غيرها فيها ، على حين بعضها الآخر يكون تحقيق ذاتها بالبقاء في غيرها .. وعلى حين يكون تحقيق الذات لبعض ثالث بالاجتماع مع أشباهها .. وهكذا تتعدد صور الصراع إلى أعداد لا حصر لها ، فيتولد منها هذا العدد الذي لا يحصى ولا يحصر من الموجودات على اختلاف أنماطها ، وأجناسها ، والتي هي كل هذه الموجودات التي يعمر بها الوجود ، وتزخر بها الحياة .. إذ ليس هناك موجود إلا وهو نتاج صراع . على نحو ما من أنحاء الصراع .

الصراع في القصص القرآني :

والقصص القرآني وإن يكن عرضاً لأحداث مضت . إلا أنه لا يعرض هذه الأحداث مجرد عرض تاريخي لإفادة العلم بها ، أو لإظهار أن أخباره التي يجيء بها منزلة من جهة طاملة بكل شيء ، محيطة بكل شيء ، وإنما يعني هذا القصص أولاً وبالذات بما في هذه الأحداث من عظات وعبر ، فيها تذكرة وموعظة لمن يقف عندها ويستمع إليها .

ولهذا فإن الأحداث التي يقوم عليها بناء القصة في القرآن أحداث تتصارع فيها قوى متعادلة متعادلة ، يحاول كل منها أن يقضى على خصمه ، ليخلى له وجه الحياة .

وهذا الصراع الذي يحدث في أحداث القصة القرآنية إنما يأخذ وجهاً واحداً ، فهو الصراع بين الخير والشر باعتبارها ظاهرتين متحكمتين في الحياة ، وفيهما يتقلب الناس ، وفيهما يتعاملون . ومن هذا الصراع المحتدم بين الخير والشر تتمثل العبر والعظات ، لمن نظر بعين بصيرة ، وقلب سليم .

والإسلام في نظره للخير والشر لا ينكر واقع الحياة ، ولا يجاوز الحدود التي تجرى عليها سننها ، فهو يعترف بما فيها من خير وشر ، كما يعترف بأن الإنسان في معرض الخير والشر .. وأن في كيانه من القوى العاقلة ما يفرق به بينهما ، ويميز به الخبيث من الطيب .

وفي مشاهد الصراع التي يعرضها القصص القرآني تبدو الحياة كلها بخيرها وشرها ، ويتمثل فيها الناس جميعاً بأخيارهم وأشرارهم ، على اختلاف ما ركب فيهم من طباع ، وما أشرىوا في قلوبهم وعقولهم من نزعات وأهواء .

والخير في نظر الإسلام حق ، والشر باطل .. أو بمعنى آخر .. أن الخير يقوم على دعائم من الحق ويستند على أسس وطيدة منه ، وأن الشر ينبت من حبات الباطل ، ويعتدى مما تمتصه من زور وبهتان ..

ولهذا ، فإن العاقبة دائماً للخير والحق ، وأن الخزي والخسران للشر والباطل .. « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .. « قال موسى ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين » . « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً »

وبلاحظ هنا أمور :

أولاً : أن الدور الذي كان يؤديه أنصار الحق - قبل الرسالة الإسلامية والبعثة المحمدية - كان دوراً محدوداً لا يتجاوز جهد الرسول وحده .. ذلك الجهد الذي كان يمد دائماً بقوى سماوية منظورة ، يراها الناس رأى العين ، فيما يقع من معجزات ؛ يجيء بها الرسل ابتداءً ، أو يقترحها أقوامهم عليهم .

ثانياً : في الرسالة الإسلامية حدث تغير كبير في هذا الصراع وفي القوى المشتبكة فيه .. فكان دور النبي دوراً بارزاً فيه ، لم تظهر فيه قوة مادية ظاهرة تظاهره ، وترد بأس المبطلين عنه . ثم كان دور أتباعه ؛ وحملهم الجهاد في سبيل الله لنصرة الحق ، وإعلاء كلمته ، دوراً إيجابياً واضحاً ، بذلوا له دماءهم وأموالهم ؛ بمد أن أوذوا في أهلهم وأنفسهم ، وأخرجوا من ديارهم .

ولاشك أن هذا إيدان ببدء مرحلة جديدة في حياة الانسانية ، كان على الإنسان فيها أن يحمل عبء الدفاع عن الحق ، وأن يبذل في سبيله من ذات نفسه ما يستطيع .. من مال ، ودم ؛ . إذ كان الانسان قد بلغ في هذه المرحلة من حياته ما يؤهله لأن يكون صاحب رسالة ، يدعو لها ويبشر بها ، ويحتمل الأذى في سبيلها ، ولو لم يسكن ذلك عن دعوة من السماء أو رسالة من رسالاتها .

ولهذا ، فإننا نجد في قصص الأنبياء - بلا استثناء - من نوح إلى عيسى عليهم السلام حيدة مطلقة من أتباعهم في هذا الصراع الذي كان بين الأنبياء وبين أقوامهم ؛ وكان حسب المؤمنين من أتباع الرسل أن يخلصوا بأنفسهم

وليس عليهم إزاء المعاندين المكابرين من مئونة يحملونها ، فكان الرسول يمضى وحده حاملاً رسالة الله بين يديه - وكان كأي صوت آخر ولو خافتاً يقوم إلى جانبه ، ويدعو بمثل دعوته ، كان هذا الصوت حدثاً فريداً يستحق التسجيل والتنويه .. كما ذكر القرآن ذلك عن هذا الرجل الصالح الرشيد حين آمن بدعوة الرسل الذين جاءوا إلى أصحاب القرية ، يدعونهم إلى الله ، فكذبوها وردوها ، فوقف هذا الرجل يدعو قومه ويهتف : أن أجيئوا داعي الله : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ، إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا : إنا إليكم مرسلون ، قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وما علينا إلا البلاغ المبين ، قالوا إنا تطيرنا بكم لننظن أنكم لسرافلون ، وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ، قال يا قومي اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لا ينالكم أجراً وهم مهتدون » .

هذا ، على حين نجد الجهاد في سبيل الله فريضة على كل مسلم ، كما صرح بذلك القرآن ، في أكثر من آية من آياته .. فيقول سبحانه : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال (١) » .

ويقول : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون (٢) » .

— نقول : بيننا نجد هذا في الدعوة الإسلامية ، إذ لا نجد دعوة من دعوات الرسل السابقين جاءت إلى أتباعها بدعوة عامة شاملة إلى الجهاد الذاتي ، ومقاتلة البغاة والجاحدين ، سواء أكان ذلك تحت قيادة رسلهم ، وفي حال وجودهم ، أم أن ذلك بعد حياة الرسل وتحت قيادة قائد رشيد من القوم .. وحتى في أواخر الدعوات السماوية ، كدعوة موسى .. دعا موسى قومه إلى

أن يدخلوا الأرض المقدسة بعد أن نجاهم الله على يديه من فرعون وما كان يريد بهم ، فأبوا أن يستجيبوا لهذه الدعوة التي تقدمهم من التشريد والضياع في الصحراء .. إنها دعوة لا يجاهدون من أجلها في سبيل الله ، ولكن يجارون من أجل أنفسهم ، ومن أجل أن يكون لهم مأوى يأوون إليه كسائر الناس .. فأبوا عليه ذلك ، واقترحوا أن يقوم هو بتحقيق هذه الدعوة التي دعاهم إليها . فإن لم يكن ذلك في مستطاعه فليستن بربه .

وفي هذا يقول الله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه .. يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا : يا موسى إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون .. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى .. إنا لن ندخلها أبداً ما دأبوا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين (١) . »

إلى هذا الحد كانوا من التخاذل والانخلاع عن دعوة الرسول ، حتى ولو كانت لذات أنفسهم ، وخاصة أمرهم .. إنهم بأبون أن يدخلوا مجرد دخول على أعدائهم ، وأن يقفوا لحظة في مواجهة الخطر الذي سيقبضه النصر المحقق الذي وعدهم به موسى ، وهم يعلمون أنه وعد صادق صدق اليقين ! .

ومرة ثانية ، بعد أن شردوا ومزقوا في الأرض طلبوا إلى نبي لهم أن يختار لهم ملكاً ، يقاتلون تحت إمرته ، ليسترجعوا وجودهم الضائع .. ونبيهم يعرف ما ركبت عليه طبيعتهم من التواء وعناد وتخاذل ، فراجعهم في الأمر وكشف لهم عن موقفهم الذي سيقفونه حين يصبح الأمر ملزماً لهم ، فأصروا وأجمعوا أنهم سيبدون النداء إذا دعوا .

فماذا كان ؟ ...

استمع إلى قول الله تعالى : « ألم تر إلى الملا من بنى إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله .. قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم ، والله عليم بالظالمين ^(١) . »

إنهم لا يريدون أن يقدموا أية تضحية من عند أنفسهم في ظل النبوة ، حتى ولو كانت هذه التضحية مطلوبة لنفهم الذاتى ، وتحريرم الشخصى . ولهذا فإنهم كانوا ينظرون إلى الإله المعبود أنه رب الجنود أى أنه الذى يحارب من أجلهم ، ويقتل الناس جميعاً فى سبيل الإبقاء عليهم !
إن ربهم هو وحده الذى يلقى أعداءهم ، دون أن يكون لهم دور فى المعركة !!

وفى الدعوة المسيحية .. لم يكن من بين محاميل الدعوة إليهم أن يحملوا سلاحاً أبداً حتى فى مقام الدفاع عن النفس .. إنهم لو دعوا إلى هذا لما استجابوا .. وإنهم لن يرضوا لأنفسهم أن تبحر أو تحشد فى سبيل العقيدة . ولهذا كانت دعوة المسيح إلى أتباعه : « أن من ضربك على خدك الأيمن ، فأدر له خدك الأيسر » .. وبهذا يضمن أن ينجو بنفسه ، حين لا يواجه العدو بالمدوان ، ولا يقف موقف صدام أبداً ^(٢) .

وهذا - كما قلنا - على خير ما جاءت عليه الدعوة الإسلامية ، التى جعلت الجهاد فى سبيل العقيدة والتضحية بالنفس والأهل والولد ، والمال فرضاً على كل مسلم ، فى مجال الصراع بين الخير والشر . والحق والباطل .

(١) الآية: ٢٤٦ .

(٢) ولا يرد على هذا بما كان من موقف المسيحية فى وجه الاضطهادات الدينية التى سادتتها إبان عا كم التفتيش وغيرها .. فقد تحولت المسيحية إذ ذاك من عقيدة دينية إلى عصبية طائفية ، تقاتل فى سبيل الاحتفاظ بوجودها ، وبما بين يديها من جاه وسلطان .

ما مدلول هذا ؟

ومدلول هذا ، أن العقيدة الإسلامية قد عرضت حقائقها على العقل الإنساني عرضاً كاشفاً ، ودعته إلى استعمال حقه كاملاً في النظر فيها ، ومقابلتها بما في العطرة الإنسانية من إقبال على المعروف ، وإعراض عن المنكر ، والاحتكام في هذا إلى سنن الحياة ، وما استقر عليه نظام المجتمع الإنساني ، وقامت عليه دعائم السلام والخير ، والأمن ، في الجماعات الإنسانية ، على امتداد الأزمان واختلاف الأمم .

لم يفرض الإسلام عقيدته على الناس عن طريق القهر الذي يجيء عن انبهار العقل ودهشه أمام المعجزات المادية القاهرة .. وإنما جاء إلى الناس محتسماً إلى عقولهم ، ويأخذ من واقع حياتهم .. يتنخل منها الطيب ، وينقى عنها الخبيث .

« يحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التي كانت عليهم » .

والدين إذ يدخل في كيان الإنسان عن هذا المدخل اليقظ المدرك للحقيقة العقيدة التي دان بها - يصبح قوة ذات سلطان على الإنسان ، لا يستطيع التخفيف منه أو الانحلال عنه . إنه سلطان قائم على الحب ، والولاء ، والجلال ، والتقدير ، والتقدير .. إنه سلطان أقوى من سلطان الحب الذي يجده الإنسان لولده ، وزوجه ، وماله ، بل ونفسه .. ولهذا كانت دعوة الإسلام إلى أتباعه بالإيثار لهذا الدين على الآباء ، والأبناء ، والأموال ، والأهل ، والعشيرة - كانت هذه الدعوة آخذة الاتجاه الصحيح لتسكن في قلوب المؤمنين ، ولتجد لها قبولاً ، وبها رضى .. إنها تحدث عن دين تلقاه الإنسان باختياره ، واختبره بعقله ، وكون رأيه فيه غيره خاضع لمؤثرات القاهرة ، أو إحالة إلى ما وراء المجهول ..

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم

وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتربصوا ، حتى يأتي الله بأمره» (١). إن الذي يخالط الدين وجوده هذه المخالطة ، ليجد للدين موقعا في قلبه ، آثر عنده من ماله وولده ونفسه ! .

ونعود بمد هذا إلى حديثنا عن ذاتية الخير والشر في القصص القرآني ، من حيث هاقوتان متقاتلتان في هذا القصص ، تتحرك أحداثه في مجالهما ، وتتجمع وتفترق أشخاصه عليهما ، ومن أجلهما . . فنقول : إن الخير والشر يعرضان في هذا القصص القرآني ، وفي كل مجال يعرضهما فيه القرآن على أنهما أمران ذاتيان ، كل منهما له وجوده ، وله مشخصاته ، وله فاعليته في الحياة . . فالخير له ضوابطه وموازينه ، والشر له ضوابطه وموازينه كذلك . . ولم ينظر الإسلام إلى الخير والشر نظرة تجريدية فلسفية تخلط بينهما ، وترفع السدود التي تفصل بين واقعيهما . . بل نظر إليهما الإسلام تلك النظرة التي ينظر بها إليهما الإنسان ، باعتباره فرداً يعيش لذاته ، وباعتباره إنساناً يعيش في مجتمع . . فالخير حين يعود على الإنسان يحصل مافيه من نفع ، لذات نفسه ، وللمجتمع الذي يعيش فيه . أو — على أقل تقدير — هو خير حين لا يخلص من هذا الخير شر يصيب غيره . . والشر ما وقع غير هذا الموضع من ذات الإنسان ، ومن المجتمع الذي ينضوي إليه .

وبهذا التقدير يضع الإسلام كلاماً من الخير والشر بموضعه الذي يتعامل به الناس ، ويتلاقون عليه في الحياة . . فالشر شر ، والخير خير ، وبينهما أمور مشتبهة بين وجوه الشر والخير .

والذي يعنيننا هنا هو هذا الصراع الذي يدور بين الخير والشر في مجال القصص القرآني :

ويتضح للناظر في القصص القرآني من أول الأمر ، أن الصراع بين الخير والشر يدور في مجال واحد ، هو مجال الإيمان والكفر .. ففي هذا المجال تكاد تنحصر تحركات الأحداث في هذا القصص .. والأحداث القليلة التي تخرج من هذا المجال العام ، لانتلبث أن تنعطف عليه ، وتندمج فيه ، وتأخذ الاتجاه الذي يأخذه الجري العام كله .

فالدعوة إلى التعرف على الله ، والإيمان به وحده ، وخلع المعبودات الزائفة المضللة .. من أشخاص ، وأوثان ، وأنداد وغيرها — هذه الدعوة هي مناط رسالات الرسل ، وهي مركز الثقل فيها .. وفي سبيل هذه الدعوة وقع ما وقع بين الأنبياء وأقوامهم من صراع عقلي ومادى معاً ! إنها الخير في مواجهة الشر .

قصة نوح مثلاً ، وهي أول القصص القرآني من حيث زمانها — يذكرها القرآن في مواضع كثيرة ، وهي في كل موضع تحمل الدعوة إلى عبادة الله وحده . وفي كل موضع تقابل هذه الدعوة بالتكذيب ، والعناد ، والإصرار على التكذيب والعناد .. فمن ذلك قول الله تعالى في سورة سميت باسم هذا النبي الكريم ، نوح :

« إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم ، قال يا قوم إني لكم رسول أمين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ... قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدكم دعائي إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً ، ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم إني أهدنت لهم وأسررت لهم إسراراً ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ، ويجعل لكم أنهاراً ، مالكم لا ترجون الله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً ، وجعل

انفمس سراجا ، والله أبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم
إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ،
قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً ،
ومكروا مكراً كباراً ، فانظر كيف جاء نوح إلى قومه من كل سبيل ،
وطلع عليهم من كل جهة يمكن أن ينشد الإنسان فيها وجه الحق ، ويتمرف
عليه ، وينتفع به . لقد دعاهم ليلاً ونهاراً ، سرا وإعلاناً . . يفاديهم وبرواحهم
بالدعوة إلى الله ، فلم يزددهم ذلك الحرص إلا فراراً منه وفترة عنه . . وهو في
دعوته تلك يرفع لأبصارهم المشاهد الدالة على قدرة الله ، ويقيم بين أيديهم
الأدلة الناطقة بجلال الله وعظمته ، فعموا عن ذلك « واستغشوا ثيابهم ،
وأصروا واستكبروا استكباراً . »

« وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذون ودا ، ولا سواعاً ، ولا يعقوث ،
ويعوق ونسراً . . »

ويظل هذا الصراع بين نوح وقومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كما
يذكر القرآن - هو يدعوهم إلى الله ، ويحذروهم الإصرار على ما هم عليه من كفر
والإحاد ، وهم يلقونه بالكذب والتهديد ، ويبلغ بهم الأمر إلى أن يندروه
ويتوعدهم بالرجم . . . وقد ذكر القرآن وعيدهم هذا في قوله تعالى : « قالوا
لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين » . وإذ بلغ الأمر إلى هذا
المدى ، ولم يكن في القوم خير يرجى ، فقد آذنه الله بالهلاك ، وآذن نوحاً
ومن معه بالنجاة مما يدبرون من كيد ، وما يبيتون من عدوان : « وأوحى
إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبئس بما كانوا
يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم
مغفرون . . وبصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملائمة من قومه سخروا منه ، قال إن
تسخروا عنا فإننا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب
يجزيه ، ويحمل عليه عذاب مقيم ، حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا حمل

فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ، ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل .

وهكذا تنتهي المعركة ، ويسدل الستار على هذا الصراع الذي ينكشف عن مصراع الشر وأهله ، وانتصار الخير وأنصاره .. وذلك هو النهاية التي ينتهي إليها كل صراع بين الخير والشر ، وإن طال بينهما أمد الصراع ، وإن كان للشر صولات وجولات . وفي هذا عزاء لأولئك الذين يقومون على دعوات الخير والإصلاح ، ويبشرون في الناس بها ، فإن ما يصيبهم في أنفسهم وفي أهلهم من ضرر وأذى في سبيلها مهما يكن مرأ قاسياً - هو عين محتمل ، حين ينظر إلى العاقبة ، وإلى الثمرات الطيبة التي يجنيها أصحاب هذه الدعوات ، أو تجنيها الإنسانية من بعدهم .

هذا ، وليس في هذا التدبير الذي جاء به القصص القرآني من حصر مجال الصراع فيه على وجه واحد من وجوه الخير والشر ، وهو الصراع بين الإيمان والكفر - ليس في هذا التدبير إغفال للوجوه الأخرى من وجوه الخير والشر ، ذلك أن الإيمان يجمع الخير كله ، كما أن الكفر .. يجمع الشر كله ، فإذا التقي الإيمان والكفر في مجال الصراع فقد التقي الخير كله بالشر كله .

وإذن فتركيز الدعوة الإسلامية ، وإعمال جميع وسائلها وأسلحتها في تطهير القلوب من الإلحاد والزيغ ، وفي تصفية النفوس من الضلال والشرك ، حتى تقوم مغارس الإيمان راسخة في القلوب ، وضيئة مشرقة في العقول - هذا التركيز في الدفاع عن الإيمان ، هو لحساب الخير كله في جميع أشكاله وألوانه .. بحيث كان الإيمان ، وحيث توثقت عراه ، وثبتت أركانه كان الخير في كل شيء ، ومن كل شيء إذ كل قول يقوله الإنسان ، أو عمل يعمله وهو في صحة الإيمان ، يكون قولاً مثمراً ، وعملًا مبروراً .. « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم (١) » .. وليس كذلك الكفر ، فإنه

لا يلد إلا شرأ ، ولا يعقب إلا ندامة وحمرة .. « والذين كفروا بربههم
أعمالهم كدراب ببيعة بحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد
الله عنده فوفاه حساباً ، والله سريع الحساب » (١) وقال تعالى : « مثل الذين
كفروا بربههم ، أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرّون
مما كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيد » (٢) .

* * *

وهذا الصراع المحتدم بين الإيمان والكفر ، الذي تدور معاركه في قوة
وعنف ، والذي يصور القصص القرآني صوراً كثيرة منه ، تكاد تملأ وجه
الحياة ، وتنظم الحياة الإنسانية في أجيالها المتعاقبة — هذا الصراع وإن
ملاً وجه الدنيا غباراً ، وصبغ أديمها دماء ، فإنه لا يذهب بشيء من جمال
الحياة وبهجتها ، ولا ينتقص شيئاً من مجاني زهرها وعمرها .. بل هو في
الواقع مخض لربدها ، وتصفية لدخانها ، واقتلاع لأشواكها ، وغرلة لغتها
وغنائها .. وفي كل موقف يراد به تنقية الإنسانية من شوائبها ، وصوغها
صياغة جميلة مجددة ، لا بد من هذه المعاناة ، التي تشبه معاناة الخـاض ،
لاستقبال مولود جديد ! !

* * *

وهل هذا نستطيع أن نقرر أن نظرة الإسلام إلى الحياة نظرة متعاقلة ،
تغلب جانب الخير دائماً ، وتجعل له العاقبة في كل حال ..

وهذه الحياة التي يضطرب فيها الناس ليست سجنناً يقضى فيه الإنسان
حياته شقياً معذباً ، ليكفر عن تلك الخطيئة التي وقع فيها الأب الكبير

(١) سورة النور : ٣٩ .

(٢) سورة الرعد : ١٨ .

« آدم » كما تصوّر ذلك بعض الديانات ، وليس الناس في هذه الحياة حشرات
قدرة تأكل من الوحل والطين ، كما تذهب إلى هذا بعض اللذاهب الفلسفية
للمشاعمة ، وكما تنشر به بعض الدعوات المريضة ، التي تسوق الناس سوقاً إلى
اليأس والانتحار !!

إن الحياة — مجرد الحياة — في نظر الإسلام ، نعمة من نعم الخالق
العظيم ، وخير موفور من واسع فضله ..

ولهذا كان من حق هذه النعمة — نعمة الحياة — أن يلقاها الانسان
بالشكران لله ، والايان به .. « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً
فأحياكم ؟ » (١) .

ولهذا ، كان على الانسان أن يستقبل الحياة راضياً مستبشراً ، وأن
يطلب منها وجوه الخير التي تملأ هذا الوجود .. في أرضه وسمائه ، في ليله
ونهاره ، في خيره وشره ! .

فليس الشر بشر أبداً حين يستعلى الإنسان عليه ، ويلقاه بتلك الروح
القوية المتفائلة ، التي تتفاعل مع الحياة ، ولا تقف منها موقف الحيطة
أو الانعزال .

ومن أجل هذا كانت مواقف القصص القرآني مواجهة لليأس ، متحديّة
له ، تلقاه بالعزيمة المشدودة إلى الإيمان والصبر ..

في قصة يوسف — مثلاً — نجد النبي الكريم بمقرب يفقد في أحوال
غريبة ، وفي عاصفة هوجاء من عواصف الفتنة والحسد بين الأقربين — يقعد
فلذة من أفلات كبدته ، بل أعز هذه الفلذات : « يوسف » ! فلا يغلبه هذا

الحزن الذى عصف بقلبه ، على هذا الصبر الذى عملاً كيانه .. فيلقى هذه
للمصيبة بقوله : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ١

ثم ترميه الأيام رمية ثانية فيفقد فلذة أخرى من أعر فلذات كبده بمد
يوسف ، ويكون فقدتها على يد أبنائه الذين أصابوه فى يوسف من قبل ،
ومع هذا ، فهو غير يأس من أن تنجلى غواشى هذا الحزن الذى خيم على
بيته ، وجثم على صدره ، فيلقى هذا الخبر المحزن الذى جاء به أبنائه عن فقد
الابن الآخر - يلقاه بهذا الايمان الوثيق : « فصبر جميل ، عسى الله أن
يأتينى بهم جميعاً » .. ثم لا تقتل الأيام هذا الأمل القائم فى صدره بفقد
هذين الابنين ، فيهب بأبنائه ألا يستسلموا لليأس ، وألا يسلموا بفقد
أخويهما .. « يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من
روح الله .. إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .. الكافرون
بالله ، واليائسون من رحمته .. فما يأس من روح الله ورحمته إلا من
كفر به ، وبما اتصف به - سبحانه - من الرأفة والرحمة .. « إن الله
بالناس لرؤوف رحيم » .. « إن الله كان بكم رحيماً » .

ولقد توعد الله الذين ييأسون من رحمته بالعذاب الأليم ، لأن هذا
اليأس لا يكون إلا عن كفر ، وليس للكافرين إلا النار !

ونود أن ننبه إلى أن الطمع فى رحمة الله ينبغى أن يكون عن إيمان
وثيق به ، وعن تسليم مطلق لما قضى به ، مما حسبناه ضراً ومكروهاً ..
فقد يكون هذا الضر نعماً ، ويكون هذا المكروه خيراً .. والله سبحانه
وتعالى يقول : « وعسى أن تكرهوا شيئاً ، وهو خير لكم ، وعسى أن
تحبوا شيئاً ، وهو شر لكم ، والله يعلم ، وأنتم لا تعلمون » (١)

فهذه النظرة إلى قضاء الله فيما نحب أو نكره - تقيماً دائماً على

حراط مستقيم ، وتمسك بنا أن نميل إلى أحد جانبي الفرح المبطر ، أو اليأس القاتل .. ذلك أننا بهذه النظرة نلتقي ما نحب ، فلا نأشرب به ولا نبطر .. فقد يكون وراءه ما نكره ، و نلتقي ما نكره ، فلا يستبد بنا القلق ، ولا يقتلنا اليأس ؛ فقد يكون وراء هذا المكروه خيراً كثيراً ، والله سبحانه وتعالى يقول : « فمعي أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » (١) .

وأمر آخر نود أن ننبه إليه أيضاً ، وهو أن ما يرجى من رحمة الله كما ينبغي ألا يقدر بتقديرنا وبحسابنا ينبغي أيضاً ألا يوقت بتوقيتنا ، فإن ذلك يناق التسلیم المطلق ، الذي هو أحد الركنين اللذين يقوم عليهما الطمع الحق في رحمة الله ، بمد الإيمان به .

ومع هذا ، فإنه ليس مما يضعف من إيمان المؤمنين بالله ، ولا مما ينقض التسلیم المطلق له - أن تحيك في صدور المؤمنين نزعات الضيق ، أو أن تنزع بهم دوافع العجلة ، لما ينتظرون من رحمة الله .. فالإنسان المؤمن هو إنسان أيضاً ، لا يخرج به إيمانه عن الفطرة التي فطره الله عليها .. وقد « خلق الإنسان من عجل » .. فلقد كانت تحيط برسول الله وأتباعه ظروف وأحوال تراكم فيها موجات الضيق ، وتتراكم سحب الظلام ، وتبلغ الأمور فوق ما يمكن أن يحتمل المؤمنون الصابرون ، وفي هذا يقول الحق جل وعلا :

« مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ » ، ويكون جواب الحق سبحانه : « ألا إن نصر الله قريب » (٢) . إنه قريب في تقدير الله سبحانه - يجيء في الوقت الذي هو أنسب وقت له ، وأعدله ، وأكثره خيراً ، وأجداه نفعاً ..

(١) سورة النساء : ١٩

(٢) سورة البقرة : ١١٤

وهكذا تطلع رحمت الله في إبانها ، وتنزل في موافقتها ، لا على حسب ما نحسب ونقدر : « حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » (١) .

• • •

ذلك هو مجال الصراع في القرآن ، وفي القصص القرآني بنوع خاص .
فأين مكان الإنسان من هذا الصراع ؟
وما متجهه فيه ؟

وما النهاية التي ينتهي بها المطاف معه ؟
ذلك ما نريد أن نعرض له فيما يلي :

الإنسان وهذا الصراع :

يمثل الإنسان الدور الأول في هذا الصراع الذي تشهده الحياة ، فهو مركز الدائرة التي تدور أحداث الحياة فيها ، أو قل هو « المولد » الكهربي لطاقات هذه الصراعات المختلفة ، في كل معترك .. فالإنسان في حقيقته هو الثمرة الناضجة من هذا الصراع القائم في الحياة ، بل إنه ما جاء إلى هذه الحياة إلا بعد أن قطع مرحلة طويلة من الصراع العنيف المرير ، حتى اكتسب هذه الصورة التي استأهل بها أن يكون سيد هذا الكوكب الأرضي ، وخليفة الله فيه .

ويمكن أن نشهد في قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في كبد » ملامح واضحة ، تنبئ عن مدى هذه المماناة التي قاساها الإنسان ، وهذا الطريق الشاق العنيف ، الذي ركبه ، حتى صار ذلك الكائن المعروف بالإنسان !
ولنا أن نفهم من هذا أن الجهد الذي يبذله الكائن ليكتسب كينونته - هذا الجهد هو الذي يحدد درجته ومنزلته بين الكائنات .

وأن قيمة الكائن وقدره بين الكائنات يتناسب تناسباً طردياً مع الجهد الذي تشكلت به صورته ، إذ كلما كثرت مجالات الصراع ، وتمددت صورته في خلق الكائن كلما كان حظه من الكمال أوفر ، وأوفى !

وفي علم الحياة مقررات تشهد لهذا القول شهادة قاطعة ، لا تقبل جدلاً ، لأنها قائمة على شهادة التجربة المحسوسة ، والواقع الملموس .

والإنسان حين يخرج إلى الحياة يبدأ مرحلة جديدة من مراحل الصراع ، حيث يلقاها بهذا الكيان الذي استكمل وجوده قبل أن يلتقى بها .

وبهذا الكيان يشتبك الإنسان في صراع متصل مع نفسه ، ومع الناس ، ومع الطبيعة ! .

فهذه ثلاثة ميادين يعمل فيها الإنسان جميعاً على مدى العمر . . .

وهذه الميادين الثلاثة ، لا يكسب الإنسان فيها نصراً إلا إذا لقي محاربه فيها ، مزوداً بالسلاح والعتاد ، المناسب لكل ميدان . . .

وكما يستعد المحارب للحرب ، ويعرن على القتال ، ويدرب على الطعن والضرب ، والكر والفر - كذلك شأن الإنسان في معاركه تلك . . مع نفسه ومع الناس ، ومع الطبيعة .

والعلم والتربية أقوى قوة عاملة ، في إعداد الإنسان لهذا الصراع ، في ميادينه الثلاثة جميعها .

فبالعلم والتربية يكتسب حصانة ضد نزعات نفسه ، ونزواتها ، فيملكها ولا تملكه ، ويقودها ولا تقوده . . وبهذا يستطيع أن يعقد صلحاً معها ، فيعيشاً معها على وفاق !

وبالعلم والتربية تستقيم طريق الإنسان في مجتمعه ، فلا يقع هذا الصدام المهلك المدمر بينه وبين الناس .

وبالعلم والتجربة المستندة إلى العلم - يروض الإنسان الطبيعة ، ويستأنس غرائبها ، ويلتقط أسرارها ، ويتحكم في قواها .

القرآن وأثره في هذا الصراع :

والقرآن كتاب يهdy إلى النور .. وإلى الحق ، وبالنور يرى الإنسان الوجود على حقيقته ، يرى حقيقة نفسه ، وحقيقة المجتمع الإنساني، وحقيقة الطبيعة .. وبالحق يتعامل مع هؤلاء جميعاً ، في غير ظلم أو عدوان .
ولسنا هنا إزاء البحث عن مكانة القرآن وآثاره في المجتمعات الإنسانية كرسالة سماوية جاءت لهداية الناس ، وإنما نحن بصدد القصص القرآني ، وما فيه من معطيات الفن والعلم ، في مجال الدعوة التي حملها الرسول الكريم ، مصورة في القرآن الكريم ، لتسكون قوة وسنداً للإنسان في هذا الصراع المعروف عليه في هذه الحياة .

ونسأل هنا عن الوظيفة التي يتسكن أن تؤديها القصة القرآنية لمساندة الإنسان وشد أزره في هذا الصراع المشتبك فيه .. مع نفسه ، ومع الناس ، ومع الطبيعة ؟

وننظر في القصص القرآني فنجد أنه عنى بالجانب الإنساني بشقيه ، من هذا الصراع .. الذاتي الخاص ، مع نفسه ، والعام الشامل للإنسان مع الناس . أما صراع الإنسان مع الطبيعة فلم يقف القصص القرآني عنده ، لما سنعرف سره ، بعد قليل ، وبعد أن نفرغ من وقفتنا مع الصراع الإنساني داخل الذات وخارجها .

الصراع الإنساني داخل الذات :

القرآن الكريم كله دعوة للإنسان إلى تخلص نفسه ، من كل ما يعوق انطلاقه في الحياة ، فيجها محوطاً بأسباب السلامة والأمن .. حيث أنه بما في القرآن من هدى ونور يستطيع أن يرى وجوه الخير ، وأن يسلك مسالكها على بصيرة من أمره ، فلا يتعثراً أو يضطرب ! .

والصراع الذاتي هو صراع داخلي ، يدور في كيان الإنسان ، حين يعرض

له أمر فيتنازعه عقله وهواه ، كل منهما يريد أن يستولى على إرادته، يخضعها لمشيئته ، خيال هذا الأمر الذي عرض .

وإذا كان الصراع هنا دائراً في هذا المجال ، فإننا لا ننتظر أن نشهد في القرآن قصة كاملة تدور في هذا المدار ، إذ أن ذلك يجعلنا بمشهد من قصة تدور في فراغ ، وهذا من شأنه أن يبعث السأم والملالة ، حيث لا تكون هناك حركة بالمعنى المفهوم ، وإنما هناك احتراق داخلي لا يرى له أثر ظاهر .. وهيات أن يكون لمثل هذا الصراع وجود حقيقي .. إذ لا بد في كل صراع في داخل الإنسان من أن يجد له منطلقاً إلى الخارج، ليحقق وجوده، وليجعل لهذا الصراع فاعلية حين يشتبك مع الوجود الخارجي المحيط بالذات .

وإذن فلا يكون من اهتمامات القصص القرآني عرض الصراع الذاتي للإنسان في هذا الحيز المحدود ، الذي لا يسمح للصراع أن يحكي عن نفسه ، ويكشف عن مضمونه ، وإنما الذي يمكن أن يشهد في هذا المجال هو مشاهد قصيرة ، ووقفات عابرة تعرض أثناء القصة .

وهنا تتجلى روعة القرآن ، وعظمته وتتكشف مطالع إعجازه عن آيات بينات ، تبهر وتقهقر ! .. فإنه في « لقطة » قصيرة خاطفة ، تجمع كلمات القرآن فيها مساوئ النقص ، وتستولى على أعمقها ، وتكشف خفاياها . فإذا هي وكأنها جارحة من الجوارح ، تختبر بالمحسوسات ، فلا يخفى ما فيها من عيب أو عطب !

لقطات للكشف عن الذات :

ولا بأس من أن تعرض هنا بعض هذه اللقطات الخاطفة، لتري منها بعض الشواهد لهذا الإعجاز ..

ففي قصة صاحب الجنتين ، الذي كان لنا من قصته شاهد فيما مضى .. في هذه القصة ، نرى الرجل يقف من جنبيه موقف الزهو والغرور، والاعتزاز

بسبب هذا الوفرة الكثير ، الذي بين يديه .. وهو في هذا ظالم لنفسه ، إذ لم يكفكف من جراحها ، ولم يعدل بها عن هذا المزلق ، الذي تنحدر إليه في بطر وغرور . فهو حين يدخل جنته بهذه الأحاسيس التي تعيش معه ، وتملك عليه تفكيره يقول مناجياً نفسه :

« ما أظن أن تبديد هذه أبداً .. »

« وما أظن الساعة قادمة .. »

« ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً .. »

انظر كيف يغيره الشر بالشر . ويدفعه الغرور إلى الكفر ، ثم يسلمه الكفر إلى الحماقة ، والسخف !

وقبل هذه المقولات الضالّة عرضه القرآن عرضاً قاضحاً حين قال عنه :

« ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال :

« ما أظن أن تبديد هذه أبداً » .

فهذه أول رمية من رميات الطيش القاتلة !

أشىء فيما رأت العين يخلد في هذه الحياة ؟ ألا يرى هذا الأحمق المغرور كل يوم مصارع الأحياء ، وتبدل الأحوال ؟ ولكنه الغرور ، لا يسلم راكبه إلا إلى التبه والضلال !

وقد أصابت هذه الرمية الطائشة صاحبها قبل أن تصيب أى شىء آخر .. بل لقد أصابته في الصميم من بصيرته ، فعمى عمى مطبقاً .. فرمى تلك الرمية الأخرى التي أصابت مقاتله :

« وما أظن الساعة قادمة » !

إنه كان رجلاً يؤمن بالله ، واليوم الآخر .. ولكن حبه المال والجاه ، والثراء قد أذهله عن كل هذا ، فلم يعد يرى إلا جنتيه هاتين ، ولم يكن في

أمانيه إلا أن تخلد هاتان الجنتان ، ويخلد هو بخلودهما ، ولذلك فهو يستبعد فيام الساعة ، ويدفع بكتا يديه كل تصور يطوف بخياله عنها ! إنه يخنى النفس بالخلود في ظل هذا الظل الزائل .. وهيهات !

وإنه لا يكاد يستريح إلى هذا الخاطر حتى يطلع عليه خاطر مزعج : إن الناس يتحدثون عن القيامة ، وعن الانتقال من هذه الدنيا بسلا مال ولا حطام إلى العالم الآخر .. بل إن الأحداث التي تدور من حوله لا تترك له لحظة يهنأ فيها بهذا الأمل الخادع الكاذب .. ولا شك أن هذا خاطر مزعج له يفسد عليه تلك الصورة الجميلة المسعدة التي رسمها لنفسه ، وللحياة التي يحياها .. !

وأي نبيات الغرور وخداع الباطل ، ونفثات الضلال ؟ إنه ما زال في كنفاته الطيش عنده سهام وسهام .. فليرم منها ما يصيد له طائر شوم جديد ، فلا يلبث هذا السهم أن يجيئه بهذا الأمل الكاذب !

« ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً » ! !

فهو يؤمن مستقبله إزاء هذا الخاطر ، الذي يريد أن ينتزعه من هدن النعيم .. فإذا فرض وكان بعث ، وكانت قيامة ، فهو واحد عند ربه بدل جنتيه جنات ! !

وإنه للجاح في الغرور إلى أبعد غاياته ، فهو لا يرضى بأن يعيش في يومه ولا يرضى بما يرضى به أصحاب اللهو والهوى فيقول بقولهم : « اليوم خمر وغداً أمر » .. بل إنه يأبى إلا أن يسكر بالحقيقة ، وأن يذيق الواقع . فلا يقول « اليوم خمر وغداً أمر » . بل يقول : « اليوم خمر ، وغداً خمر وخمر » .

وكان يمكن أن ينتهي المشهد عند هذا ، حيث ينتصر الهوى ، ويغلب الباطل كل قوى الخير السكامنة في هذا الإنسان ! !

ولكن ما إن ينتهي هذا الصراع ، وما إن تبدأ سحب المعركة تأخذ في التشنج حتى تبدأ المعركة من جديد ..

فهذا صوت العقل ، أو صوت الحق يهتف وراء هذا المبرور ، الذي جمع ما جمع من أسلاب وغنائم يريد أن يضم عليها يده .. هاهو ذا صوت العقل أو الحق يهتف به : أن قف : من أين لك هذا ؟ .

« أ كفرت بالنبي خلتك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ؟ .
لكننا هو الله ربى ، ولا أشرك برى أحداً .. ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله .. إن ترنى أنا أقل منك مالا وولداً .. فعسى ربى أن يؤتيني خيراً من جنتك ، ويرسل عليها حسابانا من السماء . فتصبح صعيداً زلقاً ، أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً ! » .

وإذ يسمع الرجل هذا الصوت الهادى الرزين ، القوى ، ينتكت غزله ، وتتخاذل آماله .. ويقف متردداً .. يقدر ويفكر .. ويحاول جهده أن يسد هذه الثغرات التي تنفذ إليه منها هذه الخواطر المزعجة ، حتى يستطيع أن يخلو لهذه الدنيا التي بين يديه ، ويسكن إليها !
وإذ هو في هذا الحساب والتقدير ، وفي الكرواثر ، يطلع عليه حسابان من السماء ، فيذهب بكل ما جمع وأوعى :

« وأحيط بشمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، وهي خاوية على عروشها ، ويقول يا ليتنى لم أشرك برى أحداً ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصراً » .. وهكذا ينتهى هذا الصراع بهذا الانفجار المدوى الذى يحطم هذا الإنسان ، أو هذا السكيان البليد !

هذا لون من ألوان الصراع لتأتى بين عقل الإنسان وهواه ، بين دوافع الحق ونوازع الباطل .

ونلاحظ أمرين :

أولهما : انهزام هذا الإنسان وغلبة هواه على عقله ، ولكن في الوقت نفسه

انتصر الحق على الباطل ، وذهبت قوة الحق بالضلال وأهله ، وكان في ذلك عبء لمن يعتبر ، وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وإنه لا بأس من أن يذهب بعض الناس ضياعاً ، في الصراع المحتدم بين الخير والشر ، والحق والباطل .. وأنه لذا كان هذا الإنسان قد انهزم وخسر وجوده في هذه المعركة .. فإن كثيراً من الناس قد انتصروا في معارك تماشية ، فسلخوا وسلم وجودهم ، ثم إنه وكان في عطبه وقاية لمن ينظر في هذا الحطام المتداعي ، ويمر بتلك الأشلاء المعزقة ! .

وثانيهما : أن في الإنسان شعلة متقدة من الحق والخير ، قد تعصف بها عواصف الشر السامنة في كيانه .. ولكنها تظل - مع هذا - تومض ومضات من النور ، حتى وهي غارقة في سحب الظلام المتساقطة !

ومع أننا قد استبعدنا « الرمزية » في القصص القرآني فإن هذا لا يمنع من أن تقوم الإشارات ، والمصاحات ، وراء الحقائق ..

وهنا في هذه الحادثة إذ نرى هاتف الخير والهدى يهتف بالرجل ، وتمثله رجلاً آخر يحاوره ويجادله - لا نجد في هذه الحقيقة القائمة في تلك الصورة ما يمنع من أن يكون هاتف الخير هذا هو « عقل » الرجل صاحب الجنيتين نفسه . قد استيقظ من غفلته ، وصحاح بعد نوم : « قال له صاحبه » .. فهو صاحب القائم في كيان الإنسان !

ثم إنه من جانب آخر لا بأس من أن نرى ذلك الهاتف بالحق يتمثل الإنسانية العاقلة في صراعها مع الإنسانية الغاوية الضالة ، فكما يقوم في الفرد عقل يدعو إلى الخير ، وينصح له أن يتبع سبيل المؤمنين ، كذلك يقوم في الإنسانية عقلاء راشدون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ولتكن منكم أمة يدعوون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر .



ومن أمثلة الصراع الذاتي التي انتصر فيها الإنسان على هواه - هذا

الصراع الذي كان بين أنبياء الله صلوات الله عليهم ، وبين ما تدفع به الحياة إليهم من فتن ، وما تسوق من مغريات ، وما تفسد عليهم من وساوس .
فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام ، بعد بعثته ، يجد في نفسه شيئاً من القلق والوسوسة ، التي تتجمع سحبا أحيانا فتكسر أضواء الإيمان المشرقة في كيانه ، فيضيق لذلك صدره ، ويكثر همه ، ويخشى أن تزحف هذه السحب فتتكافئ شيئاً فشيئاً ، فتذهب بهذا النور الذي يرى الله من خلاله .

ويقوم الصراع في كيان إبراهيم بين إيمانه بربه ، والخوف على هذا الإيمان من أن تنال منه تلك الخطرات وهذه الوسواس .. ثم لا يجد آخر الأمر مفرغاً يفرغ إليه إلا الله ، ليجلي عن نفسه هذه الغيوم ، ويدفع عن صدره هذه الوسواس .. فيقف بين يدي الله خاشعاً قاتئاً ، يطلب إلى الله في حياء ، ورهبة :

« رب أرني كيف تحيي الموتى ! »

فيكون جواب الحق سبحانه وتعالى :

« أولم تؤمن ؟ »

وهذا السؤال يضع إبراهيم وجهاً لوجه على قمة الصراع الذي كان يغتلي في نفسه .. وهذا سؤال طالما رده إبراهيم بينه وبين نفسه ، كلما طرقته الوسواس ، وجمعت في صدره الخطرات : أأست مؤمناً بالله ؟ فلم إذن هذا القلق والأرق ، وهكذا الوسواس المزعج الأليم ؟ .

وكان جواب إبراهيم حاضراً .. لأنه كان الجواب الذي يرد به على هذه الهواجس التي كانت تدعوه إلى التثبيت والبحث ، ليصل إلى اليقين ، فيما بينه وبين ربه ..

« قال : بلى ! ولكن ليطمئن قلبي ! » .

إن الإيمان أمر مفروغ منه عند إبراهيم .. فهو مؤمن بإيمان تسليم واستسلام ، إيماناً غيبياً ، وهذا الإيمان لا يقيم اليقين والاطمئنان الذي يكون عن حضور وشهود .

وإنه لصراع قد أطفأ الله ضرامه برحمته ، فسكن قلب إبراهيم واطمأن ..

وكم في المؤمنين وغير المؤمنين ممن يعانون من هذا الصراع المحتدم بين الإيمان والشك ، أو بين الهدى والضلال ؟ كثير ، وكثير !

الصراع بين الإنسان والإنسان :

والصراع الذي يدور بين الإنسان والإنسان هو في الواقع المعركة الدائمة الخالدة ، التي يتقلب فيها الإنسان بين النصر والهزيمة ، والتي يلتقي فيها بوجوده الحياة كلها ، من خير وشر ، ومن هدى وضلال ، ومن حق وباطل .
فحيث كان الإنسان في الناس فهو معهم في هذا الصراع ، الذي كلما انتهى في جبهة قام في جبهة أو جهات !
وداعية هذا الصراع أو دواعيه في الناس ، قائمة عتيدة ، في كل زمان ، ومكان .. وحيث كان إنسان وإنسان .

ذلك أن الناس لم يخلقوا على طبيعة واحدة . ولم يخرجوا على نسق واحد في النزعات والرغبات ، وفي التصورات والخطرات والأفكار .. فكان كل إنسان عالماً بذاته .. له منازعه ورغباته ، وتصوراته ، وخطراته وأفكاره .. ومن هنا اختلفت بالناس السبل ، وتخالفت مناهج السلوك والعمل .. وكان من هذا أن وقع بينهم الصدام ، والصراع على صورة حتمية لازمة .

والقرآن الكريم يعترف بهذا الصراع على أنه طبيعة متمكنة في الناس ، قائمة في وجودهم .. بل إنه ليحمد هذا الصراع في بعض وجوهه ، إذ هو الذي تقفح به شرارات العزم ، والأمل في الإنسان ، والذي به تشتعل وقدة التنافس بين الناس ، فيتندافعون إلى العمل ، ويتسابقون إلى اقتطاف ثمرات الحياة ، ويعملون جاهدين في التثمير والتعمير !

ولو أن الإنسان كان فرداً وحيداً في هذه الحياة لما تحركت في نفسه نزعة إلى العمل ، ولا قام في كيانه دافع يدفعه إلى تحصيل شيء أكثر مما يحصل الحيوان لحفظ حياته !

ولكن حين ناظر الإنسان الإنسان ، والتقى به على طريق الحياة ، اتقدت

حميته ، وغلت مراحل نفسه بالاندفاع إلى استباق الغايات ، والاستحواذ على ما يقع في ظنه أن غيره سيسبقه إليه ، ولو لم يكن لذلك داعية عنده إلا داعية أن يملك مالا يملك غيره .

نقول : إن القرآن الكريم يعترف بهذه الطبيعة البشرية في الإنسان ، وإنه ليزكيها حين تكون متجهة إلى الخير ، قائمة على الحق والعدل .
أما حين يكون الصراع الإنساني متجهاً إلى البغي والعدوان ، قائماً على الجور والظلم فإن القرآن - وخاصة القصص القرآني - يعمل على أن يعدل من وجه هذا الصراع ، أو أن يخفف من حدته ، بما يكشف من آثاره السيئة ، وبما يجلي من عواقبه الوخيمة .

ولقد عرض القصص القرآني صوراً كثيرة من هذا الصراع ، وجلاه في أكثر من مظهر من مظاهر الحياة التي يتقابل فيها الناس ويتصارعون .
ونعرض هنا بعضاً مما جاء به القصص القرآني في هذا المجال .

بين ابني آدم :

يقص القرآن الكريم هنا ضرباً من ضروب الصراع الذي يقع في محيط الأسرة .. بين الأخ وأخيه ، وهو صراع ظالم من أكثر من وجه .. إذ فيه عدوان على ما ينبغي أن يكون بين الأخوين من رعاية ومودة خالصة لحرمة هذه الرابطة - رابطة الدم - التي من شأنها أن تجعل من الأخوين كياناً واحداً .. روحاً، وعقلاً، وقلباً .. وإن فرق بينهما الجسد ! فهما نبتة بذرة واحدة ، نبتا في موضع واحد ، وغديا من غذاء واحد .. فكان جديراً بهما أن يكونا على هدى واحد ، وأن يسلكا في الحياة مسلكاً مقارباً مدانياً ، فلا تبعد بهما مسافات الخلف ، ولا تتقطع بينهما أسباب الأخوة ، وعلائق الرحم ! ثم إن في هذا الصراع عدواناً على الأخوة الإنسانية ، التي من حقها أن تجمع الإنسان إلى الإنسان ، وأن تعطفه عليه ، ليعملا معاً على ما يوفر لها أسباب الطمأنينة والسكن في هذه الحياة .. ثم إن في هذا الصراع أيضاً عدواناً على الحق والعدل ، الذي ينبغي أن يقوم ميزانه مستقيماً بين الناس .

ومع هذا كله فقد وقع الصراع بين الأخوين ! وهو صراع لم تقم له داعية أكثر من داعية الطبيعة البشرية .. حيث كان هذان الأخوان والأرض كلها ملك ، يذهبان فيها كل مذهب ، ويأخذان منها ما يشاءان ، وأكثر مما يشاءان ، دون أن يقف دونهما حائل ، أو يردهما راد ! .

فلماذا يختصمان ؟ وعلام يتصارعان ؟ وفيم يعني أحدهما على الآخر ؟
إنها الأثرة وحب الذات ، وإشباع رغبة التسلط والعدوان ! .
ونستمع إلى القصة كما يقصها القرآن الكريم :

« واثل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ! .

قال : لأقتلك ! .

قال : إنما يتقبل الله من المتقين ! .. لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك .. إني أخاف الله رب العالمين .. إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتسكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين .

« فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ! .

« قبعت الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه -

قال : يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين » (١) .

في هذا الإطار المحدود عرض القرآن هذه المسألة الدامية بين الأخوين .. وتظهر في كلمات القرآن دون أن نضيف إلى مدلولها شيئا مما لا يكشف عنه المدلول اللغوي ذاته .. فلا نذكر من هاتين آيات القرآن هذان ، ولا فيم كان سبب اختلافهما ، الذي من أجله قدما قربان إلى الله ، فتلك أمور ضرب القرآن صفحاً عنها ، إذ لا متعلق بها ولا غرض من وراء ذكرها .

بهذا أخوان - ابنا آدم - قدما قربانا إلى الله ، فتقبل الله قربان أحدهما ،

ولم يتقبل من الآخر ..

وهنا تتحرك نوازع الحسد ، وتنفوذ تأثرات الشر حين ترجح كفة أحدهما الآخر ، في منازل الرضا والقبول عند الله .. « فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر » . ١

وانظر كيف يغتال الحسد والحقد دواعي الرأى والعقل ، ويذهب بمنطق السداد والحكمة في مثل هذا الموقف ، وما كان ينبغي أن يلقاه به من فاته الخير ، أو أفلت من يده .. فلقد كان على الذى حرم الرضا والقبول أن يرجع إلى نفسه ، فيقيمها على الطريق الذى يمكن أن يبلغه رضا الله وقبوله .. ولكن الحقد والحسد رانا على قلبه ، وطمسا على بصيرته . فلم يجد غير أخيه . هذا الذى أكرمه الله ، وفضل عليه بهذا الفضل - يصب عليه نار حقه ، ويحركه بلهيب حسده ، وبغير هذا لن يهدأ باله ، ولن تستريح نفسه . ١١

وماذا يكسب من هذا ؟ وأى شيء يعود عليه في خاصة نفسه من قتل أخيه ؟ لا شيء . فإنه حين يزحزح أخيه عن مكانه من هذه الدنيا لن يأخذ هو هذا المكان .. بل سيظل محروما مطروداً من رحمة الله ، بل وإنه سيزداد بعداً وطردياً .. ١

ومع هذا ، فإنه يمضى في طريقه هذا ، غير عابئ بالمصير المشؤوم الذى يصير إليه .. وبحسبه أن يشقى ما يصدره الذى لا شفاء له إلا قتل أخيه ، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون .. ١

فهذا هو وحده منطق الباغين الظالمين ، في أجيال الإنسانية الذين نسلوا من سلالة هذا الباغى الظالم .. ولسانه قال من قال :

اقتتلوني وما لكما واقتتلوا مالكم معي

« قال لأقتلك » ، ١١ قالها في إصرار عنيد وتوكيد جازم .. وكأنه يريد بهذا أن يقطع على نفسه طريق العودة إلى المسالمة والموادعة ، وأن يوثق نفسه بهذا الوثائق الذى لا فكاك له منه .. إنه اندفاع إلى الشر ، وإصرار عليه ،

واشتهاء له ، وتجاوب معه ، هو ذلك الذى يخلط هذا الإنسان بالشر ويغيره بالعدوان .. هذا الإغراء الذى يقود النفس إليه ، وكأنه يشرف بها على خير تجتنيه ، أو نعم تعيش فيه ، وتحيا فى ظلاله .. !

وفى الجانب الآخر من هذه المأساة الإنسانية نجد الأخ يلقى أخاه هذا الغشوم المستبد — يلقاه رفيقاً به ، واصحاً له ، مذكراً إياه بما ينبغى أن يطلبه ويسمى إليه .. فيقول له : « إنما يتقبل الله من المتقين » ! فإذا أردت أن تكون فى المقبولين عند الله ، وأن تنال ما نلت من رضا—فكن من المتقين ، الذين يلتزمون حدود الله ، ولا يتمدون بها .. أما قتلك إياى فلن يبلغك هذه المنزلة التى بلغتها ، التى تحسدنى عليها ، وتزعم قتلى من أجلها ! .

ثم لا يقف هذا الأخ الموادع المسالم عنده هذا الحد ، فى التلطف بأخيه ، وفى دفع يده الظالمة التى هى أحسن .. فيقول له : « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك .. إني أخاف الله رب العالمين » .

فهو مع قدرته على دفع هذا الشر الذى يراد به ، بل وعلى أن يقتل هذا الذى يريد قتله — لا يسلك هذا المسلك ، ولا يحدث نفسه به .. « ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك » .. فهذا الأسلوب القاطع الجازم هو الرد المقابل لقول أخيه : « لأقتلنك » وما فيه من قطع وجزم ! .. ثم إنه يقيم لهذا رأى القاطع الذى انتهى إليه ، حيثية قاطعة مانعة ! « إني أخاف الله رب العالمين » ! إنه يخاف الله ، الذى كان حديراً بهذا الذى عقد عزمه على هذه الفعلة التكره أن يتذكره هنا وأن يخافه ، بعد أن وجد المثل الحسى ماثلاً أمامه فى أخيه الذى يذكر الله ويخافه فى كل مقام !

ومع هذا فهو على العزم الذى عزمه ، وعلى النية التى عقدها عقداً لا يجيل من أول الأمر بقوله : « لأقتلنك » .. لقد قاطها ، وليس له قول بعدها .. لا يردده عن ذلك هذه الموادعة والملاطفة التى لقيه بها أخوه ، ولا يزرححه عن موقفه هذا ما ذكره به من خوف الله وخشيته .

« إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين » .

إن إرادة الأخ الظالم الباغي تقابلها إرادة الأخ الموادع المسالم .. فكما بصر ذلك على القتل ، وارتكاب هذا الإثم الغليظ ، بصر هذا على موقفه ، فلا يمد يده بسوء ، بل ولا يدفع يد هذا الأثم ، فليفعل به ما يشاء ، « إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك » .. فهذا الموقف يحتم فرضين : أحدهما — أن يدفع عن نفسه القتل ، فيقتل هذا الذي يهجم بقتله ، ويصر عليه إصراراً .. وثانيهما : أن يقف موقفاً سلبياً ، فيترك لأخيه ارتكاب هذا الإثم ، فيقتله .

إنه لا بد من قتل أحدهما .

وإذن فليكن هو المقتول ، لا القاتل ! .

وكان ذلك منه عن إرادة ، تبلغ مبلغ الاشتباه ، حتى لا يعدل عنها إلى الموقف الآخر المحتوم ، وهو قتل أخيه إن أراد دفع القتل عن نفسه ! .

وفي تحقيق هذه الصورة ووقوعها يرجع القاتل وقد صحبه إيمان :

أولهما : إثم القتل الذي ارتكبه بقتل أخيه .

وثانيهما : إثم القتل الذي كان سيرتكبه أخوه لو أنه هم بقتله .

إن القاتل قد رجع ومعه إثم القتل الذي ارتكبه .. هذا أمر لا شك

فيه .. ثم إن المقتول كان سيجعل هذا الإثم ذاته لو أنه سبق فقتل قاتله .. !

وهذا ما يفهم من الآية الكريمة .. فكأنه يقول لأخيه : « إني أريد

أن تبوء بإثمي ، لو أنني قتلتك — ولن أقنتك — وإذن فأنت الذي تحمل هذا

الإثم عني ، كما أنك ستبوء بإثمك لو أنك قتلتني ، وهما أنت ذا فاعل ،

فتبوء بالإثمين معاً ! .. إثمى وإثمك .. فتكون من أصحاب النار ، وذلك

جزاء الظالمين » .

« فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين » ، وأى

خسران بعد هذا الخسران ؟ لقد قتل أخاه بغير ذنب فرط له منه ، وعدا عليه

بغير عدوان بدأه به . . . بل إنه لم يلق هذا اللطف وتلك المودعة من أخيه إلا بالإصرار على الإثم والهجاء فيه . . . ثم ماذا كسب بهذه القملة الأثمة ؟ هل أخذ هذا الثواب الكريم الذي أضفاه الله على أخيه من الكرامة والقبول ؟ وكلا ، فإنه لم ينل من أخيه غير هذا الدم الذي صبغ ثيابه بهذا الصنع الذي يتلاءم عليه وجوده ، صراخاً مزعجاً مقلقاً ، لا ينام ، ولا ينيم .

وظل جسد هذا القاتل المظلوم ملقى بالعراء ، وكأنه راية منصوبة تدعو الوجود كله ، ليشهد هذا العدوان الأثم ، وليمسك بتلابيب هذا القاتل الأثم ! وتقبل مشاعر القاتل ، وتخور قواه ، وتنطق وقدة حسده وحنقه ، فيتحول إلى رماد ، حول هذا الجسد الساكن المضرع بالدم ! ويحاول أن ينطلق بعيداً عن مسرح الجريمة فتخذه قدماءه ، وتطلع عليه رؤى مخيفة من هذا الجسد المسجى . . . حتى ليخيل إليه أنه ربما انتصب قائماً وانتقم لنفسه من هذا الحائر المتخاذل !

« فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه ، قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأواري سوءة أخى . . . فأصبح من النادمين » .

وكان لا بد أن تنتهي هذه المأساة !

ونقف عند مدلول الألفاظ في هذه الآية ، فلا نفترض أن هذا الغراب قتل غراباً ، ثم حفر له حفرة فواراه فيها — كما تكاد تجمع على ذلك كل التفاسير — حتى يكون ذلك مثلاً مائلاً يتأسى به القاتل ، فيواري جسد أخيه كما فعل الغراب . . . لا نفترض هذا .

فالمعروف عن الغربان أنها لا توارى قتلاها أو موتاها التراب . . . وليس هناك من ضرورة نحوج إلى هذا الفرض ، بل يكفي أن يبحث الغراب الأرض برجليه ، وأن يهبش وجهها بأظفارها ليوارى شيئاً وقع في فيه ، كما هي تلك

عادته ، أو يحفر حفرة لنفسه يستريح فيها ، ويسكن إليها .. وتكفي هذه الإشارة أن تفتح عيني هذا القاتل على قبر يوارى فيه الجسد ، ويفرغ منه !

* * *

والصراع في هذه المأساة صراع صريح بين الخير والشر .. أو بين الأخيار والأشرار من الناس .. حيث لا تصبح الحياة أو تسمى إلا ومسرحها ينقص بألوان شتى ، وصور متعددة من هذا الصراع .

وقد يبدو لنا من وجه هذه المأساة أنها دعوة إلى الاستسلام للظالمين ، ولقاء الشر والمعدوان بالتسليم والقبول .. وهذا أسلوب إن صح في حال ، فإنه لا يصح في كل حال ، ولا يصلح عليه أمر الناس أبداً ..

فما تناول هذا الموقف الذي تشير إليه الآية : « لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ؟ » .

وهل القتل في الدفاع عن النفس ينفي الخوف من الله . ؟

والجواب على هذا :

أولاً : الجرم الذي يواجهه الإنسان هنا جرم غليظ بشع .. إنه «القتل» الذي لم يكن منه مفر - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - وقتل النفس الأكبر الكبار كلها .. ولهذا فقد تخرج منه أحد الأخوين ، ورأى أن قتل نفسه بيد غيره أهون عليه من أن يقتل هو نفساً بيده ..

فلاستسلام للمعدوان هنا إنما كان عندما بلغ الأمر إلى هذا الجرم الشنيع .. فلم تطقه هذه النفس الكريمة الرحيمة ، وآثرت أن تموت شهيدة في سبيل الوقوف عند حدود الله فيه ..

ولشناعة القتل وغلظ جرمه ، فقد جاء بعد هذه القصة مباشرة قوله تعالى :
« من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » .

والمقتول هنا في تلك المأساة لم يكن قد قتل حتى يقتص من قاتله .. ثم
بعد أن قتل لم يكن ليستطيع القصاص .. إذ أن ذلك محال !

وهنا يلقانا اعتراض : وهو قوله تعالى في وصاته للمؤمنين في مواجهة
الكافرين :

« فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ .. كَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ » .

ونقول : إن هنا فئتين ، فئة مؤمنة مبني عليها ، وقد بدأ العدو بقتالها ،
وفئة كافرة باغية .. فهي تستحق القتل .. لأمرين : أولاً - جزاء كفرها ،
وثانياً : جزاء عدوانها .. !

أما ما بين ابني آدم فهو أن أحدهما باغ والآخر مبني عليه .. وليس فيهما
مؤمن وكافر .. بل هما مؤمنان ! ولهذا جاء في الحديث الشريف : « إذا اقتتل
المؤمنان .. فالقاتل والمقتول في النار » قيل : هذا القاتل .. فما بال المقتول
قال : « كان حريصاً على قتل صاحبه ! » .

من أجل هذا فقد نأى « المقتول » من ابني آدم عن أن يشترك في قتال ،
وأن يصول أخاه ، فيقتل أو يقتل .. ولهذا ، فقد قتل مظلوماً ، ومن هنا صح
له أن يقول لأخيه : « إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك ، فتكون من أصحاب
النار وذلك جزاء الظالمين » .

ثانياً : أن هذا القتل - من أي من المتقاتلين - قتل متعمد ، أشبه بالمبارزة ،
التي لا تنتهي إلا بقتل أحد المتبارزين ..

فالمركة هنا لا تنجى إلا عن قتل ! .. فلو لم يقتل هذا لقتل ذاك .. فهما
في الواقع قتيلان .. فرضاً وحكماً ، فقد يقتل كل منهما صاحبه ..

ولهذا ساغ للقتيل أن يقول لقاتله : « إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك »
حين أخلى عزمه عن المقاتلة ، ونفض يده من المصاولة ! .

الصراع بين الإنسان والطبيعة :

الصراع الذي بين الإنسان والطبيعة صراع ليس فيه مافى الصراع بين الإنسان والإنسان من عداوة وحسد وبغضة .. لأن هذه الدوافع إنما تقوم بين المتماثلين جنساً ، والمتقاربين درجة ، والمتناسبين صناعة وعملاً ..

وفي الطبيعة قوى عاتية مدمرة ، لو استسلم لها الإنسان لأهلكته ، ولهذا فهو معها في صراع متصل ، منذ ظهر في هذا الوجود ، يحاول جاهداً أن يدفع سرها ، بل وأن يحيل هذا الشر خيراً ، حين يبسط يده عليها ، ويقوم سلطانه فوقها ..

ومثل هذا الصراع يمكن أن يسمى كفاحاً وجهاً ، إذ أن مخلفات معاركه تنجلي دائماً عن مغنم أو مغنم ، تضمها الإنسانية إلى ما تجمع لها من رصيد المعارك السابقة .. ومن حصيلة هذا الصراع أو الكفاح عمرت الحياة الإنسانية بهذه المدنية التي تملأ وجه الأرض .. قصوراً ، ورياشاً ، وأثناً ومتاعاً . ومن ثمرات هذا الصراع أو الكفاح عرفت الإنسانية ما عرفت من علوم وفنون .

ولهذا فإن القمص القرآني لم يتخذ من هذا الصراع موضوعاً له ، إذ ليس ثمة صراع بالمعنى المفهوم ، وإنما هو جهاد وكفاح ..

والإسلام يدعو دعوة حارة إلى العمل والجد والكفاح في تحصيل أسباب العمران ، وامتلاك زمام القوة والسيادة في الحياة ..

وفي القمص القرآني وقفات جانبية ، وإشارات بارقة إلى ألوان من الصراع أو الكفاح الإنساني مع الطبيعة ، والجهد الذي يبذله الإنسان لكي يحصل النجاح ، والغلب ، على قوى الطبيعة المتحدية له ، والواقفة في طريق القافلة ١ ..

ففي قصة ذي القرنين مثلاً : حين يبلغ بين السدين « وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولاً . قالوا يا ذا القرنين .. إن يأجوج ومأجوج

(١٥ - القمص القرآني)

مفسدون في الأرض ، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سداً .
وبأجوج ومأجوج وإن كانوا من البشر إلا أنهم أشبه بقوة من قوى
الطبيعة العانية ا

ولهذا فإن ذا القرنين لا يحاربهم ، ولا يلقاهم لقاء العدو ، وإنما هو يعمل
على أن يقيم بينهم وبين الناس سداً ، كما يفعل الناس في وجه السيول الجارفة .
قال : ما مكنتني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم
ردما . أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا
جعله ناراً قال اتوني أنفخ عليه قطراً . فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا
له تقبلاً . قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد
ربي حقاً .

فهذا صراع لم يرق فيه دم ، ولم تزهق فيه أرواح ا .
وهكذا كل صراع مع الطبيعة ا . لا ينجلي إلا عن كسب ، وخير ا

* * *

ونجد في قصة يوسف شيئاً كهذا ..

ففي تأويله لرؤيا فرعون نرى يوسف لا يقف عند مجرد التأويل ، بل إنه
إذ يرى الطبيعة وقد فغرت فاها وكشرت عن أنيابها ، تريد أن تبتلع الناس ،
فإنه لم يشأ أن يقف موقفاً سلبياً إزاء هذا الهول المقبل ، بل تصدى للطبيعة ،
وحاول أن يروض من جاحها ، ويكسر من ضراوتها . ا

إن رؤيا فرعون لم تكن عند يوسف سوى مرصد نظر في مرآته ،
فراى بعيني بصيرته أبعاداً بعيدة وراء مارأت عينه .. ومن هنا كان
واجبا عليه أن ينبه إلى هذا الخطر ، وأن يعطى الرأي الذي يراه دافعا له ..
وقد فعل .. ثم حين دعى إلى تولي قيادة المعركة مع هذا الحدث المقبل بما يدهم
الناس من بأساء وضراء - لم ينكص على عقبه ، بل تقدم على ثقة وثبات ،

وخاض المعركة في صدق وأمانة وشجاعة وحكمة .. ثم استطاع أخيراً أن
ينتصر ، وأن يرسي السفينة على مرفأ الأمن والسلامة .
واستمع إلى القرآن الكريم ، وهو يقص هذه الواقعة في إيجاز آلق من
شمس الضحى .. يقول الله تعالى :

« وقال الملك : إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع
سنبلات خضر وأخر يابسات .. يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم
لرؤيا تعبرون ، قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ..
وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة : أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف .
أيها الصديق .. أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع
سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون .. قال :
تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ،
ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون .
ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون .. وقال الملك
اثثوني به ، فلما جاءه الرسول ، قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة
اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن
يوسف عن نفسه ، قلنا حاش الله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز
الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم
أني لم أخنه بالغيب .. وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وما أبرئ نفسي ،
إن النفس لأماراة بالسوء إلا مارحم ربي .. إن ربي غفور رحيم ، وقال
الملك اثثوني به أستخلصه لنفسي ، فلما كمله قال : إنك اليوم لدينا مكين
أمين ، قال : اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم (١) . »

والقصة كما يصورها القرآن الكريم ذات ثلاث مواقف : فرعون ومارأى
من حلم ، وقد استدعى له أهل الذكر يؤولوه . فيختلط عليهم الأمر ،

وبدولهم أن هذا ليس حلماً ، وإنما هو من أضغاث الأحلام وأخلاقها ،
وأهمهم عزون عن تأويل الأحلام ، وهم مع أضغاث الأحلام أشد عجزاً .

ثم الموقف الثاني ، وفيه من يجبر بأنه يعرف الشخص الذي عنده علم
بتأويل الأحلام ، ويطلب أن يبعثوا به إليه ، فيذهب إلى يوسف ، وهناك
يقص عليه حلم الملك ، فيخبره يوسف بتأويله ، ثم يعود الرجل إلى الملك ،
ويحدثه بما كان من قول يوسف في تأويل هذه الرؤيا ، ويقع هذا التأويل
من الملك موقع القبول والاطمئنان .. فبيعت إلى يوسف من يستدعيه له .

وهنا يبدأ الموقف الثالث حيث يواجه يوسف رسول الملك بقوله : « ارجع
إلى ربك فاسأله ما بال النسوة التي قطعن أيديهن .. إن ربى بكيدهم عليم » .
ويقع في المدينة هرج ومرج ، حين يسأل الملك عن حقيقة هذه الواقعة التي
يتحدث عنها يوسف ، وينجلى الأمر عن براعة يوسف مما رى به ، وتجيء
الشواهد كلها ناطقة بعفة هذا الصديق وطهارته ، ولا تجد امرأة العزيز بدأ
من أن تكفر عن خطيئتها حين رمته بالإثم .. فتجيء معترفة على الملأ بأنها
هي التي راودته عن نفسه .. فنقول : « الآن حصحص الحق .. أناراودته عن نفسه ،
وإنه لمن الصادقين » ثم يلتقى يوسف بالملك ، ويفوض إليه الملك الأمور في
تدبير أقوات الناس ، خلال هذه النازلة المقبلة .

والملاحظ في هذه القصة أن الانتصار على الطبيعة — أو بمعنى أصح —
الانتصار في الحياة إنما يتحقق بأمرين : العلم والأمانة .. فهذين الأمرين استأهل
يوسف أن يكون ربان هذه السفينة ، حين تلاطمت بها الأمواج : « قال
اجعلنى على خزائن الأرض إني خفيظ عليم » والحفظ هنا إنما هو مظهر من
مظاهر الأمانة .. وفي القرآن الكريم : « إن خير من استأجرت القوى
الأمين » فالقوى الأمين هنا في معادل « الحفيظ العليم » هناك ، حيث تعادل
القوة العلم ، إذ تحصل بالعلم وتستند إليه ، وكل قوة لا تستند إلى علم قوة .
غشوم ، أشبه بالعاصفة تدور دورة ثم تسقط هامة .. كذلك يعادل الأمين

بالحفيف ، إذ الحفظ كما قلنا مظهر من مظاهر الأمانة ، ولأن تكون أمانة إلا يحفظ ما يؤتمن المرء عليه ، لنفسه أو لغيره .

وقد كشفت الأحداث عن علم يوسف وحفظه ، فقد حفظ أمانة العزيز الذي ائتمنه عليها ، وأبى أن يستجيب لدعوة امرأته وإغرائها .. قال : معاذ الله .. إنه ربى أحسن مثواى .. كذلك عرف الناس علمه حين كشف لصاحبيه فى السجن عن حقيقة ما يؤول إليه أمرها بعد أن أخبراه بالرؤيا التى رأياها فى نومهما .. كما عرف له علمه حين أول لفرعون رؤياه على وجهها الصحيح ، بعد أن عجز علماءه وسحرتة .. ثم كان علمه وأمانته معه دائماً ، وبهذا استطاع أن يقود المعركة - معركة الحياة - وأن ينتصر نصراً مبيناً حاسماً .

الباب السابع

التكرار في القصص القرآني

التكرار في القصص القرآني ظاهرة واضحة ، ملفتة للنظر ، وداعية لكثير من التساؤل والبحث .

وقد وجد أصحاب الأهواء ومرضى القلوب من الملحدون وأعداء الإسلام في هذا التكرار مدخلا ملتويا ، يدخلون منه على هذا الدين ، لطمعن في القرآن ، والنيل من بلاغته وإعجازه ، وليقولوا إن هذا التكرار قد أدخل الاضطراب على أسلوبه ، وجعله ثقيلًا على اللسان وفي السمع معاً . ثم يخلصون من هذا إلى القول بأن أسلوب القرآن ليس على المستوى البلاغي الرفيع ، الذي يتسع للدعوى التي يدعيها له المسلمون بأنه معجز ، وأنه منزل من السماء ، ثم يتأدون في هذا الضلال فيقولون ، إن هذا الخلل الذي وقع فيه ، إنما هو أثر من آثار الأحوال النفسية التي كانت تنتاب محمداً ، فتخرج به عن وعيه ، وتجيء الكلمات التي ينطق بها في تلك الحال ، مرددة ، مقطعة ، كما يقع هذا للمحمومين والمصروعين .

ولقد قلنا في ردنا على هذا ، في كتابنا إعجاز القرآن : « إن الذين يقولون هذا القول أو يحكونه عن غيرهم ، هم أعاجم أو أشباه أعاجم ، لم يذوقوا البلاغة العربية ، ولم يتصلوا بأسرارها . ولو أنهم رزقوا شيئاً من هذا المال طواعيتهم ألسنتهم أن ينطقوا بهذا البهتان العظيم ، ولردم الحياء أن يقولوا قولاً لم يقع في حساب « قريش » وهي تنصيد التهم والمفتربات على القرآن الكريم ، حتى لقد بلغ بها الأمر أنها لو وجدت زوراً من القول لقاتلته فيه ، ورمته به ،

ولكن الزور نفسه أعيابها أن تمسك به في وجه هذا الحق المفرق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وإذا لم يكن لقريش أن تقول مثل هذا القول ، وهي مرجع الفصاحة والبلاغة وموطنهما ، فكيف يساغ هذا القول من أعاجم ؟ إن ذلك هو الضلال البعيد .

هذا وقد وقع التكرار في القرآن الكريم على صور شتى .. كالتكرار في إعادة جملة بعينها مثل قوله تعالى : « كلا سوف تعلمون » أو بين أجزائها مثل قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » في سورة « الرحمن » وقوله سبحانه : « ويل يومئذ للمكذبين » في سورة « المرسلات » أو يكون التكرار في إعادة تصوير الأحداث أكثر من مرة ، وهو ما حدث في القصص القرآني فقد تكررت معارض القصة الواحدة في أكثر من موضع .

وهذا التكرار في القصص القرآني هو موضوع هذا الحديث هنا .. أما مواضع التكرار الأخرى فقد عرضنا لها في كتابنا إعجاز القرآن ، الجزء الأول ص ٣٧٢ وما بعدها .

ما دعاية هذا التكرار ؟

كانت هذه الظاهرة .. ظاهرة تكرار القصص القرآني .. على تلك الصورة الواضحة مما لفت أنظار العلماء إليها ، وحرك عقولهم وألسنتهم للكشف عن أسرارها ودواعيها .

فهذا أبو بكر الباقلاني يقول عنها في كتابه : « إعجاز القرآن » : « إن إعادة القصة الواحدة بالفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً — من الأمور الصعب الذي نظهر فيه الفصاحة ، وتبير البلاغة » .. وهو يريد بهذا أن يقول إن عرض الموضوع الواحد بأساليب مختلفة من القول دون أن تتغير معالمة ،

ودون أن يضعف أسلوب عرضه هو من المسير الذي لا يقدر عليه إلا من كان ذا مسلكة يبابية ، واقتدار بلاغي ؛ وذلك في حدود لونين أو ثلاثة من ألوان العرض ، فإذا جاوز ذلك اضطرب الأسلوب ، وبهتت المعاني ، إلا أن يكون ذلك من تذيير الحكيم العليم ، رب العالمين .

ثم يقول الباقلائي : « وأعيد كثير من القصص - القرآني - في مواضع مختلفة ، على ترتيبات متفاوتة^(١) ، ونهوا - أي العرب - بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله ، مبتدأ ومكرراً^(٢) » .

ويريد الباقلائي بهذا أن يقرر أن من صور التحدي الذي عجز عنه العرب إزاء القرآن - عرض القصص القرآني - عرضاً متفاوتاً بين الطول والقصر ، والبسط والقبض ، وقد وسع عليهم بهذا مجال المعارضة والمحاكاة ، فلم يكن إلا العجز ، والاستخزاء !

وهذا القول من « الباقلائي » لا يكشف عن السر الذي نراه في التكرار الذي جاء في القصص القرآني . والذي سنعرض له بعد أن ننظر في بعض الآراء الأخرى التي عرضها أصحابها في هذا المقام .

يقول « الزركشي » في كتابه « البرهان في علوم القرآن » : « ومنه - أي من التكرار - تكرار القصص القرآني ، كقصة « إبلis » في السجود لآدم وقصة موسى ، وغيره من الأنبياء .. قال بعض العلماء : ذكر الله موسى في القرآن في مئة وعشرين موضعاً .. »

ثم يكشف الزركشي عن وجوه لبعض أسرار هذا التكرار فيقول :
« وإنما كررها - أي القصة - لفائدة خلقت عنه في الموضوع الآخر ، وهي أمور :

(١) يردر بالتفاوت ، اختلاف صور العرض للقصة الواحدة بين الطول والقصر ، والتفصل والإجمال .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني

١ - أحدها : أنه - أي القرآن - إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً .. ألا ترى أنه ذكر الحية في عصا موسى عليه السلام ، وذكرها في موضع آخر تعباناً ؟

٢ - الرابعة : إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة ، وأساليب مختلفة - لا يخفى ما فيه من الفصاحة .

٣ - الخامسة : أن الله سبحانه وتعالى أنزل هذا القرآن ، وعجز القوم عن الإتيان بمثله ، لصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم ، بأن كرر ذكر القصة في مواضع إعلماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، بأى نظم جاءوا ، وبأى عبارة عبروا (١)

والإشارة المقتضية التي أشار بها «الزركشى» وكأنها جاءت عفواً ودون مبالاة - في قوله : إنه - أي القرآن إذا كرر القصة زاد فيها - هذه الإشارة هي في نظرنا أبرز داعية من دواعي التكرار القصصى .

ولم يذكر «الزركشى» أين هي تلك الزيادة ؟ كما لم يذكرها هذه «الزيادة» من قيمة في عرض القصة ، وفي إبراز ما يراد إبرازه من أحداثها ، واكتفى بالقول : بأن القرآن كلما كرر قصة جاء فيها بجديد لم يكن موجوداً في العرض الأول ، أو الثانى ، أو الثالث ، وهكذا .

ولقد أشرنا من قبل إلى بعض الأسرار الكامنة وراء هذا التكرار ، وقلنا : إن كل مرة تعرض فيها القصة تكشف عن جانب من جوانبها ، أو تجسم صورة من صورها ، أو تكمل حدثاً من أحداثها .. الأمر الذي لا يمكن أن يتم في عرض واحد مستقل ، دون أن يقع في الأسلوب اضطراب ، وتناقض وثقل ، لهذا التكرار المتصل ، ولاختلاف المقولات فيما يبدو أنه موقف واحد ..

قلنا هذا ، وأنحوه فيما مضى ..

وزيد هنا أن تزيد الأمر إيضاحاً من جهة ، وأن نرد على بعض المفاهيم والتأويلات التي قبل بها في بعض الدراسات الحديثة - شرحاً ، وتعليلاً للتكرار القصصي في القرآن - من جهة أخرى

دعوى وبرهانها :

والدعوى التي ندعينا لداعية التكرار في القصص القرآني ، وفي كل تكرار في القرآن تختلف فيه الصور للحدث الواحد - هي أن هذه الصور المتكررة يكمل بعضها بعضاً ، وأنها في مجموعها تعطي صورة واضحة كاملة مجسمة أو شبه مجسمة للحدث ، وأن ما يبدو من أنه اختلاف بين المقولات في الواقعة الواحدة أو الحدث الواحد ليس إلا تجميعاً لمتنائر الأقوال عن هذه الواقعة أو ذلك الحدث ، أو ليس إلا التقاطاً لظاهر القول ، ثم لما يكن وراءه من خواطر وخليجات .

وفي الموازنة التي جمعنا فيها بين ثلاث صور لقصة موسى ، في الموقف الخاص بمناجاته في الطور ، وتلقيه الدعوة السماوية هناك - في هذه الموازنة رأينا أن مجموع ما في الصور الثلاث التي جاءت في سورة طه ، والنمل ، والقصص ، يعطي صورة واحدة مكتملة لما حدث ، وأن كل واحدة منها يمكن أن تستقل بنفسها في الكشف عن مضمون هذا الحدث .

كذلك رأينا أن كلمات الله لموسى في السور أو الصور الثلاث ، هي مجموع ما سمعه موسى من الحق سبحانه وتعالى ، في هذا الموقف ، وأنها على أي ترتيب تجتمع فيه تعطي الصورة المطلوبة لهذا الموقف ، الذي كان مفاجأة مذهلة مزلزلة لموسى ، فكانت كلمات الله هذه في تنابها وتلاحقها تنزل برداً وسلاماً على قلبه ، الذي كاد يتطاير شعاعاً .. « يا موسى .. إني أنا ربك .. » .. « إني أنا الله العزيز الحكيم » .. « إني أنا الله رب العالمين » .. « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري » .

أما اختلاف مقولات موسى عن النار في السور الثلاث ، وهي قوله :

« لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » .. وقوله : « لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » .. وقوله : « سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » . فهذه المقولات - كما قلنا - تجمع بين ما قال موسى لأهله ، وما كان يجري في خاطره من مشاعر وإحساسات ، وتقديرات لما يتكشف عنه الواقع ، عند مداناته للنار التي رآها ، واتصاله بمن عندها .

هذه جزئيات من جزئيات القصة ..

ولو ذهبنا نصنع صنيعنا هذا في جميع المواقف التي ورد فيها ذكر لموسى في القرآن الكريم ، وهي - كما قال بعض العلماء مئة وعشرون موضعاً - لو ذهبنا نفعل ذلك ، لرأينا أن مجموع هذه المواضع يعطى الصورة الكاملة البارزة لقصة موسى كلها ، وما تلبس بمواقفها من مختلف المشاعر والعواطف والآراء ..

ولا يمتثل هذا البحث عرض جميع هذه « اللقطات » لهذه القصة .. ولكن بحسبنا كشاف لما نقول أن نجمع ألواناً مختلفة من هذه « اللقطات » بين طويلة ، ومتوسطة ، وقصيرة ، تمثل جميع المراحل في حياة موسى ، من مولده إلى خاتمة رسالته ..

وذلك على النحو الآتي :

حياة موسى من مولده إلى خروجه ببني إسرائيل إلى مصر :

وعناصر القصة هنا نشتمل من حياة موسى على المراحل الآتية :

١ - ولادة موسى والظروف التي صاحبت هذه الولادة ، من تقبيل فرعون لأطفال بني إسرائيل .

٢ - ما أوحى الله تعالى به إلى أمه من وضع ابنها في تابوت وإلقائه في اليم ، ووعد الله لها بحفظه ورعايته .

٣ - وقوع موسى في يد فرعون ، وتمسك امرأة فرعون بحفظه وتربيته .

٤ - بحث أمه عنه ، واهتداؤها إلى مكانه ، ثم جعلها مرضعاً له .
٥ - ما كان من موسى من إعانة إسرائيلى على قتل مصرى . ثم فراره ، إلى مدين .

٦ - موسى فى مدين مع شعيب ، وتزوجه من إحدى ابنتيه .
٧ - عودة موسى إلى مصر ، وما وقع له فى طور سيناء من تكليم الله ، وإرساله رسولا إلى بنى إسرائيل .

٨ - تخوف موسى من لقاء فرعون ، وطلبه من الله أن يشدأزره بأخيه هرون ، وإجابة الله لطلبه .

٩ - لقاء موسى لفرعون ، وتكذيب فرعون له ، حيث استبد به الغرور ، وخيل إليه أنه إله ، وليس فوقه إله .

١٠ - خروج موسى ببني إسرائيل من مصر ، وحقاق فرعون وجنوده بهم ، ونجاة موسى ومن معه ، وغرق فرعون وجنوده .

هذه مراحل حياة موسى من مولده إلى خروجه ببني إسرائيل من مصر . وكل مرحلة من هذه المراحل قد تكرر ذكرها فى القرآن ، ولكن على درجات مختلفة ، فبعضها ذكر مرة واحدة ، وبعضها ذكر مرتين ، وبعضها ذكر أكثر من عشر مرات .

وهذا الاختلاف بين مرات التكرار فى هذه المراحل له دلالة التى ستنتضح لنا من عرض ما تعرضه منها فى صور التكرار التى جاءت فيها .

١ - ولادة موسى وظروفها .

٢ - ما أوحى الله به إلى أمه .

٣ - وقوع موسى فى يد فرعون .

٤ - اهتداء أمه إليه وإرضاعها له .

هذه المراحل من حياة موسى ذكرت فى موضعين من القرآن الكريم ، فى سورتي : طه ، والقصص .

ففي سورة القصص جاءت هكذا :

١ - « إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يزبج أبناءهم ، ويستحبي نساءهم ، إنه كان من المفسدين .. وزيد أن نعمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجملهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونمسن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون .

٢ - « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه إليك وجاءوه من المرسلين .

٣ - « فالتقطه آل فرعون ، ليسكون لهم عدواً وحزناً ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وهم لا يشعرون .

٤ - « وأصبح نؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ، وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون .

وفي سورة طه جاء ذكر هذه القصة هكذا :

١ - « إذ أوحينا إلى أمك ما بوحى أن اقدفيه في التابوت ، فاقذفيه في اليم ، فليلقه اليم بالساحل ، يأخذه عدو لي وعدو له ، وألقيت عليك محبة مني ولنصنع على عيني ..

٢ - « إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ؟

٣ - « فرجمناك إلى أمك ، كي تقر عينها ولا تحزن .

وبالنظر في الصورتين ، ومقابلة إحداهما بالأخرى نجد :

(أولاً)

أن ماجاء في سورة القصص كان عرضاً لقصة موسى في مجال الحياة كلها ،
للعظة والعبرة . . ليجد فيها بنو إسرائيل ما يذكرهم بفضل الله عليهم ،
واستنقاذهم من البلاء الذي كان يصبه فرعون على قومهم وجنسهم . . ويجد
فيها العرب مشهداً من مشاهد الصراع بين الحق والباطل ، وما ينتهي إليه
الحال بينهما من انتصار الحق وأهله وخذلان الباطل وحزبه . . ثم يجد فيها
النبي والمسلمون عزاء يشد أزرقهم فيما يساق إليهم من قريش ، من ضر وأذى . .
ولهذا فقد بدأت القصة هنا بما كان من فرعون من علو واستكبار
واستبداد ، وما وعد الله به المستضعفين المقهورين من تأييد ونصر وإعزاز .
وهذا ما حلت منه الصورة التي ذكرت في سورة طه ، حيث كان ذكر
القصة هناك في معرض حديث خاض موجه إلى موسى ، ليذكر به فضل الله
عليه من أول ولادته .

(ثانياً)

ما أوحى الله تعالى به إلى أم موسى بعد مولده قد جاء مفصلاً بعض
الشيء في سورة القصص ، ثم جاء مجملًا في سورة طه .
انظر : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . .
فإذا خفت عليه فألقيه في اليم . .
« ولا تخافي ، ولا تحزني . .
« إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين . .

[سورة القصص]

- « إذ أوحينا إلى أمك مايوحى .. »
- « أن اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم . »
- « فليلقه اليم بالساحل .. »
- « يأخذه عدولى وعدوله .. »

[سورة طه]

وانظر مرة أخرى ، بل مرات ومرات .. فإنك واجد في كل نظرة ألواناً جديدة من الجمال والجلال ، والإعجاز ..

إن كلا من الصورتين تعطى كل ملامح الحدث ، وتحدث به ، معلنة بعضه ، ومسرة بعضه الآخر .. فإذا اجتمعت الصورتان في مقام واحد أعلنت كل منهما ما استسر في صاحبتهما .. وبهذا تتضح الرؤية فيهما لمن لم يكن له هذا الفهم ، وذلك الذوق ، للبيان القرآنى وإعجازه .. ثم مع هذا يبقى لسكل من الصورتين وجهها الذى صوره القرآن عليه . لأن الجمع بينهما لا يقع فى التلاوة ، وإنما يلتقاهما القارىء للقرآن مع هذا الفاصل الذى يفصل بينهما زماناً ، ومكاناً .

ثم انظر مرة ثالثة ..

إنك تجدهذه الألوان المختلفة بين الصورتين حين تقم بعضها إلى بعض - تعطيك صورة مجسمة للحدث ، تراه فيها من جميع جهاته .
« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم . »

[سورة القصص]

إن هنا إعداداً للأمر الذى سيكون ، وتمهيداً له قبل أن يقع .. ولهذا كان هذا التمهيل فيه ، والانتظار به إلى الحال الداعية إليه .. وهنا تجد الكلمات ممدودة فى استرخاء « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه .. فألقيه فى اليم ، ولا تخافى .. ولا تحزنى .. »

فأم موسى استحفظ بوليدها عندها ، وترضعه إلى أن تستشعر الخطر من فرعون وجنوده . ولكنها حين يفجأها الخطر ، ويحقد بها ، تتحرك الأحداث في سرعة واندفاع . . إنها ستسرع إلى التابوت الذي أعدته من قبل ، والذي لم يجر له ذكر في الصورة السابقة على ما فيها من بسط وتمهل ، إذ أن ذلك عمل لا بد منه ، وقد هيئت لإلقاء وليدها في أليم . . إنها لا تلقيه هكذا دون أن ترفده بما ينجيه من الغرق ، وإلا كان إلقاؤه قتلا عاجلا له ، دونه القتل المنتظر على يد فرعون ! « أن أقدفيه في التابوت فأقدفيه في أليم » .

وهنا — كما قلنا — تجري الأحداث مندفعة ، فتقدفه في التابوت قدفاً ، وتقدفه كذلك في أليم ، ولا تلقيه إلقاء . . إنها مطلوبة مذعورة ، تقذف بوليدها بعيداً عن موطن الخطر ! فإذا أفلت من يدها ، وامتلأ قلبها فزعاً وكرهاً جاءها من الصورة الأولى قوله تعالى الذي وعدنا به من قبل « لا تخافي ، ولا تحزني . . إنا رادوه إليك ، وجاءلوه من المرسلين » . . وإنك لو قرأت « الصورة » الأولى ثم قرأت بعدها « الصورة » الثانية لوضح لك ما بينهما من التجاوب والتناغم ، والتكامل ، ولبان لك أن الأولى منهما إعداد للموقف ، وأن الثانية إبرام وتنفيذ .

وانظر مرة رابعة . . في هذا الأمر الموجه إلى أليم : « فليلقه أليم بالساحل » — إنه أمر سيصدع له أليم ، ويلقاه بالخضوع والامتثال ، إذ هو أمر من عند الله الذي يخضع له كل موجود . . وقد صدع أليم لهذا الأمر الكريم ، وألقى بموسى إلى الساحل !

وكذلك الشأن في الأمر الغيبي الموجه إلى فرعون . . « يأخذه عدو لي ، وعدو له » . . إنه لا مفر لفرعون من أن يأخذ موسى ليحل عنده . . يربيه ، ويرطه ، رطية الآباء للأبناء . . وقد أخذته ، ورباه !

ونسأل بعد هذا :

وليس من هذه الصورة إلا الآيات الأربع الأولى ، بعد قوله تعالى :
« هل أتاك حديث موسى » - هي التي تحدث عن واقعة الطور . . وهي - كما
قلنا - تلخيص دقيق معجز للصورة كلها ، قد طويت فيها التفاصيل التي ذكرت
أو ستذكر فيما نزل أو سينزل من قرآن ، فالذي يقف عندها يذكر بكلماتها
القليلة كل أحداث الواقعة وتفاصيلها ، إن كان قد علم بها من القرآن ، وإلا ففي
هذه الكلمات ما يمثل له صورة واضحة محددة لموسى ، ومناجاة الله ، والمكان
الذي ناجاه فيه ، وموضوع هذه المناجاة ، وأنها دعوة من موسى إلى فرعون
الذي طغى ، وعلا في الأرض ، وسام الناس ظلاماً وخسفاً - يدعو به إلى الإيمان
بالله ، والاستقامة على طريق المؤمنين ، فإذا جاء ذكر الحادثة مفصلاً بعد هذا
وجدت لها في النفس مكاناً مهيئاً ، ينتظرها .

وإذن فهذه الصورة الرابعة ليست من التكرار في شيء ، وإنما هي
إشارات مفصحة مبينة عن الحادثتين ، أشبه بتلك الإشارة الذكية ، التي تقتطع
من رواية سينائية ، ثم تعرض لتكون إعلاناً عنها قبل عرضها . .
وبعض الناس قد تغنيهم هذه الإشارات الموجزة عن التطلع إلى ما وراءها ،
على حين أن بعضاً آخر قد تغريهم تلك الإشارات بالترقب للعرض الكامل لها ،
والاستعداد لاستقباله .



أما موقف موسى حين دعي إلى لقاء فرعون ، ونخوفه من ذلك اللقاء ،
لما عرف من فرعون من جبروت غاشم باطش ، ولما كان من موسى من قتل
المصري - أما هذا الموقف فقد ذكر في مواضع كثيرة من القرآن . . منها :
(١) في سورة طه ، وفيها يقول الله تعالى :

« اذهب إلى فرعون إنه طغى . . قال رب اشرح لي صدري ، ويسر لي
أمرى ، واحمل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي
هرون أخى ، اشدد بي أزرى ، وأشركه في أمرى . . كي نسبحك كثيراً ،
ونذكرك كثيراً ، إنك كنت بنا بصيراً . . قال قد أوتيت سؤالك يا موسى . .
وتضمن هذه الصورة :

- ١ - دعوة الله لموسى بالذهاب إلى فرعون .
- ٢ - وصف فرعون بصفته التي عرف بها ، وهي البغي والطغيان .
- ٣ - طلب موسى من الله أن يعينه على أداء رسالته بأن يشرح صدره ، ويسر أمره ويحل عقدة لسانه ، وأن يرفده بأخيه هرون ، ليكون سنداً له وعضداً .

٤ - إجابة الله سبحانه دعوة موسى ، وتحقيق ما طلب .

(ب) وفي سورة القصص يقول سبحانه وتعالى :

« اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب ، فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائته إنهم كانوا قوما فاسقين ، قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ، وأخى هرون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى رداه يصدقنى ، إنى أخاف أن يكذبون ، قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لك سلطاناً فلا يصلون إليك بآياتنا ، أنما ومن اتبعك القالبون . »

وعناصر هذه الصورة :

- ١ - دعوة موسى بالذهاب إلى فرعون وملائته .
- ٢ - وصف فرعون وقومه بصفة أخرى غير الطغيان ، وهي القسوق .
- ٣ - تخوف موسى من فرعون ، وذكره بين يدي الله ما كان منه من قتل المصرى وخوفه أن يقتله فرعون به .

٤ - طلب موسى من الله أن يشد أزره بأخيه هرون إذ هو أفصح منه لساناً .

٥ - وعد الله سبحانه لموسى بإجابة ما طلب .

(ح) وفي سورة النمل جاءت الصورة هكذا :

« وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، فى تسع آيات إلى فرعون وملائته ، إنهم كانوا قوما فاسقين . . فلما جاءهم آياتنا قالوا هذا سحر مبين . »

وواضح أنه لم يذكر فى هذه الصورة شىء من مخاوف موسى ، ولا شىء مما طلب لشد أزره وتطمين قلبه .

(د) وفي سورة الشعراء يقول الله تعالى :

« وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون
قال رب إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ، ولا ينطلق لساني ، فأرسل
إلى هرون ، ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون .. قال كلا فاذهبا بآياتنا
إنا معكم مستمعون » .

وعناصر الصورة هنا هي :

(١) دعوة الله لموسى أن يذهب إلى قوم فرعون (٢) وصفهم بالظلم
(٣) إظهار موسى خوفه من أن يكذب وليس معه لسان طالق (٤) طلب
إلى الله أن يقيم من أخيه هرون رسولا يسنده (٥) إظهار خوفه من القتل -
(٦) تطمين الله سبحانه له ولأخيه .

(هـ) وفي سورة النازعات : « وهل أتاك حديث موسى : إذ ناداه ربه
بالوادي المقدس طوى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى ، ليس فيها من هذا الموقف
إلا عنصر واحد ، وهو الأمر بالذهاب ، دون أن تكون لموسى مراجعة .
وإنك لتستطيع أن تضم هذه الصور الخمس بعضها إلى بعض في تلاوة
واحدة ، دون أن تجد شيئاً من التراكب فيها ، أو التدافع بينها ، ودون أن
تحس بأنها صورة واحدة تتكرر خمس مرات في سمك أو فهمك .. ففى كل
صورة لون جديد تفتقده الصور الأخرى ، دون أن يدخل عليها من ذلك
الفقد خلل أو خفاء ؟ .

فالصورة الأولى - التي تراها في سورة طه - تفتقد ما في الصورة الثانية -
التي جاءت بها صورة القصص من أن موسى قتل نفساً وأن هذا القتل من
أسباب خوفه وتردده في لقاء فرعون .. على حين أن الصورة الثانية تفتقد
ما في الصورة الأولى من أن موسى به عقدة في لسانه ، بينما تحلوا الصورة
الأولى بما في الصورة الثانية من الحديث عن هرون بأنه أفصح لساناً من
موسى .

والصور الخمس تصف فرعون وقومه وصفاً كاشفاً . . فبينما ينمرد هو

بالطغيان في موقف .. إذ يشترك مع قومه في الفسق والخروج عن طريق
القصد والاعتدال ، إلى البغي والعدوان ، في موقف آخر .. إنه طغى ..
إنهم كانوا قوما فاسقين .. قوم فرعون .. ألا يتقون !
ونقول : إذا كانت هذه الصور قد أمكن أن تجتمع في مقام واحد
فختألف منها صورة واحدة ، مع احتفاظ كل واحدة منها بمشخصاتها ،
ومقوماتها ، فكيف يقال بمد هذا عن العرض القصصى في القرآن على هذا
الأسلوب إنه تكرر ، وأن من هذا التكرار تولد القول بإحالة هذا القصص
إلى المنغايه الذى لا يعرف وجهه !! وكيف يقبل مثل هذا القول إذا كان وضع
هذه الصورة في القرآن على غير هذه الصورة المجتمعة ، وإنما هي كما نعلم وترى ،
موزعة في القرآن كله توزيعاً يباعد بينها بحكم التلاوة ، التى ينبغى أن يتلى
عليها القرآن ؟

* * *

أما لقاء موسى بفرعون ، وما جرى بينهما من مساجلات ومجادلات ،
وتحديات ، فقد كثر في القرآن وروده على وجوه مختلفة من صور العرض ،
بين مبسوط ومقبوض .

وهذه الصور جميعها شأنها شأن كل ما تكرر من قصص - تمثل ألواناً من
الصورة الكبيرة ، كل صورة ذهب بلون أو ألوان منها ، فإذا اجتمع بعضها
إلى بعض تجسم منها المشهد كله ، فتجرك منها ما كان ساكناً ، ونطق
ما كان صامتاً .

وهذه الإشارة وإن أغنت عند كثير عن ذكر الأمثلة ؛ فإن كثيرين
يحسن أن نلقاهم بهذه الأمثلة . فليكن هذا ؛ فهو خير ؛ والاستزادة من
الخير خير .

الموقف كما يصور في سورة طه :

فهذا موسى وهرون ، يقبلان على فرعون ، وقد حملا كلمات الله إليه :
« إنا قد أوحى إليك أن المذاب على من كذب وتولى .. »

أفي هاتين الصورتين تكرار؟ وهل في إحداهما لون لا تجد له مكاناً في الصورة الأخرى؟ ولا نجيب على هذا، فنقال الحال أبانغ من كل مقال!

(ثالثاً)

ما كان من شأن موسى في بيت فرعون، واهتداء أمه إليه، ثم جعلها مرضعاً له:

في سورة القصص تسمى « الصورة على هذا الوجه :

« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً -

« إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين -

« وقالت امرأة فرعون فرقة عين لي ولك ، لا تقتلوه -

« عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون -

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به -

« لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين -

« وقالت لأخته قصيه -

« فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون -

« وحرمنا عليه المرضع من قبل -

« فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم .. وهم له ناصيون -

« فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن . ولتعلم أن وعد الله حق ،

ولكن أكثرهم لا يعلمون .

وفي سورة طه جاءت تلك الصورة هكذا :

« ... يأخذه عدو لي وعدو له

« وألقيت عليك حبة منى ، ولتصنع على عيني .

« إذ تمشى أختك ، فتقول هل أدلكم على من يكفله ، فرجمناك إلى أمك ،

كي تقر عينها ولا تحزن .

وأنت ترى أن الصورة الثانية قد جاءت - على إيجازها - بلونين جديدين

ليس لها وجود في الصورة الأولى ، وهما : (١) وصف فرعون بأنه عدو لله ، وعدو لموسى . فهذا الوصف قد دخلت منه الصورة الأولى التي جاء فيها أن موتى الذى التقطه آل فرعون ، والذى احتفظوا به ، عسى أن يفهم أو يتخذوه ولداً سيحى لهم منهم غير ما ينتظرون ، ويقدررون .. سيكون لهم عدواً ، وحرناً .. وبهذا اللون من ألوان العداوة المتبادلة بين فرعون وجنوده ، وموسى ودعوته ، يعادل ميزان الموقف الذى ستدور فيه المعركة المرتقبة بين الحق والباطل ..

(٢) المحبة التى ألقاها الله على موسى ، هى التى أقامت من امرأة فرعون داعية تدعو إلى الاحتفاظ بهذا الطفل ، حين تحركت فى قلبها عواطف الأمومة له .. وبهذا يعرف - من لم يعرف - أن هذا الذى وقع لموسى لم يكن إلا بتدبير من الله ، وبفضل من رعايته له ، وأن الله سبحانه هو الذى حرم عليه المراضع فلم يقبل الوليد ثدى واحدة منهن ، وأنه سبحانه هو الذى دل أخته عليه ، وألقى فى روعها أن تقدم أمها كمرضعة له ... وبهذا عاد إلى أمه ، وتحقق وعد الله الذى وعدها إياه فى قوله سبحانه : « لا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك .. » .

ونعود فنقرر مرة أخرى أن هذه المراحل الأربع من حياة موسى التى ذكرها الله سبحانه مرتين : فى سورة طه ، وفى سورة القصص ، ليس فى ذكرها هنا وهناك تكرار . بل إن فى كل صورة منهما أضواء تشع على الصورة الأخرى ، وتملأ كل فراغ فيها .

فإذا نظرنا فى المرحلتين الخامسة والسادسة ، وهما : ما كان من موسى من إبانة إسرائيلى على قتل مصرى ، وفراره إلى مدين .. ثم ما كان موسى فى مدين مع شعيب ، وزواجه من إحدى ابنتيه - إذا نظرنا فى هاتين المرحلتين نجد أنهما لم يذكر فى القرآن إلا ذكراً واحداً فى سورة القصص .. وهى قوله تعالى :

« ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين ،

ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان .. هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ، فوكره موسى ففضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين ، قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للجرمين ، فأصبح في المدينة خائفاً يترقب ، فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى إنك لغوى مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسمى ، قال يا موسى إن الملاّ يأترون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين ، فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب نجني من القوم الظالمين .. ولما توجه لتقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقي حتى يصدر الرعاء ! وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لمآ أنزلت إلي من خير فقير ، فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ، قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ، قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ، قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ، قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان هلى ، والله على ما نقول وكيل ،^(١) .

هذه هي الصورة الوحيدة التي صور فيها القرآن هاتين المرحتين من حياة موسى ، ولم يذكر عنهما شيئاً في غير هذا الموضع ، إلا أن يكون تذكيراً بما فيهما من عبرة وعظة ، كما ذكر في سورة طه عن قتل المصري ونجاة موسى من

القصاص منه : « وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا » أو أن يكون ذلك تهديداً وتخويفاً ، كما وجهه فرعون لموسى بهذه الفعلة حين جاء يدهوه إلى الله فقال : « وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين » (١) .

وإذن ، فلا سؤال هنا عن التكرار . . وإنما السؤال عن عدم التكرار ، إذ كان التكرار هو السمة الغالبة على أحداث القصص القرآني ، وقصة موسى بنوع خاص .

وواضح أن عدم التكرار هنا في هذين المقطعين من القصة ، إنما هو لأنها من الأحداث الدائرة في الحياة اليومية للناس ، وليس فيهما ما يخرج عن مألوف هذه الحياة . . وعلى هذا فإن مجرد مردهما على وجه واحد يكفي في أداء الغرض المراد به منهما ، في سير الأحداث التي تضمنتها القصة بتمامها . .

* * *

أما المرحلة السابعة وهي التي تصور دهوة موسى إلى مصر ، وما وقع له في طور سيناء . . فقد أشرنا من قبل إلى ثلاث مواضع ورد فيها ذكر هذا الحدث في القرآن الكريم . . في سورة طه ، والنمل والقصص . . وقد رأينا هناك أن هذه المواضع الثلاثة تمثل الواقعة من زوايا ثلاث ، بحيث يمكن الوقوف بالنظر بها عند كل زاوية منها ، فإذا اجتمعت جميعها أشرفت بنا على الواقعة من جميع جهاتها ، ورأينا كثيراً من أسرارها وخفاياها .

بقي أن نذكر - هنا - أن هذه الواقعة قد ذكرت مرة رابعة في سورة « النازعات » وأنها جاءت تلخيصاً دقيقاً مركزاً لقصة موسى كلها بما فيها هذه المرحلة . . يقول الله تعالى : « هل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . . اذهب إلى فرعون إنه طغى . . قفل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى ، فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسمي ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذ الله نكال الآخسرة والأولى . . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى » . .

«قال موسى: أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا؟ ولا يفلح الساحرون، قالوا أجبنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض، وما نحن لكما بمؤمنين، وقال فرعون انتوني بكل ساحر عليم؛ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون، فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر، إن الله سيبطله، إن الله لا يصلح عمل المفسدين، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون» .



هذه معارض اربعة، قد عرض فيها هذا الموقف الذي كان بين موسى وفرعون، عرضاً مبسوطاً، اتسع لأهم الأحداث التي جرت فيه، والتقط أدق الخليجات النفسية التي وقعت في مجريات الصراع بين شخصياته .
و كما قلنا من قبل فيما عرضنا من الصور القرآنية المتعددة لأحداث الواحد نقول هنا إن هذه الصور إذا ضم بعضها إلى بعض قامت منها صورة واحدة، هي صورة مكبرة لكل واحد من هذه الصور على حدة .. فإنك إذ تنظر في الصورة الكبيرة ثم تنظر في أي من الصور الصغيرة تجد الملامح هي الملامح، والصورة هي الصورة، وإن حملت الصورة الكبيرة ألواناً أكثر، وشغلت مساحة أكبر .

وقد قلنا إنه يمكن أن يرى ذلك من خلال ضم هذه الصورة بعضها إلى بعض، وتلاوتها في معرض واحد، حيث يمضي القارئ في القراءة أو المترل في الترتيل، دون أن يستشعر أنه بعيد ماقرأ، أو يكرر ما ترل .
وزيد هنا أن تصنع صنيعاً آخر مع هذه الآيات يتضح لنا منه - بصورة أكثر وضوحاً - خلو القصص القرآني من التكرار بالمعنى الذي فهم عليه، والذي كان في نظر الأغبياء والأدعياء تهمة يرمى بها القرآن في أعز ما يعتز به من فصاحة وبيان .

وننظر في الواقعة ذاتها ف نجد أنها تشتمل على العناصر الآتية :

١ - موسى، ومعه أخوه هرون، وما لقياه به فرعون من آيات، ومقولات .

٢ - فرعون ، والملا الذي معه من قومه ، وسحرته ، وما استقبلوا به موسى من مقولات وتحديات .

٣ - ما كان بين موسى والسحرة ، وما انتهى إليه أمرهم من عجز وتسليم وإيمان .

٤ - ما كان من فرعون حين خذله سحرته ، وخرجوا عن طاعته وأمره وما توعدهم به من عذاب ونكال ، وموقفهم من هذا الوعيد .

وصنعنا هنا هو أن نجمع لكل عنصر من هذه العناصر ما كان له من ذكر في هذه الصور الأربع التي عرض فيها القرآن الواقعة كلها .

(١) موسى وهرون في مواجهة فرعون :

موسى وهرون : « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى »
[من سورة طه]

موسى وهرون : « إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل »
[من سورة الشعراء]

موسى : يا فرعون إني رسول من رب العالمين ، حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق .. فأرسل معي بنى إسرائيل [من سورة الأعراف]

أما الصورة الرابعة - والتي جاءت بها سورة يونس - فليس فيها ما يحدث عن الموقف بين موسى وفرعون .

واقراً هذه المقولات الثلاث ، واحدة بعد أخرى ، نجد أنها تصور الموقف أدق وأصدق وأحكم تصوير ، وأنها قد جاءت به متلبساً بكل ما كان

يجرى في النفوس من مشاعر وأحاسيس .

فهذه المقولات الثلاث ليست قولاً واحداً جاء به القرآن في ثلاث معارض من القول .. وإنما هي أقوال ثلاثة فعلاً ، كل قول منها مستقل بنفسه ،

قائم بذاته .

ولا نستطيع الجزم بالترتيب الذي بين هذه الأقوال ؛ وأنها يسبق صاحبه أو يتأخر عنه .. ومع هذا فإن الترتيب الذي تجتمع عليه في كل وضع ممكن

هو ترتيب يتسع له الموقف ويتطلبه .

ويكفي أن تنظر إليها في وضع واحد من هذه الأوضاع ، وليكن وضعها هذا الذي جاء هنا من غير قصد ولا تدبير .

١ - فهذا موسى ومعه أخوه هرون .. يدخلان على فرعون معاً ، ويتحدثان بصوت واحد معاً .. إذ كان ذلك هو شعور موسى من لقاء فرعون قبل أن يلقاه ، فقد طلب إلى الله أن يشد أزره بأخيه هرون ، فهو أفصح منه لساناً ، فيقولان : « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » [سورة طه]

وهي قولة لا تلقى فرعون لقاءً مواجهاً ، إنما حكم عام : « أن العذاب على من كذب وتولى » .

٢ - ثم هاهنا وقد أخذت تزايلهما رهبة الموقف ، وروعة اللقاء .. فيلقيان فرعون لقاءً مباشراً ، ويلقيان إليه بهذا الأمر العظيم فيقولان معاً : « إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بنى إسرائيل .. » [سورة الشعراء] ونستشعر من هذا أن موسى لا يزال يجرد الرهبة والخوف من فرعون ، وأنه لم تزايله رهبة الموقف بعد ، ولا يزال هرون معه يأخذ مكانه إلى جانبه يشد أزره ، ويثبت جناحه ..

٣ - ثم هاهو ذا موسى بعد أن تمرس بالموقف ، وارتاد الطريق ، واختبر المواجهة ، واحتمل الصدمات الأولى لها .

— هاهو ذا يلقي فرعون وحده ، ويسمعه بلسانه مضمون رسالته في قوة وصراحة .

« يا فرعون !! »

« إني رسول من رب العالمين .. »

« حقيق علىّ ألا أقول على الله إلا الحق .. »

« فأرسل معي بنى إسرائيل .. »

يا للاعجاز الذي تذلل لجلاله جباه الجبابرة ، وتخضع له الأعناق ، وتعنوه الوجوه !

يا فرعون !

هكذا يقولها موسى في وجه فرعون !

أتراد كان يفعل ذلك لأول لقاء ولأول مواجهة ؟

وكيف وهو الذي حسب لهذا الموقف ألف حساب وحساب قبل أن

يقدم عليه ؟

إن هذا لا يكون إلا بعد ممارسة المرقف ومعاودة التجربة !

وما كان لموسى أن يقول هذه القولة : يا فرعون ! ولا أن يقول بعدها :

إني ؟ هذا الضمير المحقق لشخصيته ، والمؤكد لذاتيته : إني .. لا أحد غيري -

« رسول من رب العالمين » ولحرف الجر « من » هنا ماله من الإشعار بهذا

الاعتزاز بتلك الشخصية ، والرسالة التي تحملها ، والجهة التي جاءت منها ، فقيها

ماليس في قوله لوقال : « رسول رب العالمين » من الشحنة القوية المليئة

بالاعتزاز بهذا السلطان الذي يستند إليه ، وهو سلطان رب العالمين ..

« حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق » .. وهذا اعتزاز بعد اعتزاز ،

لشخصه الذي يحمل رسالة السماء .. ومن هذا الأفق العالى ينزل أمر موسى

هادراً مدبونا في وجه فرعون : « فأرسل معي بنى إسرائيل » ١٠ ! ! ذلك أن

تضع هذا الأمر الصادر إلى هذا الرجاء الذي أسمعه - موسى وهرون -

لفرعون من قبل .. « أن أرسل معنا بنى إسرائيل » وسيبضح لك ما بين

الحالين من مفارقات !

وماذا يكون من فرعون بعد أن سمع ما سمع ، مما لم يعهد سماعه من أحد

من قبل ؟

تنظر ، ونوى !

(ب) فرعون وقومه وسجرتة :

وفرعون في هذا الموقف يواجه موسى وتحدياته ، فيلقاه دهشاً عجباً

لهذا التناول عليه ، والخروج على المألوف في حضرته .. ثم إنه مع هذا هو

فرعون !! يبسط سلطانه على أهل المجلس ، يلقي نظرة هنا ونظرة هناك ،

قال : فمن ربكما يا موسى ؟

قالا : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

قال : فما بال القرون الأولى ؟

« قال : علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربهى ولا ينسى . . الذى جعل لكم الأرض مهدياً ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم . . إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . . منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . ولقد أريناها آياتنا كلها ، فكذب وأبى .

— قال أجبنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، فلنأتيناك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعداً ، لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى .

« قال : موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشرناس ضحى .

فتولى فرعون لجمع كيدته ثم أبى .

« قال لهم موسى : ويلكم . . لا تقفروا على الله كذبا ، فيسحتكم بمذاب

وقد خاب من افترى .

.. « فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى [قالوا : إن هذان لساحران يريدان أن يخرجناكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم اتنوا صفا ، وقد أفلح من استعلى .

« قالوا يا موسى : إما أن تلقى ، وإما أن نكون أول من ألقى ؟ .

« قال : بل ألقوا . . فإذا جبالهم وعصيهم يحيل إليه من سحرهم أنها تسمى . . فأوجس فى نفسه خيفة موسى .

— قلنا : لا تخف . . إنك أنت الأعلى ، وألقى ما فى يمينك تلقف ما صنعوا

إما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أبى .

« فألقى السحرة سجدا . .

« قالوا : آمنا برب هرون وموسى ا

« قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر

فلا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبكنم في جذوع النخل ، ولتعلن
أبنا أشد عذابا وأبقي .

« قالوا : لن نترك على ما جاءنا من البنات والذي فطرنا ، فاقض
ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا .. إنا آمنابر بنا ليغفر لنا خطايانا ،
وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقي » .

واستمع إلى هذا الموقف كما تصوره سورة الشعراء :

وفي هذا الموقف ينتقل المشهد من الموقف الذي كان من موسى بين يدي
الله . إلى فرعون ، دون فاصل ما ..

« فأتيا فرعون . فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا
بني إسرائيل .

« قال : ألم نريك فينا وليداً ، ولبثت فينا من صمرك سنين ، وفعلت فعلتك
التي فعلت ، وأنت من الكافرين .

« قال : فعلتها إذن وأنا من الضالين ، ففرت منكم لما خفتكم ، فوهب
لي ربي حكماً ، وجعلني من المرسلين .. وتلك نعمة تمنها على أن عبدت
بني إسرائيل .

« قال فرعون : وما رب العالمين ؟

« قال : رب السموات والأرض وما بينهما ، إن كنتم موقنين

« قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟

« قال : ربكم ورب آبائكم الأولين .

قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون .

« قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون .

« قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين .

« قال : أولو جنتك بشيء مبين ؟

« قال : فأت به .. إن كنت من الصادقين .

« فالتقى عصاه ، فإذا هي ثعبان مبین ، ونزع يده ، فإذا هي بيضاء للناظرين .

« قال للبلأ حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فإذا تأمرون ؟

« قالوا : أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين .. يأتوك بكل سحاز عليم .
« فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ، وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ؟
« لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين .. فلما جاء السحرة - قالوا لفرعون
« أن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين .

« قال : نعم ، وإنكم إذا لمن المقربين .

« قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون .

« فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون [.

« فالتقى موسى عصاه ؛ فإذا هي تلقف ما يأفكون .

« فوقع الحق ، وبطل ما كانوا يعملون .

« فالتقى السحرة ساجدين .

« قالوا : آمنا برب العالمين .. رب موسى وهرون .

« قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم .. إنه لكبيركم الذي علمكم السحر .

« فليسوف تعلمون ؛ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين .

« قالوا : لا ضير .. إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا

خطايانا أن كنا أول المؤمنين »

وجاءت صورة الموقف في سورة الأعراف هكذا :

« ثم بثنا من بعدم موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه ؛ فظلموا بها فانظر

كيف كان طاقبة المكذبين .

« وقال موسى : يا فرعون .. إني رسول من رب العالمين .. حقيق على

ألا أقول على الله إلا الحق .. قد جئتكم ببينة من ربكم ، فأرسل معي

بنى إسرائيل .

« قال : إن كنت جئت بأية فأت بها إن كنت من الصادقين ..
« فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين .
« قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم
من أرضكم بسحره فإذا تأمرون .. قالوا : أرجه وأخاه ، وأرسل في اللدائن
حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم .
« وجاء السحرة فرعون ..
« قالوا : إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين .
« قال : نعم وإنكم لمن المقربين .
« قالوا : يا موسى .. إما أن تلتقي ، وإما أن نكون نحن الملقين .
قال : ألقوا .

.. « فلما ألقوا سحوا أعين الناس ، واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم .
.. « وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ، فإذا هي تلقف ما يأفكون .
.. « فوقع الحق ، وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك ، وانقلبوا
صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين .

« قالوا : آمنا برب العالمين .. رب موسى وهرون .
« قال فرعون : آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إن هذا لمكر مكرتموه في
المدينة ، لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم
من خلاف ، ثم لأصلبنكم أجمعين .
« قالوا : إنا إلى ربنا منقلدون .. وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا
لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين .

* * *

وفي سورة يونس جاءت صورة الموقف على هذا الوجه :

« ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملائه بآياتنا ، فاستكبروا
وكانوا قوماً مجرمين .. فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا هذا سحر مبين .

ويرى بكلمة هنا وكلمة هناك .. إنه هنا المحور الذي تدور به ومن حوله الأحداث .

وطبيعي ألا يأخذ الحديث انجماها واحداً ، لتعدد الأطراف المشتركة فيه فرعون ، موسى ، وحاشية فرعون ، وشهود هذه المساجلة من الملائكة .. ونود أن نشير هنا إلى أن هذه الصور التي عرضها القرآن لهذا الموقف ليست للقاء واحد بين موسى وفرعون ، وإنما هي « لقطات » مركبة مجمعة لأكثر من لقاء ، إذ من غير الطبيعي أن ينحسم الأمر بين موسى وفرعون ، وينتهي إلى هذا التحدي الذي حددا موعده ، والذي يلتقي فيه موسى بالصحرة .. ولكن المقدر في هذه الحالة أن يتكرر لقاء موسى وفرعون ، ويتكرر الأخذ والعطاء بينهما إلى أن ييأس كل منهما من الوصول إلى وفاق مع خصمه فلا يكون بعد هذا إلا التحدي والصراع .

ومع هذا ، فإن اقتدار القرآن ، وإعجازه في تصوير مشاهد هذا الموقف في أزمنة مختلفة ، وأحوال مختلفة أيضاً قد جعل منها مشهداً واحداً ، تمسك به تلك المشاعر التي كان يعيش بها أصحابها في هذا الموقف ، دون أن يحدث الانفصال الزماني أو المكاني فيها خلخلة ، أو ازدواجاً .

ولهذا ، فإننا سنعرض هذه المشاهد على أنها صورة واحدة ، في موقف واحد ، وسرى أنها تقبل مثل هذا العرض ، وتتلاقى فيه وجوهها ، دون أن تتخالف أو تتصادم أو تتدافع .

* * *

ولقد رأينا في الموقف السابق أن فرعون قد أخذ باللباغته التي طلع بها موسى وهرون عليه ، وأنه حين أسمعاه هذا القول الذي قاله له ، في قوة وجراًة - وجم ولم ينطق .

ثم صحا من هذا الذهول ، وتنبه لحقيقة الموقف ، فأتجه إلى موسى بهذه الكلمات الساخرة الهازئة :

« ألم نربك فينا وليداً ، ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ، ؟ »

[سورة القصص]

(١٧ - القصص القرآني)

وقد قدر فرعون أن هذه الكلمات ستصيب موسى في الصميم ، وأنها ستخفض رأسه في حضرته .. إذ أنه سيذكر بهذه الكلمات طفولته وضياعه ، ووقوعه بيد فرعون ، ثم إنه سيرى صورة خفيفة لقمعته التي فعلها ، وهي قتل المصري ..!

ولكن موسى يقف لفرعون ، ويجيبه قائلاً :

« فعلتها إذن وأنا من الضالين ، ففرت منكم لما خفتكم فوهد لي ربي حكماً ، وجعلني من المرسلين .. وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ؟ »
[سورة القصص]

وهنا يلقاه فرعون سائلاً :

« من ربكما يا موسى ؟ »
[سورة طه]

وانظر إلى كيد فرعون في هذا السؤال الماكر .. إنه يطلب الجواب من موسى ، وهو يعلم ما في لسان موسى من حبسة .. وذلك ليخرجه أو يفضحه أمام الجمع .

ومجيب موسى ، وقد أطلق الله سبحانه حبسة لسان :

« ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى »
[سورة طه]

ويعالجه فرعون بسؤال آخر :

« ما بال القرون الأولى ؟ »
[سورة طه]

ويرد موسى هذا الرد المفحم :

« علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ، الذي جعل لكم الأرض مهدياً ، وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى .. كلوا وارعوا أنعامكم ، إن في ذلك لآيات لأولى النهي ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى »
[سورة طه]

وانظر أيضاً كيف عدل موسى عن الجواب ، على سؤال فرعون ، والدخول معه في هذه الجهة التي يكثر فيها اللجاج ، ولا يستطيع أحد المتخاصمين أن ينال موقفاً حاسماً : ما بال القرون الأولى أطول وان يفرق فيه من يتصدى للجواب

عليه .. ثم خلس من هذا إلى العرض الواضح المحسوس الذي لا ينكر، لقدرة الله ، وما لهذه القدرة من آثار عملاً وجوه الحياة .

وبضيق فرعون بهذا التدبير الذي أفلت به موسى من المصيدة .. فيجىء إلى موسى من طريق آخر فيسأله :

« وما رب العالمين ؟ » .. [سورة الشعراء]

ويكون جواب موسى حاضراً .

« رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . »

[سورة الشعراء]

ويتلفت فرعون حواليه .. عجباً ، دهشاً ، مستنكراً .. يقول لأهل مجلسه :

« ألا تستمعون ؟ » [سورة الشعراء]

وإلى هذه الجبهة الجديدة التي فتحتها فرعون يتجه موسى قائلاً :

« ربكم ورب آبائكم الأولين » [سورة الشعراء]

وتثير هذه الجرأة حنق فرعون .. إذ كيف يجرؤ موسى على تحطى فرعون ومخاطبة غيره في حضرته .. ثم هو يخشى من جهة أخرى أن يكون لقول موسى أثر في هؤلاء الذين وجه إليهم حديثه .. فيقول لهم :

« إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون » [سورة الشعراء]

ويرد موسى قول فرعون هذا ، ويؤكد لمستمعيه ما قال من قبل ..

فيقول : « رب المشرق والمغرب ، وما بينهما إن كنتم تعقلون . »

[سورة الشعراء]

وفي قولة موسى هذه تحريض قوى لهؤلاء الاتباع من قوم فرعون أن يستقلوا بوجودهم ، وأن يحتفظوا بمقولههم ، فلا يكون فرعون هو الذي يفكر لهم ، ويقرر مصيرهم .. « إن كنتم تعقلون » .

ويجن جنون فرعون لما يريد موسى أن يبلغه من القوم - قوم فرعون - من إغرائهم على الخروج عن طاعته ، والخلاف عليه ، فليقاه بهذا الوعيد :

« لكن أخذت لها غيرة لأجملتك من المسجونين » [سورة الشعراء]

ويلقى موسى هذا الوعيد بقوله :

« أولو جنتك بشيء مبين ؟ » [سورة الشعراء]

ويجيبه فرعون :

« فأت به إن كنت من الصادقين » [سورة الشعراء]

ويقبل موسى بما معه :

« فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين »

[سورة الشعراء]

ويحسب فرعون أن هذا من هزل موسى ، وسحر من سحره ، وأنه ليس

بين يديه آية ، تشهد له أنه رسول من عند الله ، فيقول له :

« إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين » .

[سورة الأعراف]

وليس بين يدي موسى آية غير تلك الآية التي قدمها من قبل .. فيعرضها

مرة أخرى .

« فألقى عصاه ، فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين »

[سورة الأعراف]

إنه نفس المنظر الذي عرضه موسى من قبل ، والذي ذكر في سورة

« الشعراء » .. لم تتغير لحظة من لحاته .. إنه كلمة من كلمات الله .. و« لا تبديل

لكلمات الله » .. !

وهنا يبدي فرعون رأيه في هذا العمل الذي قدمه موسى على أنه الآية

التي بين يدي دعواه ، ويكثر لفظ القوم حول هذه الآية ، وتكثر أقوالهم

فيها ، ثم يتكشف هذا اللفظ ، وتنتهي هذه الأقوال إلى قول واحد فيها ، هو

ما قاله فرعون :

« قال للملأ حوله :

« إن هذا لساحر عليم ، يريد يخرجكم من أرضكم بسحره ، فإذا تأمرون »
[سورة الشعراء ؟]

وتعمل هذه القولة عملها في حاشيته ، ويلقى بها كل واحد إلى من
بجواره ، وإذا بها تتردد على أفواه الجميع . . ويضبطها القرآن الكريم في
قوله تعالى :

« قال الملأمن قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم . . يريد أن يخرجكم
من أرضكم ، فإذا تأمرون »
[سورة الأعراف]

ويعسك فرعون مرة أخرى بزمام الموقف ، بمد أن أشاع في قومه هذا
الشعور بأن موسى ساحر عليم . . ثم يجسد هذه المشاعر في تلك الكلمات
المتحدية المهددة . . يواجه بها موسى :

« أجيئنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ »
[سورة طه]
وانظر في هذا الإعجاز الذي تنقطع دونه الأعناق !

لقد وزع القرآن هذا المشهد في معرضين ، من صور العرض لهذه القصة ،
جعل قولة فرعون في سورة ، وجعل قولة الملأ في سورة أخرى حتى لا تتراكم
الصور ، وتتراكب ، وحتى لا يقع هذا التكرار على أية صورة ، لفظية
أو معنوية .

وانظر مرة أخرى في هذه المقولة : « فإذا تأمرون ؟ » لقد جاءت على
لسان فرعون ، كما جاءت على لسان الملأ من حوله . .

إنها الكلمة التي كانت تدور على الألسنة في مثل هذا الموقف . . كل
يسأل صاحبه : (ما العمل ؟) . . ثم يجيء الجواب ممسكا بالاتجاه الغالب ،
الذي كاد يستقر عليه الرأي ، وتجتمع عليه الأكثرية . .

« قالوا : أرجه وأخاه وأبعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار
عليم »
[سورة الشعراء]

و « قالوا : أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل
ساحر عليم »
[سورة الأعراف]

وإذا كان الرأي قد غلب في إرجاء موسى وأخيه، وفي البحث عن السحرة في كل مكان، فإن الرأي كاد يتوازن بين دعوة كل ساحر أو دعوة من مهر في السحر من السحرة. فقال قريق بدعوة كل ساحر، وقال فريق آخر بدعوة كل ساحر .. ولهذا أعيد الجواب، فكان مقترناً بكلمة «ساحر» مرة، بينما اقترن بكلمة «سحار» في المرة الأخرى.

هذا مع ملاحظة ما أشرنا إليه من قبل، من تلك الفواصل الزمانية والمسكانية بين الآيتين الكريمتين، ومع ملاحظة أن كلا منهما في موقف، وإن كنا قد جمعناهما في موقف واحد.

(ح) ما كان بين موسى والسحرة:

هذا موقف كان له صدى بعيد في المجتمع المصري يومذاك، فقد وقف موسى وحده ليس معه إلا عصاه، وإلا هرون أخوه .. يتحدى فرعون بكل جبروته وسلطانه، ويلقاه بكل ما أعد له من سحرة وسحرا

وقد اجتمع الناس، وحشدوا حشداً لهذا الموقف في اليوم والمسكان الموعودين: «يوم الزينة .. وأن يحشر الناس ضحى» .. وكان موسى هو الذي اقترح هذا اليوم، وهو يوم العيد حيث يفرغ الناس له، ويخولون أنفسهم من كل عمل إلا ما كان لمرح وطهو، وليس كهذا المشهد داعياً يدعو الناس إليه، ويحملهم على أن يتخلوا عن كل عمل جاد وهازل من أجله. «الضحى» الذي كان موعد اللقاء في هذا اليوم هو الساعة التي تبلغ فيها حركة الناس ونشاطهم غايتها ..

وإذن فهو موقف مشهود مشهود، وما يتكشف عنه هذا الموقف هو بما يسفر به وجه الحق، وتجلي فيه آياته، في صراعه مع الباطل .. وهو بهذا صورة كريمة من الصور التي ينبغي أن تكون متمثلة دائماً في خاطر أصحاب الدعوات، ليسكون لهم منه عبرة وعظة تخفف بها أعباءهم، وتشتد عزائمهم في السير إلى غاياتهم.

ومن أجل هذا فقد ذكر القرآن الكريم هذا الموقف في مواضع كثيرة.

منه ، وعرضه عرضاً يكشف عن جوانبه ، ويصور أدق خفاياه ، ويلتقط ما تكن الضمائر ، وما تخفى الصدور .

وقبل أن يرفع الستار عن هذا المشهد ، يعلن القرآن عما اتخذ فرعون لهذا الموقف من أهبة ، وما بذل من جهد ، وما حشد من قوى ..
فنحن نعرف في الموقف الذي كان بين موسى وفرعون أن الرأي قد استقر بين فرعون وملائته على أن يبحث جنده وأهوانه في المدائن كلها ليجلبوا منها كل من عنده علم من السحر .

« قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليهم »

[سورة الأعراف]

« وقالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليهم »

[سورة الشعراء]

ثم انفض المجلس على هذا ، وبدأ فرعون بتنفيذ خطته .. وها هو ذا القرآن يرصد خطواته ، ويكشف المستور من أمره ..

« فتولى فرعون فجمع كيدته » [سورة طه]

ثم نراه وقد أصدر أوامره إلى من يراه صالحاً لتنفيذ هذه المهمة ..

وقال فرعون : « ائتوني بكل ساحر عليهم » [سورة يونس]

ثم نرى المحصول الذي اجتمع من هذا التدبير .. فهام أولاء السحرة قد جرى بهم من كل مكان ، وهاهي ذى أبواق الدعاية تنفخ في كل جهة ، تدعو الناس إلى أن يسكنوا من وراء السحرة ، مؤيدين ، وناصرين ..

« فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ، وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ،

لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين » ؟ [سورة الشعراء]

لقد بلغ الأمر غايته ، وأعد له كل شيء .

وها هم أولاء السحرة مجتمعون بين يدي فرعون ، قبل أن يدخلوا للمركبة ،

ليتلقوا توجيهاً ، وليستعرضوا بين يديه وجوههم ، وما يحملون من معدات

القتال ..

ونلح من آيات الكتاب الكريم أنه قد كان هناك استعراض أو استعراضات ، قبل الاستعراض الأخير الذي تم في يومه اللقاء ، والتحم الصراع ..

« فلما جاء السحرة .. قالوا لفرعون : أئمن لنا لأجر إن كنا نحن الغالبين ؟ »

[سورة الشعراء]

فهذا الاسترخاء والمط الذي توحى به كلمة « لما جاء السحرة فرعون » يوحي بأن السحرة كانوا يتوافدون عليه حالا بعد حال ، وأنه كان يلقاهم أفراداً وجماعات ، ليعرف أولاً فأولاً ماذا يجتمع له من هذه القوى .. ثم يشعرنا هذا الاستهزام المتخازل المتخافت في أقوالهم : « أئمن لنا لأجر إن كنا نحن الغالبين » أن السحرة لا يزالون مأخوذين برهبة الموقف بين يدي فرعون ، وأنهم يدخلون عليه بهذا الطلب مدخلاً متلطفاً مستأذناً .. « أئمن لنا لأجر ؟ .. إن كنا نحن الغالبين ؟ »

ويلقى فرعون هذه المنى بوعده غير منجز ، وعدم وقوت بالطرف المناسب له ، مقدور بالحالة التي يقع عليها .. « قال : نعم ، وإنكم إذا لمن المقربين ! » . وانظر إلى الصورة من جانبها .. استفهاماً ، وجواباً عنه :

« فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئمن لنا لأجر إن كنا نحن الغالبين ؟ »

« قال .. نعم ، وإنكم إذا لمن المقربين ؟ .. » [سورة الشعراء]

ثم انظر إلى الصورة وقد اكتملت ألواناً وظلالاً .

« وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجر . إن كنا نحن الغالبين ! »

« قال نعم ، وإنكم لمن المقربين » . . . [سورة الأعراف]

إنك تجد آيات بينات من إعجاز تلك المعجزة الكبرى التي حملها محمد صلوات الله وسلامه عليه بين يديه ، وعلى لسانه ، وفي قلبه ، هدى ورحمة للعالمين ..

١ — فلقد خلت الصورة الثانية من كلمة « لما » تلك الكلمة التي تشعر

بالاسترخاء والمط — كما قلنا — والتي تدل على أن السحرة كانوا يتوافدون على فرعون حالا بعد حالا ..

٢ — أخذ الفعل « جاء » مفعوله وهو « فرعون » في الصورة الثانية ،
على حين لم يذكّر له مفعول في الصورة الأولى ..
(أ) ولما جاء السحرة . ، قالوا لفرعون ..
(ب) وجاء السحرة فرعون .. قالوا ..

وهذا يقوى ما قلناه من قبل من أن الصورة الأولى كانت لقاء غير مباشر مع فرعون ، إذ كان يلقاهم أعوانه وحاشيته ، أو كان لقاء مفترقا لم يحدث له السحرة ، بينما كانت الصورة الثانية كاشفة عن اللقاء الأخير في مواجهة فرعون ، وفي تلتى وصاته الأخيرة لما أعدهم له .

٣ — في الصورة الأولى استفهام من السحرة عن الجزاء الذي يجزيهم فرعون به ، إذا هم انتصروا في هذا الموقف — أشبه بالاستجداء ، يقابله رعد مسترخ متعال ، تفوح منه رائحة التصديق من فرعون ، بينما يتحول هذا الاستجداء في اللحظة الأخيرة وقد أزفت الأزفة ، وواجه فرعون الامتحان .. تحول هذا الاستجداء إلى طلب ، واستقضاء لأجر في مقابل عمل ..
« إن لنا لأجراً .. إن كنا نحن الغالبين » ولا يملك فرعون إلا أن يضع نفسه تحت تصرف السحرة .. « نعم وإنكم لمن المقربين ! » [سورة يونس]
بعد أن كان قوله لهم : « نعم وإنكم إذن لمن المقربين » .

[سورة الشعراء]

فكلمة « إذن » هنا تحمل رنين الوعد الزائف ، أو الساحر ..
أوهاماً معاً !

* * *

وها قد عبئت القوي التي أعدها فرعون لموسى .. وها هي ذى تتحرك نحو الميدان ، حيث قد احتشد الناس منذ بكرة الصباح ، وقد باتوا ليلهم ، لهذه الساعة المرتقبة ، في حديث متصل ، وفي تقديرات وتخمينات ، وتمكيات ، روساوس وآمال !

وإذن فنحن هنا في انتظار أن يرفع الستار عن هذا المشهد المشهود !

وبلغة المسرح يمكن أن نقول . الآن أطلقت أنوار «الصالة» ، وأضئت أنوار المسرح ١٠ وها هي ذى الدقات التقليدية التي تسبق رفع الستار قد بدأت تدق !

إنها ليست دقات ، ولكنها دمدمة جيش كبير وراء الستار ، وقد دعته نفخات «البوق» إلى التأهب والاستعداد !

«فتولى فرعون ..»

«جمع كيد ..»

«ثم أتى ..»

[سورة طه]

هذه هي الإشارة الوحيدة التي ذكرت في القرآن لتصوير هذه اللحظة التي تجعلنا وجهاً لوجه أمام المعركة ! وما كانت هذه الإشارة لتتكرر مرة أخرى في أى مساق من مساقات هذه القصة .. لأنها لم تقع إلا مرة واحدة ، وعلى وجه واحد .

وعلى الذين يرون في القصص القرآني تكراراً أن يقفوا طويلاً عند هذه (اللقطة) فإن فيها دلالة كافية على أن تكرار هذا القصص هو معارض للأحداث على وجوهها المختلفة ، ومن زواياها المعتدة ! استيفاء للصورة ، وملاً للفراغات التي تدل عليها دلالات الأحوال ، والتي قد يعرف بعض الناس وجهها ، وقد يخفى على بعضهم ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل . ويرفع الستار .

وإذا السحرة وما جلبوا في جانب .. وموسى ، وعصاه ، وأخوه في جانب ؛ وحين تتلاقى الوجوه ، وينظر كل من الفريقين في وجه صاحبه ، وما يحمل من وسائل الصراع يتوجه موسى إلى السحرة بتلك الدعوة التي يقودهم بها إلى طريق الحق ، وليعذر إليهم بعد أن يلقتهم إلى هذا الضلال الذي يعملون له ، ويحيون فيه ..

« قال لهم موسى .. وبلدكم لا تقفوا على الله كذباً .. فيسحقكم بعذاب ، وقد خاب من افترى » .

[سورة طه]

ويتلقى السحرة هذا القول فيقع منهم مواقع مختلفة .. يثور له بعضهم،
ويتهدد بعض ، ويلين بعض .. وتكاد تكون بينهم فرقة !.

ثم يشار عليهم أن ينحازوا إلى ناحية من الميدان يجمعون فيها أمرهم ،
ويحكون رأيهم .. .

«فتنازعوا أمرهم بينهم ، وأسرروا النجوى .. قالوا إن هذان لساحران
يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى ، فأجمعوا
كيدهم ، ثم اتوا صفا ، وقد أفلح اليوم من استعلى » [سورة طه]
وهكذا نضع عند القوم تلك الدعوة الكريمة ، التي كان من شأنها أن
تحسم الموقف ، فلا يقع بين الفريقين هذا الصراع الذي لا بد أن ينجلي عن
هزيمة أحدهما .. وقد كان !

ويبدأ السحرة المعركة مناوشة بالكلام ..

« قالوا يا موسى إما أن تلقى ، وإما أن نكون نحن الملقين ؟ »

[سورة الأعراف]

وفي صوت خافت مضطرب يجيبهم موسى :

[سورة الأعراف]

« ألقوا ! ! »

وبضيق هذا الصوت الخافت الذي لا يكاد يسمع ، وبماود السحرة القول ،

في قوة ، ليرهبوا موسى ، وليشهدوا المشاهدين :

« يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ؟ » [سورة طه]

ويجيب موسى بصوت مسموع مخنوق :

[سورة طه]

« بل ألقوا ! »

ويأخذ السحرة بلقون ما بين أيديهم من سحر .. من حبال وعصى

تتحرك في تماوج واضطراب كأنها حيات ..

ويضطرب موسى وتأخذه حال من الخوف والدهش ، ولكنه يذكر

ما وعده الله فيمسك عليه نفسه بتلك الكلمات يرددها وكأنه يريد أن يذهل

بها عن الموقف .. فكان كلما تابعت رميات السحرة لقيها بهذه الكلمات التي

ربما لا يسمعها غيره .

« ألقوا ما أنتم ملقون . » [سورة يونس]

« ألقوا ما أنتم ملقون . . » [الشعراء]

ويهمهم موسى بهذه الكلمات مختلطة باليأس والرجاء ، فعل من توجه إليه الضربات من يد قوية ، فيقول لضاربه : اضر ، اضر ، اضر ! وما به من حاجة إلى طلب المزيد من الضرب ، ولكنه يقوى نفسه ، ويشد عزمه .
وننظر في الصورة التي صورها القرآن لأفعال السحرة وموقعها من

عيني موسى :

١ - « فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . »

[سورة الشعراء]

٢ - « فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس

في نفسه خيفة موسى » [سورة طه]

٣ - « فلما ألقوا سحرهم وأعين الناس واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم »

[سورة الأعراف]

فالمصورة هنا لم تتسلط على موسى وحده ، وإنما امتدت إلى المشاهد كله ، فالتقطت الأثر الذي تركه فعل السحرة في المشاهدين جميعاً . .

وفي هذا الكرب السكارب والبلاء العظيم يجيء صوت الحق ليبلأ قلب

موسى أمنأ وسكينة :

« وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك » [سورة الأعراف]

« قلنا لا تخف . . إنك أنت الأعلى ، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا

إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى . . » [سورة طه]

فهاتان لقضتان تصوران النداء الذي ألقى إلى موسى من السماء . . فقد

جاء النداء الأول هكذا : « أن ألق عصاك » وكأن موسى لم يجد في هذا

الأمر القدر من الطمأينة له . . فجاء الأمر الشارح الواضح :

« لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ، إنما

صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى . »

ويعتلى كيان موسى أمنأ ، وطمأينة ، ورجاء .

ويحرك موسى عصاه في يده وكأنه ينظر إليها لأول مرة ، ويتجه بها إلى القوم قائلاً :

« ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إنه لا يصلح عمل المفسدين ، وبحق الحق بكلماته ، ولو كره المجرمون » [سورة يونس] ثم يلتقى عصاه ..

« فألقى عصاه .. فإذا هي تلقف ما يأفكون » . [سورة الشعراء] وكان ذلك تصديقاً لما وعد من قبل : « وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون [الأعراف] .. » وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا .. [سورة طه]

وينجلى الموقف عن هزيمة منكرة يلقاها السحرة وسحرم .
« فوقع الحق ، وبطل ما كانوا يعملون .. فغلبوا هناك وانقلبوا صاغرين » [سورة الأعراف]

ثم يجيء لهذا الإجمال تفصيل .. وهذا التفصيل لتلك الخاتمة المسمدة أمر لا بد منه لأنه المنهل الذي ترتوي منه النفوس التي أظلمها حر الكفاح ، ودهج العراع ..

« وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون . » [سورة الأعراف]

« فألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون . » [سورة الشعراء]

« فألقى السحرة سجداً ، قالوا آمنا برب هرون وموسى . » [سورة طه] فهذا التكرار على صورة واحدة في الصورتين الأوليين إنما هو تأكيد لهذا الخبر الطيب المسمد ، . ثم إنه من جهة أخرى عرض لأكثر من جانب من جوانب الحشد الكبير ، الذي قال هذه القولة ، وأذعن بهذا الإذعان .. والصورة الثالثة ، إذ تعرض جانباً ثالثاً من جوانب هذا الحشد نجى بصوت آخر ، غير الصوت الذي تردد مدوياً عالياً بإعلان السحرة عن إيمانهم برب موسى وهرون ..

فهذا الصوت سمع معلنا من الإيمان برب هرون وموسى ، إذ أنه من غير الطبيعي أن يكون السحرة على هوى واحد لكل من موسى وهرون .. وإذا كانت الأغلبية تنظر إلى موسى نظرة القائد لهذه المعركة ، فإن بعضنا من القوم ينظر إلى هرون نفس النظرة ، إذا كان صاحب فصاحة وبيان أكثر من موسى .. أو أن هذا التقديم لهرود هنا إنما كان من الذين قدموه - إقراراً قوياً مؤكداً بالتسليم والإيمان لهرود فضلا عن موسى .. وهذا وذلك يحتمله الموقف ، وتتقبله احتمالاته التي لا يكون من بينها ما يراه بعضهم من أن هذا التقديم لهرود كان الرابطة الفاصلة التي جاءت عليها آيات السورة .. ومعاذ الله أن ينزل بيان القرآن وإعجازه على حكم النظم ، وتعديل الصياغة :

(و) ما كان من فرعون ، ووعيدة السحرة وموقفهم من هذا الوعيد :

وتقع في أذن فرعون ولعينيهِ كلمات السحرة المستسلمة ، وسجودهم الخاشع الخاضع - موقع الصواعق المزلزلة ، فتعروه رعشات الحمى ، وتأخذ حال المحمومين ، فيخبط ويتخبط ، ويهذى ويهدر .. وإذا الكلمات المحمومة المسعورة تنطلق من فمه .. على غير وعى ، وبلا حساب :

« قال آمنتم له قبل أن آذان لكم ؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، فلا قطعن أيديكم ، وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى » . [سورة طه]

« قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، فلسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين » .. [سورة الشعراء]

« قال فرعون : آمنتم به قبل إن آذن لكم ؟ إن هذا لكم مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون .. لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين » .. [سورة الأعراف]

هذه ثلاث مقولات لفرعون ، وقد كرهه الكروب ، وأحاط به البلاء ، وحلت به وبجنده تلك الهزيمة المخزية القاصحة على الملأ .

وتسيطر على فرعون في هذه اللحظة حال تستبد بكل تفكيره ، وهي خروج أحد عن طاعة ، وتحول أحد من حال إلى حال من غير إذنه .. ! إن ذلك معناه ضياع هيئته ، وسقوط سلطانه ! وماذا بقي لفرعون أو من فرعون بعد هذا ؟ آمنتم له قبل آذن لكم ؟ قبل أن آذن لكم ؟ قبل آذن لكم ؟ إنه الهول الذي يفرق فرعون في هذا الدهول فيردد هذه السكلة التي كان في مدلولها سقوط هيئته ، وضياع سلطانه في رعيته ، حين يبلغ بهم الحال أن يعملوا عملا بغير إذنه

وأن ذلك لم يكن إلا عن تدبير بيت بليل ..

فهذه هي النثيلة التي يمك بها الفريق !

« إنه لكبيركم الذي علمكم السحر . [سورة طه] » [إن هذا لمسكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها] . « [سورة الأعراف] . « إنه لكبيركم الذي علمكم السحر » . [سورة الشعراء]

وتلك خيانة عظيمة .. لها عقابها المرصود .

« فسوف تعلمون ! »

« لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل » .. [سورة طه]

« لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين » ..

[سورة الأعراف]

« لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم أجمعين)

[سورة الشعراء]

كلمات يرددها ويهذي بها هذيان المحموم .

ويحسب فرعون أن هذه الكلمات التي يهذي بها أو يهذي سننال من السحرة منالا ، فيجىء الأمر على خلاف مايتوقع .. إصرار ، وتجد عنيد ، واستخفاف بكل وعد أو وعيد !

« قالوا : لن نؤثرك على ماآءانا من البنينات ، والذي فطرنا » فاقض

ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ،
وما أكرهتنا عليه من السحر .. والله خير وأبقى . [سورة طه]

« قالوا . لاضير ، إنا إلى ربنا منقلبون ، إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا
خطايانا أن كنا أول المؤمنين » [سورة الشعراء]

« وقالوا : إنا إلى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا
لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » . [سورة الأعراف]
إنه الإيمان الذي يقوم على علم ، وينشأ عن حجة وبرهان .. إيمان يمك
بكيان الإنسان كما تمسك أصول الشجرة الطيبة بالأرض الطيبة ، لانتال منها
العواصف ، ولا تزعزعها الأماصير .

وهذه المقولات ليست على لسان واحد أو جماعة من السحرة ، وإنما هي ،
ومقولات كثيرة غيرها قد سمعت في هذا الجو العاصف ا ولكن تلك

المقولات الثلاث هي الروافد الثلاثة التي صبت فيها جميع المقولات ؟

ونظرة بعد هذا إلى هذه الصور التي عرضناها من صور التكرار في قصة
موسى ، وهى أكثر قصص القرآن دوراناً وذكراً ، وقد اخترناها عن قصد
لنواجه بها القول بالتكرار في القرآن ، وبأن هذا التكرار فضول .. أو ما يشبه
الفضول ا

فهل لهذا القول مكان بعد هذا ؟

قد يكون ، ولكن في مجال الجدل ، أو في مقام العناد ا

وليس لنا مع المجادلين موقف ، ولا لنا مع المعاندين سلطان ا

هذا ، وهناك صور كثيرة لقصة موسى مع فرعون ، ولكنها صور لم
تجىء لمرض القصة ولا للكشف عن جانب منها ، وإنما هي « لقطات »
للإلفات والذكرى .. تجىء في مواقف الإلفات والتذكير .

فن ذلك :

١ — ما جاء في سورة النمل : « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين .

وجحدوا بها واستيقنتها أنهم ظلماً وعلو ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . »

إنها قصة موسى وفرعون ، تجمع بين أطرافها جميعاً ، في هذا العرض للوجز السريع .

٢ - ومثل هذا ما جاء في سورة القصص « فلما جاءهم موسى بآياتنا قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ، وقال موسى ربني أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ومن تكون له طاقة الدار إنه لا يفلح الظالمون » .
٣ - ومثل ذلك أيضاً ما جاء في سورة النازعات .. وقد جاء عرضاً لقصة موسى كلها .

« وهل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى ، فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسمي ، فخرقنا دى ، فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذ الله نكال الآخرة والأولى .. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى » .

٤ - ومثل هذا ما جاء في سورة الذاريات :

« وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسطان مبين . فتولى بركنه ، وقال ساحر أو مجنون ، فأخذناه و جنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم » .

٥ - وكذلك ما جاء في سورة الإسراء :

« ولقد آتينا موسى تسع آيات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحورا .. قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر . وإني لأظنك بافرعون مشهورا . فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً » .

وهكذا جاءت صور كثيرة من هذا القبيل ، لا يراد بها العرض القصصى وإنما غايةها - كما قلنا - الإلفات والتذكير ، في مقام الإلفات والتذكير ، فهي ليست من القصص ، وإن كانت تضم في كيانها أحداث القصة كلها .

وأحسب أن القول بأن في القصص القرآنى تكراراً بعد هذا العرض الذى عرضناه من صور التكرار لا أكثر قصص القرآن تكراراً ، وهى قصة موسى -
(١٨ - القصص القرآنى)

أحسب أن هذا القول ضرب من الهزل أو الجهل ، ولون من ألوان الضلال أو التضليل .

وإذا كان ذلك هو الشأن في القصص القرآني ، فإنه في غير القصص أظهر وأبين .

ولا يزيد أن نعرض صوراً من التكرار في غير القصص ، فقد عرفنا الوجه الذي يقوم عليه كل تكرار يلحظ في القرآن .

ويكفي أن نقف بين يدي الآية الكريمة : « بل ادرك علمهم في الآخرة ، بل هم في شك منها ، بل هم منها عمون » .

في هذه الآية ثلاثة مفاهيم لموقف واحد . هو موقف المشركين من يوم القيامة .. فهؤلاء ليسوا على حال سواء في أمر هذا اليوم ، وليست مشاعرهم على درجة واحدة في إنكاره ، بل هم درجات كثيرة ، يكاد يكون لكل واحد من أحادهم شعوره الخاص به ، ومفهومه له ..

ولتصوير هذه المشاعر في جميع مستوياتها ، وعلى اختلاف منازلها ينبغي أن يكون لكل إنسان صورة خاصة به ، ووصف محدد له .

ولكن ذلك أمراً يضببط ، بل يقع موقع الاستحالة المطلقة .

ولو أنه ضببط لما كان له كبرقيمة في كشف الموقف العام للمشركين منه .. إذ ما أكثر الصور المتشابهة المتكررة التي لا يكاد يلمح فيما بينها فرق إلا تحت النظر « الميكروسكوبي » .

وإذن فإن العمل الذي يجدي في هذه الحال هو ضبط الناس في « مجاميع » كل مجموعة تمثل اتجاهاً معيناً ، له صفته ، وله وجهه .

وهذا هو الذي فعله القرآن هنا .

فقد قسم المشركين في نظرهم إلى يوم القيامة ، وفي شعورهم له - إلى ثلاث مجموعات ، كما يتبين ذلك في صريح الآية الكريمة : « بل ادرك علمهم في الآخرة .. بل هم في شك منها .. بل هم منها عمون » .

فالمجموعة الأولى من هؤلاء المشركين تأخذ علمها عن الساعة من مدلول

النظر العقلي المجرد ، دون التفات إلى مقررات الرسائل السطوية في هذا .
وأمر الساعة من الأمور الغيبية التي يؤمن بها على الغيب أولاً ، ثم يبحث
عنها بالعقل ثانياً ، بحثاً يهتدى بالإيمان وبما تقرره الشرائع عن هذا اليوم .
ولهذا ، فإن علم هؤلاء الذين لا يقوم علمهم من وراء الإيمان ، هو علم
مضطرب ، غير مستقر ، تتوارد عليه الخواطر المختلفة التي لاتدع له فرصة
للاستقرار على وجه من الوجوه .. فهم على علم متدارك ينسخ بعضه بعضاً .
والمجموعة الثانية .. هي التي اذهى بها هذا العلم العقلي المجرد إلى أودية
الضلال والتهيه فلم يروا إلا أوهاماً وخيالات .. فهم في شك من هذا اليوم .
والمجموعة الثالثة .. هي التي لم ترفع رأسها للبحث والنظر ، ولم تفتح
قلوبها للإيمان والتسليم .. هي هذا الصنف من الناس الذين يعيشون كما يعيش
الأنعام بلا عقل ولا قلب .. « بل هم منها عمون » !

أصحاب الفن القصصي

ورأيهم في التكرار

ونقول أصحاب « الفن القصصي في القرآن » ، وإن كنا نقصد الرسالة
الجامعية التي تحمل هذا العنوان للدكتور محمد أحمد خلف الله .. لأن الدكتور
خلف الله ليس هو صاحب هذا المذهب الذي ذهب إليه في تلك الرسالة ، وإنما هو
واحد من تلاميذ المدرسة « البيانية » التي قام بتكوينها وتوجيهها أستاذنا
أمين الخولي ، وجعل « فن القول » مسرحاً لأرائها ومذاهبها في « البيان »
العربي ..

وقبل أن أعرض لموضوع الرسالة ، أو على الأصح لما فيها من مقولات
عن التكرار في القصص القرآني - أود أن أذكر أن الأستاذ أمين الخولي
صاحب دور كبير في خلق الحس الفني عند كثير من أدياء هذا الجيل الذين
تلمذوا عليه في الجامعة وخارج الجامعة ، وبهذا الحس الفني استطاع كثير من
هؤلاء التلاميذ أن يتصلوا باللغة العربية وآدابها اتصالاً قوياً متمكناً ، وأن

يخلصوا إلى مواطن الحسن والجمال فيها ، وأن يتعرفوا على الأسرار الكامنة وراء هذا الحسن والجمال منها ..

هذه حقيقة ليس لأحد فضل في تقريرها، وإنما يقررها الواقع الذي تشهد له آثار الأستاذ « الخولي » في محاضراته ، وكتاباته ، وتوجيهاته، ثم يشهد لها أخيراً أولئك التلاميذ الذين تضمنهم مدرسة « الأمانة »^(١) وأعمالهم الأدبية التي عرضونها في صور مختلفة ، بين رسائل جامعية ، وكتب ومقالات . وهذه الرسالة التي يقدمها الدكتور خلف الله عن « الفن القصصي في القرآن » هي عمل من أعمال هؤلاء « الأمانة » ، وأثر من آثارهم الأدبية، تحمل كثيراً من آراء مدرستهم ، وأساليب دراستها للأدب وتدوقها له .

موقفنا من الرسالة :

على أن موقفنا من رسالة : « الفن القصصي في القرآن » لا يدعونا إلى أن نواجه المدرسة الأمينية ، أو مدرسة الأمانة كلها ، ونحكم على أعمالها من مضمون هذه الرسالة . . . وذلك لأن الرسالة تحمل اسم صاحبها الدكتور خلف الله . وتضاف إليه ، وهو وحده الذي يحمل تبعه ما فيها من آراء . وإذن فنحن نتحدث إلى صاحب الرسالة ، هذا الحديث الذي تناقش فيه رأيه أو آراءه في الفن القصصي في القرآن عامة ، وفي التكرار الذي جاء عليه هذا القصص - بوجه خاص .

مع الأستاذ أمين الخولي :

ولكن قبل أن نلتقي بالرسالة ينبغي أن نقف وقفة قصيرة مع أستاذنا « أمين الخولي » في هذه المقدمة التي قدمها الرسالة ، ففي هذه المقدمة خلاصة وافية للرأي الذي نريد أن نقف عنده فيها ، وفي مناقشة هذا الرأي ما ينبغي من الوقوف عند التفاصيل الكثيرة التي عرضها المؤلف في صلب الرسالة ، تطبيقاً لهذا الرأي .

(١) هي مدرسة أدبية تنسب إلى رئيسها « أمين الخولي » . . . ولها نشاطها الأدبي في مجلتها ، وى الرسائل والبحوث التي يقدمها الأعضاء المنتسبون إليها .

يقول الأستاذ الخولى فى التقديم للرسالة وفى الدطاع عن الآراء التى كانت
مثار جدل فيها ، واعتراض عليها .. يقول :

« وبهذا التفريق بين المرضين - الفنى والتاريخى - للحادثة والواقعة تبين
فى وضوح قريب أن عرض القرآن لأحداث الماضيين ، ووقائع حياتهم ،
والحديث عن تلك الأحداث والأشخاص ليس إلا العرض الفنى الأدبى -
لا العرض التاريخى التحقيقى » .

ومعنى هذا القول أن القرآن - لىكى يؤثر ، ولىكى يجداً فئدة تصفى إليه -
يصطنع هذا الأسلوب الفنى فى عرض الأحداث والوقائع التى تضمنها قصصه ،
وأن القرآن - لتحقيق هذه الغاية - لا يلتزم الحقيقة التاريخية ، ولا يقف عندها
فى تصويره للحدث أو الواقعة ، بل إن له مطلق الحرية فى عرضها بالوجه الذى
يراه ، وصبغها باللون أو الألوان التى يقتضياها الفن ، أما التزام الحقيقة ،
والموضوع لها ، فذلك حجر على الفن ، وتقييد لحرية الفنان الخالق !!

ثم يقول الأستاذ « الخولى » توضيحاً لهذا رأى : « وفى العرض الأول
- أى الفنى - قصد القرآن إلى الإخلال الواضح بمقومات العرض الثانى
التاريخى - فأغفل قصداً تحديد الزمان ، وذكرك المكان ، وتسمية الأشخاص
والتعريف المعتاد بمن قد يذكرك أسماءهم من هؤلاء الأشخاص » .

ونحن نخالف الأستاذ الخولى فى استدلاله بإغفال القرآن فى قصصه تحديد
الزمان ، وذكرك المكان وتسمية الأشخاص - على أن هذا الإغفال كان استجابة
لدواعى العرض الفنى ، وأن هذه الاستجابة أدت إلى تجاوز الحقيقة والخروج
عنها ، فى قليل أو كثير ، حسب احتياجات العمل الفنى .

نحن نخالف الأستاذ الخولى فى هذا :

فإن ذلك إن جاز فى بعض مستويات الأعمال الفنية التى لم تقارب درجة
الكمال المقذور للإنسان ، فإنه لا يجوز فى الأعمال الفنية التى تقارب هذه
الدرجة أو تنبها ، والتى بها تدرج فى سلك البقاء والخلود .. فإن العمل الفنى -
بكل معنى الفن - لا يقوم إلا على الصدق ، ولا يخلد إلا بمقدار ما فيه من حق ،
وإن عين الفنان الأصيل تنفذ إلى أعماق الأشياء وصميمها ، وتنخل لبانها ،

على حين يقف غيره من الناس عند ظواهرها وحواسمها، ويتنعمون بما اتصل
إليه أيدهم من قشورها .

ومحن لا ننكر على القرآن ، ولا على قصص القرآن أن يلبس ثوب الفن .
فما الفن إلا الجمال ، والبهاء والجلال . والقرآن هو مصدر كل جمال ، وبهاء
وجلال .

ولكن الذي ننكره هو أن يكون نسيج هذا الثوب من أبة مادة غير
الحق ، والحق الخالص المصني من كل شائبة من شوائب التخيل ، أو التمجيه ،
أو القرض .. وهل بعد جمال الحق جمال ؟ وهل بعد جلال الحق وروعته جلال
وروعة ؟

وبعض الأستاذ الخولى فى المزيد من الشرح لرأيه هذا فيقول : « وعلى
هذا الأساس يستطيع المثقف الراقى حين يتدين أن يعتقد فى تسليم مطمئن
بحديث القرآن الفنى فى قصصه ، ومع ذلك يحقق ويحلم فى عمق ووضوح تاريخ
هاتيك الأحداث ، وأشخاص أصحابها ، وينبئ فى ذلك ويثبت مطمئناً إلى أن
هذا لن يصادم بحال ما ذلكم العرض الفنى الآخر ، وأن هذا العرض الفنى
مهما يقل التاريخ فى أحداثه .. لن يمس سلامة القرآن وصدقه » !!

لا ، يا أستاذنا الخولى ، إن ذلك يمس سلامة القرآن - ويصيبه فى الصميم
منه ، وكيف ؟ وبأى إحساس يستقبل المؤمن ، أو غير المؤمن أحداث القصص
القرآنى وأشخاص أصحابها وهو يقلبها بين يديه تقاييم من لا يرى أمارات
الصدق فى وجهها ، ولا يستمع إلى الحديث الذى يأتيه منها - إلا على أنه من
وارادت الأحلام أو أضغاث الأحلام ؟ أفنتظن أن هذا الجوف الفنى الذى تقول
به ، والذى يصاحبها فى هذا العرض ، يمكن أن يستنقذها من الضياع فى
ضباب الأوهام والخيالات التى تطل من عينيها ؟

وكيف ؟ وبأى شعور يلتقى الإنسان بالقرآن وبقصص القرآن وهو يحدثه
عن أحداث تاريخية ، وشخصيات تاريخية ، ثم هو يذهب بها فى واد ،
والتاريخ المحقق أو المظنون يذهب بها فى واد آخر ؟ أليس ذلك هو الذى
يخلق الازدواج والانقسام فى شعور المسلم وفى إيمانه ، وذلك الازدواج

الذي تريد أن تجنبه إياه بهذا التسلم منه بأن القرآن لا يعنيه الحقيقة، ولا يحرص عليها في مقام العرض الفنى ؟

أما كان الأولى من هذا لكي يتجنب المؤمن هذا الانقسام والازدواج في شعوره الإيمانى - أن يقيم إيمانه أولاً على يقين ثابت بأن ما نطق به القرآن في قصصه ، وما عرضه من أحداث وأشخاص ، هو الحق كل الحق ، وهو الصدق كل الصدق ، وأنه هو المهيمن على ما يحدث به التاريخ ، وما تضمنه صحفه ، وليس التاريخ هو المهيمن على القرآن ، والمصحح لأخباره .
نعم ذلك هو الأولى ، وهو الذى يطابق الحق الذى نزل به القرآن :
« إن هذا هو القصص الحق ، وما من إله إلا الله » .. فهاتان حقيقتان درجتهما القرآن في مدرج واحد : إله واحد لا إله غيره ، وقصص حق ، لاحق وراءه .
أقعد هذا أو فوق هذا منزلة ينزل فيها القصص القرآنى من منازل الحق والصدق ؟

وقد تقول - وقد قلت فعلا - إن مقابلة القصص القرآنى وأحداثه وشخصياته بالحقائق التاريخية يكشف عن مفارقات كثيرة ، تفتح المجال لمن يريدون أن ينالوا من القرآن ، وأن يشككوا في صحته ، وفي صدق النبى وأنه تلقى القرآن من السماء .

ونقول : ليكن هذا .. فهل تحسب أن إحالتك قصص القرآن على الأعمال الفنية وتسوية حسابها عليها - أحسب ذلك بالأمر الذى يقبل هند من يلتمس المطاعن في القرآن ، ويركب إليها كل طريق ؟ وهل يمثل هذا الهروب بخلص القرآن من أيدي أعدائه والمتربصين به ؟ إن ذلك اعتراف صريح بأن القرآن أو بمعنى أدق - حقائق القرآن - لا تقوى بذاتها على مواجهة الواقع إلا فى تلك الحماية التى تلتصقها من الفن ، وتطلب فيها الدخول في رحابه ، والتخفى في ظلاله ، أو ضبابه .

ولا .. مرة ثانية ..

إن الذى يعضم القرآن ، ويحمى حقائقه من أن تنالها أيدي السفهاء والمتناولين - هو أن تظل حقائقه محتفظة هكذا بوجودها الذى تحملها

دلالات لغته ، وأن تواجه الناس والحياة كما تنطق بها القرآن ، غير منسفرة وراء الفن وخيالات الفن ، وأن تظل هكذا تتحدى الوجود كله بأنها الحق ، وما خالفها أو خرج عليها فهو الباطل ..

وستكشف الأمور - إن عاجلاً أو آجلاً - على مقولات القرآن الكريم هي الحق كل الحق ، وأن التاريخ الذي يخالفها سيقف يوماً بين يديها مستخزياً ، مستسلباً ، إن لم يكن اليوم فغداً ..

ذلك هو الذي ينبغى - على الأقل أن يكون عند الذين يؤمنون بأن هذا القرآن من عند الله ، وأنه كلام الله ، وأنه الحق ، ولا يتلبس به غير الحق . وما كان لمن يعتقد في الحقيقة التي بين يديه هذا الاعتقاد أن يساوم فيها ، وأن يخشى عليها عوادي الأحداث ، أو مهارات المهاترين .

وإذن فلا محل لقول الأستاذ الحولى : « وهكذا لا يضطر العالم المؤمن إلى أن يعال العلم وأهله : بأن للقرآن أن يقول ما يشاء ، وأن يستغل الأحداث كما يشاء ، دون أن يلزمنا ذلك بشيء .. لأننا مؤمنون بوجودنا ، ثم باحثون بعقلنا ، وفي أنفسنا هذان التياران المتخالفان ، المتجاوزان معاً . »

ولا ، مرة ثالثة : فإن العالم المؤمن ينبغى أن يعال العلم وأهله بأن للقرآن أن يقول ما يشاء ، وأن يستغل الأحداث كما يشاء ، لأنه يعتقد أن ما يقوله القرآن هو الحق المشرق الذي يسفر به وجه قائله ، وإن إيماننا بوجودنا وبحجثنا بعقولنا في الحقائق التي عرضها القرآن لا يقيم في أنفسنا هذين التيارين المتخالفين المتجاوزين معاً ، بل يقيم فينا شعوراً يقينياً راسخاً ، بأن موقع هذه الحقائق من وجداننا ومن عقولنا على سواء ، لا عوج فيه ولا اختلاف !

* * *

مع الدكتور خلف الله :

ووقتتنا التي وقفناها مع الأستاذ الحولى فيها كل ملامح الموقف الذي سنقفه مع الدكتور خلف الله - صاحب الرسالة - ولهذا كان يمكن أن تجاوز هذا الموقف إلى مباحث أخرى يحتاج إليها موضوعنا الذي نعالجه : « القصة في

القرآن ، ، ولكن أرى من حق صاحب الرسالة علينا ، بل ومن حق الأستاذ الخولى أيضاً أن نعرض وجوهاً من الآراء التي بسطها صاحب الرسالة ، تطبيقاً لهذا المذهب الذي ذهب إليه الأستاذ الخولى في مقدمة الرسالة ، والذي أبدينا فيه رأينا .. فربما يكون في هذا البسط لذلك المذهب على يد أحد تلاميذه ما يكشف منه أموراً لم نتبينها ، ولعله بذلك يصحح فهمًا خاطئاً لنا فيما فهمناه عليه .

وأود أن أنبه إلى أن وقوفنا مع الدكتور خلف الله في رسالته هذه ليس إلا للحظات طابرة ، لقاء فيها ببعض آرائه ، دون أن يتصل بنا الحديث في كل ما عرضت له الرسالة ، فذلك يقتضينا أن نقف معه عند كل صفحة من صفحاتها ، بل وعند الكثير من سطورها وكلماتها ، وهذا ما يخرج بنا عن موضوعنا الذي عرج بنا على هذه الرسالة ، ونحن في الطريق إلى غاية أخرى غير الغاية التي تتجه إليها .

وأود أن أنبه أيضاً إلى أن هذا الموقف - مهما اتسع فيه شقة الخلاف بيننا - لا يذهب بنا بأي حال إلى الجانب المقدمي ، فهو خلاف في الرأي ، واختلاف عن اجتهاد ومنه صحة من أجل العقيدة ، وفي سبيلها ، والمجتهد إن أخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران .. ومن يدري ؟ فقلنا نذهب بأجر ، ويذهب كل من الأستاذ والدكتور .. بأجرين !! .

بعض ما في الرسالة :

وقع الدكتور خلف الله تحت تأثير الدراسة الفنية للأدب العربي ، وامتلا بتلك النشوة الروحية التي كان يبعثها الأستاذ أمين الخولى في تلاميذه ، في دراسته للنصوص الأدبية ، وتقويمه لها ، وقد أغراه ذلك بأن يدخل بمشاعره تلك إلى ساحة القرآن الكريم ، وأن يتناوله تناول النصوص الأدبية ، وإن كان كلام الله هو الذروة التي لا تسامى من الفصاحة والبيان .

ووضع القرآن بهذا الموضوع ، وتناوله بهذا الأسلوب من الدراسة أمر لا اعتراض عليه ، بل هو الأمر الذي ينبغي أن يكون ، إذا أريد فهم القرآن والتعرف على مقاصده ، والوقوف على أسرار إعجازه .

فالقرآن - كما يقول الأستاذ الخولي بحق - هو كتاب العربية الأكبر ، وهو بالمكان الذي يرتاد منه المرتادون أروع صور البيان ، وأكرم معادنها ، ولكن هذه الدراسة التي يتناول بها المتناولون القرآن الكريم على هذا الوجه المطلق من كل قيد ، حين ينظرون فيها إليه في هذه الدراسة على أنه كتاب أدب وحسب - إن مثل هذه الدراسة ما كان يمكن أن يقع لديه من خير كثير ، لو أنه جعل في حسابه للقرآن أمراً آخر ، وهو أنه من عند الله ، وأنه كلمات الله ، وأن هذه الكلمات تجمع إلى الصدق المطلق ، الجمال المطلق ، وأن ما في آيات الله من جمال إنما هو جمال الصدق ، لا جمال الصنعة وتهاويل الفن .

ومع اعتراف الدكتور - خلف الله وإيمانه بأن القرآن من عند الله ، وأنه كلام الله ، فقد نحى هذه الحقيقة جانباً ، وساق القرآن سوقاً إلى ساحة « الفن » وحكم فيه بمقاييس الفن ، وأخذ به معاييرها ، كأى كلام أدبي يصدر من كاتب أو خطيب أو شاعر ! وذلك فيما قضى القرآن من قصص ، وصور من أخبار وأحداث .

وهذا التناول الذي تناول به الدكتور خلف الله القصص القرآني يندمح له بأن يقول في هذا القصص أقوالاً تنزع عنه صفة الصدق الذي له ، والذي لا ينقسم عنه أبداً . ثم تلحقه هذه الأقوال بالقصص الأسطوري ، أو الخيالي والتخييلي . . كما سنعرض لذلك بعد قليل .

نقول : استولت على الدكتور «خلف الله» تلك الدراسة الفنية للأدب العربي ، فخيّل إليه أنه يستطيع أن يدخل بها على «القصص القرآني» ، وأن يعرضه عرضاً فنياً ، يدفع عنه بها هذه الشبه التي تعيق على وجهه من هذه المفارقات والمتناقضات ، التي تطل منه ، لو أنه أخذ بمنطوق كلماته كما هي ، دون أن يحمل على محاميل الفن ، وتورد موارده - هكذا يرى !!

وهذه المفارقات والمتناقضات - في تقدير الدكتور خلف الله - تجيء في القصص القرآني من ناحيتين :

الناحية الأولى :

في القصص نفسه ، حيث تتكرر القصة ، فيقع الخلاف في تصوير القرآن لأحداثها ، حيث تذكر الواقعة في مواضع ، ثم تذكر في موضع على صورة غير صورتها الأولى . . وقد تذكر مرة نالثة على صورة غير صورتها السابقتين .

وفي هذا يقول صاحب الرسالة :

« سؤال سأله العقل الإسلامى نفسه فيما يخص هذا التكرار ، وهو أنه على فرض قدرته على الوقوف على الأسرار التي من أجلها كان التكرار . . فلماذا هذا الاختلاف ؟ لماذا اختلف إيراد القصة الواحدة في موطن ، عنه في آخر ؟ . . » (١)

ثم يعرض لهذا أمثلة من هذا القصص . . فيقول :

« لماذا اختلف وصف القرآن لموقف موسى من ربه في سورة طه عنه في غيره من السور ، مع أن هذا الموقف واحد ، والحادثة واحدة ؟ لماذا قال القرآن في سورة طه : « وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا ، إني آنست ناراً ، لعل آتيكم منها بقبس أو أجده على النار هدى ، فلما أتاهانودي ياموسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى : إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ، وما تلك بيمينك ياموسى ؟ قال هي عصاى أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى ، قال ألقها يا موسى ، فألقاها فإذا حية تسعى ، قال خذها ولا تخف سنميدها سيرتها الأولى ، وأضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ، لتريك من آياتنا الكبرى إذ ذهب إلى فرعون إنه طغى . . قال رب . . إني أخطئ . . »

ولماذا قال في سورة النمل عن نفس الحادثة والموقف : « إذ قال موسى

(١) الفن القصصى في القرآن ص ٣٢

لأهله إني آنست ناراً سأتيكم منها بجبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تعطلون ،
فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها ، وسبحان الله رب
العالمين . . . ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ، وألق عصاك ، فلما رآها تهتز
كأنها جان ، ولى مدبراً ولم يعقب ، ياموسى : لا تخف إني لا يخاف لى
المرسلون إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإنى غفور رحيم ، وأدخل يدك
فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، فى تسع آيات إلى فرعون وملأه إهم
كانوا قوماً فاسقين . . الخ . . . واذ قال فى سورة القصص غير هذين ؟ .
إن الموقف واحد ، وإن الحادثة واحدة ، ولكن الوصف مختلف ،
والحوار غير الحوار ، وحديث الرب العلى مع موسى النبى فى موطن ، غيره
فى آخر . (١)

وردنا على هذه الاعتراضات ، وبيان أسرار هذا التكرار ، وماوراءه
من إعجاز نبجده فيما قررنا من قبل فى مبحث خاص عن « التكرار فى القصص
القرآنى » . كما أننا قد عرضنا فى مبحث آخر هذه الصور الثلاث لقصة موسى
كما جاءت فى سورة : طه ، والهمل ، والقصص ، وقد انتهى بنا النظر فيها إلى أنها
ثلاث « لقطات » لواقعة واحدة من ثلاث زوايا ، يكمل بعضها بعضاً فتتجسد
الواقعة ، وتبرز وقائعها .

وعلى هذا ، فإننا لا نقف هنا عند هذه الاعتراضات .
أما الناحية الثانية التى يرى صاحب الرسالة أنها مهب اعتراضات وشغب
على القرآن ، فهى ما يقع من مفارقات عند مقابلة أحداث القصص القرآنى
وأخباره بمقولات التاريخ عن هذه الأحداث وتلك الأخبار . . . حيث تكشف
هذه المقابلة عن موقف متأزم ، يجرى فيه القرآن ، ويخشد وجه الصدق منه .
ويعلل صاحب الرسالة لهذا بأن القرآن لم يكن فى عرضه للأحداث ينظر
إليها من حيث واقعها . وإنما كان يحدث بها على الوجه الذى يعلمه من أهل
الكتاب ، سواء كان هذا العلم مما فى أيديهم من كتب ، أم مما راج عنهم
من أساطير .

وفي هذا يقول الدكتور : « والظاهرة التي يحسن بنا الالتفات إليها في هذا المقام ، هي أن القرآن حين جعل هذه الأخبار - أي التي وردت في قصصه من آيات النبوة ، وعلامات الرسالة - جملها أيضاً مطابقة لما في الكتب السابقة أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار . حتى ليخيل إلينا أن مقياس صدقها وصحتها من الوجهة التاريخية ، ومن جهة دلالتها على النبوة والرسالة أن تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار . . قال تعالى بعد ذكره لقصة يوسف : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه . وتفصيل كل شيء » ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . وقال تعالى بعد ذكره لقصة موسى وفرعون : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين » .

وهنا ينبغي أن نقف مع صاحب الرسالة عند هذا الرأي الخطير . . وهو رأي لم يكن من مبتكرات الدكتور خلف الله ، وإنما هو يتابع في هذا آراء بعض المستشرقين الذين لا يدخل في تصوراتهم أن القرآن كلام الله ، تلقاه محمد صلوات الله وسلامه عليه وحيّاً ، نزل به الروح الأمين على قلبه . .

وإنما أعدل آرائهم في القرآن أنه من عمل محمد ، وأنه جمع مادته مما كان يدور في الحياة من حوله ، من أخبار تجرى على السنة الأجرار والرهبان ، تلقى بعضها في أسفاره ، وعرف البعض الآخر من بعض والأخبار الذين كانوا يقيمون في مكة . .

وهذا ما كانت تقوله قريش في عنادها ، وإعنائها كما حكاها القرآن عنهم - « إنما ينلمه بشر » وقد رد القرآن هذا القول الساقط بقوله : « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » .

نقول : إن الدكتور خلف الله يتابع في هذا الرأي جماعة المستشرقين ، ويأخذ بوجهة نظرهم في القرآن الكريم . . من حيث أن مادته مستقاة من معارف اليهود والنصارى ، وإن يكن من كلام الله !

يقول جولدتسيهر :

« إذن ما كان يبشر به محمد خاصة بالدار الآخرة ليس إلا مجموعة مواد استقاها بصراحة من الخارج يقيناً ، وأقام عليها هذا التبشير . . . ثم يقول : أفاد سأي النبي من تاريخ العهد القديم ، وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء » (١) .

ويقول جولدتسيهر في موضع آخر :

« فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخبا من معارف وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً صميماً ، والتي رآها جديرة بأن توظف عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه » (٢) .

أليس ذلك الذي يقوله الدكتور خلف الله هو من هذا الذي يقوله جولدتسيهر؟

وبلى !

فهو يرى أن القصص القرآني إنما جاء بأخباره ووقائمه وأحداثه على سمع ما كان يدور منها في محيط أهل الكتاب ، وخاصة اليهود ، سواء كان يحصلها مما في أيديهم من كتب ، أو أحاج وأساطير . وهو يعلل لهذا ، بأن اليهود كانوا مرجع الأخبار التي تختبر بها قريش النبي فيما يلقون إليه من أسئلة يتلقونها من اليهود ، ويعرفون منهم جوابها . . . وينتظرون من النبي الجواب عليها ، ليعرفوا من ذلك مدى صدق دعواه فيما يدعيه من اتصاله بالسما . . . فكان من مقتضى الحال رطابة هذا الواقع الذي تلاقت عليه اليهود وقريش ، ومطابقة الأخبار التي يجبرهم بها النبي لهذنه

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام لجولدتسيهر ، ترجمة المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى وزميله ص ١٥

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام لجولدتسيهر . . . ترجمة المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى وزميله ص ١٢

الأخبار التي تلاقوا عليها وتداولوها فيما بينهم ، وبذلك يثبت صدق النبي ،
وتفحم قريش ، ويخرس اليهود .

أليس رطابة مقتضى الحال من مطلوبات الفن القولى ، أو الفن القصصى ؟
وإذا نحي القرآن منحي آخره ، وخرج على تلك الأخبار المتداولة عند اليهود
والتي هي عندكم « الكمين » الذي نصبوه للنبي .. أفلا يكون القرآن قد أدخل
بمقتضيات « الفن » وتخلّى عن أصوله ؟ ثم تكون النتيجة الحتمية لهذا ، هو
أن يحرم القرآن الثمرة المرجوة من وراء التأثير « الفنى » فيلقاه اليهود كما
تلقاه قريش بالبهت والتكذيب ؟

ذلك هو حساب الدكتور خلف الله ، وتقديره في إلزام القرآن أن يكون
مطابقاً في قصصه وأخباره لما عند أهل الكتاب من أخبار وأساطير !!
ومن أجل هذا كله رأى « الدكتور » هذا الرأي الذى جعل فيه ملادة
القصص القرآنى تتخلّى عن صدق الواقع ، وتنزل على ما عند اليهود من أبناء
وأخبار وأساطير !

وليس ذلك عن إنكار لقدرة الله وعلمه ، فالدكتور مومن باقه ، وبكل
ماله - سبحانه - من صفات الكمال ، ومن بينها « العلم » المحيط بكل شىء ..
ولكنه يرى أن ذلك من مقتضيات الفن التى ينبغى أن ينزل القرآن على حكمه
وإلا كان له أن يتحلّى عن فصاحته ، وبلاغته وإعجازه !
وما لنا نتحدث عن لسان « الدكتور » ولاندعه هو يحددنا بلسانه ؟
يقول « الدكتور » :

« وهكذا نستطيع أن نمضى في حصر الظواهر التى تثبت لنا مذهب القرآن
القصصى ، والتى تدل دلالة قوية على أن بعض ظواهر الحرية الأدبية التى يمنحها
الأدباء لأنفسهم توجد في القرآن الكريم ، وأن القرآن قصد إليها قصداً .
ومعذرة إذا قطعنا على الدكتور حديثه بمد هذه الكلمات القليلة - إذ لابد
من الإشارة إلى ما يقصد إليه الدكتور من قوله : « إن بعض ظواهر الحرية
الأدبية التى يمنحها الأدباء لأنفسهم توجد في القرآن ، وأن القرآن قصد إليها

قصداً .. فإن من معطيات الحرية التي يمنحها الأدباء لأنفسهم في العمل الأدبي .. التخيل ، والتمويه والكذب . ولهذا قيل : أعذب الشعراً كذبه ! والقرآن — في رأى الدكتور — قد أخذ قسطه من هذه الحرية ، فليأخذ نصيبه كاملاً . من التخيل والتمويه ، والتلفيق ، والكذب ! ثم يقول الدكتور :

« ولسكننا نريد أن نقف من كل ذلك عند قصتين اثنتين ، كانتا موطن اختبار النبي لمعرفة صدقه من كذبه ، أو لمعرفة : هل هو نبى أو متنبى ؟ وهما : قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين .. فإن هاتين القصتين تقدمان لنا الدليل القوي على المذهب القرآنى فى العلاقة بين القصة والتاريخ . وفى قصة أصحاب الكهف يقول الدكتور :

« أما قصة أصحاب الكهف ، فنقف منها فى هذا الموطن عند مسألتين : الأولى مسألة عدد الفتية ، والثانية مدة لبثهم فى الكهف . « أما من حيث العدد ، فليس يخفى أن القرآن لم يذكر عددهم فى دقة ، وإنما ردد الأمرين ثلاثة واربعم كلبهم ، وخمسة وسادسهم كلبهم ، وسبعة وثامنهم كلبهم .

وليس يخفى أن القرآن الكريم قد ختم هذه الآية بتلك النصيحة التى يتوجه بها إلى النبي عليه السلام ، وهى قوله تعالى : « قل ربى أعلم بمعتهم ما يعلمهم إلا قليل ، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ، ولا تستفت منهم أحداً .. الآية .. » .

ثم يسأل الدكتور :

ما معنى هذا التردد فى العدد ؟ وما معنى هذه النصائح ؟ .

ثم هو يجيب :

« لا نستطيع أن نقول : إن المولى سبحانه وتعالى كان يجهل عدد الفتية من أهل الكهف ، وأنه من أجل هذا لم يقطع فى عددهم برأى ، فالمولى سبحانه لا يخفى عليه خافية ، فى الأرض ولا فى السماء ، وإنه ليعلم السر وأخفى ، وإنما

نستطيع أن نقول: إن هذا لم يكن إلا الحكمة ، والحكمة فيما تمتد (ككذا) هي أن المطلوب من النبي عليه السلام أن يثبت أن الوحي ينزل من السماء ، وأن يثبت ذلك ، لا بالعدد الحقيقي للفتية من أصحاب الكهف - فذلك لم يكن موطن الإجابة ، وإنما بالعدد الذي ذكره اليهود : من أهل المدينة ، للمشركين ، من أهل مكة ، حيث ذهب وفدهم ليسأل عن أمر محمد أبي هوأم متنبئ .. وإذ كان أحبار اليهود قد اختلفوا في أمر العدد ، وذكروا كل منهم عدداً معيناً ، كان على القرآن أن ينزل بهذه الأقوال ، حتى يسكون التصديق من المشركين بأن محمداً عليه السلام نبي ، ولو ذكر القرآن العدد الحقيقي وأمرض عن أقوال اليهود لكان التكذيب القائم على أن محمداً لم يعرف الحقيقة ، وليس وراء هذا إلا أن الوحي لا ينزل من السماء

ثم يقول :

« ومثل هذا تماماً موقف القرآن من عدد السنين ، فلم يذكر القرآن العدد الحقيقي ، وإنما اكتفى المولى سبحانه وتعالى بما يعرفه اليهود ، ومن هنا نصح للنبي عليه السلام بأن يقول « قل : الله أعلم بما لبثوا ، به غيب السموات والأرض » .

« ولسنا بحاجة إلى أن نقول هنا أيضاً بأن العلي القدير لم يمرض عن عدد السنين الحقيقي إلا للحكمة ، وأن هذه الحكمة هي أن يكون ما يذكر في القرآن مطابقاً لما قال اليهود للمشركين : وهذا هو الرأي الذي أشار إليه بعض الأقدمين من المفسرين .. جاء في الطبري « .. فقال بعضهم ذلك خبر من الله تعالى ذكره - عن أهل الكتاب أنهم يقولون ذلك كذلك ، واستشهد على ذلك بقوله : « قل الله أعلم بما لبثوا » ، وقالوا لو كان ذلك خبراً من الله عن قدر لبثهم في الكهف لم يكن لقوله : « قل الله أعلم بما لبثوا » - وجه مفهوم ، وقد علم الله مبلغ لبثهم فيه وقدره » .

وينهى الدكتور هذا بقوله :

« موقف القرآن من قصة أصحاب أهل الكهف موقف من لا يحكى الحقيقة (١٩ - القصص القرآن)

التاريخية ، وإنما يحكى أقوال اليهود ، التي قد تطابق الحقيقة وقد لا تطابقها ، ومن هنا لا يصح أن يتوجه أى اعتراض على هذه القصة من حيث اختلافها مع الواقع ، لأن تحقيق هذا الواقع ليس المقصود من القصة فى القرآن الكريم . وهذا رأى - فيما زرى - يصيب القرآن فى صميمه ، من حيث يراد به أن يكون سباجاً يحميه من تقولات المنتقلين ، وشغب المشاغبين .

وإنى لأستسمح الدكتور العفرو والمعذرة إذا أنا ذكرت قصة الهدية التي أرادت أن تحمى صاحبها من ذبابة سقطت على وجهه ، فرمته بحجر .. فقتلتها معا .. ومعذرة .. مرة أخرى .. فما أجد لهذا الحال شاهداً أصدق وأوضح من هذا الشاهد !

فأولاً : إذا سلمنا بأن القرآن قد جاء فى قصصه بما يطابق ما عند اليهود من معارف ، وذلك ليثبت لهم ، ولمن تلقى عنهم من مشركى مكة - صدق محمد ، وأنه نبي ، وأنه لو جاءهم بالواقع الذى يخالف ما عندهم لما سلموا له - نقول لو سلمنا بهذا القول فى القرآن لكان معنى ذلك أن القرآن ليس كتاباً خالداً مع هذه الرسالة الخالدة التي جاء بها ، وأنه إنما جاء ليميش فى هذه البيئة المحدودة ، زمن محدود ، ولهذا جاء على وفق تفكيرها ، وما يقع فى هذا التفكير من حق أو باطل .

وأحسب أن الدكتور قدر أن القرآن بهذا التدبير قد أفهم معاصرى فترة زوله ، وأنه بهذا كسب الجولة الأولى عليهم ، وأنه فى سبيل هذا هان عليه أن يتخلى عن الحق ، وأن يجارى المبطلين بالباطل ، وأن يلقي جهلهم بجهل الحق ولم يسأل الدكتور نفسه : كم يحسر القرآن فى سبيل هذا الكسب الوفقى على فرض أن هناك كسباً ؟ وهل يجوز فى شرعة الحق أن يبيعه أصحابه بهذا الثمن البخس ، وأن يبزلوا فيه على حكم الباطل ويسوموه سومه ؟

ثم ألم يقع خاطر الدكتور هذا السؤال : ماذا يكون موقف القرآن فى الأزمنة التالية ، وفى الأجيال المقبلة ، حيث يعنى الزمن على هذه المبطلات والخرافات التي صورها القرآن على هذا المستوى المزعوم ، يجاريها تلك المعارف

التي كانت تدور في أدمغة فاسدة ، لحفنة من الناس ، في حيز ضيق محدود من الزمان والمكان - ماذا يكون موقف القرآن في هذا العصر الحاضر مثلاً ؟ وبأى وجه يلقي معارف الحياة ، وحقائق التاريخ ، وكشوف العلم ؟ أهبذا الزور ، وذلك الباطل ، وهذه الخرافات كان يمكن أن يعيش القرآن في أجيال الناس ، محتفظاً بسطوته وجلاله وعظمته ؟

إن الدكتور - كما قلنا - لم يمد بصره إلى أكثر من تلك اللحظات العابرة ، التي كان يواجه فيها القرآن - في تلك الأيام الأولى للدعوة - تحديات المشركين من أهل مكة ، وكيد الماكرين ، من يهود المدينة .. جعل القرآن يمثل هذا الدور الهزلي معهم ، ليكسب هذا الكسب الرخيص ! وأى كسب ؟ أن القرآن لم يحقق حتى هذا الكسب الرخيص ، على الرغم مما اصطنع له من أساليب الخداع والتمويه - على حسب ما يذهب إليه الدكتور - إذ أن الدكتور نفسه يقول :

« واعتماد القرآن على هذا الرأي الديني اليهودي ، أو على هذا المقياس خلف في الجو في عصر النبوة وماتلاه رأيين مختلفين :

« الرأي الأول .. رأى المشركين والكفار من أهل مكة ، فإن هؤلاء على معرفتهم لهذا المقياس عن طريق وفدهم إلى أحبار اليهود بالمدينة لم يستطيعوا التسليم بما ترتب عليه من نتائج ، فلم يؤمنوا بصدق النبي عليه السلام أو بصحة رسالته اعتماداً على هذه الأخبار الواردة بالقصص القرآني .. وليس ذلك إلى أن هذه الأخبار لا تتفق ومعارفهم التاريخية ، فيظهر أنها كانت تتفق وما يعرفون ، وإنما يرجع ذلك كما هو واضح من آيات القرآن الكريم إلى أن المشركين كانوا يعتقدون أن الوقوف على أمثال هذا القصص القرآني ليس شاقاً ولا عسيراً ، فضلاً عن أن يكون مستحيلاً ، ومن هنا ذهبوا إلى أن محمداً عليه السلام يكتب هذه الأخبار ، وأنها ليست من الوحي ، وأن الذي يعلمه بشر .. » (١)

فيم إذن كان هذا الدور الذي قام القرآن بتمثيله ؟ ، ولأية غاية تخلى القرآن عن الحق الذي هو قائم عليه ، ونزل على حكم الباطل ، وجرى معه في ميدانه ؟ إنه لم يفعل شيئاً عند قريش وعند اليهود على السواء .. فكلاهما على ما كان عليه من التكذيب والإنكار .

لم يبق بعد هذا من داعية تدعو إلى هذا الأسلوب الذي اصطنعه القرآن في بناء قصصه على هذه الأسس الواهية ، إلا أن يكون ذلك من أجل الفن وحبكته .. ذلك الفن الرخيص الذي لا يروج إلا إذا طلى بالكذب والزور ، وموه بالخداع والخيال !

وثانياً : يملل الدكتور عدول القرآن عن تحديد عدد أصحاب الكهف ، والوقوف به عند الأقوال المرددة فيهم عند اليهود بأن ذلك يثبت لليهود ، وللمشركين من أهل مكة أنه يعلم عن أصحاب الكهف ما يعلمون ، وبهذا يثبت أنه من عند الله .

والقرآن لم يذكر في أصحاب الكف قولاً له ، وإنما ذكر ما يتردد على أفواه الناس من أقوال .. في عددهم ، فهو ينقل هذه الأقوال بما فيها من صدق أو كذب ، دون أن يكون عليه شيء منها ، وهو في هذا لا يريد موافقة اليهود أو غيرهم ، في أمر هذا العدد ، ولو أراد ذلك لوقف به عند قول من هذه الأقوال المرددة التي حكاهما ، وكان في عمله هذا قد ضرب اليهود بعضهم ببعض — إذا كان بينهم خلاف في العدد — كما يقول بذلك صاحب الرسالة ، ولا أدري من أين جاء بهذا الخبر — وكان عمل القرآن هذا داعية إلى أن يكسب إلى جانبه الفئة التي تقول بقوله ، وبهذا يوقع بينهم شقاقاً ، يتسع مع الأيام ..

هذا تعليل لا يستقيم على منطلق أبداً .

وأما التعليل الذي يمكن أن يفهم عليه إغفال القرآن لذكر العدد الحقيقي لأصحاب الكهف والقطع به ، فهو ما جرى عليه أسلوب القرآن في كل موقفه يتلقى فيه بأصحاب المراء والجدل ، الذين يريدون أن يسوقوه إلى المباحثات

والمهارات الجدلية ، التي لا تنتج إلا اضطراباً وבלبلة .. والقرآن يعرف طريقه إلى غاياته التي يريد ، فهو لا يقف عند هذه المواقف ، ولا يلتقاها بما يقدره أصحابها من صرفه عن غاياته ، وشغله بهذا اللغو من الكلام .

ففي كل مرة كان يسأل فيها القرآن سؤالاً متعنتاً ، لا يراد به كشف حقيقة أو حل مشكلة — كان يدع السائلين لما هم فيه ، ويصرف وجهه عنهم ، ليثقي الحياة كلها بالجواب الذي فيه نفع للناس ، وهدى للعالمين .
سأل الجدليون الممارون النبي صلى الله عليه وسلم : ما بال الهلال يبدو صغيراً ، ثم يكبر ، ثم يعود صغيراً ؟

وماذا يريدون بهذا السؤال ؟ وماذا يعود عليهم منه ؟

أقول : معارف يكتسبونها ، وعلماً يحصلونه ؟

أفتريد من النبي إذن أن يترك مهمته التي يقوم عليها ، ويتحول إلى معلم فلك ؟ وهب أنه فعل .. ما وسيلته أو وسائله إلى شرح هذه الحقيقة وعرضها ؟ إنها قضية لو أراد أن يفتح لها طريقاً إلى تلك العقول يومذاك لكان ذلك صملاً يقتضيه أن يصرف فيه كل حياته التي قضاها في النبوة ، دون أن يصل بها إلى مواطن الإقناع والتسليم من هؤلاء المعاندين الجاهلين .

وإذن تخير هؤلاء السائلين ، وللناس جميعاً أن يلهوا عن الجواب المنتظر لهذا السؤال ، وأن يفتنعوا آذانهم وعقولهم وقلوبهم لهذا الجواب غير المنتظر الذي جاء به القرآن ، وكأ أنه الجواب الذي كان ينتظر سؤالاً غفل عنه أولئك الضالون ، الذين لا يريدون هدى ، ولا يطلبون خيراً .. وفي هذا يقول الحق سبحانه ، عن سؤالهم أو أسئلتهم في شأن الأهله : « يسألونك عن الأهله .. قل هي مواقيت للناس والحج .. وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها » .

إنه منهج ربوبي سماوي ، ينبغي أن يستقيم عليه الناس أفراداً وجماعات ، قادة ومقودين ، حكماً ومحكومين ، وهو البحث عن اللباب دون التمسك بالقشور ، والنظر إلى المقاصد دون الوقوف عند الأشكال والرسوم .

كذلك كان الشأن في السؤال عن أصحاب الكهف وعدتهم
إن وراء قصتهم معاني إنسانية كريمة ، هي التي ينبغي أن تكون مثلاً
ينتفع به في الحياة ، وقدوة صالحة يقتدى بها أصحاب المبادئ الرشيدة ،
والسنن القويمة . .

وفي هذا يقول الحق سبحانه : نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية
آمَنوا برَبِّهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا ، فقالوا ربنا رب
السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذا شططاً ، هؤلاء
قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فن أظلم ممن
افتترى على الله كذباً ، وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف
ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً ، وترى الشمس
إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين . . وإذا غربت تقرضهم ذات
الشمال وهم في فجوة منه ، ذلك من آيات الله من يهدي الله فهو المهتدي ،
ومن يضل فلن نجد له ولياً مرشداً . وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ،
ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكلبهم باسط ذراعيه بالصيد ، لو اطلعت
عليهم لوليت منهم فراراً ، ولملت منهم رقباً ، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم :
قال قائل منهم : كم لبثتم ، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما
لبثتم ، فابتهوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ، فلينظر أيها أزكى طعاماً ،
فليأتكم بزرق منه وليتاطف ، ولا يشعرن بكم أحداً ، إنهم إن يظروا عليكم
يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ، ولن تفلحوا إذا أبداً ، وكذلك أعتزنا عليهم ،
ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، إذ يتنازعون بينهم
أمريهم ، فقالوا : ابنوا عليهم بنياناً ، ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم
لنتخذن عليهم مسجداً (١)

هذا هو مضمون القصة ، وتلك هي الأحداث التي ينبغي أن يوقف
عندها ، وأن يلتبس منها الخير والهدى . . أما ما وراء ذلك مما يدور حولها

من لفظ وجدل ، فذلك مما لا يقف عنده القرآن إلا ليحذر منه ، وليسفه أهله ، ومن يقف عنده .

وماذا يعود على من يقف عند هذه القصة ، إذا هو علم على وجه التحديد ، عدة هؤلاء الفتية ، وعدد السنين التي لبثوها في كهفهم ؟ .

إن كثرة العدد أو قلته ، سواء في عدة الأشخاص أو السنين لا يقدم ولا يؤخر ، قليلاً أو كثيراً ، في مضمون القصة ومحتواها ، أو في الأثر النفسي الذي تحدثه ، والمعطيات التي تسوقها ، في مواقع العبرة والعظة .

وليس كذلك شأن القرآن في الأسئلة التي ترد عليه طالبة الرأي ، ملتزمة النصح . فإنه إذاك يلقي مثل هذه الأسئلة بالقبول ، ويجيب عليها بما يشفي الصدور . .

فمن ذلك قوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر . . قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما » . وقوله سبحانه : « يسألونك عن المحيض . . قل هو أذى فاعزلوا النساء في المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله » . وقوله جل وعلا : « ويسألونك عن اليتامى ، قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم » . . وهكذا يلقي السائلون جواباً شافياً كافياً . . فيه علم ، ونفع ، وهدى . . لمن نظر ، واعتبر .

ثالثاً : قول صاحب الرسالة : « موقف القرآن من قصة أصحاب الكهف موقف من لا يحكى الحقيقة التاريخية ، وإنما يحكى أقوال اليهود ، التي قد تطابق الحقيقة وقد لا تطابقها .

هذا القول يحمل شحنة كبيرة من الأخطاء والمتناقضات :

١ - فالقرآن في دعوته إلى الحق ، وقيامه على هذه الدعوة ، لم يكن يحفل - في كثير أو قليل - بما في صدور الناس أو عقولهم من ضلالات وأباطيل . . بل إنه كان دائماً من أول يوم لدعوته ، ومن أول كلمة نطق بها ، معلناً بالحق ، واقفاً عنده ، لا يتزحزح عنه أبداً ، ولقد لقي الرسول والمؤمنون في سبيل

هذا الموقف ، أفسى ما تعرف الحياة ، من ضروب الإغاثات والأذى . ولو أن هذا التدبير - الذى يقول به الدكتور - كان منظوراً إليه فى الرسالة الإسلامية لكان ذلك مدخلاً فسيحاً يدخل به الرسول إلى قومه فى تدسس ، ومخادعة ، إلى أن يوقعهم فى شباكها . . . وحاشا للحق أن يتستر وراء الباطل ، وأن يجعله من سلعه التى يتجر بها . . . إنه تجارة المفلسين ، وعمل المضللين ، وطعام الآثمين .

ولقد كان القرآن المكي إلى جانب دعوته الحكيمه الرقيقة ، بهدر هديرأ مزللاً ، يتوعد المعاندين والمكابرين ، ويسوقهم سوقاً عنيفاً مع آلهتهم إلى موارد العذاب الأليم ، فيقول سبحانه مخاطباً المشركين من قريش : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ، وكل فيها خالدون ، لهم فيها زفير ، وهم فيها لا يسمعون ^(١) . . . »

ويقول سبحانه مخاطباً النبي الكريم : « وأنذر عشيرتک الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عضوك فقل إني برىء مما تعملون » .

ويقول سبحانه فى مشركى مكة : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن بصدكم مما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ، وما آتيناكم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ، وكذب الذين من قبلهم ، وما بلغوا معشار ما آتيناكم ، فكذبوا رسلى ، فكيف كان عكبر . . . قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا . . . ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شىء شهيد ، قل إن ربى يقذف بالحق ، علام الغيوب ، قل جاء الحق ، وما يبدىء الباطل وما يعيد ، قل إن ضللت فأنا أضل على نفسى ، وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربى إنه مميح قريب ، ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ، وأخذوا من مكان قريب ^(٢) . . . »

ويقول تبارك اسمه : « ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً . . ثم بطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً . . إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبق ولا تذر^(١) »

وهكذا ، كان القرآن المكي ينزل على رؤوس المكابرين المसानدين بالصواعق التي تدمر عليهم معتقداتهم الفاسدة ، وتسفه أحلامهم وأصنامهم ، دون أن يرده عن ذلك ما يصبحون ويمسون فيه . . من تهديد ووعيد .

ومن أجل هذا البعد البعيد بين ما يدعو إليه النبي من هدى وما عليه المشركون من ضلال . . من أجل هذا كان الصراع بين النبي والمشركين ، ثم كانت الحروب المنصلة ، التي انتهت بنصر الله للنبي والمؤمنين . .

ولا ندرى ماذا يقول الدكتور في هذا الصراع الذي كان بين النبي والمشركين إذا كان ما يحدتهم به هو عين ما عندهم من معتقدات وأخبار ؟ ولا ندرى كيف يتصور الدكتور رسالة الرسول ، وكيف يكون لها أثر في الناس إذا لم يكن فيها جديد يخالف كل ما عند القوم من معتقدات وتصورات ؟

وكذلك كان الحال حين التقى القرآن باليهود في المدينة وجهاً لوجه . . دعاهم دعوة الإسلام : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون^(٢) » . . ثم لما لم يستجيبوا إلى هذه الدعوة الكريمة العادلة كشف عن تلبساتهم ، وفضح سوء معتقدتهم « وقالت اليهود يد الله مغلولة . . غلت أيديهم ، ولعنوا بما قالوا بل يداه

مبسوطتان ينفق كيف يشاء^(١) . . . » وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى للمسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاھئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله . . . أفي يوفكون . . . اتخذوا أبحارهم وربائبهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون »^(٢) . . . لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ، ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون^(٣) .

ونود أن يسأل الدكتور نفسه : إذا كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يتحدث اليهود والنصارى بما يعلونه هم من أمر دينهم ، فكيف ينسكروا على اليهود قولهم « عزيز » ابن الله ؟ ثم كيف ينسكروا على النصارى قولهم إن المسيح ابن الله ! . . . ثم كيف لا يقبل من اليهود والنصارى قولهم : نحن أبناء الله وأحبائه ؟ وكيف يرد عليهم هذا الادعاء بقول الله تعالى : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحبائه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق »^(٤) .

هذا بعض صنيع القرآن في مواقف الحق مع اليهود . . . إنه يرمى في وجوههم بكل فاضحة مخزية . . . فكيف يلقاهم بالباطل في مجال الأخبار والأحداث التي نظم منها قصصه الذي جعله عبرة وعظة خالدة على الدهر ؟ أذلك من أجل تحقيق ما يسميه صاحب الرسالة : « الفن القصصى » ؟ ألا شاء وجه الفن ، وساء ما يجيء منه . . . إن كان الزور لمجته والباطل سدها !
أما القول بأن موقف القرآن من أصحاب الكهف هو موقف من لا يحكى الحقيقة التاريخية ، وإنما يحكى أقوال اليهود التي قد تطابق الحقيقة ، وقد

(٢) التوبة ٣٠ - ٣١

(٤) المائدة ١٨

(١) المائدة ٦٤

(٣) المائدة ٧٨

لا تطابقها - فهو قول قائم على تلك النظرة التي ينظر بها صاحب الرسالة إلى القصص القرآني كله ، وبأنه على صمت القصص الأدبي . . من حيث أنه يمنح نفسه تلك الحرية التي يمنحها الأدباء لأنفسهم في الخلق الفني لقصصهم ، إذ يسترضون إحساساتهم الفنية ، على حساب الحقيقة القائمة بين أيديهم ، حين يلجئهم إلى ذلك قصورهم البشري عن تناول الحقيقة التناول الفني ، الذي يثير ويمعجبا .

ولاشك أن هذا الفهم ينسحب - من غير قصد - على قدرة الله سبحانه ، فينزل بها إلى مستوى القدرة الإنسانية التي تخضع لحكم الضرورة ، وتنزل على دواعيها ، دون أن يكون لها ذلك السلطان الذي يقدرها على تطويع الأشياء لها ، وانقيادها ليديها . .

وندع هذا . . وننظر في قصة أصحاب الكهف من حيث قيامها على الواقع وتصويرها الحقيقية ، أو تخليها عنهما ، وإخلالها بهما ، فنجد أن القصة قد أمسكت بالحقيقة من صميمها ، وعرضتها العرض الذي يكشف عن أضواء وجوهها - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - وأن عدم التفات القرآن إلى تحديد عدة أصحاب الكهف ، وإلى عدد السنين التي لبثوها في كهفهم ، إنما كان درسا طالبا في الدعوة إلى الجد في الحياة ، وتحصيل ما ينفع ، دون الوقوف عند قشور الأمور وسفاسفها .

ولا أستطيع أن أزايل هذا الموقف دون أن أشير إلى بعض الشواهد التي يقدمها صاحب الرسالة بين يدي دعواه التي يدعيها على أن القرآن يعدل عن الحقيقة والواقع ليتطابق مع ما عند من يخاطبهم من آراء ومعتقدات . . فبعض هذه الشواهد صريح كل الصراحة ، واضح غاية الوضوح في أن القرآن يمسك بالحقيقة من طرفيها ، التي تتلاقى مع الواقع من جهة ، ومع ما يعتقده المخاطبون من جهة أخرى . . وبهذا لا يكون لأمثال هذه الشواهد ما يقف إلى جانب صاحب الرسالة ، حتى على تلك المفاهيم ، التي يريد أن يقيم الأسلوب القرآني عليها . .

استمع ، واحكم . .

يقول صاحب الرسالة : « القرآن يجرى كما ترى في فنه البياني على أساس ما كانت تمتد وتخيّل ، لا على ما هو الحقيقة العقلية ، ولا على ما هو الواقع العملي . ولعله أن يكون من ذلك حديث القرآن عن المنافقين ، في قوله تعالى : « إذا جاءك المنافقون ، قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » .

ويقول « الدكتور » في شرح هذه الآية ، وفي استدعائه شاهده منها : يقول : فإننا نراه - أي القرآن - يقيم تكذيب المنافقين على أساس ما يعتقدون ، لا على أساس ما هو الحق والواقع ، فلقد كان المنافقون يعتقدون أن محمداً غير مرسل من ربه ، وكان الحق والواقع أنه رسول . . وقيل - أي قول - المنافقين له إنك رسول الله يتفق مع الحق ، ويختلف وما يعتقدون . . ومن هذا رمام القرآن بالكذب - وحذر النبي عليه السلام منهم ١١ « (١) ماذا يريد الدكتور أن يقول ؟ بل ماذا كان يريد من القرآن أن يقول في هذا الموقف ، كي يتطابق الحق والواقع ؟ أترأه كان يسلم بقول المنافقين ، ويدع قولهم لرسول الله : إنك لرسول الله ولا يفضح هذه الكلمة المكذوبة المنافقة ، وكيف يستقيم بعد هذا وصفهم بالمنافقين ؟ أم ترأه كان يريد أن يقول القرآن مؤيداً تلك القولة المكذوبة المفضحة المنافقة « والله يشهد إن المنافقين لصادقون ؟ » . وكيف يجتمع الصدق والنفاق ؟ وهل عرف الناس أو عرفت اللغة اجتماع النفاق والصدق ؟

إن كلمة « المنافقين » التي صدرت بها الآية تجعل كل قول يأتي من جبهتها ذا وجهين : ظاهر على خلاف الباطن ، وباطن مخالف للظاهر . . وبغير هذا لا تتشكل للنفاق صورة ، ولا يقوم له وجود . وعلى هذا ، فإنه من غير الممكن أن يكشف القرآن عن وجه المنافقين ، وأن

يفضحهم على اللأ إلا إذا عرض ظاهرهم وباطنهم جميعاً ، وإلا إذا أجرى أحكامه معهم على ظاهرهم وباطنهم معاً . . فأعطى كلا ما ينبغي له . . فظاهرهم الذى عرضه متطابق مع الحق ، جار معه ، وباطنهم الذى استبطنوه ، منطو على الباطل ممسك به . . ولهذا ضرب القرآن صفحاً عن قلوبهم ، وإن كان مع الحق ، لأنه لا يقوم على معتقد ، ولا يستند إلى أصل . . فقال : « والله يشهد إنك لرسوله » فهذه هى الشهادة التى يعتد بها ، لأنها شهادة الحق للحق ، أما شهادتهم تلك ، فهى زور وكذب وبهتان ، وإن لبست ثوب الحق . . تقية ومداراة !!

فهذه هى صورة النفاق ، وذلك هو وجه المنافقين : « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ^(١) » . . فإذا قال المنافقون لرسول الله : « نشهد إنك لرسول الله » فهذا قول قالوه فعلاً ولكن بألسنتهم ، أما ما فى قلوبهم فقد فضحهم الله تعالى به إذ يقول : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » - أى لكاذبون فيما قالوه بألسنتهم ، ولم تعتقده قلوبهم . . إن قلوبهم منطوية على التكذيب للنبي ، ولهذا كان قلوبهم هذا لغواً لا محصل له . . إنه حق أريد به باطل . . روى أن منافقاً مدح علياً كرم الله وجهه ، فقال له الإمام على : « أنا دون ما قلت ، وفوق ما تعتقد ! » فالمسألة إذن ليست تحقيق الصورة الفنية - كما يقول الدكتور - ولكنها تقرير حقيقة لا سبيل إلى تحقيقها إلا بإظهار هذا التناقض الذى يعيش فيه المنافق بين ما ينطق به لسانه وما يعتقده فى قلبه . .

وزيد أن يسأل الدكتور نفسه مرة أخرى : ماذا يكون موقفه ولو بين وبين نفسه - مع إنسان يعلم سوء رأيه فيه ، ثم إذا بهذا الإنسان يلقاه بالمديح ، ويكيل له الثناء ؟ ألا يقول لنفسه إن هذا الإنسان كاذب منافق ؟ أم أنه لا يقول هذا القول فى صاحبه هذا إلا إذا كان فى حال انتشاء فنى ، وفى حالة وضع لعمل فنى ؟

(١) آل عمران آية ١٦٧ .

هل في القرآن أساطير؟

وقفه أخيرة نقفها مع الدكتور خلف الله في رسالته «المن القصص في القرآن» .

ونتلقى مع الدكتور في هذه الوقفة عند قولتين له في القصص القرآني :
أما القولة الأولى ، فهي قوله بأن في هذا القصص ما هو من قبيل الأساطير .
وأما القولة الثانية فهي قوله بأن القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفي عن نفسه وجود الأساطير فيه ، وإنما حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام ، وليس من عند الله !!
ونحن نعرض ما يقول الدكتور في هاتين القولتين . ونعرض رأينا الذي نراه فيهما .

أولاً: القول بأن في القصص القرآني أساطير؟

يقول صاحب الرسالة بعد أن يقدم أدلته وشواهدة - التي سنناقشها فيما بعد - يقول : « إذا كان كل هذا ثابتاً فإننا لا نتخرج من القول بأن في القرآن أساطير، لأننا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصاً من نصوص القرآن^(١) .
أما ما يقيمه الدكتور من أدلة وشواهد لهذا القول ، فهو أنه عمد إلى تلك الآيات التي وردت فيها أقوال المشركين من أهل مكة واصفة ما بلقي على أسماعهم من القرآن أو من قصصه ، بأنه أساطير الأولين ، ثم إنه عمد كذلك إلى أقوال لبعض المفسرين ، رأى فيها لمحات تشير إلى رأيه هذا ، فنقلها ، وعلق عليها .

أما الآيات القرآنية التي ذكر فيها على لسان المشركين وصف القرآن أو قصصه بأنه أساطير الأولين ، ونقلها صاحب الرسالة هنا فهي :

١ - قال تعالى : « ومنهم من يستمع إليك ، وجملنا على قلوبهم أكنة

أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقرا ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى إذا جاءوك يجادلوك ، يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين .

[الأنعام : ٢٥]

٢ — وقال تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . »

[الأنفال : ٣١ - ٣٢]

٣ — وقال تعالى : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين »

[النمل : ٢٤]

٤ — وقال تعالى : « بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أنذا متنساء وكنا تراباً وعظاماً ، أئنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين »

[المؤمنون : ٨٣]

٥ — وقال تعالى : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ، إنه كان غفوراً رحيماً »

[الفرقان : ٥ - ٦]

٦ — وقال تعالى : « وقال الذين كفروا أنذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون ، لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل . . إن هذا إلا أساطير الأولين »

[النحل : ٦٧ - ٦٨]

٧ — وقال تعالى : « والذي قال لو اديه أف لكما ، أتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ، وهما يستغيثن الله ويملك آمن ، إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين »

[الأحقاف : ١٧]

٨ — وقال تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين ، هزاز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زميم ، أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين »

[القلم : ١٠ - ١٥]

٩ — وقال تعالى : « ويل للسكذيين ، الذين يسكذبون بيوم الدين ،

وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين »

[المطففين : ١٠ - ١٣]

ثم يقول صاحب الرسالة : « هذه الآيات التي عرض فيها القرآن لهذه المسألة .. فلننظر لنترى ما فيها من دلالات على نظره لهذه الأساطير »
وينظر صاحب الرسالة . ويرى هذه الرؤى العجيبة فيقول :

« وأول ذلك أن هذه الآيات جميعها من القرآن المكي ، حتى ما وضع منها في سورة مدنية كالأنفال مثلا ، فقد نص القدماء - واعتمد ذلك المصحف المكي - على أن الآيات من ٣٠ - ٣٦ من سورة الأنفال مكية .
وأقرب ما يفهم من ذلك أن الحديث عن الأساطير إنما كان من أهل مكة وجمهورهم المطلقة من المشركين ، وأنه قول لم يقل في المدينة بعد انتقال النبي عليه السلام إليها - وهذه ظاهرة تحتاج إلى تفسير وتعليل .

ويعمى الدكتور فيقول : « وثانى ما يفهم من النظر في هذه الآيات أن القائلين لهذا القول هم في الغالب الذين ينكرون البعث بالحياة الآخرة ، وذلك واضح كل الوضوح من آيات سورة المؤمنون ، النمل ، الأحقاف ، المطففين .. ذلك لأن الحديث معهم في هذه المسألة بالذات ، وهو متصل بسبب قوى بالحديث عن الآخرة في آيات سورتي الأنعام والنحل .

« وتلك ظاهرة تستحق التفسير أيضاً !

« وثالث ما يفهم من النظر في هذه الآيات أن المشركين كانوا يعتقدون بما يقولون اعتقاداً صادقاً ، وأن الشبهة عندهم كانت قوية جارفة ، وذلك هو الواضح تماماً من هذه الآيات التي يحسن بنا أن نستعرضها سوياً .

ويستعرض صاحب الرسالة هذه الآيات الكريمات ، ويخلص من هذا الاستعراض إلى النتائج الآتية :

١ - أن الشبهة عند الذين يصفون القرآن بهذه الصفة شبهة قوية جارفة .

٢ - أن هذه العقيدة كانت عندهم قوية ، وتقوم على أساس بطمئنون .

إليه، من حيث وسمهم معه أن يقرروا بهذه القوة وجود الأساطير في القرآن، ذلك لأنهم لا يستطيعون هذا القول، إلا إذا كان هناك ما يبرر فعلاً هذا القول في تقديرهم، ويجعلهم يؤكدونه هذا التأكيد!

٣ - هل هذا الاعتقاد الذي اعتقدوه فيما في القرآن من أساطير - هل هو من الأخطاء التي ملكت عليهم نفوسهم، أو هو شيء من حال القرآن جعلهم يقولون ذلك؟

ثم يعقب على هذه النتائج التي استخلصها - بقوله :
« لنلتمس الجواب على هذا من دلالة تعرض القرآن للأساطير .. من دلالة نفيها عن نفسه ، وشدة حرصه على ذلك ، أو من دلالة على وقوفه منها موقفاً يخالف ذلك ! »

ثم يقول : لننتظر ، وسنرى ، (١)

ونقول : إننا منتظرون .. فما الذي سيرينا الدكتور إياه ؟

يقول : « يفهم من النظر في هذه الآيات التي هي كل ما تحدث به القرآن عن الأساطير أن القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفي عن نفسه وجود الأساطير فيه ، وإنما حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام ، وليس من عند الله ! »

ثم يقول في ثقة واعتداد بما يقول : « واستعرض معي الآيات مرة أخرى لتبين موقف القرآن نحو هذا الحرص على نفي وجود الأساطير فيه .. وسنرى :
(١) « أن القرآن يكتفي بوصف هذا الصنيع من المشركين في آيات سورة الأنفال ، المؤمنون ، النمل ، الأحقاف .. دون تعقيب عليه . »

(٢) « وأن القرآن اكتفى بتهديد القوم في آيات سورتي الأنعام ، والمطففين ، وهو تهديد يقوم على إنكارهم ليوم البعث ، أو على صدقهم للناس عن اتباع النبي ، وليس منه التهديد على قولهم بأن الأساطير قد وردت في القرآن الكريم . »

(١) ص ١٧٤ - ١٧٥

(٣) «ومرة واحدة يمرض القرآن للرد عليهم في قبليهم بأنه أساطير»
وهي المرة التي وردت في سورة الفرقان ، وهذه هي الآيات : « وقالوا أساطير
الأولين اكتنبا ، فهي تمل عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله الذي يعلم السر في
السموات والأرض .. إنه كان غفورا رحيا . »

« فهل هذا الرد ينفي وجود الأساطير في القرآن ؟ أو هو إنما ينفي أن
تكون هذه الأساطير من عند محمد يكتبها وعلى عليه ، ويثبت أنها من عند الله
« قل أنزله الذي يعلم السر .. الخ ؟ »

« لعل الثاني أوضح . اولعل هذا الوضوح هو الذي جعل « الرازي »
في مناقشته رد القرآن عليهم يقول : البحث الأول في بيان أن هذا كيف
يصلح أن يكون جواباً عن تلك الشبهة .. وتقريره ما قدمناه .. من أنه عليه
السلام تحدهم بالمعارضة ، وظهر عجزهم عنها ، ولو كان عليه السلام أنى بالقرآن
بأن استعان بأحد لكان من الواجب عليهم أيضاً أن يستعينوا بأحد ، فيأتوا
بمثل هذا القرآن .. فلما عجزوا عنه ثبت أنه من عند الله وكلامه ، فلهذا قال :
« قل أنزله الذي يعلم السر » (١) .

ونقف عند هذا الحد من تلك النقول . ١ . ونسأل : هل في القرآن حقاً
« أساطير » ؟ وهل يتلاقى ذلك مع الصفة اللازمة له وهو الصدق المطلق ؟
لقد أجبنا على مثل هذه الأسئلة من قبل ، وقلنا إن القرآن هو كلمات الله ،
وما كان لكلمات الله أن تحمل باطلاً ، أو تتلبس به ، أو تقيمه إلى جوارها ،
بل أنها تلتقي الباطل دائماً بما يطعمس وجهه ، ويسود وجه المتعاملين به .
ولو اتسعت كلمات القرآن لأية شبهة من شبهات الباطل لانسحب ذلك على
كل ما يحمل من مقررات في العقيدة والشريعة جميعاً ، ولما كان هناك مفهوم
صحيح لتلك الصفات التي وصف بها القرآن في القرآن نفسه .. في مثل قوله
تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه .. هدى للمتقين » ، وقوله سبحانه :
« وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من

حكيم حميد .. وقوله جل وعلا « وباللحق أنزلناه ، وباللحق نزل » .. وقوله جل ذكره : « قل نزله روح القدس من ربك » .. بل ولما كان مستأهلاً لأن يقسم به الحق سبحانه وتعالى تعظيماً له وتكريماً : « يس ، والقرآن الحكيم » .. « ق والقرآن المجيد » .

وكيف يقع في فهم أن يصف الله القرآن بما وصفه به ، وأن يقسم به في مقام التشریف والتكريم ، وهو يحمل في كيانه أساطير وأباطيل .. ؟ وهل الأساطير إلا باطل الأباطيل ووم الأوهام ، وخرافات المخرفين ؟ فكيف يحمل القرآن هذا الباطل وذلك الضلال على أنه بضعة منه ، وآى من آياته ، ينصبها في مقام العبرة والعظة ؟

ولو أن هذا القول قيل على أنه رأى اجتهادى ، استقام لقاتله من النظر في مواد القصص القرآنى ، وفيما حمل هذا القصص من أحداث وصور لم يثبت التاريخ وقوعها ، أو أنها مما لا يتصور وقوعه — لو أن هذا القول قيل على هذا الوجه لقلنا : قول يقال ، وما على أحد من حاجز في أن يقول مايقول حسب اجتهاده وتقديره .

أما أن يضاف هذا القول إلى من لم يقل به ، وأن يحمل عليه حملاً ، فذلك عدوان يجب أن يدفعه كل قاذر على دفعه .. وهذا القول فيما نرى هدوان على القرآن ، وجرأة في الادعاء عليه .

فأنت ترى أن صاحب الرسالة يقرر :

« أن القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفي عنه وجود الأساطير فيه » وقد استدعى لذلك أدلة ، وأطلق شهوداً من القرآن الكريم .
فهل هذا حقاً ما تدل عليه هذه الآيات وتشهد به .

ذلك ما جعلناه موضوع القولة الثانية في وقتنا هنا مع صاحب الرسالة .
ثانياً : القول بأن القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفي عن نفسه

وجود الأساطير فيه :

وننظر في الآيات التي استشهد بها صاحب الرسالة على قوله بأن في القرآن

أساطير ، وأن القرآن نفسه لم يحرص على نفي مقولة المشركين فيه بأنه أساطير الأولين .

فأولا : في سورة الأنعام :

يقول الله تعالى : «ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، أو كذب بآياته.. إنه لا يفلح الظالمون ، ويوم نحشرهم جميعا ، ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون .. ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ، ما كنا مشركين ، انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ، [ومنهم من يستمع إليك . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقرا ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين] وهم يبهون عنه وينأون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون .»

ونحن - كما ترى - لم نكتف بالآية التي قدمها صاحب الرسالة هنا ، وإنما عرضنا الآية وما قبلها وما بعدها من آيات تتصل بموضوع المقالة التي يقولها الكفار في القرآن بأنه أساطير الأولين .

وأنت ترى أن مقولاتهم تلك في هذا الموقف لا يواجهون بها القصص القرآني ، ولا ما يحدثهم به من أخبار وأحداث ، وإنما هم يلقون هذه التهمة في وجه القرآن كله ، بل في وجه ما يحمل إليهم من دعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر . . . وأنهم قد صموا وسموا عن الاستماع لما يلقاهم به الرسول من كلمات الله : وأنه كلما أكثر عليهم القول قالوا - في مقام العناد والجدل - أساطير الأولين .. أي ليس لما يقوله أصل يستند إليه ، وإنما هي مقولات يهذي بها ، وكلمات يرددها .. إنهم يبهون الرسول ، ويتهمون ما جاء به .. يتهمون الرسول ، بأنه مدع يدعى الرسالة ، ويتهمون ما جاء به ، بأنه من مقولاته هو .. وقد ذكر القرآن ذلك عنهم في مواضع كثيرة كقوله تعالى : «وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا سحر كذاب .. أجعل الآلهة إلها واحدا ، إن هذا لشيء عجاب .. وانطلق الملائمة منهم أن

امشوا واصبروا على آهتكم ، إن هذا لشيء يراد ، ما سمعنا بهذا في الملة
الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق ، أنزل عليه الذكر من بيننا ، بل هم في شك
من ذكرى ، بل لما يذوقوا عذاب ^(١) . فقولهم : « إن هذا لشيء عجاب »
وقولهم : « إن هذا إلا اختلاق » هو وقولهم : « إن هذا إلا أساطير
الأولين » ، وإنما يزعج جميعه عن فكرة مسلطة على عقولهم ، وهو أن القرآن
كله حديث مفترى .

٧ - في سورة الأنفال :

يقول الله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا
مثل هذا .. إن هذا إلا أساطير الأولين ، وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو
الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .
فأى آيات كانت تتلى عليهم ؟ أليست هي آيات الله التي حملها القرآن ،
وحمل فيها أول ما حمل وأكثر ما حمل تقرير وحدانية الله ، والإيمان به على
تلك الصفة ، والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر . أم أن الآيات التي كانت
تتلى عليهم هي الآيات التي تضم القصص والأخبار وحدها . إن ذلك تحكم
لا يسنده شاهد ، بل إن الشواهد كلها تقوم على دفته .. فقد جاء قبل هذه
الآية مباشرة قوله تعالى : « وإذا يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك ،
أو يخرجوك ، ويمكرون ، ويمكر الله ، والله خير الماكرين » . وهم لا يمكرون
بالرسول ويلقونه بما يلقونه به من تكذيب ، وإعنات وتهديد ، من أجل
القصص الذي يقصه عليهم ، فإن هذا القصص لا يحدثهم بشيء يسوؤهم في
معتقداتهم . أو يسفه أعلامهم وطاداتهم ، وإنما في غير القصص كان يلصقهم
القرآن صراحة ومواجهة بهذا الذي يضيقون به ، ويتكروهون الاستماع ..
وإيس قولهم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا تحدياً » للقصص القرآني وما فيه من
أخبار ، وإنما هو تحد لما يحدث به القرآن كله .. في كل شيء يحدث به ..
فما هو إلا كلام من كلامهم !

وأما ما حكاه القرآن عنهم من قولهم: « وقالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » فهو إيمان في تكذيبهم للرسول ، ولما يقول الرسول ، وهو مثل ما قال قوم شعيب لشعيب حين دعاهم إلى الله حيث قالوا : « فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين » [سورة الشعراء]

إنه نحمد للرسول أن يكون متصلاً بالسماء !

٣ - في سورة النحل :

يقول الله تعالى : « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين » . وقد جاءت هذه الآية عقب آيات تتحدث عن قدرة الله ، وتكشف عن علمه وحكمته فيما خلق وأبدع ، وفيما أنعم ومنح ، وفي معرض هذه الآيات تبصرة وهدى لقوم يعقلون ، حيث يجدون طريقهم إلى الله واضحاً مستقيماً . وفي مواجهة هذه الآيات أخرى تحدث عن عجز الآلهة التي تدعى وتعبد من دون الله ، وأنها مخلوقة لا تخلق شيئاً ، وأن الذين يتعاملون معها أموات غير أحياء ، لأنهم فقدوا إنسانيتهم حيث أسلموا وجودهم لهذه الأصنام الخاملة ، فهم والأموات سواء ، يحيون بلا إحساس ولا شعور . استمع إلى آيات الله : « وهو الذي سخر البحر لنا أكلاً منه لحماً طرياً ، ولتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم ، وأنهاراً ، وسبلاً ، لعلكم تهتدون ، وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ، وإن تمدوا نعمته الله لا يحصوها إن الله لغفور رحيم ، والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ، والذين يدعون من دونه لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيا ن يبعثون ، إلهكم إله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لاجرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه لا يحب المستكبرين [وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين] .

فما الذى سئلوا عنه هنا فيما أنزل الله ؟ إن ما أنزل الله هنا - كما ترى - آيات تتحدث عن قدرة الله وعلمه وحكمته وسلطانه ، وعجز المعبودين من دونه وهوانهم وهوان الدين بمبدونهم .. وليس فى هذا الموقف ، ولا فيما سبقه أو لحقه ، ولا فى السورة كلها شيئاً من القصص ، بل إن للسورة كلها دعوة إلى التوحيد عن طريق هذا العرض الكاشف لقدرة الله وعلمه وحكمته وسلطانه القائم على كل شيء ^١

فقول المشركين هنا فيما يتلى عليهم من آيات الله ، بأنه أساطير الأولين - هذا القول ينسحب على القرآن الكريم كله .. فكما قالوا فى القرآن الكريم : هو أساطير الأولين ، قالوا : هو قول شاعر ، وهو قول كاهن ، وقد رد عليهم القرآن هذا البهتان فقال تعالى : « إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما يؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون » تنزيل من رب العالمين »

٤- فى سورة المؤمنون :

يقول الله تعالى : « بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » .

وهذه الآيات يسبقها ويلحقها آيات تحدث عن جلال الله ، وعظمته وقدرته .. فما سبقها قوله تعالى : « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة .. قليلاً ما تشكرون ، وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون . بل قالوا مثل ما قال الأولون » .. ومما لحقها قوله تعالى : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ؟ »

فقولهم : « إن هذا إلا أساطير الأولين » ليس فيه إشارة إلى القصص فى القرآن من قريب أو بعيد ، بل إن هذه الإشارة هنا جارية على منطلق الأقوام

السالفة في تكذيبهم لدعوى رسلمهم : « بل قالوا مثل ما قال الأولون » ،
والذي قاله الأولون : « قالوا أنذا متنا وكنا تراباً وعظاما أئنا لمبعوثون ،
لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين » .
فالتقول بأن هذا أساطير الأولين متجه إلى « البعث » الذي وعدوا به
كما وعد آباؤهم من قبل .. وهو عندهم أسطورة من أساطير الأولين ، وخرافة
من خرافاتهم .. وفي هذا يقول الشاعر الجاهلي :

حياة ثم موت ، ثم بعث حديث خرافة يا أم عمرو !
ويقول آخر :

يحدثنا ابن كبشة أن سنجياً وكيف حياة أصداء وهام
فالبعث عند المشركين أمر لا يصدقه العقل ولا يقول به عاقل ، وإنما هو
حديث خرافة ، ما على قائله من حرج !

٥ - في سورة الفرقان :

يقول الله تعالى : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة
وأصيلاً ، قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ، إنه كان غفوراً
رحيماً » .

واستمع إلى الآية الكريمة في سياقها الذي جاءت فيه :
« سبحانه الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً .. الذي له
ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ،
وخلق كل شيء فقدره تقديراً ، واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم
يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة
ولا نشوراً ، وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم
آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى
عليه بكرة وأصيلاً .. قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض [

[سورة الفرقان]

أفيكون قولهم : « إن هذا إلا إفك افتراه » ، ثم قولهم : « أساطير

الأوليين أشتبها ، ، أ يكون قولهم هذا متجهاً إلى القصص القرآني أم إلى القرآن كله ، وهو الفرقان الذي جاء ذكره في أول السورة ؟

وبحسن بنا أن نعيد قول صاحب الرسالة في هذه الآية ، والذي نقلناه من قبل ، فهو يأخذ من هذه الآية شاهداً على أن القرآن لم يحرص على أن ينفى عن نفسه التهمة الموجهة إليه بأنه أساطير الأولين ..

يقول الدكتور : « فهل هذا الرد ينفى وجود الأساطير في القرآن ، أو هو

إنما ينفى أن تكون الأساطير عند محمد يكتفيها وتعمل عليه ، ويثبت أنها من عند الله .. قل الذي أنزله للذي يعلم السر .. الخ ؟ » .

ثم يقول : لعل الثاني أوضح - وهو نفي أن تكون الأساطير من عند محمد ، وإنما هي من عند الله .. » ونقول . « سبحانك ما يكون أن نتكلم بهذا .. سبحانك هذا بهتان عظيم »

ثم يقول الدكتور : ولعل هذا الوضوح هو الذي جعل « الرازي » في مناقشته لرد القرآن عليهم .. الخ .

أخفاً أن القرآن في رده هنا على تقولات الكافرين على القرآن لم ينف وجود الأساطير فيه ؟

وانظر :

لقد قالوا هنا قولتين في القرآن ، حكاهما القرآن عنهم ، ورد على كل واحدة منهما ..

والقولتان يجتمعان على مضمون واحد . وهو أن القرآن من تلقينات محمد وتلقياته من غيره .. وهاتان القولتان هما :

أولاً : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون » .

وقد جاء رد القرآن على هذه المقولة المنكرة رداً مفصلاً مخرساً .. « فقد جاءوا ظلماً وزوراً » .

فهذا هو رد القرآن على قولهم : « إن هذا إلا إفك افتراه » - وقد جاء

الرد مفجعاً قاطعاً بأن هذا الذي جاءوا به إلى ساحة القرآن هو إفك مفترى
وزرر من القول لا يستند إلى ظل من الحق ..
وثانياً : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً » .
فكان رد القرآن : « قل : أنزله الذي يعلم السر في السموات
والأرض » ..

وهذا هو رد القرآن على تلك القولة الآتمة .. وهو أن هذا الذي يقولون
هنه أساطير الأولين ، إنما هو منزل ممن يعلم السر في السموات والأرض .
وهل من يعلم السر في السموات والأرض ينزل على حكم الأساطير
ويتعامل بها ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ! .
إن الذي يتعامل بالأساطير هو الذي يميز عن أن يمسك بالحقيقة ، أو
ينفذ إلى أصمائها ، فلا يجد بدأ من التعلق بالأوهام والخيالات .

إن القول الذي يقوله المشركون في نسبة القرآن لا « محمد » وأن محمداً
استمده من أساطير الأولين ، هو أقل شناعة من هذا القول الذي يجعل القرآن
منزلاً من عند الله ، ثم يجعل في القرآن أساطير منزلة من عند الله أيضاً ...
إن الأساطير لا تمدو أن تكون أوهاماً وخرافات ، عاشت في تصورات
الإنسانية في خطواتها الأولى في الحياة ثم أصبحت تلك الأساطير مادة نسج
حولها كثير من الخرافات ، سواء في العقيدة أو في العلم ، أو الفن .. ثم سارت
تلك الأساطير ميراثاً إنسانياً يكشف عن حياة الإنسان الأولى ، وعن سذاجة
تفكيره ، وجنوح مرامى خياله تماماً كما نشهد ذلك في مخلفات القرون الأولى
التي خلفها آباؤنا الأولون من بيوت في كهوف ، أو أبنية من الحجر ، أو ملابس
من ورق الشجر !

وتعالى الله سبحانه وتعالى أن يقيم لهذه الأساطير وزناً ، ويجعل لهذه
الباطيل وجهاً في كلماته وأياته المنزلة في كتابه الكريم الذي يقول فيه سبحانه :
« وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » .. فهل ماجاه به القرآن من أخبار في قصصه ،
أو من أحكام في تشريعه ، أو من أخلاق في آدابه - هل شيء من هذا غير

حق ، بل وحق مصبي ؟ إن كل شيء يضاف لله سبحانه وتعالى ، من خلق ، أو قول ، هو الحق المطلق الذي لا يطوف بحماه طائف من باطل .. والله سبحانه وتعالى يقول : « ما خلقنا السموات والأرض إلا بالحق » .. ويقول جل شأنه : « لو أردنا أن نتخذ لهواً لا اتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق » .

ثم ماذا يراد من القرآن أن يقول في نبي هذا البهتان أبلغ من هذا القول ؟ إن الحق الواضح ليس في حاجة إلى أن يدافع عنه .. فهو من الواضح والقوة بحيث تستحزي عنه رميات الزور والبهتان من تلقاء نفسها .

لقد قال الكفار في الله سبحانه ، مقولات منكرة ..

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً » .

فكان رد القرآن عليهم : « لقد جئتم شيئاً إداً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولداً . »
« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً » .. وهم يقصدون الملائكة .

فكان رده : « سبحانه ، بل عباد مكرمون .. لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون » .

أما ما ينقله صاحب الرسالة عن « الرازي » في هذا المقام فليس فيه شيء مما يذهب إليه الدكتور ، وكلام الرازي أوضح من أن يكشف عن مضمونه . ثم إننا نحب أن ننبه إلى أن الرازي وغيره من المفسرين لم يلتزموا رأياً واحداً في التفسير ، وإنما هم ينقلون آراء متعددة ، مجرد العلم بها ، دون أن يكون ذلك فهماً خاصاً لهم .. فإن كان لهم في الآية فهم خاص صرحوا به .. وصاحب الرسالة ينقل عن الفخر الرازي ما يقع اختياره عليه من هذه الآراء ، وكثير منها من الإنسائليات والخرافات التي هي قبيل الغرض ، لا الرأي .

وندع هذا لنسأل الدكتور :

لماذا وقف عند هذه المقولة من أقوال المشركين في القرآن ؟

أذلك لأن كلمة « أساطير » هذه تسعفه بمادة القول في لون من ألوان القصص ، هو قصص الأساطير ، وتفتح له باباً يدخل منه إلى تحقيق نظرية جديدة -- إلى جانب نظرياته الجديدة أيضاً في رسالته -- تقول بأن القصص القرآني هو صورة للقصص الأدبي بكل ما فيه ، حتى القصص الأسطوري .. أذلك لهذا ، أم لغاية أو غايات غير هذا ، علمها عند صاحب الرسالة ا على أي فإن سؤالنا الذي سألناه آنفاً .. يطلب الجواب من الدكتور ا ونعيده مرة أخرى .

لماذا وقف عند هذه القولة من أقوال المشركين في القرآن ؟

إنهم لم يقولوا في القرآن قولاً واحداً .

قالوا هذه القولة : « أساطير الأولين » ..

وقالوا في القرآن : « إن هذا إلا إفك افتراه وأطانه عليه قوم آخرون » ..

[سورة الفرقان]

وقالوا في النبي : « شاعر فتريص به ريب المنون » [سورة الطور]

وقالوا في القرآن أيضاً : « إن هذا إلا سحر يؤثر .. إن هذا إلا قول

البشر » . [سورة المدثر]

وقالوا في النبي : « إنما يعلمه بشر » [سورة النحل]

وقالوا في القرآن : « أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما

أرسل الأولون » . [سورة الأنبياء :]

أليست هذه المقولات وأشباهاها من واد واحد ، وتترع عن موقف واحد ،

إزاء القرآن كله ، لا القصص وحده ؟

وإذا كان ذلك كذلك — وهو مالا يد من التسليم به — فهل لهذه

المقولات عندهم شأن غير هذا الشأن الذي جعلهم يقولون قولة أساطير الأولين

هذه التي لم يقولوها إلا بما بين أيديهم من حجة قوية ظاهرة عليها ، بل

وعقيدة راسخة بها كما يقرر الدكتور ، إذ يقول : إن هذه العقيدة — عقيدة

المشركين في قولهم : « أساطير الأولين » — كانت عندهم قوية ، وتقوم على

أساس يطمئنون إليه من حيث وسعهم معه أن يقرروا بهذه القوة وجود الأساطير في القرآن ، لأنهم لا يستطيعون هذا القول إلا إذا كان هناك ما يبرر هذا القول فعلا في تقديرهم ، ويجعلهم يؤكدونه هذا التأكيده (١) .
ما هذا يا دكتور ؟

إننا لا نستطيع أن نحتمل هذا الموقف ، ونحاجك فيه ، بعد أن بلغ الأمر هذا الحد من الاستخفاف بالواقع الملموس .. إن نزول العقل في هذا الميدان فيه إضرار به وامتهان له .. إذ كان معنى ذلك وضعه إزاء البدهيات ، وشغفه بها ، وجعلها من قضاياها ومشكلاته ! .

إني أشفق على « الدكتور » أن أمضى معه في هذا الحديث ، وأن أطلب إليه النظر في هذه المفارقات البعيدة ، العجيبة ! . إني كمن يطالب إليه أن يعد رجله من قنة جبل ليجد نفسه على الأرض في وثبة واحدة !
فهل يأذن لي الدكتور أن أتولى الإجابة عنه ؟

ونقول إن هذه المقولات التي كانت تقولها قریش في القرآن ومنها قولتهم تلك : « إن هذا إلا أساطير الأولين » - لم تكن عن عقيدة قوية تقوم على أساس يطمئنون إليه من حيث وسعهم على أن يقرروا بهذه القوة وجود الأساطير في القرآن - كما يقول الدكتور - ذلك أنه لو صح هذا القول في الأساطير لصح في كل ما قالوه في النبي وفي القرآن : كقولهم : « إن هذا إلا لماك افتراء وأطانه عليه قوم آخرون » وكقولهم : « شاعر تبرص به ريب المنون » وقولهم ، « إن هذا إلا سحر يثر » - فهل كان مع المشركين في هذه المقولات وأمثالها الأساس الذي يطمئنون إليه حيث وسعهم مع هذا الأساس أن يقرروا بهذه القوة وجود الشعر ، أو السحر ، أو الجنون في القرآن ، وفي الرسول الذي يتلو هذا القرآن ؟ إن هذا من ذاك سواء بسواء ، فلم إذن يقف الدكتور عن مقولة : « أساطير الأولين » وحدها ؟ أذلك لأنه في معرض

الفن القصصى فى القرآن ، وأن القصص لا يكون فناً إلا إذا خالطته الأساطير
والخرافات وامتزجت به .

والحق أن هذه المقولات وأمثالها لم تكن تعنى عند المشركين أكثر
من التشويش على النبى ، والشغب والصخب بين يدي دعوته ، حتى يلقنوا
الناس من الرسول ومن دعوته ، أما الواقع الحق عندهم فى القرآن ، وعن
القرآن فهو غير هذا .

فلقد كانوا يعلمون من القرآن ما لا يعلم غيرهم من فصاحته ، وبلاغته ،
وعاوه على سائر ما عرفوا من كلام فصحاءهم وبلغائهم وخطبائهم وشعرائهم ..
وكانوا أينما نظروا إليه وجدوا أمارات الحسن والجلال مشرقة من كلماته وآياته .
ولهذا حاروا فيه ، وعجزوا أن يقوموا على عيب يظهرهون الناس عليه منه ..
وتاريخ القرآن الكريم فى العهد المسكى يسجل على مشركى قريش ما كان
يدخل عليهم من آياته ، حين كانت تقع على آذانهم ، فتنفذ إلى قلوبهم ،
وتستولى على وجودهم كله ، ثم لا يكون منهم إلا هذه البلبلة وهذا الاضطراب
والتضارب بين ما يأتهم من جهة القرآن من بهر ودهش ، وبين ما تقور به
قلوبهم من كبر ، وعناد ، وضلال .

جاء عتبة بن ربيعة إلى النبى ﷺ ، موفداً إليه من قريش ، يدعوه إلى
أن يترك دعوته التى يدعوهم إليها ، وله عند قومه ما يشاء من جاه ، أو مال ،
أو سلطان . فلما جاء عتبة وعرض على النبى ما عرض ، قال له رسول الله
ﷺ : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاستمع منى .. قال :
أفعل . فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم : حم . تنزيل من الرحمن الرحيم : كتاب
فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً .. فأعرض أكثرهم فهم
لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه .. » ثم مضى رسول الله
ﷺ يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ،
ممتداً عليهما يسمع منه .. ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها

-أى من السورة - فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت
وذاك ا فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله ، لقد جاءكم
أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ! فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك
يا أبا الوليد ؟ قال : ورأى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط .. والله
ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة .. (١)

وقد يدفع متشكك هذا الشاهد ، ويقول عنه هو خبر من الأخبار التى
لا تقع مواقع اليقين ، ولهذا فإنه لا يصح أن يفصل فى مثل هذه القضية
الخطيرة بشاهد هكذا .

ومع أن هذا الخبر من الأخبار المتواترة ، فإننا لا نتمسك به ، خاصة وأن
معنا الشاهد الذى لا يستطيع أى مكابر ، أو معاند ، أو ملحد ، أن يشك
فى أخباره كوثيقة من وثائق التاريخ ، وهو القرآن الكريم نفسه ..
ففى القرآن الكريم آيات نزلت فى مكة ، وملأت فى وقتها أسماع هؤلاء
القرشيين المعاندين للمكابرين الذين كانوا يقولون فى القرآن هذه المقولات
المرسلة على عواهنها .. وهذه الآيات التى نزلت بمكة ، والتى ملأت أسماع
المشركين فيها - تسجل الحقيقة الواقعة للقرآن عند هؤلاء المتكبرين
المعاندين ..

يقول الله تعالى فى موقفهم من آيات الكتاب الكريم : « وجحدوا بها ،
واستيقنوا أنفسهم ، ظلماً وعلواً ، فانظر كيف كان طائفة المفسدين » (٢)
ويقول سبحانه ، مواسياً للنبي الكريم فيما يسمع من هذه المقولات
الإعناتية العنادية : « قد تعلم إنه ليحزنك الذى يقولون .. فإنهم لا يكذبونك ،
ولكن الظالمين بآيات الله يحجدون » (٣)

بل إنه ليسجل عليهم هذا الوصف الحق للقرآن ، الذى إن لم يكونوا قد
أعلنوا به ، فهو حديث نفوسهم ، ونجى سرائرهم .. يقول الله تعالى :

(١) السيرة لابن هشام : جزء ١ ص ١٦٥

(٢) سورة النمل : ١٤

(٣) سورة الأنعام : ٣٣

« وقالوا إن تتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا »^(١)
هذا هو رأى مشركى قريش فى القرآن ، وإنه « الهدى » وهو الرأى
الحق الذى يبنى أن تقيم عليه قريش عقولها وقلوبها ، وإلا فقد حق عليها
أن ترمى بالغباء والبلادة والإغلاق .. وما كانت قريش إلا الفطنة والذكاء
والألمعية !

ولكنه الكبر والعناد ، والاستعلاء عن الانقياد لأى سلطان !
وأكثر من هذا .. فإن مقولة المشركين فى القرآن : « إن هذا إلا أساطير
الأولين » - هذه المقولة هى وحدها من بين المقولات التى قالوها فى القرآن ،
وذكرنا بعضها - هى التى يمكن أن يكون لها فى عقول الذين قالوها معقول
ومفهوم ، ولكن لا على المعقول والمفهوم الذى قدره « الدكتور » من أن
الأساطير تعنى عند قائلها الخرافات والخيالات ، على نحو ما عرف من أساطير
اليونان ، والفراعنة ، والفرس ، والهنود وغيرهم ، وإنما المعقول والمفهوم
للأساطير عند العرب ووصف القرآن بها هو المدونات والمكتوبات .. وذلك
من قولهم سطر الشئ إذا كتبه .. وفى القرآن الكريم : « وكتاب مسطور »^(٢)
وفيه أيضاً « كان ذلك فى الكتاب مسطوراً »^(٣) أى مكتوباً .. فالقرآن -
فى زعم المشركين - هو مما ينقله محمد من كتب الأولين .. ولهذا قالوا :
« لو نشاء لقلنا مثل هذا .. إن هذا إلا أساطير الأولين » .. إذ كان النقل
عن الكتب السابقة لا يعجز أحداً ، وقد صرحوا بهذا الزعم ، فقالوا ما حكاه
القرآن عنهم : « أساطير الأولين اكتبها ، فهى تلى عليه بكرة وأصيلاً »^(٤)
فألا كتاب ، افتعال من الكتابة ، وهو يدل على المشاركة فى الفعل ، بين
شئ مكتوب ، وشئ آخر مكتوب منه ، أو منقول عنه !

وأحسب أن وقتنا قد طالت مع صاحب هذه المقولات ، فلنول وجهنا
إلى أفق جديد من آفاق البحث فى القصص القرآنى .. فإلى هذا الأفق .

(١) سورة القصص : ٧٥

(٢) سورة الطور : ٢

(٣) سورة الإسراء : ٥٨

(٤) سورة الفرقان : ٥

الباب الثامن

الرمز والقصص القرآني

داغية القول بالرمز في القصص القرآني :

لقد فتحت كلمة « قصص » التي جعلها القرآن الكريم سمة دالة على تلك الأخبار التي ذكرها عن القرون الماضية - فتحت هذه الكلمة كثيراً من العيون الحولاء على هذا القصص ، فرأته على هذا المستوى الفني يقوم عليه القصص الأدبي ، بكل ما فيه من حقائق وأخيلة ، وخرافات وأوهام . ولهذا رأينا من يقول بأن في القرآن « أساطير » ، وأنه جاء بها لتحقيق أغراض فنية ! كما رأينا من يقول بأن في القرآن « رموزاً » أوقصصاً رمزياً ، ليحقق بذلك أغراضاً فنية أيضاً .

وبحسب هؤلاء الناظرون في القصص القرآني ، على هذا المستوى الأرضي ، أنهم بهذا الصنيع يولدون من القصص القرآني طاقات جديدة ، يواجهون بها مستجدات العصر في العلوم والفنون .. فإذا كان في القصص الأدبي قصصاً أسطورياً ، فليكن في القصص القرآني كذلك هذا اللون منه .. وإذا كان في هذا القصص الأدبي قصصاً رمزياً ، فليكن في القصص القرآني ضرباً أوضروب من الرمز ! وبهذا يمكن أن يقال : إن القرآن قد حوى كل شيء ، وجاء بكل شيء .

هذا إذا أحسنا الظن فيمن يتولون الترويج لهذه المدعيات ، ويتصدون للدفاع عنها - وما كان لنا أن نسيء الظن بأحد لا نقوم بين أيدينا حجة ظاهرة على اتهامه ، وما دام عمله يلبس - ولو في ظاهره - لباس النظر والبحث عن الحقيقة ! فلنواجه أصحاب القول بالرمز في القصص القرآني ، كما واجهناهم من قبل في قولتهم بوجود الأسطورة أو الأساطير في القرآن .. محسنين الظن (٢١ - القصص القرآني)

بهم ، وبالغاية التي ينشدونها من وراء هذه المقولات ، وأهم إنما يبحثون عن الحق ، ويلتمسون السبيل إليه ، أما ما تنطوي عليه صدورهم من نوايا ومقاصد ، فذلك أمره إلى الله ، « ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » .

الرمز في اللغة :

والرمز في اللغة معناه الإيماء والإشارة للافهام بغير كلام .. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة : « قال رب اجعل لي آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » ..

وقد يكون الرمز بالإيماء والإشارة مع وجود الكلام ، وفي ثناياه ، بمعنى أن يحمل الكلام مضامين متخفية في أطوائه ، لا يبدو منها إلا رموز وإشارات خفية ، يلحها ذور البصائر النافذة ، فيستدلون منها على تلك المضامين المتخفية .. !

والكلام إذا حمل قدراً مناسباً من تلك المضامين المتخفية بلطف وحكمة ، كان ذلك من أمارات بلاغته ، وعلو درجته في الفصاحة والبيان ؛ إذ كان من الثراء والغزارة والامتلاء بحيث تنثال المعاني من ظاهره وباطنه جميعاً ، بحيث يعطى بكلتا يديه معا ..

وتستخدم اللغة العربية الكناية والتورية كلونين من ألوان النخفي ، والرمز ، ولكنها لا تعترف بهما كعنصرين من عناصر البلاغة إلا إذا أخذنا المكان الذي يستدعيهما من الكلام ، واستقرا فيه استقراراً لبقاً حكماً ، بحيث يشقان ولا ينكشفان ، ويلوحان ولا يصرحان ؛ ولهذا قيل : رب إشارة أبلغ من عبارة ! .

وقد تحدثنا في كتابنا إعجاز القرآن عن الكناية والتورية وموقعهما في الصورة البيانية ، وأثرهما فيها .. فقلنا عن الكناية المعروفة في باب البيان

- من علوم البلاغة - هي أدب رهزى خالص .. حيث أنها ذات وجهين ..
وجه ظاهر غير مراد ، ووجه خفي يندس وراء هذا الوجه الظاهر ، وهو
المراد .. على أن كلا من الوجهين معاً حامل في الحياة .. فلوجه الظاهر أقوام
يتعاملون به ، ولا يتجاوزونه ، وللوجه الخفي أقوام يمررون بهذا الوجه
الظاهر ، دون أن يقفوا عنده ، بل يتجاوزونه إلى الوجه الخفي الذي يرون
فيه الحقيقة التي ينشدونها .

ولا نستكثر من عرض الأمثال للكنائيات الموضحة .. فكل كناية
صالحة لأن تقوم هذا المقام ، وتؤدي ما يزيد توضيحه هنا .
خذ مثلاً من الكنائيات القديمة ، هذه الكناية التي يقدمونها كثيراً
في الدراسات البلاغية ، وهي قولهم : « فلان كثير الرماد » .. فهذه القولة
يقف الساذج منها عند منطوقها ، فلا يقع في فهمه أكثر من أن هذا الإنسان
عنده رماد كثير ! .

أما من جاوز حد السذاجة فإنه يرى رؤى كثيرة وراء هذا المنطوق ..
وأن هذه الرؤى تقصر أو تمتد حسب درجته من الذكاء والفهم .. فهناك
من يفهم أن كثرة الرماد تدل على أنه يوقد نيراناً كثيرة للدفء أو نحوه ..
ثم تقف حدود رؤيته عند هذا .. وهناك من يرى بعد هذا أن كثرة إيقاد
النار تدل على أنه كثير الطعام ، ثم تكون وراء هذه منطقة أخرى للرؤية
يتضح منها أن كثرة الطعام تدل على كثرة الآكلين ، ثم إن كثرة الآكلين
تدل على كثرة الواردين .. ثم إن كثرة الواردين تدل على الكرم ! ..
وإذن فالرجل كريم .

فانظر كم من الستر اللطيفة يتعجب وراها هذا المكنى عنه ؟ وكم من
اللقائف الرقيقة قد تدثر فيها ؟ حتى أن الأبصار أو البصائر لتتلطف إليه في
حذر ورفق ، فترفع ستوره ، سترأ سترأ ، حتى تكشف عن وجهه . وتتعرف
على ملامحه ، وتعرف حقيقته .

فالكناية أسلوب من أساليب التخفي والرمز ، ذلك الأسلوب الذي

يشير الخيال ، ويحرك الوجدان ، ويشوق النفس إلى تتبع آثار الحقيقة الغائبة ، التي يتخذ من هذا « الحضور » اللفظي دليلاً عليها .. فإذا قطعت النفس هذه المرحلة ثم التقت بتلك الحقيقة الغائبة ، استقبلتها استقبال الحبيب الذي نادى بعد غيبته ، ورد بعد غربته ، فتمر برؤيته العين ، ويشاح بلبقائه القلب .

ثم قلنا عن التورية : « ومن أساليب الرمز في اللغة أيضاً « التورية » ، وهي تبيح في الألفاظ التي تحمل أكثر من معنى . كلفظ « الجبن » مثلاً ، الذي يدل على صفة هي هذا الخلق المقابل للشجاعة ، كما يدل على ذات هي تلك المادة المعروفة التي تؤكل .

وهذا النوع من الألفاظ ، وإن صلح لاستخدامه في أداء المعنيين اللذين وضع لهما أصلاً ، إلا أنه لا يمكن أن يستخدم إلا المعنى واحد في أسلوب واحد .

ومن أجل هذا أمكن استخدام مثل هذه الألفاظ في عملية خداع ذهني ، يراد منه إيقاف العقل وتحريكه ، حتى يتنبه لهذه المغالطة التي يراد لها أن تدخل عليه ، ويعتث به ، وتضحك منه ، فيضبطها وقد أوشكت أن تغفل !! وإنه لكي تمثل عملية المغالطة هذه دورها في لطف وبراعة ، ولكي تسبك هذا الدور ، فإنها تظهر في ثوب أحد المعنيين اللذين لها ، وهو المعنى غير المراد ، على حين أن المعنى المراد يظل مختمياً وراء هذا الثوب ، ولكن دلائل الحال تدل عليه ، وهي التي تستدعيه ، وإن كان مطلاً على الحياة بوجهه الآخر .

فإذا قيل مثلاً : « فلان يأكل العيش بالجبن » ..

فالجبن هنا يظهر في معنى « الإدام » الذي يؤكل به العيش ، وذكر « العيش » هو الثوب الذي يلبسه للقيام بهذا الدور .. ولكن دلالة الحال ترده إلى المعنى الآخر ، وهو تلك الصفة الذميمة التي هي ضد الشجاعة ، كأن يكون المقام هو مقام ذم لهذا الشخص ، وأنه يرضى بالمذلة والهوان ،

ويتقبل الضيم في سبيل أن يحتفظ بالوضع الذي هو فيه ، والذي ينال منه لقمة العيش التي يعيش بها ^(١).

هذا ، وقد كثر في اللغة ورود الكلمات المرادفة لمعنى التخفي . فقيل : الرمز ، والإيحاء ، والوحي ، والإيماء ، والإشارة ، والكناية ، والتورية ، والإيهام ، والحن .. وكلها من واد واحد ، حيث تدل على الحديث الملفوف في رقائق من الرمز والإيحاء .

ولأبي علي القالي في أماليه كلام في هذا اللون من ألوان القول .. لا بأس من أن نقف عليه ، ففيه فضل بيان لما نحن بصده من حديثنا عن « الرمز » في اللغة .

وقد تخير « القالي » من بين مرادفات « الرمز » كلمة « اللحن » ، وكانت نظرته إليها واقعة تحت المعنى الذي يشير إليه قوله تعالى : « ولتعرفنهم في لحن القول » .

يقول « القالي » : قال تعالى : « ولتعرفنهم في لحن القول » . . أى في معنى القول ، وفي مذهب القول .. قال الشاعر ^(٢) :

وقد لحت لكم لكيما تفهموا ووحيت وحيًا ليس بالمرتاب
ثم يقول : « واللحن - بفتح الحاء - الفطنة ، ورجل لحن . أى فطن .
« ومن اللحن - بفتح الحاء - الحديث الذي يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم .. من أن رجلين اختصما إليه في مواريث قد درست ، فقال عليه السلام : « لعل أحدهما أن يكون ألحن بحجته من الآخر ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » .

« ولحن يلحن لحنًا فهو لحن : إذا أصاب وفطن » .. وأنشد :

وحديث أده هو مما تشبيه النفوس يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيانًا نأ وخير الحديث ما كان لحنًا

(١) انظر كتابنا إعجاز القرآن .. الكتاب الثانى .

(٢) هو القتال السكلاوى .

« يقول - أى الشاعر - تعوض في حديثها فتزيله عن جهته ، لئلا يفهمه الحاضرون .

« ويقال : لحنت له لحننا إذا قلت له قولاً يفهمه عنك الذى تحب إفهامه وحده ، ويخفى على غيره .

قال أبو علي : وأصل اللحن أن تريد الشيء فتورى عنه بقول آخر ، كقول رجل من بني العنبر كان أسيراً فى بكر بن وائل ، فسألهم رسولاً إلى قومه ، فقالوا : لا ترسل إلّا بمحضرتنا .. لأنهم كالوا أزعموا غزو قومه ، يخافوا أن ينذر عليهم .. فحسب له بمبد أسود .

فقال له : أتعقل ؟

قال : نعم .. إني عاقل !

قال : ما أراك عاقلاً ! ..

ثم قال - أى الأسير - . ما هذا ؟ وأشار بيده إلى الليل !

فقال العبد : هذا الليل !

فقال الأسير : أراك عاقلاً !

ثم ملأ - أى الأسير - كفيه من الرمل ..

فقال : كم هذا .

فقال : لا أدري ، وإنه لكثير !

فقال . أيعمأ أكثر .. النجوم أو النيران .

فقال : كل كثير !

فقال : بلغ قومي التحية .. وقل لهم : ليكرموا « فلاناً » - يعنى أسيراً

كان فى أيديهم من بكر بن وائل - فإن قومه لى مكرمون .. وقل لهم : إن

المرفج قد أدبى (١) ، وقد شكى النساء .. وأمرهم أن يعرو ناقى الحمراء ،

(١) المرفج : نبت طيب الريح .. أغبر إلى الخضرة ، وله زهرة صفراء ، ولاشوك له ..

وأدبى : أى استوفى تمامه .

فقد أطلوا ركوبها ، وأن يركبوا جمل الأصهب . . بآية ما أكلت معكم
حيساً (١) . . وأسألوا « الحارث » عن خبري !!

فلما روى العبد الرسالة ، قالوا : لقد جن الأعور ! والله ما نعرف له ناقة
جرأ ولا جمل أصهب !! ثم سرحوا العبد ، ودعوا الحارث فقصوا عليه القصة
فقال : قد أنذركم ! أما قوله ، « قد أدبى العرفج » فإنه يريد أن الرجال قد
استلأموا ، ولبسوا الدروع ، وقوله : « شككت النساء » أى اتخذت الشكاه
للسفر ، وقوله : « ناقى الجراء » أى تخلوا عن الدهناء وركبوا الصمان ، وهو
« الجمل الأصهب » وقوله : « بآية ما أكلت معكم حيساً » أى أخلاطاً من
الناس ستغزوكم (٢).

وأنت ترى أن هذا اللون من الحديث ليس من لغة الحياة العامة ، ولا
مما يتعامل به الناس في مجال العلم أو الفن . . وإنما هو مما يمكن أن يلجأ إليه
الناس في ظروف خاصة في حياة الأمرى والمسجونين ، حين يراد نقل الأخبار
عنهم أو إليهم ، حيث تكون بين المتخاطبين أمارات مادية ، أو عهدية ، معروفة
لهم ، أو متعارفة بينهم .

وبغير هذا ينكشف الحديث الذى يراد منته تحت ظلال هذه الأمارات
والدلالات المعهودة ، أو يكون مغلقاً إغلاقاً تاماً ، حيث لا عهد بين المتخاطبين
بما فيه من أمارات ودلالات ؛ وحينئذ لا يكون له أثر ، حيث لا يحقق غرضه .
فالرسالة السابقة مثلاً لا يمكن أن يفك طلاسمها على الوجه المراد الذى
يؤدى الغرض المطلوب منها - إلا أحد بنى العنبر . . حيث كانت مضارب
خيامهم فى « الدهناء » ذات اللون الأحمر ، وهى التى كفى عنها صاحبهم بالناقة
الجرأ ، وقد طلب إليهم أن يتخلوا عن هذا الموضع ، وأن يركبوا الجبل -
جبل الصمان - وهو الذى كفى منه بالجمل الأصهب .

وإذن ، فهذه ضرب من الإلغاز ليس فيه فن ، وإن كان فيه ذكاء ومرعة

(١) الحيس : طعام من أطعمة البادية . وهو مركب من تمر وسمن وسويق

(٢) الأمامى ، لأبى على القالى - الجزء الأول ص ٤

خاطر وبراعة احتيال ، أشبه بما يأتيه « الحواة » فيما يعرضون من أعمال
وحيل ، لا يعرفها إلا من اشترك معهم في إعداد العمل وتنفيذه .

الرمز الذي يتحدث عنه الرمز يون :

الفن الجميل لا يكون فنا إذا هو تعرى من الإشارات ، والإيماءات ،
والإيماءات التي تقوم من وراء الصورة الظاهرة للعمل الفني . وبهذا يعيش
الفن في الحياة ، وبملا وجود الناس جمالا ، وروعة ، وجلالا .
وقد قلنا في كتابنا « إعجاز القرآن » :

« كل فن من الفنون الجميلة لا بد أن يضم في كيانه قدرآ من المعطيات
المحجبة وراء ظلاله ، والمتخفية خلف ستوره . . . فكذا شأن الفن دائما ،
لا تجس معطياته كلها متجردة عارية ، تنالها كل عين ، ويستولى عليها كل نظر . .
إن للفن حرما لا يغشاه إلا أهله . . في جلال ورفق . وحساب فإنه وإن أباح
للناس جميعا أن ينظروا فيه ، يأخذوا منه إلا أنه - مع ذلك - يحتفظ
لنفسه بقدر ما من روائع أسراره ، وذخائر مكنونه ، لا يطلع عليها أحدا
إلا بحساب وتقدير . . قطرة قطرة ، وحالا حالاً . . ومن هنا كتب للفنون
الحياة والخلود المتجدد . إذ يطلع على الناس كل يوم بوجه جديد ، وموحيات
جديدة ، وخير جديد .

« هذا الجانب المتخفي من العمل الفني هو في الواقع منطقة رمزية . تنطلق
منها رموز وإشارات ، هي كلمة السر بين الفن وأهله ، يعرفون مدلولها .
ويترجمون منطوقها . . أما عند غيرهم فهي شيء . . لاشيء وراءه » (١) .

والقرآن الكريم ، وما فيه من شرائع وأحكام ، وما يحمل من عبر
وعظات لا يقع من الناس موقعا واحداً ، فهم في فهمه ، وفي التلقى عنه ، وفي
التجاوب معه على درجات متفاوتة . . ولكن - مع ذلك - هناك قدر

مشترك من الفهم للشريعة ، بين أبناء هذه الشريعة ، هو الذى يجعل بينهم
جماعاً عليها ، وتعاملاً مشتركاً بها ..

يقول الشاطبى فى كتابه « الموافقات » :

إن الله تعالى جعل أهل الشريعة على مراتب .! ليسوا على وزن واحد ،
ورفع بعضهم فوق بعض ، كما أنهم فى الدنيا كذلك . فليس من له مزيد فهم
فى الشريعة كمن لا مزيد له .. لكن الجميع جار على أمر مشترك .

ثم يقول : « والاختصاصات فيها هبات من الله ، لا يخرج أهلها عن
حكم الاشتراك ، بل يدخلون مع غيرهم فيه ، ويمتازون هم بزيادات فى ذلك
الأمر المشترك بعينه .. فإن امتازوا بمزيد الفهم لم يخرجهم ذلك عن حكم
الاشتراك ، فإن ذلك المزيد أصله الأمر المشترك (١) » .

فالقدر المشترك الذى تجتمع عليه أفهام الناس فى أمر من الأمور يمكن
أن يسمى الحقيقة المجردة .. كما يمكن أن يسمى ماوراءها من مفاهيم يدركها
أصحاب البصائر النافذة والعقول الراجحة - يمكن أن يسمى هذا رمزاً وإيحاء .

وأحسب أن مفهوم « الرمز » الذى يتحدث عنه الرمزيون من أصحاب
الجديد ، والذى يريدون أن يدخلوا به على اللغة العربية وآدابها وأن يحموه
إقحاماً على القرآن الكريم ، وعلى قصصه بنوع خاص - هذا المفهوم لا يجرى
على هذا التقدير ؛ ولا يقدر بهذا الحساب الذى يقوم فيه الرمز فى العمل
الفنى بوظيفة الإيحاء والإلهام ، والتحديث من وراء حجاب .. وإنما
« الرمز » الذى يتحدثون عنه شيء آخر يختلف عن هذا كل الاختلاف . فى
شكله ومضمونه جميعاً .

فالرمز الذى تعرفه الفنون الجميلة - ومنها فن القول - له سمات يعرف
بها ، وله معطيات يتلقاها المتلقون عنه ؛ وهذه المعطيات التى اختلفت حظوظ
الناس منها ، وتباينت درجة إحساسهم بها ؛ هى ذات وجه واحد يتلاقون

عنده ، ويجتمعون عليه ، حين يسفر لهم ، ويطلع عليهم .. أو قل هي شيء موضوعي ، تختلف وجهات النظر فيه ، ولا تخرج عن مفهوم عام له .

أما « الرمز » الذي يتحدث عنه الرمزيون المجددون ، فهو مفهوم ذاتي ، بفيض عن مشاعر وإحساسات ذاتية — هو تخريجات ، وتخرصات ، ووسوسات ، وتهويمات ، ورؤى وأحلام وأضغاث أحلام ، تنطلق من رهوس أصحابها بلا ضابط ، وتتوالد — شيطانياً — لا أم لها ولا أب .. فكل كلام عندهم يمكن أن يلد في رهوسهم ، ويضع لأيديهم مواليد لا حصر لها ، تخرج عليهم من « قمام » الرمزية التي يملكون مفاتيح طلاسمها .. فإلى أن يمسك الواحد منهم بأى كلام على لسانه ثم يضرب رأسه ضربات بيديه ، حتى ينفث القمام ، فتنتقل منه أحلام وأضغاث أحلام ، هي التي تتوالد فيها هذه « الرمزية » التي يطلعون على الناس بها ، من بين سحب قاتمة ، وضباب كثيف ، لا يرى فيه أحد شيئاً مما يرونه في ضباب الهلوسة والسرحان !

فالرمزية بهذا المفهوم تأويلات وتفسيرات لهذه الأحلام والأضغاث الأحلام ، يؤولها كل حسب ما عنده من نوازع ذاتية ، وأهواء شخصية .

فبينما يقول أحد المؤلفين عن الشيء : إنه يرمز إلى الحب ، يقول متأول آخر : إنه رمز الكراهية ، على حين يقول ثالث : إنه يرمز إلى الموت ، ويقول رابع : إنه رمز إلى الخيانة .. ويقول خامس وسادس ، وسابع .. إلى مئات الناس وألوفهم .. كل له في هذا الشيء مفهوم خاص ، لأنه إنما يخلق هذا المفهوم من نزاعه ورغباته وأهوائه .

ولقد ضاق بهذه الرمزية العمياء كثير من أصحاب الجديد ، الذين يعرفون للفن حدوده ، كما يعرفون للغة قيمة دلالاتها ومفاهيمها ، التي إن تعرت منها استحالت إلى أصوات كأصوات الحيوانات والطيور . يقول الشاعر المهجري « إلياس فرحات » في مواجهة الشعر الرمزي المغلق على أهله :

لغة مشوهة ومعنى حائر خالف « الحجاز » ومنطق متعثر !

وزعيمهم في زعيمهم متفنن عجباً ! أكان الفن فيما يضر ؟
لا الأرض تفهم ما يصوره لها هذا الزعيم ، ولا السماء تفهم !
والمثل الواضح هنا هو المذهب « السريالي » أو « السريالزم » الذي
ظهر في هذا العصر ، ولصق ببعض الفنون كالرسم والنحت ! فأنت إذ تجد
نفسك أمام بعض اللوحات « السريالية » التي رسمها « بيكاسو » مثلاً . .
لا يمكن أن تضع للوحة منها اسماً دالاً عليها .. فكلها خطوط متناثرة هنا وهناك
على غير نظام ولا تقدير .. إنها أشبه بما يعث به الأطفال ، إذ وقع لأيديهم
أقلام وأوراق ، أو هي مخلوقات قلم عثت به يد صاحبه على ما بين يديه من
ورق ، دون وعي ، أو قصد !

ولكنك حين تستمع إلى أحد الرمزيين ، أو السرياليين وهو يقرأ
لك هذه « الأنايبش » تجد شروحات طويلة يفسر لك بها هذه الرموز ، ويحجج
بها هذه اللطاسم ، ويتغنى بما فيها من آيات الفن وروائمه .. وما هو في الحقيقة
إلا شاعر يتغنى بليلاه !

* * *

وهذا موقف لا تنكره الحياة ، بل هو مما يقع فيها ، ويدور في حياتنا
جميعاً .. فلكل إنسان ميول ونزعات خاصة ، تظهر في نظره إلى الأشياء ،
وفي تقييمه لها .. ولكن هذا الذي يضيفه الإنسان على الأشياء من ميوله
ونزعاته عنصر زائد من عناصر الفهم لهذه الأشياء ، يقوم من وراء الفهم
العام الذي تتلاقى عليه أنظار الناس في فهمها وفي التعامل معها ، ولولا هذا الفهم
المشترك بين الناس للأشياء لما كان بينهم تعامل بها ، بل لذهب كل إنسان
بعذبه فيها ، على الوجه الذي يبرفها به ، ويريدها عليه .

كوب الماء مثلاً .. في عين للظمان الذي يسكاد بجحرق ، هو الدنيا كلها ،
بزينتها ، وزخرفها ، ومالها ، وجمالها .. قد حيزت في هذا الكوب .. وهو
في عين الريان .. ماء ، وكفى ! .. ثم هو في عين الناس جميعاً - من ينظر إليه

بمعين الظامى ، ومن ينظر إليه بمين الريان - نعمة لا يعاش إلا بها ، ولا تكون حياة إلا معها .

وقل مثل هذا فى كل شىء يدور فى حياة الناس من خير وشر . لكل إنسان نظرتان فيه .. نظرة خاصة ، تحكمها ظروفه وأحواله ، ونظرة عامة يتلاقى فيها مع النظرة العامة للناس إلى الشىء وتقديمه له .

كذلك الشأن فى صغيرات الأمور ومحقراتها . . . بعض الناس يضخم أمرها ، ويعظم شأنها على حين يراها بعض آخر أصغر وأحقر مما عليه أمرها . . . وذلك حسب ما عند كل من الفريقين لها فى خاصة نفسه ، ثم يبقى لها وراء هاتين النظرتين النظرة التى يراها فيها الناس على ما هى عليه فى الحياة . . . تلك النظرة المتجردة من الميل إليها ، أو الانحراف عنها . وفى هذا يقول « المتنبى » :

وتعظم فى عين الصغير صغارها وتصغر فى عين العظيم العظام
ولقد ضبط الأدب العربى كثيراً من هذه الصور التى تختلف فيها نظرات
الناس إلى الأشياء ، حيث ينفضون عليها من مشاعرهم ألواناً وظلالاً ..
فى كتاب « البيان والتبيين » عقد الجاحظ فصلاً من فصوله المتممة ، صور
فيه هذه المفارقات البعيدة التى تقع بين الناس فى نظرتهم إلى الأشياء من خلال
رغباتهم الخاصة ، ونزواتهم الذاتية . . .
وقد عرض مواقف كثيرة وقعت فيها هذه المفارقات .. نكتفى بذكر
شىء منها .

١ - السرور :

- قيل للحصين بن المنذر : ما السرور ؟
فقال : امرأة حسناء ، ودار قوراء ، وفرس فاره مرتبط بقاء .
- وقيل لضرار بن الحسين : ما السرور ؟
فقال : لواء منشور ، وجلس على السرير ، والسلام عليك أيها الأمير (١) .

(١) يعنى بالأمير نفسه ، أى أنه يرى أن السرور لا يتم ، والمادة لا تكمل إلا إذا كان صاحب إمارة ، حيث يسلم الناس عليه باسم الأمير .

• وقيل لعبد الملك بن صالح : ما السرور ؟

فقال :

كل الكرامة نلتها إلا التحية بالسلام^(١)

• وقيل لعبد الله بن الأهم : ما السرور ؟

فقال :

« رفع الأولياء ، وحط الأعداء ، وطول البناء ، مع القدرة على النجاء » .

• وقيل للفضل بن سهل : ما السرور ؟

فقال :

« توقيع جائز ، وأمر نافذ »^(٢) .

فهذا مطلب من مطالب الناس ، ورغبة من رغائبهم ، وهو «السرور»
ويعنى به السعادة - قد اختلفت وجهة نظرهم فيه ، وفي وسائله . . . فما يحقق

السعادة لشخص ، شيء يختلف عما تتحقق به السعادة لشخص آخر . . . !

فإذا كانت السعادة كما عرفها بعض الحكماء هي : « إدراك الملائم » كان

معنى هذا أن الملائم لا يكون شيئاً واحداً محمداً ، وإنما هو أشياء كثيرة

لا تحصر ، إذ لكل إنسان ما يلائمه من طعموم الحياة وألوانها .

ولولا ثلاث هن من عيشة الفنى

وجدك لم أحفل متى قام عودى

فهن سبق العذلات بشربة

كيت متى ما تعسل بالماء تزبد

وكرى إذا نادى المضاف مجنبا

كـيـد الغضاء نهته المتورد

(١) يعنى السلام بالإمارة .

(٢) التوقيع الجائز : كتابة عن الدولة والسلطان ، حيث كان الخلفاء والولاة توقيعات على

المظالم والمطالب التى يتقدم بها الناس إليهم ، فينفذ لهم ما يوقعون به .

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب

بهيكته تحت الطراف المعمد

فهذا طرفه بن العبد الشاعر الجاهلي ، وصاحب المعلقة التي منها هذه
الآيات ، يجعل حياته كلها محصورة في هذه المطالب ، وهي الحر ، ونجدة
المستصرخ به ، ثم امرأة شابة جميلة وخيمة في يوم ممطر !
وحين استمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى هذه الآيات تنشد
عنده قال :

« لولا أن أسير في سبيل الله ، وأضع جبهتي لله ، وأجالس أقواماً ينتقون
أطياب الحديث كما ينتقون أطياب الثمر لم أبال أن أكون قدمت ا (١) .
وكل إناء بما فيه ينضح ، كما يقولون .. »

لقد كانت حياة الجاهلية هي التي عبأت مشاعر طرفه بن العبد وملاّت
كياته بهذه النزعات ، فنضحت بهذه الأمانى التي جعلها غاية الحياة عنده .
على حين امتلاّت مشاعر عمر ونزعاته بما حملت دعوه الإسلام إلى الناس من
خير وهدى ، فكانت الحياة عنده ميدان عمل للسعي في هذه المطالب العالية

* * *

وأثر البيئة ، والثقافة ، والحرفة ، ينضح دائماً على أفكار الإنسان فتظهر
وعليها سمات بارزة ، من بيئته ، وثقافته وحرافته ..

ويعرض الجاحظ صوراً كثيرة تكشف من مدى تأثير الإنسان بظروف
حياته وأحوالها ، وبما يتقلب فيه في هذه الحياة من أعمال وشؤون ..
ومن ذلك ما برويه الجاحظ مما سمع ، أو شاهد ، أو تخيل !
فيل لطفيلي . كم اثنين في اثنين ؟ فقال : أربعة أرغفة !

ويقول الجاحظ : « قلت للملاح لى . وذلك بعد العصر في رمضان : انظر
كم بين عين الشمس ، وبين موضع غروبها من الأرض » فقال : « أ أكثر من

(١) انظر في هذا : البيان والبيان للجاحظ جزء ٢ ص ١٤٢ - ١٥٧ .

مردين ونصف ! » (١) .

ويقول : « قال رجل ملاح : وقع علينا اللموس ، فأول رجل دخل علينا السفينة كان في طول هذا المردى ، وكان نخذه أغلظ من هذا السكان ، واسود وجه صاحب السفينة حتى صار أشد سواداً من هذا القير » .

وهذا اللون يسميه البلاغيون إظهار المطلوب ، حيث تظهر فيه رغبات النفس ومطالبها . ويسوقون لهذا مثلاً مشهوراً هو قول الشاعر ، وقد نزل ضيفاً بقوم ، فأرادوا مبالغته في إكرامه أن يسألوه عما يحب من ألوان الطعام ليهيئوه له . . فقال :

قالوا اقترح شيئاً نجد له طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقيصا ا

فهذا يكشف عن أن الشاعر كان يحلم بجبة وقيص يظهر بهما في الناس ، وأن شهوته إليهما أكثر من شهوته إلى الطعام .

* * *

هذا ، وقد يقع الناس تحت ظروف معينة فينفصل بعضهم عن بعض انفصالا شعورياً ، ويعيش كل واحد منهم في عالمه الذى يهيئه لنفسه ، غير مؤثر أو متأثر بغيره . . وفي هذا الجو تفقد اللغة وظيفتها ، أو تتخلى عن الجزء الأكبر منها ، حيث يكون للأفراد عوالمهم التى يعيشون فيها ، ولغاتهم التى يناجون بها أنفسهم ، فى صحوهم ونومهم . .

وقد لفتت هذه الظاهرة — ظاهرة فقدان اللغة لوظيفتها فى أدب اللامعقول — لفتت الأنظار إلى البحث عن البواعث النفسية ، أو الاقتصادية ، أو الاجتماعية التى أدت إلى ظهور هذا الأدب فى هذا العصر . . وقد اختلفت الآراء حول الدوافع التى دفعت بهذا الأدب فى حياتنا المعاصرة . . ولعل

(١) المردى . . يضم للميم وسكون الراء ، وكسر الدال ، بعده ياء مشددة : هو خشبة يدهم بها الملاح السفينة .

أقرب هذه الآراء إلى الصواب في هذا الأمر ، هو الرأي الذي يعزو ظهور هذا اللامعقول إلى ما نجم في هذه الحياة المعاصرة ، من مشكلات قاسية شغلت كل إنسان بنفسه ، جعل يطلب لها وجهاً من وجوه النجاة ، وقد عصفت بسفينته التي يبحر بها عباب الحياة ربيع طانية ، تكاد تلقى به لجة المحيط الصاخب الهادر ، فكان ذلك داعية إلى أن تتقطع العلائق الإنسانية بين الناس ، ومن بينها العلاقات اللغوية .

يقول الدكتور مندور في حديثه عن مسرحيات اللامعقول ، وعن مسرحية « المغنية الصلحاء » ليوجين بونسكو . . يقول عن هذه المسرحية : « إنها تلقى الضوء على مشكلة اللغة ، وهل لانزال وسيلة للتفاهم بين البشر أم أنها قد فقدت هذه الوظيفة ، فأصبح الناس يبدو عليهم أن أحدهم يحادث الآخر بواسطة اللغة ، بينما كل منهم مشغول عن حديث الآخر بمشاكله الخاصة ، فهو في واد وزميله في واد آخر . . وذلك بحكم أن تعقد الحياة المعاصرة وكثرة مشاكلها وهمومها وقد جعلت كل فرد ينطوى على ذاته ، ويفرق في همومه الخاصة ، بحيث لا يستطيع أن يصفى إلى حديث غيره ، وأن يشاركه هذا الحديث ، ولو كان جالساً إلى جواره وفي مواجهته ! » (١) .

وفي هذا التفسير لظاهرة اللامعقول شيء من الوجاهة ، بل يكاد يكون هو التفسير الصحيح لهذا العمل ، إذا وقف به عند حدود أصحابه الذين خرجوا على الحياة ، وعرضوه على الناس . . إذا هو لاشك وليد صدمات نفسية قاسية أو نتائج رياضيات ذهنية عنيفة انتهت بأصحابها إلى ما انتهت إليه الرياضيات الصوفية بأهلها ، فكانت لهم لغات وألسنة قل أن يفهما عنهم أحد ، وقل أن تفهموهم عن بعضهم . . فهذه الوثبات الذهنية البعيدة الجائحة ، التي فظهر في أدت اللامعقول ، والتي تقطع أواصر اللغة بين الناس ، وتمزق وحدة

(١) مجلة المسرح — المجلد التاسع من السنة الأولى [سبتمبر ١٩٦٤] عن مقال [الأصول الدرامية وتطورها] .

التفاهم فيما بينهم — هي أشبه بالسطحات الذاهلة التي تظهر في أدب المنصوفة..
كلامها عمل ذاتي .. لا يعيش إلا في أهله ومع أهله .. فإذا خرج عن بيئته
تلك اختنق ومات !

ومع هذا فإننا نكرر القول بأن لكل إنسان ، وفي كل إنسان ؛ ذاتية
يلقى بها الأشياء ، ويتعاطف بها معها .. ولكن ذلك كما قلنا شيء زائد على
ما في الإنسان من إنسانية ، تجمع بينه وبين الناس على رأى ما ، في الأشياء ،
وتقيمه على وفاق معهم ، في نظرهم إليها ، وتعاطفهم معها .
ونقول : إن مثل هذه المعطيات التي يتلقاها الناس من الأشياء بوجوداتهم
ومشاعرهم ، ليست في الواقع إلا رموزاً كشفت عنها قراءتهم الخاصة ،
للأشياء ، وتعاطفهم معها .

ولاشك أن مثل هذه الرمزية ليست مما يمكن أن يحسب على الفن ، أو
يضاف إليه .. وإلا لحسب كل شيء — أياً كان — فناً ، لأن كل شيء فيه
قدر ما من الرمز الخفي الذي تجسده المشاعر الذاتية للناس ؛ وتشكله نزواتهم
وأهوائهم ، على الصورة التي يشتمونها ويتشوقون إليها .
وأصحاب الرمزية الحديثة يفهمونها هذا الفهم ، ويريدون أن يدخلوا بها
أو يدخلوها في الأدب كله .. قديمه وحديثه ، جميعاً .

أما الأدب القديم ، فإنهم يريدون أن يقيموا فهمه على تلك الرمزية ،
وأن يعرضوه في معارضها ، حيث يضعه الإنسان في الإطار الذي يريد أو
يتصوره .

وأما الأدب الحديث فإنما يريدون أن يصوغوه في صياغة مصبوبة في
قوالب هذه الرمزية ، مدموغاً بها !

ونظرة فاحصة إلى هذه البدعة التي يراد رمي اللغة العربية بها — ترينا
الخطر الذي يهدد اللغة العربية وآدابها وعلومها .

وانظري بعض ماينجم من بلاء لوأن هذه الآفة نزلت بأفاق اللغة العربية :
(٢٤ - القصص القرآني)

فأولاً: يتحول التراث العربي كله إلى طلامس ، حيث تتخلى فيها الكلمات والعبارات عن مدلولاتها اللغوية والبلاغية ، وتصبح جثنا هامدة ، وعلى الناس - من يريد منهم - أن ينطق هذه الكلمات والعبارات بما يشاء ، أو بمعنى أدق ينطق هو عنها بما توسوس به نفسه ، وترى به إليه هو اجسه .. وأغل ما في هذا المذهب أنه يذهب بمشخصات اللغة العربية ، ويضع معالمها ، فلا يكون لها وجه يراه الناس فيه ، ويتعرفون به عليها .

وثانياً : يصبح الناس - أعنى العرب - ولا لسان يجمعهم ولا مشاعر تربطهم ، ولا أفكار تؤلف بين قلوبهم .. إذ قد انحلت رابطة اللغة التي تقوم بهذه الوظائف فيهم ، فهي التي يردون مواردها ، ويتزودون منها معارف ذات لون معروف ، تتشكل منه آراؤهم ومنازعتهم في الحياة .

وماذا لو أخذت هذه الرمزية مذاها ؟

وأعجب ما في هذه « البدعة » أنها تجعل القرآن الكريم مركز ديبها ، ونقطة منطلقها ، لتصيب اللغة في صميمها ، وترميها في كيدها ، فتصيب منها المقاتل ! .

والقصة في القرآن هي المجال الذي تتحرك فيه هذه الجملة ، التي تضم أخلاطا من الناس . منهم المسلم وغير المسلم ، ومن يتزيا بزي الدين ، ومن خلع زي الدين .. ذلك أن القصص من طبيعته - كفن - أن يتسع لمثل هذه البدع ، فأكثر ما حمل الفن تحت اسمه ، من ضلال وبهتان ! .

فالقصاص القرآني - كما وهم أصحاب الرمز - يمكن أن يكون بيثة صالحة لغرس هذه البدعة وأشباهاها في مغارسه .. وأنه باسم الفن وتحت رايته ، يمكن أن تندس هذه القرية بين ثناياه ! .

وخابوا ، وخاب تدبيرهم ! فإن من شأن ما كان على الصحة والسلامة أن ينفي الخبث عن وجوده ، سواء في ذلك ما كان من ناديات الحياة أو معنوياتها فالعين السليمة في الجسم السليم إذا دخل عليها جسم غريب فاضت عليه من

مائها فأغرقتة ، ثم لفظته .. والصفحة الناصعة البياض تفضح أية ذرة سوداء تقع عليها .. وهكذا القرآن ، وقصص القرآن ، فإنهما من الصحة والسلامة والشفافية ، بحيث لا تسكن إليهما الأباطيل ولا تستقر في حماتها المقتربات !

« والرمز » الذي يدفع به « الرمزيون » إلى ساحة القصص القرآني هو باطل الأباطيل .. من حيث أنه في ذاته لا يصلح أن يستقيم عليه أي فن من فنون القول ، سواء أ كان شعراً أم نثراً ، وسواء أ كان قصصاً تاريخياً أم أسطورياً .. لأن هذه الرمزية — كما قلنا — لا تعترف للغة بمدلول كلماتها ومفهوم أساليبها ، وإنما تنزع عن اللغة هذه السمات التي يعرفها الناس بها ، ويتعاملون فيها بينهم عليها .. ثم تحيل كلماتها إلى أشباح غارقة في ظلام .. يقول فيها كل إنسان بما يضطرب في خاطره ، ويموج في خيالاته !

ومن عجب أن يتباكي هؤلاء « الرمزيون » على القصص العربي ، وأن يظهروا الوله والحزن عليه أن فاتته تلك « الرمزية » التي أخذت الآداب غير العربية بنصيب موفور منها !

وإذ رأى هؤلاء المتباكون على القصص العربي أن « المسيحية » قد أسعفت أبناءها بحاجات الفن كلها من الرمز ، وأنها قد أتاحت لهم أن يخلقوا ويبدعوا ، حتى لقد تأثر بهذا كثير من الأدباء المسلمين ، وخاصة في الشعر الحديث — إذ رأوا هذا فقالوا ، وما لنا نستجدي من المسيحية وفي ديننا من الرمزية ما يعلأ أيدينا ، ويسد مطالبنا الفنية في كل جانب من جوانب الفن ؟

ولا ندرى ماذا نقول لهؤلاء الأصدقاء ، وخير منهم الأعداء العقلاء .
ماذا نقول لهم ؟

لنفرض أن الشعر الحديث الذي تريدون أن تستنقدوا أصحابه الذين غرقوا في الرمزية المسيحية — لنفرض أن هذا الذي يسمى شعراً حديثاً ذهب جملة هو وأصحابه .. بل لنفرض أن الشعر العربي كله ، والقصة العربية وغيرها من فنون القول قد تكسد سوقها ، وتبور تجارتها — إذا لم تدخل هذه الرمزية

في كيانها .. أذلك يقتضينا أن نضحى .. بالقرآن ، وبما حمل القرآن من عقيدة
وشريعة ، في سبيل أن نكسب حفنة من « هلافت » الشعراء أو القاصيين
- إن كان هذا كسباً . أو أن نزوج للأدب العربي بهذا الأسلوب الانتحاري
من أساليب الترويج ؟ . إن ذلك هو الضلال البعيد ، وهو الخمران المبين
لوجودنا كله !

ولا .. أيها الأصدقاء الألداء !

لا يخيفنكم أن تروا في الشعر الحديث أو في القصة الحديثة مما يكتب
باللسان العربي - لا يخيفنكم أن تروا فيهما هذه الرمزية المسيحية مطلة بوجهها
فإن ذلك أمر لا بد منه ؛ إذ كانت هذه المقطعات مما يسمى شعراً حديثاً ،
وهذه الأقسام - مما يسمى قصصاً - إنما هي مترجمات عن الأدب العربي
المسيحي ، أو المتأثر بالمسيحية ، وهي ترجمة تكاد تكون حرفية ؛ ألزم فيها
أصحابها النص الأصلي كما هو ، دون أن يكون لهم من شخصياتهم قدرة على
الخلق والإنشاء أو حتى تغيير بعض سماتها وتحوير بعض أشكالها . فهذا
الشعر ليس عربياً في أفكاره ؛ ولا في أخيلته ، ولا في قالبه ، ولا في موسيقيته
وإنما كل حظه من العربية ، تلك الكلمات المهلهلة التي نسج منها .. وكذلك
الشان في القصص الرمزية .. كلمات عربية .. تحمل أفكاراً ؛ وأخيلة ، ومنازع
ومشارب لا تعرفها لغة العرب ولا العرب !

وإذن فالمصيبة هينة ، بل لا مصيبة أصلاً ، بل لعله خير وخير كثير - إذا
ذهب هذا الشعر الرمزي ، وهذا القصص الرمزي ، وهما لاشك ذاهبان وشيكاء ،
حين يجد أنهما غريبان ، محفوان من كل عين تنظر إليهما ، محقران في كل
معرض يعرضان فيه .

القرآن ، وقصص القرآن ، وهذه الرمزية :

وندع هذا كله ..

وننظر في القرآن الكريم ، وفي القصص القرآني حين تفترض فيهما
الرمزية أو تفترض عليهما .

ولا نعيد الحديث عن هذه الرمزية العمياء ، التي تضيع معها مدلولات اللغة ومفاهيمها ، فقد قلنا في هذا مافية الكفاية ، لفضحها ، وكشف آثارها المدمرة للتراث العربي كله ..

وحسبنا أن نعرض شواهد عملية وقعت في مفاهيم كثير من أصحاب المذاهب والنحل — حين نظروا في القرآن الكريم نظرات تخرج بالنص القرآني عن مدلول كلماته ومفاهيمها اللغوية ، وحين أباحوا لأنفسهم أن يخرجوا الآيات الكريمة ، ويقولوها ، على أهوائهم ونزواتهم ، وأن يحيلوها رموزاً يجعلون من أنفسهم السدنة الذين بأيديهم مفاتيح أغلاقها ، وعندهم مستودع أسرارها .

وكتب التفسير فيها مثل وشواهد كثيرة لهذا التأويل والتخريج لآيات الكتاب الكريم ، الذي يتخذ من الكلمة منطلقاً ينطلق به في أودية الخيال والأوهام .. ولا نكاد نستغنى من هذا أي كتاب من تلك الكتب التي أغرم أصحابها باصطياد الغرائب وجلبها من كل واد إلى حرم القرآن .. وتفسير « الخازن » يمثل الذروة التي بلغتها التفاسير في الإغراب والتحطيط .. من كل غث وسمين .

وإليك مثلاً من تفسير الخازن لكلمة « يأجوج ومأجوج » التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى — في قصة ذي القرنين — : « قالوا ياذا القرنين .. إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض .. فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً » .

يقول الخازن في تفسيره ليأجوج ومأجوج :

« إن يأجوج أمة ، ومأجوج أمة ؛ وكل أمة أربعة آلاف أمة ، ولا يموت الرجل منهم حتى يرى من صلبه ألف رجل قد حمل السلاح ! . وهم ثلاثة أصناف : صنف منهم أمثال الأرز — شجر بالشام طوله عشرون ومئة ذراع — وصنف منهم عرضه وطوله سواء ، عشرون ومئة ذراع ؛ وهو لا يقوم له جبل ولا هديد .. وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ويلتحف

بالأخرى ، ولا يجرّون بفيل ولا وحش ، ولا خنزير إلا أكلوه .. ومنهم من طوله شبر ١ .

وهكذا يحمى الخازن في خلق هذه العوالم ، وفي إخراجها على الصورة التي يراها ، وكأنه بهذا إنما يستعرض قدرة الله ، وبديع صنعه في عرضه هذه العجائب على الناس ١١ . وهي كلها من مواليد الخيالات والأوهام ! وقد ذهب كثير من المفسرين هذا المذهب ، وأخذوا به .

وجاء في الخازن أيضاً عن حملة العرش : « أن من حملة العرش من صورته على صورة الإنسان ، ومنهم من صورته على صورة النمر ، ومنهم من صورته على صورة الثور ، ومنهم من صورته على صورة الأسد ١١ » وهذه الصور لاشك بعيدة عن الحق الذي جاء به القرآن الكريم ، وما اطلع أحد على الملائة الأعلى . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ، فكيف تصح بعد هذا تلك المدعيات ؟ « أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون » .

ومن عجب أن « الزمخشري » ذا الحس البلاغي السليم يندفع في هذا الطريق ، ويدلى بدلوه مع المدلين فيه .

فقد فسر الزمخشري الآية الكريمة التي تتحدث عن الرسول والذين آمنوا معه : « ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه ، فأزره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه » فيقول : إن هذا مثل ضربه الله لبده الإسلام وترقيه ، فأخرج شطأه بأبي بكر ، وأزره بعمر ، واستغلظ بعثمان ، واستوى على سوقه بعلي ! .

وهذا في النظر في الآيات الكونية ، ونحوها من الأمور التي لم يقع فيه خلاف مذهبي !

أما حيث وقع خلاف مذهبي في أمر ما فقد تنازع المتنازعون آيات الكتاب الكريم ، وأراد كل فريق أن يأخذها إلى جانبه ، فكانت تلك المقولات المتخالفة المتضاربة ، التي لا تنظر في الآية القرآنية بقدر ما تنظر إلى ما تتطلبه حاجتها ، ويحتاج إليه مذهبها .

وقد كان لبعض فرق الشيعة صولات وجولات في تخريج آيات القرآن الكريم . . على الوجه الذي يرضى عاطفتهم ، وينغذي نزعتهم .. فأقاموا من هذه التخريجات أو على هذه التخريجات عقيدتهم ..

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه « القرآن المجيد » .

« رأى مفسروا الشيعة وباحثوهم في كثير من آيات القرآن وعباراته إشارات ورموزاً إلى علي وفاطمة والحسن والحسين ، مثل قوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان » فهي ترمز إلى علي وفاطمة ، ومثل قوله سبحانه : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » رمز إلى الحسن والحسين ، وقوله تعالى : « هذا خصمان اختصموا في ربهم » ترمز إلى علي وخصومته لدى ربه مما وقع عليه من حيف في الخلافة ، وقوله تعالى : « أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » ترمز إلى علي يوم رجعتة ا^(١) .

فانظر كيف تخلق من هذه النظرات الرمزية إلى القرآن الكريم - تلك المقولات وأمثالها ، وهي كما ترى قد حرفت الكلم عن مواضعه ، وجاءت بضلالات وأباطيل ، فأقامت منها عقيدة ودينًا .

o o o

فكيف يكون الحال لو سلطت هذه الرمزية التي يقول بها أولئك الرميون المجددون - على القرآن الكريم ، وعلى مافيه من أحكام وتعاليم ؟ أيكون للإسلام بعد هذا رساله معروفة يتلقاها الناس عنه ، ويتعاملون بها ، ويجتمعون عليها ؟ وكيف ؟ والرمزية - من فضائلها ا - أنها تهدر مفاهيم اللغة ، وتلغى مدلولاتها ، وتقيم من نفسها مدلولات ومفاهيم ، تتوارد من خواطر الناس وأهوائهم ، وتفيض من أوهامهم وخيالاتهم ؟
أتريد لهذا مثلاً واقعاً ؟

انظر !

لقد أشرنا منذ قليل إلى بعض التأويلات الشيعية لآيات من القرآن الكريم

تخدم آراء أصحابها في القضية التي يدافعون عنها ، وقد رأينا كيف تحولت هذه التأويلات إلى عقيدة دينية آمن بها أصحابها ، وتعبدوا عليها ، على غير ما يعرف المسلمون من الإسلام ، وما يدينون به ، ويتعبدون عليه .

و « الشطحات » التي نجدها عند بعض الصوفية هي من مستولدات « الرمزية » ، وكثير من هذه الشطحات قد وضع أصحابها في مواقف حرجة من العقيدة الإسلامية ، وقد رمى كثير من المتصوفة بالكفر ، والإلحاد ، والمروق من الدين بسبب هذه الرمزية التي دخلوا بها على نصوص الشريعة ، فأحالوا مفاهيمها إلى مفاهيم خاصة بهم ، وهي وإن كانت تظهر على ألسنتهم في أحوال التواجد والانتشاء ولكنها حين تعلن في الناس تصبح مقولة من المقولات ، ينظر إليها الناس غير ملتبسة بشيء من أحوال أصحابها ومفاهيمهم الخاصة العالقة بها ، فيرون ما فيها من تحريف للكلم عن مواضعه ، وعدول به عن وجوهه التي عرفها الناس له .

ولو جاز لنا أن نتسامح للرمزية الصوفية بأن تعيش في هذا المحيط المحصور في المتصوفة ، حيث يفهمونها ويتفاهمون بها ، فإننا لانستطيع أن نقبلها في مجال الحياة ، لافي لغة التخاطب ، ولا في لسان الشريعة .. حيث يعيش الناس معها في ضباب كثيف ، لا يرى فيه أحد وجه صاحبه ، وحتى كأن الناس على تلك الصورة التي رسمها « المعري » في قوله :

وبصير الأقوام في مثل أعمى فهموا في حنّس تصادم

ولابأس من أن نعرض هنا بعض التماذج لتلك الشطحات الصرفية ، التي وقفت في مجال التفسير لبعض آيات القرآن الكريم ..

يقول الشيخ علي وفا ، وقد سئل عن معنى قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : « فمن تبعني فإنه مني » — يقول : « في كل صورة آدمية ، آدم والملائكة له ساجدون ، وهكذا حقائق الأئمة ، كل منها كلى بالنسبة إلى أتباعه ، فهم هو مجملًا ، وهو هم مفصلاً^(١) » .

وسئل الشيخ « على الخواص » عن قوله تعالى : « وإذا الموهودة سئلت بأى ذنب قتلت » فقال الروح لم تقتل لأنها حية ، وإن قتلت فيه قتلت ، وإن سئلت فيه سئلت ، فقائلها هو محيها بقتلها ومماتها ، والموت عدم العلم ، والعلم عند الله تعالى ، لأنه هو العالم بالقاتل وما يستحقه ، جزاؤه عليه ، رجوعه إليه (١) .

واستمع إلى تفسير ابن عربي لقوله تعالى : « بأىها الناس اتقوا ربكم » . يقول ابن عربي : « اجعلوا مآظير منكم وقاية لربكم ، واجعلوا ما بطن منكم ، وهو ربكم ، وقاية لكم .. فإن الأمر : ذم وحمد ، فكونوا وقايته في الذم ، واجعلوه وقايتهم في الحمد ، تكونوا أدياء عالمين » (٢) .

وقد يكون لهذا الكلام المرموز مفهوم عند ابن عربي ، ولكنه في المفهوم العام الذي يتلقاه الناس عن اللغة علباس ومعميات ، بل كفر وضلالات ، وهذا ابن عربي يقول أيضاً في الوضوء :

توضاً بماء الغيب إن كنت ذا سر

وإلا تيمم بالصعيد وبالصخر

وقدم إماماً كنت أنت إمامه

وصل صلاة الفجر في أول العصر

فهذى صلاة العارفين بربهم

فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر

فهذا كلام عرابي ، صرف عن حقائقه اللغوية التي تعارف عليها أصحاب هذه اللغة العربية .. ولن يستطيع أحد من علماء هذه اللغة وأدبائها أن يعرف المدلولات التي أرادها عليها ابن عربي هنا .

ولكن الشيخ « محمد أبو المواهب الشاذلي » استطاع — كما ادعى — أن يفك رموزها ، وأن يصرح بمكنونها .. فيقول :

(١) طبقات الشعراي - الجزء الثاني ص ٦٨

(٢) الفصوص ٠٠ لابن عربي ص ٣٩

« المراد بالوضوء طهارة أعضاء الصفات القلبية من النجاسات المعنوية .
« وماء الغيب خلوص التوحيد ، فإن لم يخلص لك بالعيان ، فتظهر
بصميد البرهان !
« وقدم إماماً كان إمامك يوم الخطاب ، ثم صرت أنت إمامه بعد
سدل الحجاب .

« وصل صلاة الفجر التي هي صلاة نهار كشف الشهود ، بعد حجاب
ظلمة الوجود - أول العصر الذي هو أول زمان انفجار جرك ، ولا تتأخر
لآخر دورك ، لأن الحكم للوقت ، والتأخير له مقت .
« فهذه صلاة العارفين بربهم ، وهم الذين لم يخرجوا عن متابعة الأحكام
الشرعية في جمع مشاهدة الربوبية !
« فإن كنت منهم فانضح ، يعني اغسل بماء بحر الحقيقة ماتدنس من بر
الشريعة » (١) .

وهذا الشرح - كما ترى - قد زاد الأمر غموضاً ، وألقى إليه بكثير من
الرموز الصوفية الكثيفة !

فما هي أعضاء الصفات القلبية ؟ وما هو صميد البرهان ؟ وما يوم
الخطاب ؟ وما سدل الحجاب ؟ وما انفجار الفجر ؟ وما ماء الحقيقة ؟ وما بر
الشريعة ؟ .

إنها جميعاً تلامس واردة على قاموس اللغة .. وما شأن القارئ لها ، إلا
شأن المنجم الذي وصفه المعري بقوله :

وكان منجم الأقوام أممي لديه الصحف يقرؤها بلس
ونختم هذه الكلمة ، وقد نهينا إلى الخطر الذي يكمن وراء هذه الرمزية
التي يبشر بها اليوم مبشرون باسم التجديد حيناً ، وباسم الغيرة على اللغة
العربية وآدابها أحياناً ، ثم باسم الغيرة على العقيدة والحفاظ عليها من الغزو
المسيحي أحياناً أخرى ، وهذا هو أعجب أعاجيب الزمان !

وقد بقي أن يتنبه أولوالغيرة الصحيحة من أبناء هذه اللغة ، وأهل هذا الدين ، ليدفعوا عنهما هذه الضلالات التي يلقي بها في ساحتها .

فلقد استيأس الكأبدون للإسلام أن يلقوه وجهاً لوجه ، بالتشويش على مبادئه ، أو التحريف في كلماته ، أو التجديف على رسوله ، أو التشكيك في الكتاب الذي جاء به - استيأس أعداء الإسلام من هذا كله ، فجاءوا إليه من طريق خفي ، من طريق إفساد اللغة ، واستحداث لغة جديدة ، ذات وجوه جديدة ومفاهيم جديدة ، وبهذا تركد بناييع القرآن ، وتمجر مواردہ وتتعطل شرائعه ، حين تستغلق على الناس كلماته ، وتستعجم آياته .

إن هذا الكيد الذي يكاد للغة العربية في هذه الأيام هو كيد يراد به الإسلام ، وكتاب الإسلام .

وهكذا نستطيع الآن - وبعد أن كشفنا عن وجه هذه الرمزية الشائهة - أن نسقط هذه الرمزية من حساب العمل الفني في أدبنا العربي عامة ، وفي نظرتنا إلى كتاب الله الكريم خاصة ، وألا نلتفت إليها إلا التفاتاً إلى مرض خبيث معد ، تحمل جراثيمه جماعة من « وارد » الإلحاد الغربي ، وهي لا تزال بعد في دائرة العزل الاجتماعي في أوطاننا العربية ، فلنرقبها في بقطة وفي حذر حتى تشفي أو تموت بدائها .

ألا هل بلغت ؟

اللهم فاشهد !

الباب التاسع

منهج في دراسة القصة القرآنية

القرآن ولغة القرآن :

القرآن الكريم رسالة سماوية إلى الناس جميعاً .. تدعوم إلى الله ، وتقيم وجوههم إلى الدين القيم ، الذي ختم به رسالات السماء .

واتخاذ هذه الرسالة اللسان العربي أدواتها المعبرة عن مضمونها ، هو شرف عظيم لهذا اللسان ، وتشريف ، وتكريم لأهله .. ثم هو من جهة أخرى شهادة سماوية ، وتزكية إلهية للغة العربية بأنها أعدل اللغات وأقومها ، وأكثرها اقتداراً على حمل هذه الرسالة السماوية الكريمة ، وأن هذا من شأنه أن يقيم اللغة العربية بالمقام الذي يجعلها مهيمنة على اللغات كلها ، كما جعل الرسالة التي حملتها ، والكتاب الذي نزل بها - مهيمناً على الرسائل والكتب السماوية التي سبقته ! إذ يقول الله سبحانه : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » (١) .

وليس هذا النظر إلى مقام اللغة العربية ومكانها عن محاباة أو تعصب منا ، لداعي النسب أو القرابة الذي بيننا وبين هذه اللغة ، وإنما ذلك عن حق غفل عنه أهله ، وعن حقيقة تراخت أيدي أصحابها عن الاستمسك بها .. وأنه إذا كانت اللغة العربية قد زهد فيها من زهد أهلها ، وكفرت بها من كفر من المحسوين عليها ، فراحوا يرمونها ، ويرمونها بالنقص والتقصير عن تلبية حاجات الفن والعلم ، ثم جعلوا ينسجون لها رقماً من هنا وهناك ، يدخلونها عليها ، ويلصقونها بها باسم التجديد .. في شكها ومضمونها .. في أساليبها

وأفكارها .. في شعرها ونثرها .. حتى لقد غطت هذه الرقع وجه اللغة ، وأخفت معالمها .

وحسبك أن تنظر إلى بعض هذه الأعمال التي يخرجها أصحاب التجديد في الشعر، لتعرف إلى أي منحدر تنحدر اللغة العربية ، وإلى أي مصير تصير !
نقول : إذا كانت اللغة العربية قد أصبحت بهذا الوضع في أهلها وعند المحسوبين عليها — فإن ذلك لا ينقص من قدر هذه اللغة ، ولا يغير شيئاً من منزلتها التي أنزلها الله فيها ، فهي باقية على صحتها وسلامتها ، لا يغيرها الغير ، ولا يخف ميزانها إذا هي لم تجد العزائم التي تمسك بها ، وتجنّي الكريم الطيب من مغارمها .. شأنها في هذا شأن الكتاب الكريم الذي نزل بها ، والرسالة الكريمة التي أودعها الله فيها .. فما تنغير معالم الشريعة الإسلامية ، ولا يشوه وجهها إذا ما تغيرت نفوس المسلمين ، وشاهدت عقيدتهم ، بما استقبلت من ضلالات وأباطيل .. فإنه إن يضعف جيل من أجيال المسلمين : أو جماعة من جماعاتهم من حمل هذه الرسالة الكريمة ، فلسوف تأتي الأيام بأجيال وجماعات يجلبون عن وجه هذه الرسالة ، ويقطفون الكريم من ثمارها .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »^(١) ، ويقول سبحانه : « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »^(٢) .

هذا ، وكما حقق الله سبحانه وتعالى وعده بحفظ القرآن الكريم من عوادي التبديل والتحويل والضياع في قوله جل شأنه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنّ له لحافظون »^(٣) — فإنه سبحانه قد حقق في ظل هذا الوعد الكريم أيضاً حفظ اللغة العربية وبقائها على مرور الزمن .. في ألفاظها ، وأساليبها ، وحقائقها ، ومجازاتها ، وأضوائها ، وظلالها ، ومعطيات مفرداتها وموحيات

(١) سورة محمد : ٣٨

(٢) سورة المائدة : ٥٤

(٣) سورة الحجر : ٩

تراكيبها .. إذ كان لاحفظ للقرآن الكريم إلا بحفظ لغته التي نزل بها ،
وحفظ اللسان التي ينطق بها ، وحفظ الأمة التي تشهد إعجازها الذي ضم
عليه كتابها .

إن الشمس قد تنكسف ، وقد يمتجب وجهها بالسحب المتكاثفة ، زمنا ،
قد يطول ، ولكنها ستشرق يوما ، وستطلع على الحياة وعلى الناس بماعدت
الحياة ، وبما عهد الناس من ضوئها ، دون أن يفقدوا شيئاً منه .. ويريدون
ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون (١) .

ماذا وراء هذه الحقيقة ؟

ومؤدى هذا القول الذي نقوله فى اللغة القرآنية ، هو أن نلتزم النص
القرآنى ، ونقف عند مدلول اللغة لهذا النص ، دون أن نتجاووه . ومن غير
أن نلقى عليه من مشاعرنا الذاتية ، ونوازعنا الشخصية ، دلالات ومفاهيم ،
هى فى الواقع غريبة عن النص القرآنى ، دخيلة عليه .. وهذا تبديل لكلمات
الله ، وتحريف لها عن مواضعها . ولعل هذا هو السبب الذى من أجله
وقف كثير من الصحابة ، وكثير من التابعين عن أن يفسروا شيئاً من كتاب
الله ، أو أن يعطوا مدلولاً خاصاً لآى كلمة من كلماته .. لاعن قصور منهم عن
التعرف على مافى كلمات الله من دلالات ومعطيات .. وكيف وهم خزائن تلك
الرحمة المنزلة من السماء ، وخزنة أسرارها ؟ ولكنهم كانوا يعرفون آيات
الله وكلماته حرمتها وقداستها ، كما كانوا يدركون الأنوار العلوية المشرقة من
وجوهها ، فيجدون إذ ذاك أن كل كلام إلى جانب هذا الكلام غشاء ، كمناء
السيل ، ولهذا كانوا واقفين عند حدود تلك القولة التي تقال عند تأويل
ما يطلب تأويله من آيات الكتاب الكريم : « تأويلها هو تنزيلها » .. أى
أن تلاوتها كما نزلت هى وحدها القادرة على حمل مافيه من معطيات .

ثم إنه بعد أن تراخى الزمن بالمسلمين ، ضعف هذا الإحساس الذى كان يحجده الصحابة والتابعون لقدسية القرآن وحرمة ، كما قصرت أفهام كثير من الداخلين فى الإسلام عن فهم آيات القرآن وكلماته . فتصدى كثير من العلماء لشرح مفردات القرآن ، ثم شيئاً فشيئاً وضعت التفاسير للقرآن كله ، ثم بلغ الأمر غايته حين أباح المفسرون لأنفسهم أن يدخلوا على ماجاء فى القرآن من أحداث وأخبار كل ما بلغ أسماعهم من مقولات الأمم عن هذه الأحداث وتلك الأخبار .. وكان للقصص القرآنى - كما أشرنا من قبل - النصيب الأوفر من هذه المنقولات ، التى ليس فى القرآن عنها إشارة من قريب أو بعيد !

لازيد هنا أن نتحدث عن هذه الغرائب ، وتلك الأساطير والحرفات التى ألقى بها المفسرون بين يدي آيات الكتاب التى عرضوا لتفسيرها .. فكل كتب للتفاسير - إلا النادر جداً - قد حوت الشئ الكثير منه ! وقد أشرنا إلى بعضه منذ قليل !

وإنما الذى يزيد أن نقوله هو أن التزام النص القرآنى واحترامه ، والوقوف به عند دلالات ألفاظه اللغوية .. هو الذى ينبغى أن نقف عنده وأن نأخذ به أنفسنا فى كل موقف نقفه من آيات الكتاب الكريم ، وخاصة فى القصص وما اشتمل عليه من أحداث ووقائع وأشخاص .
وإنه لمن الاجترأ على الحق والافتراء على الله وعلى كتابه أن نحمل القرآن من المفاهيم والدلالات غير ما عرف اللسان العربى لها ، وأن يتجاوز بها إلى غير ما تحمل من مجاز .

وإنه لى يستقيم هذا الشعور فى أنفسنا ، وكى يستقر فى وجداننا ، ينبغى أن نستيقن أولاً وقبل كل شئ أن ليس فى القرآن رمز ولا ألساز ، وأنه كما وصفه الحق جل وهلا فى قوله : « نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين .. بلسان عربى مبين (١) » .. وفى قوله : « كتاب

أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير (١) ، وقوله سبحانه :
« وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل
من حكيم حميد (٢) .

وكون القرآن عربياً مبيناً ، وكونه محكم الآيات منفصلاً - وكونه كتاباً
عزيزاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - كل هذا يقطع بأن دلالة
قاطمة بينة ، ليس فيها غموض ولا إبهام ، الأمر الذي لا يكون مع الرمز
والإلغاز ، الذي من شأنه أن يضل ويعمى .

* * *

لقاء مع القصص القرآني :

وعلى هذا الوجه ، وبهذا الإحساس ، وذلك الشعور - سنلتقي هنا بقصص
القرآن ، بمثلاً في قصة خلق آدم ، وخروجه من الجنة ، وما صاحب هذا الخروج
من أحداث ، ثم في قصة يوسف ، وما فيها من كشف عن أغوار النفس
الإنسانية ، وما يبعث فيها من مشاعر الحب والبغض والخير والشر ، والاستعلاء
والإسفاف ، والهدى والضلال .. إلى غير ذلك مما يحويه عالم الإنسان ، وهو
الكون الصغير الذي انطوى فيه العالم الأكبر .

وتخبرنا لقصة آدم لم يكن إلا عن قصد وتدبير .. إذ كانت تلك القصة محالاً
فسيحاً من تلك المجالات التي كثرت فيها شطحات بعض المفسرين ، وتخييلات
كثير من القصاص ، فألقوا إليها بكل ما وقع لأيديهم .. من أخبار وأساطير ،
وساقوا لها كل ما خطر في وسوسهم وخيالاتهم ، من خرافات وأوهام .
ومن جهة أخرى ، فإن هذه القصة كما كانت مجالاً فسيحاً لاصطباح
الغرائب والخرافات والأساطير - كانت كذلك مستودعاً كبيراً لمستودعات
الرمزية ، حيث يرى الرمزيون تحت كل كلمة منها ووراء كل اسم من مسمياتها
عوامل غريبة يشكون صورها من أشقات شتى ، فتجدي على غير ما عرفت

(١) - سورة هود : ١

(٢) - سورة فصلت : ٤١ - ٤٢

الحياة ، وما رأى الناس .. فالطين الذى خلق منه آدم ، والصورة التى صور عليها ، والزمن الذى حاشه فى عالم الطين ، والروح التى نفخت فيه ، والحياة التى دبت فى أوصاله ، ونظراته الأولى للحياة واستقباله لها ، ووحدته فى الجنة ووحشته ، وخلق حواء وظهورها إلى جانبه ، وإحساسه بها ، وشعوره نحوها فى كل مرحلة من هذه المراحل ، وكل موقف من تلك المواقف أصبح قصة أسطورية لعب فيها الخيال الإنسانى لعباً مسرفاً ، إذ لم يكن هناك ضابط يرجع إليه ، أو شاهد يستدل به على هذه الوقائع الغيبية ، التى لم يشهد الناس حدوثها ، حيث أبح المفسرون لأنفسهم الخروج عن المفهوم الذى تعطيه كلمات القرآن . وكذلك الشأن فيما جاء فى هذه القصة عن إبليس ، والجن ، والملائكة .. إنهم مخلوقات لله ، ليست لهم صور محسوسة يراهم الناس عليها .. ولهذا كانت تصورات الناس لهم لا تنتهى عند حد .. وقد حوت كتب التفسير صوراً مجسدة للملائكة ، والجن ، تصف أطوالهم ، وجوارحهم ، وأحوالهم ، وأعمالهم ، فى مقولات مختلفة لا حصر لها .

والقرآن الكريم لم يقل فى هذه الأحداث إلا كلمات ذات دلالات محددة ، ومفاهيم واضحة ، لا تلد شيئاً من هذه الصور الغريبة التى ولدها منها أصحاب الشطحات الخيالية من القصاص والمفسرين .

فمن الملائكة يقول القرآن الكريم : « عباد مكرمون » (١) ويقول : تعالى « لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون » (٢) فلم يذكر شيئاً عن الصورة التى صوروا عليها ، وإنما هم قوى خيرة ، غيبية ، لا ترى لأعيننا ، ولا تستجيب لحواسنا ، وقد نعى القرآن على مشركى العرب الذين قالوا فى الملائكة : إنهم بنات الله ، وأنهم إناث ، فقال تعالى : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً . أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون » (٣) ، وقال سبحانه : « ويجعلون لله البنات ، سبحانه ، ولهم ما يشتهون » (٤) .

(١) سورة الأنبياء : ٢٦ .

(٢) -سورة التحريم : ٦ .

(٣) سورة الزخرف : ١٦٠ .

(٤) سورة النحل : ٧٠ .

(٢٣ - القسمى القرآنى)

وكذلك الشأن في الجن ، والشياطين .. هي قوى شريرة أو خيرة
لا ترى قال تعالى : « إنه يراكم هو وقييله من حيث لا ترونهم » (١) .
وإذن فاختيارنا لهذه القصة هو تحمد للرمزية ، من حيث أننا سنعرض
هذه القصة عرضاً يمسك بالمدلول الحرفي واللغوي لأحداث هذه القصة ، كما
حملتها كلمات القرآن ٠٠٠ ثم هو من جهة أخرى تحمد للتكرار الذي يقال
به في القصص القرآني .. وذلك لأننا سنعرض كل الصور التي عرضها القرآن
الكريم لهذه القصة أيضاً ، وسننظر فيها جميعاً على امتداد واحد ، وباعتبار
أنها جميعها صورة واحدة بكل بعضها بعضاً ، في حين أن كل صورة منها
تمثل القصة كلها ، وتبرز ملاحظتها .

أما تخيرنا لقصة يوسف ، فقد كان مقصوداً لأمرين :

أولهما : ما فيها من تشريح بموضع الكلمة للنفس الإنسانية ، وعرضها بكل
ما يضطرب فيها من خير وشر .. وفي هذا ما فيه من مواجهة للإنسان بعالمه
الداخلي ، وما اندس في أطوائه من عجائب وأسرار ، تطلع عليه من حيث
لا يعلم ولا يتوقع .. وهذا من شأنه أن يطلع الإنسان على هذا العالم الرحيب
الذي يعيش ملء كيانه . ولا يراه إلا في غيره ، على مسرح الحياة في هذا
الصراع الدائر بين الناس والناس .

وثانيهما : أن القصة كانت ، ولا تزال مثار جدل حول عصمة الأنبياء ،
وهل لهم نصيب ولو قليل - من هذا الضعف الذي يعرض للناس في مواجهة
الأحداث .. كما سنعرض ذلك عند النظر في الآية الكريمة :
« ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » .
وها نحن أولاء نبدأ اللقاء مع قصة آدم ..

أولاً :

وقفقة مع قصة آدم

وخروجه من الجنة

عرض القرآن الكريم هذه القصة في سبعة معارض. في سبع سور، هي: البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص. . . وهي في هذه المعارض على درجات متفاوتة في الطول والقصر، كما سيرى ذلك عند عرضها. ولقد كان من الرأي أن نعرض كل صورة، ثم نقف عندها وقفقة نطالع فيها وجوه الأحداث والوقائع التي تحدث الصورة عنها، ثم نعرض غيرها، وهكذا حتى الصورة السابعة، ولكننا آثرنا أن نعرض الصور جميعها في معارضها القرآنية، نسقاً متصلًا، دون أن نفصل بينها بفواصل ما .. ثم ننظر فيها كلها نظرة واحدة، باعتبار أنها صورة واحدة في معرض واحد.

* * *

١ - « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة .. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها، ويسفك الدماء، ونحن نسير بحمدك ونقدس لك؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين .. قالوا سبحانك، لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس، أبى، واستكبر، وكان من الكافرين، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلامنا هذا هو الذي نزلنا على موسى، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأرلها الشيطان عنها، فأخرجها مما كانا فيه، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، قلنا اهبطوا منها جميعا، فإما يأتينكم مني هدى، فمن تبع

هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . [البقرة : ٣٠ - ٣٩]

٢ - « ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فصجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين .. قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال : أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين ، قال فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين ، قال : أنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال : إنك من المنظرين ، قال : فبأغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمنهم وعن شمائلهم ، ولا تحيد أكثرهم شاكرين ، قال : أخرج منها مذموماً مدحوراً ، لمن تبعك منهم ، لأملأن جهنم منكم أجمعين ، وبإآدم أسكننا من الجنة ، فكلنا من حيث شئنا ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لها الشيطان لبسها ما وورى عنهما من سوء آتهما ، وقال : مانها كما ربكها عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين ، وفاسمها إني لسكنا لمن الناصحين ، فدلاها بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوء آتهما وطفقا يخضقان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكا الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قال : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم نغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، قال : فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون .. » [الأعراف : ١١ - ٢٥]

٣ - « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجان خلقناه من قبل من نار السموم .. »

« وإذا قال ربك الملائكة إني خالق بشرأ من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد للملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال : يا إبليس مالك ألا تسكون مع الساجدين ، قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال

من حيا مسنون . قال : فأخرج منها فياذك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ، قال : رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال : فيأبك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، قال : رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ، قال : هذا صراط على مستقيم ، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين . [الحجر : ٢٦ - ٤٢]

٤ — «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا ، إلا إبليس ، قال : أسجد لمن خلقت طينا ؟ قال : أرايتك هذا الذي كرمت عليّ لأن أخرجتني إلى يوم القيامة لأحتسكن ذريته إلا قليلا ، قال : اذهب فن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ، واستغزز سن استطلعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بحيلك ورجلك ، وشاركهم في الأموال والأولاد وعدمهم ، وما يعدمهم الشيطان إلا غرورا ، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان .. وكفى ربك وكبلا .» [سورة الإسراء : ٦١ - ٦٥]

٥ — «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ، وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا .» [سورة الكهف : ٥٠]

٦ — «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنتك لا تنظما فيها ولا تضحى ، فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سواتهما ، وطغفا بخصمان عليهما من ورق الجنة ، وعدسى آدم ربه فقوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ، قال اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى فن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى ، فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى .» [سورة طه : ١١٦ - ١٢٣]

٧ — «قل هو نبا عظيم أتم عنه معرضون ، ما كان لى من علم بالملا الأعلى

إذ يختصمون ، إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين .. إذ قال ربك للملائكة
إني خالق بشر آمن طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ،
فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ،
قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من
العالمين ، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، قال فاخرج منها
فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ، قال رب فأظرني إلى يوم
يبعثون ، قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعرتك لأغوينهم
أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ، قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم
منك ومن تبعك منهم أجمعين . [سورة ص : ٦٧-٨٥]

* * *

هذه هي المعارض السبعة التي ذكرت فيها قصة آدم ، وما وقع فيها من
أحداث ..

وَأنت تجد أن كل معرض من هذه المعارض يجمع القصة كلها من أطرافها
مع ظهور بعض الألوان في أحدها ، واختفائه في البعض الآخر .. وهذه
الألوان المختلفة ليست إلا عنصراً من عناصر الإضاءة التي تتكشف بها بعض
الجوانب ، أو تتجسم بها بعض المواقف ، كما سيتضح لنا ذلك حين النظر في
هذه الصور ، ومقابلة بعضها ببعض .

هذا ، ويمكننا حصر الأحداث التي وقعت في هذه الصور جميعها فيما يلي :

- ١ — إرهابات في الملا الأعلى بظهور كائن جديد ، هو آدم .
- ٢ — الإعلان عن المادة التي سيخلق منها هذا الكائن .
- ٣ — الاحتفاء بميلاد هذا المخلوق الجديد ، ودعوة الملائكة إلى السجود
له يوم مولده .

- ٤ — امتناع إبليس عن السجود لآدم ، وحجته على هذا الامتناع ..
- ٥ — طرد إبليس من الجنة ، وتحديه لله سبحانه في إغواء آدم وإضلاله .
- ٦ — وصاة الحق جل وعلا لآدم ، وتحذيره من إبليس .

- ٧ - الشجرة التي نهى الله سبحانه وتعالى آدم عن الاقتراب منها .
٨ - إغواء إبليس لآدم ، وإغراؤه أن يأكل من الشجرة هو وزوجه .
٩ - عتاب الله سبحانه وتعالى لآدم ، وندم آدم وتوبته ، وقبول الله توبته .

١٠ - خروج آدم من الجنة ، وتحذيره وذريته من إبليس ، وما يدبر من كيد .

تلك هي أهم عناصر القصة وألوانها التي تحدثت بها آيات الكتاب الكريم في هذه المعارض السبعة .. وهذه العناصر ، وتلك الألوان موزعة - كما قلنا - بين هذه المعارض . يلقانا بعضها مرة واحدة ، ثم يختفي ، على حين أن بعضها الآخر يلقانا مرة ومرة ، ومرات كثيرة .. كما سنرى .

١ - إرهاصات في الملائكة الأعلى بظهور آدم

ذكر هذا الحدث من أحداث القصة في معرض واحد في القرآن كله هو :
في قوله تعالى في سورة البقرة : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » .

وقد كان للملائكة موقف من هذا النبأ ..

فهذا الذي سيكون خليفة لله على الكوكب الأرضي .. لن يستطيع أن يقيم على الأرض ملكوتاً يناظر ملكوت السماء .. رحمة ، وعدلاً ، وطهراً !
إنهم يرون بما أطلعهم الله عليه من سابق علمه ماذا سيكون من هذا « الخليفة » وذريته في الأرض ، من ضلال وفساد .. ولهذا عجبوا أن يكون هذا المخلوق خليفة لله في الأرض .. فقالوا : « أجمعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟ » .. فلقد كانوا يرون في أنفسهم أنهم أقرب إلى الله من هذا المخلوق الذي طرأ على الوجود . وأنهم لهذا أولى بأن يكون منهم الخليفة على الأرض !

ولم يكن اعتراض الملائكة إلا ليطلبوا من الله علماً يكشف لهم عن بعض

حكيمه ، سبحانه . في إمامة هذا المخلوق بهذا المقام ، وإنزاله هذه المنزلة . ولهذا كان جواب الله سبحانه وتعالى لهم : « إني أعلم ما لا تعلمون » ثم كشف لهم الحق سبحانه عن وجه من وجوه علمه بهذه التجربة ، أو هذا الامتحان الذي عقده بين هذا « المخلوق » وبين الملائكة .. ليرى الملائكة رأى العين أن هذا الكائن الذي صغروا من شأنه ، هو أكثر منهم علماً ، وأوسع معرفة ، بما أودع الله سبحانه وتعالى فيه من ملكات التفكير الخلاق المبدع .

« وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة .. فقال : أتنبئون بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ؟ » وقد عجز الملائكة عن التعرف على تلك المعروضات ، والاستدلال على خصائصها ، ووظائفها ، وإطلاق الدلالات الإسمية الدالة عليها .. « قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا .. إنك أنت العليم الحكيم » .. ولقد اعتاد الملائكة أن يتلقوا العلم من الله سبحانه .. ولكن هنا ، ولأول مرة ، يستدعى الله سبحانه وتعالى خليفته هذا ، ليكون معلماً للملائكة !! « قال : يا آدم أتنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .. وهنا يسكن الملائكة ويطمئنون .. وهنا يكون سجودهم لأدم سجوداً قائماً على معرفة عيانية بمنزلته ومكانته .. إنه ذو علم يفيض عن ذاته التي أودع الله فيها ما أودع من عقل وعلم .. وواضح أن هذه الصورة لم يذكر فيها شيء عن المادة التي سيخلق منها هذا الوليد الجديد .

٢ — الإعلان عن المادة التي سيخلق منها آدم

أما إعلام الملائكة بالمادة التي سيخلق منها آدم ، فقد ذكر في موضعين من المعارض السبعة الشريفة : في قوله تعالى في سورة الحجر : « وإذ قال ربك للملائكة ، إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون » . وفي قوله سبحانه في سورة ص : « إذ قال ربك للملائكة إني خالق

بشراً من طين » . وواضح أن الصلصال متولد من الحما المسنون ، وأن الحما المسنون متولد من الطين .. وإذن فالطين طور من أطوار خلق آدم ، ثم الحما المسنون مرحلة تالية له ، ثم الصلصال ، طور يجيء بعد الحما المسنون .. وعلى هذا تكون الآياتان - في سورتي طه ، و ص - متكاملتان ، وأحلفتان في سلسلة التطور في خلق آدم .

٣ - الاحتفاء بميلاد آدم ودعوة الملائكة إلى السجود له

في المعارض السبعة جميعها التي ذكرت فيها قصة آدم جاء ذكر هذا الحدث ، وهو دعوة الله سبحانه للملائكة أن يسجدوا لآدم يوم خلقه ..

- ١ - « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .. فسجدوا .. » (البقرة)
- ٢ - « ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .. فسجدوا . » (الأعراف)
- ٣ - « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ، فقعوا له ساجدين .. فسجد الملائكة كلهم أجمعون .. » (الحجر)
- ٤ - « وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .. فسجدوا .. » (الإسراء)
- ٥ - « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .. فسجدوا .. » (الكهف)
- ٦ - « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .. فسجدوا .. » (طه)
- ٧ - « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين .. فسجد الملائكة كلهم أجمعون » (ص)

وأنت ترى أن الأمر بالسجود قد تكرر خمس مرات على صورة واحدة في البقرة ، والأعراف ، والإسراء ، والكهف ، وطه . وأنه تكرر مرتين على صورة واحدة في الحجر ، و ص .

والتكرار في الصور الخمس لم يصف جديداً إلى الصورة ، لأنه تكرر لفظي ، لا يعطى أكثر مما تعطيه الصورة الواحدة منه .. ولكن له مع هذا دلالة القوية في إظهار الاحتفاء بآدم ، وإذاعة هذه الدعوة الكريمة وإعلانها في كل مرة يذكر فيها شيء عن آدم .

أما الصورتان الأخريان فتضيفان لونا جديداً إلى هذه الصورة ، وذلك بما تعطيه كلمة « فقعوا له ساجدين » من حركة تنبيه عن المبادرة إلى السجود الذي يكون عن مشاعر قوية من الإجلال والإكبار ، تملأ كيان الساجد ، فلا يملك معها إلا أن يخز ويهوى هويهاً . وما تعطيه كلمة « كلهم أجمعون » من دلالة على أن الملائكة أجمعين قد امتثلوا أمر الله ، ولم يتخلف منهم متخلف إلا إبليس الذي تخلف عن هذا الموقف - كما سنرى - والذي كان هذا التخلف سبباً في عزله عن أن يكون في جملة الملائكة ، حتى من قبل أن يقع منه هذا التخلف ، وذلك تغليظاً لجريمته التي غطى ظلامها الكثيف على ماضيه .. يوم أن كان من الملائكة .

٤ - امتناع إبليس عن السجود ووجته في هذا

وفي جمع المعارض السبعة التي ذكر فيها سجود الملائكة لأدم ذكر امتناع إبليس عن السجود ، كما ترى :

- ١ - فسجدوا .. إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين (البقرة)
- ٢ - فسجدوا .. إلا إبليس لم يكن من الساجدين .. قال مامعك أن تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين . (الأعراف)
- ٣ - فسجد الملائكة كلهم أجمعون .. إلا إبليس أبى أن يسجد مع الساجدين ، قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون (الحجر)
- ٤ - فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طيناً ؟ . (الإسراء)
- ٥ - فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه (الكهف)
- ٦ - فسجدوا إلا إبليس أبى (طه)
- ٧ - فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ، قال يا إبليس مامعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ أستكبرت أم

كنت من العالين ؟ قال أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين (ص)
وصفة إبليس موزعة في هذه المعارض :
أبي .. لم يكن مع الساجدين .. أبي واستكبر وكان من الكافرين .. كان
من الجن ففسق عن أمر ربه .

وهذه الصفات — متفرقة ومجمعة — تكشف موقف إبليس ، وتفضح
فعلته تلك التي استقبل بها أمر ربه .

وفي ثلاثة من هذه المعارض يسأل الله سبحانه وتعالى إبليس عن سبب
امتناعه عن السجود ، وفيها يجيب إبليس ممللاً سبب امتناعه :

مامنعك أن تسجد إذ أمرتك ؟ (الأعراف)
مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ (الحجر)
مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ ، أستكبرت أم كنت من العالين ؟
(ص)

ويكون جواب إبليس :

« أنا خير منه .. خلقتني من نار وخلقته من طين ا (الأعراف)
« لم أكن لأسجد لبقدر خلقته من صلصال من حيا مسنون ا (الحجر)
« أنا خير منه .. خلقتني من نار وخلقته من طين ا (ص)

وليست هذه الأسئلة وأجوبتها من قبيل التكرار ، وإنما هي سؤال
واحد .. فقد وقف إبليس بعد فعلته تلك هذا الموقف الدليل ، موقف الاتهام
بين يدي الله .. والله سبحانه وتعالى يلقي إليه بهذه الأسئلة ، وهو واجم
متلبد ، لا يبحر جواباً ا

ولم يكن بد من أن يجيب ا

وإذ أجاب فقد أخذ يثرثر بالأعذار ، ويستكثر من الحجج ، ليبرىء
ساحته من هذا الإثم المهلك ، الذي أحاط به .

وتدبر ماجاء في سورة الإسراء ، حيث قال إبليس : « أأسجد لمن خلقت
طيناً ، دون أن يكون هناك سؤال سبق هذا القول .

والفهم الذي يستقيم لنا هنا في هذه الآية هو أن ذلك كان من إبليس فيما بينه وبين نفسه ، حين دعى مع الملائكة إلى السجود ، فغلبت عليه شقوته ، وقدر في نفسه أنه خير من آدم ، وأن ذلك يجعله جديراً بالألا يسجد له
وعندهما أبي وقال « أأسجد لمن خلقت طيناً ؟ » قالها في نفسه ، ولنفسه كما يمكن أن يكون ذلك جواباً من أجوبة إبليس بين يدي الله ، وقد حذف سؤاله لدلالة الحال عليه .

٥ — طرد إبليس من الجنة وتحمديه لله في إغواء آدم

كان الحكم الذي حكم به المولى سبحانه وتعالى على إبليس بعد عصيانه أمره — هو الطرد من الجنة ، ولقد أتى إبليس أن يتقبل هذا الطرد ويمتنه دون أن يعقب عليه .

ولأن آدم هو سبب طرد هذا اللعين الطريد ، فقد جعل تحمديه لله متجهاً إلى آدم ، هذا المخلوق الذي فضله الله عليه ، وأمره بالسجود له .
وننظر في تصوير القرآن الكريم لهذا الموقف فنجد :

١ — في سورة البقرة لم يتجه أمر الطرد من الجنة إلى إبليس وحده ، بل جاء ضمن الأمر الصادر إلى آدم وزوجه : « قلنا اهبطوا منها جميعاً ، بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ، ومتاع إلى حين » .

٢ — وفي سورة الأعراف يجيء الأمر مصوراً هكذا : « قال فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين » ، ويتلقى إبليس هذا الأمر قائلاً : « رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون » ، ويحجبه الله سبحانه وتعالى إلى طلبه : « قال إنك من المنظرين » . ويكشف إبليس عن مقصده من هذا الذي طلبه : « قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لأتبعهم من بين أيديهم ، ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ولأتبذر أكثرهم شاكرين » ويكون جزاء هذا التحدي الوفاح أن يطرد هذا اللعين ، طرداً مصححاً باللعنة وسوء المتقلب : « قال فاخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » .

٣ - وفي سورة « الحجر » يصور الموقف على نحو ما جاء في سورة الأعراف :

- « قال فاخرج منها فإنك رجيم .. وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين .
- « قال رب : فأنظرنى إلى يوم يبعثون .
- « قال فإنك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم .
- « قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين .
- « قال هذا صراط على مستقيم ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من العاوين .

٤ - وفي سورة الإسراء يجيء تصوير الموقف هكذا :

- « قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا » .

- « قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاءكم جزاء موفورا ، واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدمهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا .. إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

وأنت ترى أن إبليس يكشف هنا عن السبب الذى من أجله كان هذا التحدى لله فى شخص آدم .. وأنه يبنى من وراء هذا التحدى أن يضع بين يدى الله صورة مزرية لآدم الذى فضله الله على الملائكة ، وأن إبليس سينارله وينتصر عليه ، ويقوم من ذلك شهادة بين يدى الله بأن ثقته فى آدم ، وتفضيله له لم يكن واقعا موقعا .. فانظر كيف باج الضلال والعناد بالضالين المعاندين إلى تلك الموارد الويلة ، وكيف يسرقهم سوفا إلى التردى فى مهاوى الهالكين « وماذا بعد الكفر إلا الضلال ؟ » .

ثم انظر كيف كان فضل الله على آدم ، إذ جعله أهلا لتلك الثقة العظيمة به ، وبقدرته على الانتصار على عدو الله هذا ، وخذلانه فى هذا التحدى

الذى يتحدى به قدرة الله ، وحكمته ، فلقد دعا الله سبحانه — إبليس إلى أن يصول ويجول ، وأن يأتي بكل مامسه من حول وحيلة في صراعه مع آدم وذريته ، فإنه لن يبلغ مما أراد شيئاً .. « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

لقد رفع الله سبحانه آدم وأبناءه إلى هذه المنزلة الرفيعة .. وقد بقي على أبناء آدم أن يثبتوا أنهم أهل لتلك المنزلة .. وسيقملون .
٥ — وفي سورتي « الكهف » و « طه » لم يذكر شيء عن تحدى إبليس لله .

أما في سورة « ص » فقد صور الموقف على نحو مما صور عليه في سورة « الحجر » .

- « قال فأخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين » .
- « قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون » .
- « قال فإنك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم » .
- « قال فبمزتك لآغوينهم أجمعين .. إلا عبادك منهم المخلصين » .
- « قال فالحق والحق أقول .. لآملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين » .

وكما فعلنا في المواقف السابقة من جميع المقولات في نسق واحد ، نستطيع أن نفعل هنا ، ونجد أقوال كل مقولة وإن توزعت في صور متعددة هي قول واحد في موقف واحد .

فمثلا مقولة إبليس فيما طلب من إنظاره إلى يوم البعث ، جاءت هذه المقولة في أربع صور .. هكذا :

- ١ — رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . (الأعراف)
- ٢ — رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . (الحجر)
- ٣ — رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . (ص)
- ٤ — لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته لإقليلا . (الإسراء)

وقد تكررت هذه المقولة على صورة واحدة ثلاث مرات .. لفظاً ومعنى، وجاءت في الصورة الرابعة على صورة مشابهة معنى لا لفظاً .

وهذا التكرار يكشف عن لهفة إبليس ، وعن حرصه في أن يتحقق له هذا الطلب ، الذي إن فانه ضاع منه هذا الأمل الذي يتعلق به ، ويعلق عليه - كما قدر جهلاً وضلالاً - سقوط الحكم الذي صدر عليه بالطرد من رحمة الله - إذا أمهلته الأيام ، واستطاع أن يطوى آدم وذريته تحت جناحه ، وأن يجيء به بين يدي الله ملطخين بالأحوال .

وهكذا يمكن أن ننظر إلى المقولات الأخرى على هذا الوجه ، وأن نعد كل مقولة منها مقولة .. واحدة مع تكرارها ! .

٦- وصاة الله لآدم وتحذيره إياه من إبليس

- ١ - « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » [البقرة]
- ٢ - « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا منها حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » [الأعراف]
- ٣ - « فقلنا يا آدم إن هذا عدوك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى .. إن لك ألا تجوع فيها ولا تعمرى ، وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى » [طه]

والمقولتان الأوليان تبدوان كأنهما مقولة واحدة تكررت للتأكيد .. أما المقولة الثالثة فقد كشفت لآدم وزوجه عن إبليس ، وعن عداوته لهما ، وأنه سيكيد لهما ليخرجهما من الجنة .

٧- الشجرة التي نهى آدم عن الاقتراب منها

- ١ - « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » [البقرة]
 - ٢ - « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » [الأعراف]
- في هذين المعرضين من المعارض السبعة التي صورت فيها قصة آدم جاء

ذكر هذا التحذير على صورة واحدة لفظاً ومعنى في الموضوعين ، دون زيادة حرف واحد في أى منهما .. وهذا يدل على أنهما قول واحد ، تكرر للتوكيد ، وزيادة التنبيه والتحذير .

ويلاحظ أن النهي كان عن الاقتراب من « الشجرة » لاعتن الأكل منها ، وهذا أبلغ في النهي عن الأكل ، لأن مجرد الاقتراب يوقع في الإثم ، فكيف بمباشرتها والأكل منها ؟

٨ - إغواء إبليس لآدم وزوجته

ورد ذكر هذه الواقعة في معرضين من معارض القصة :

١ - « فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوء آتئهما ، وقال مانها كما ربكنا عن هذه الشجرة إلا أن تسكونا ملكين أو تسكونا من الخالدين ، وقاسمهما إني لسكنا لمن الناصحين » (الأعراف)

٢ - « فوسوس إليه الشيطان .. قال يا آدم : هل أدلك على شجرة الخلد ومملك لا يبلى ؟ » (طه)

ففي مرة كانت الوسوسة لآدم وحده ، وفي المرة الأخرى كانت لآدم وزوجه معاً .. وهذا لا يمنع أن تسكون الوسوسة قد تكررت من إبليس مرات كثيرة .

٩ - عتاب الله لآدم ، وتوبة آدم وقبول توبته

وهذا الموقف ، قد ذكر في ثلاثة مواضع :

١ - « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه .. إنه هو التواب الرحيم » (البقرة)

٢ - « فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوء آتئهما وطفقا يخضفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكنا إن الشيطان لكنا عدو مبين .. قالا ربنا ظلفنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .. » (الأعراف)

٣ - « فأكل منها فبدت لها سوء آتئها ، وطفقا يخلصان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباها ربه ، فتاب عليه وهدى » [طه] هذا ، ولم يقع في الصورة الأولى ذكر لما وقع من آدم وزوجه من الاقتراب من الشجرة ، أو الأكل منها ، كما لم يذكر شيء مما كان لإبليس من وسوسة وإغراء .

والصورة الثانية ينكشف منها أن مجرد ذوقهما للشجرة كشف عن سوء آتئها ، على حين أن الصورة الثالثة تجمل هذا الذوق أكلًا .
والصورة الأولى تحدث عن توبة آدم وقبول توبته ، وكذلك الصورة الثالثة . . أما الصورة الثانية فتحدث عن ندم آدم . وطلب للمغفرة من ربه ، ولا ينكشف منها شيء عن قبول ندمه ، وغفران زلته .
وبهذا يمكن أن تضم الصور الثلاث بعضها إلى بعض ليكون منها جميعاً صورة واحدة تكشف جوانب الموقف كله .

١٠ - خروج آدم من الجنة

وتحذيره وذريته من إبليس وكيدته

وتختتم قصة آدم بخروجه من الجنة يحمل معه وصاة ربه بالخذر من إبليس وكيدته . .

١ - « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » (البقرة)

٢ - « قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم مني هدى ، فن تبع هداى فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون » (البقرة)

٣ - « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » (الأعراف)

٤ - « قال اهبطا منها جميعاً .. بعضكم لبعض عدو » (طه)
(٤٤ - النص القرآن)

والأمر الأول يجمع بين إبليس وآدم وزوجه ، وكذلك الأمر الثاني
وثلث الذي جاء على صورة الأمر الأول لفظاً ومعنى .
أما الأمر الرابع فهو للجهتين المتعاديتين : إبليس وجنوده من جهة ،
وآدم وذريته من جهة أخرى .
هذه هي الصورة العامة للقصة كما تنطق بها كلمات القرآن . . . وهي في
إطارها القرآني ، قصة حافلة بمعطيات الإثارة ، التي تشع من الحق الذي يقصر
الخيال عن مداناته ، أو التعلق به !

تعقيبات على القصة

في هذا الأسلوب الذي عرضنا به القصة هذا العرض الذي جمعنا فيه بين الصور السبع التي عرضها فيها القرآن الكريم - في هذا الأسلوب تكشف لنا أن التكرار الذي جاء في القصص القرآني - وقصة آدم مثل بارز له - قد جاء لغايات بيانية ، لا تتحقق في غير القرآن ، وهي توزيع جوانب الحدث أو الموقف القصصي توزيعاً يحتفظ في كل جزئية منه بعلامح الحدث ومماته ، فإذا تضامت الأجزاء واجتمعت - متقاربة أو متباعدة - ظهر فيها الحدث مجماً ، يكشف عن كل جوانبه .

على أننا لم نشرفي هذه القصة إلى الجانب الرمزي الذي كان مجالاً لمقولات كثيرة في مواضع متعددة منها . . كمادة خلق آدم ، ونشأة الحياة على الأرض ، وكالشجرة التي أكل منها آدم ، والجنة التي كان فيها . . وها نحن أولاء نستعرض مقولات القائلين من رمزيين وغيرهم في هذه الموضوعات ، ثم ندلي برأينا الذي نرتضيه فيها .

أولاً : آدم ، ومادة خلقه

من أين جاء الإنسان ؟

سؤال يجرى في خواطر الناس ، ويدور في عقولهم منذ كان للانسان عقل يقدر ويفكر . . ولم يكن بالسؤال الذي وقع للعلماء والفلاسفة وحدهم . . بل هو سؤال كل إنسان ، مهما يكن حظه من العلم والمعرفة .
أما الجواب على هذا السؤال فهو الذي اختلف فيه الناس اختلافاً بيناً ، لانكاد تضبط صورته وأشكاله . . فالناس يرون الحياة تدفع بمواليدها في عالم النبات ، والحيوان ، والإنسان . . وهذه المواليد إنما تجيء من أصول - ذكر وأنثى - وهذه الأصول كانت مواليد لأصول . . وهكذا تمتد السلسلة ، وتطول إلى ما لا نهاية . . لأولها أو آخرها .

ومع هذا ، فإن منطق العقل يلزم الإنسان أن يقف بهذه السلسلة عند نقطة معينة ، بدأت منها ، وإن لم يلزمه هذا الإلزام بالنهاية التي تنتهى إليها .
طبعي إذن أن يبحث الإنسان - كل إنسان - عن الأصل الذي نشأ منه ، وأن يرتفع به في سلسلة متصلة الحلقات إلى حلقة أخيرة يكون فيها ذلك الإنسان الذي هو الأب الأول أو الجد الأكبر للأسرة الإنسانية كلها .
وتلتقى الديانات السماوية مع تفكير الإنسان في هذا ، حيث تقرر أن آدم هو أبو البشر جميعاً . « بأبها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » (١) .

وتكاد تتفق الديانات السماوية وغير السماوية جميعها على أن الإنسان الأول - آدم - كان في الجنة ، يتبوأ منها حيث يشاء ، وأنه لمعصية وقعت منه هناك أخرج من هذه الجنة ، وهبط إلى هذه الأرض ، وأن هذا الهبوط هو ابتلاء له ولذريته ، ليكفر عن خطيئته تلك .

ولعل هذه الصورة التي وقعت في تفكير الإنسانية عن هبوط الإنسان إلى الأرض وخروجه من الجنة إنما هي لون من الغراء لما يكابده الإنسان في حياته على هذه الأرض من آلام ، وما يصادفه فيها من محن . . فهو كأنما يمد بصره إلى أيام السعادة التي كان يعيش فيها أبوه الأول ، ويمنى النفس بالعودة إلى تلك الدار التي خرج أهلها منها . . شأن الناس فيما يذكرون من أمجاد ماضية لهم أو لآبائهم .

الإنسان هل هو مخلوق سماوي أم أرضي ؟

وتبعاً لهذه الصورة التي وقعت في تفكير الإنسان عن نشأته الأولى .
فقد نسج العقل الإنساني من أوهامه ، ورؤاه وأحلامه ، فصصاً أسطورية تجمع بين المتناقضات في أصل نشأة الإنسان ، والجرثومة التي نبت منها .
ونعرض هنا مثلاً للتفكير الإنساني في نشأة الانسان والكائنات الحية

هلي هذه الأرض .. وهذا المثل مأخوذ من الفلسفة الهندية القديمة . كما سجلته
أسفار « بوبانشاد » - كتاب الهند المقدس :
تقول « البوبانشاد » :

« كان الله في الحثى كبير الجسم . . حتى ليعدل جسمه رجلاً وامرأة ا .
ثم شاء هذه الذات أن تنشق نصفين ، فنشأ من ثم زوج وزوجة ا .
وعلى ذلك تكون النفس الواحدة كقطعة مبتورة ، وهذا الفراغ
تملؤه الزوجة ا .

« وضاع الزوج وزوجته ، وبهذا أنسل البشر ا . »
فالإنسان - كما تقرر هذه القصة - هو ابن الله ، وأن الله كان يشتمل في
كيانه على كائن آخر هو المرأة ، ومنه ومن هذه المرأة كان البشر ا .
إنما قصة غريبة ، ولكنها قريبة من تلك القصص التي تحويرها كتب
التفسير من أن حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم ا ويكون آدم هنا
بمثابة الله في القصة الهندية .

ثم تمضى القصة أو الأسطورة الهندية فتحدث خلق سائر المخلوقات .
« وسألت الزوجة - زوجة الإله السابقة - سألت نفسها قائلة : كيف
استطاع أن يضاجعني بعد أن أخرجني من نفسه ؟ . . فلا خفت ا .
« فاختمت في صورة البقرة ، وانقلب هو ثورا ، فزاوجها ، وكان
بازدواجهما أن تولدت الماشية ا .

« فاتخذت لنفسها هيئة الفرس ، واتخذت لنفسه هيئة الجواد . . .
« ثم أصبحت أنا فأفسار حمراً . . وزاوجها ، فولدت ذوات الحافر .
« وانقلبت عنراً فأفسار تيساً . . ا
« وهكذا ، حتى توالت جميع المخلوقات . . من الدر ، والحمل ، إلى
الفيالة والجمال .

« فإذا انتهى إلى هذا ، ونظر الإله إلى تلك الكائنات أدرك حقيقة الأمر

« وقال : حقاً أنا هذا الخلق نفسه لأنى أخرجته من نفسى اى (١) .
وليس يعنيننا من هذا التصوير مدى مبلغه من الحق ، ولكننا نستدل
منه على هذا الإحساس الذى أشرنا إليه من قبل ، وهو إحساس الانسان
بوثاقة الصلة ، التى تصله بهذا الوجود ، وتخلط مشاعره به ، فهو أخ لكل
المخلوقات التى يرجع توأدها جميعاً إلى أب وأم ، بل إلى أب هو « الله » (٢) .

o o o

وفى كل أمة ، وعند كل مجتمع صورة ما ، تخلق آدم ، والمادة التى
تشكلت منها صورته فى الملائ الأعلى .

وكتب التفسير الإسلامى تنقل كثيراً من هذه الصور ، مما وصل إلى محيط
العقل الإسلامى من أساطير الأولين ، ومن ديانات أهل الكتاب ، وغير أهل
الكتاب ، ومن مولدات هذه الأخبار الوافدة من كل جهة ، فكانت هذه
التقول معروضاً يجمع كل غريب ومجيب ، ويضم كل شارد ووارد .

ويعلل ابن خلدون هذه الظاهرة التى فشت بين علماء التفسير ، والتى
لم يكذب يسلم منها أحد - يعلل لذلك بأن أمية العرب جعلتهم يتشوفون إلى
ما عند غيرهم من الأمم ، من معارف ، فلما أمكنتهم الفرصة بعد الفتح الإسلامى ،
أقبلوا على ما أتى إليهم من أخبار وأساطير شوق ولهفة .. يقول ابن خلدون :
« السبب فى ذلك .. أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ، ولا علم ، وإنما غلبت
البداءة والامية عليهم ، وإذا تشوفوا إلى معرفة شىء مما تشوف إليه النفوس
البشرية ، فى أسباب المكونات ، وبدء الخليقة وأمرار الوجود - فإما يسألون
عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم .. وأهل الكتاب هم أهل التوراة
من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى .. فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم
مما لا تتعلق به الأحكام الشرعية التى يختاطون لها .. فامتلات التفاسير من
المنقولات عندهم فى أمثال هذه الأغراض ، وهى ليست مما يرجع إلى الأحكام

(١) انظر قصة الحضارة جزء ٣ من ٣٤

(٢) انظر كتابنا «ضية الألوهية : الله .. ذاتا وموضوعاً» الناشر «دار الفكر العربى»

فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل» (١).
وإذ كانت قصة خلق آدم وما اتصل بها مما لا تتعلق به الأحكام الشرعية؛
فقد تسامح المفسرون في قبول كل ما وقع لهم من أنباء هذه القصة أياً كانت
مصادره ، وأياً كان نصيبه من الصدق أو الكذب أو التلويح .

القرآن وخلق آدم :

والقرآن الكريم يعرض قصة خلق آدم عرضاً محكماً . . يقف أمامه العلم
ناشعاً مستسلماً ، ويستقبله العقل العلمي راضياً مسلماً . . لا يستطيع أن يجد
فيه ثغرة للطعن ، أو النقص .

ومع أن القرآن الكريم ليس كتاب علم ، وليس من همه أن يقرر حقائق
علمية ، فإنه في قضية خلق آدم قد أمسك بها من أطرافها ، وجاء بها على الوضع
الذي يلتقى مع الحقائق العلمية في أصدق وجوهها ، وأضوأها . . فن شاء أن
يلقى القرآن هنا بكل ما تكشف من العلم ، وما ثبت من حقائقه - فليات
بما معه ، وليبدل بحجته بين يدي كتاب الله ، وسيجد أنه كن يحمل الماء إلى
البحر ، أو يرسل الضوء إلى الشمس !

استمع إلى ما تحدث به القرآن الكريم في خلق الإنسان :

- ١ - « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون .. » (الحجر)
- ٢ - « خلق الإنسان من صلصال كالفخار ... » (الرحمن)
- ٣ - « وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين .. » (ص)
- ٤ - « إنا خلقناكم من طين لازب .. » (الصافات)
- ٥ - « الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين » (السجدة)
- ٦ - « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في
قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، وخلقنا العلقة مضغة ، وخلقنا المضغة عظاماً ،
فكسونا العظام لحماً . . ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين »
(المؤمنون)

٧ - « مالكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً .. (نوح)
فالطين كما تصرح الآيات هنا هو الأصل الذي نشأ منه الإنسان ، وإن
يكن هذا الطين قد تقلب في أطوار عديدة ، حتى ظهر منه هذا الإنسان ..
فالحمأ المسنون هو الطين بعد أن يتخمر ويتعفن^(١) ، وبين طور الطين والحمأ
للمسنون طور آخر هو الصلصال ، الذي يتحول فيه الطين إلى مادة من الزبد
يشبه الفخار .

وبلغة العلم الحديث : يكون الطين ، فالصلصال ، فالحمأ المسنون - وهو
الطين المتعفن - ثلاثة أطوار تنقلت فيها بذرة الحياة ، وأن هذا التعفن الذي
أصاب الطين هو بشار الحياة ، إذ هو « البكتريا » التي نضجت فيها خمائر
الحياة ، وظهرت بها جرثومتها .

ومقررات العلم الحديث - أو آخر ما وصلت إليه مقررات هذا العلم -
تقول : إن الحياة ظهرت على هذه الأرض أول ما ظهرت على شواطئ البحار ،
حيث يكون الطين فالزبد ، فالصلصال ، فالطحالب ، التي اختلطت به ، وتخلقت
منهما « البكتريا » ... ثم ظهر النبات ، فالحيوان ، فالإنسان .

هكذا يقرر العلم الحديث في نشوء الحياة وتطورها ، وهو - أي العلم -
يرى أن هذه الأطوار قد سارت عبر ملايين السنين ، حتى أثمرت شجرتها
أكرم وأكمل ثمرة ، هي الإنسان ..

والقرآن الكريم وإن لم يتعرض لهذه الشجرة التي كانت منها أصول
الحياة وفروعها ، والتي ربما كان الإنسان فرعاً من فروعها ، وثمره من ثمارها ،
إلا أنه لم يجيء بما ينفي هذه الصلة التي بين الإنسان وبين عوالم الأحياء ..
بل إنه على عكس هذا ، قد أشار في أكثر من موضع منه إلى ما يمكن أن
يستقيم منه فهم واضح لهذه الصلة التي بين الإنسان وعالم الحياة كله ..

(١) انظر في هذا تفسير الطبري ، والقرطبي في تفسير الآية « ولقد خلقنا الإنسان من
صلصال من حمأ مسنون » .

ففي قوله تعالى « والله خلق كل دابة من ماء »^(١) وقوله سبحانه :
« وجعلنا من الماء كل شيء حي »^(٢) دلالة قوية على أن الأحياء كلها
- ومنها الإنسان - مخلوقة من مادة واحدة هي « الماء » .. والماء هو المادة
التي يتسكون منها الطين ، وإنه لا وجود للطين إلا إذا اختلط به الماء .
وقد نجد عند بعض المفسرين لمحات ذكية تشير إلى شيء من هذا الذي
أصبح من مقررات العلم الحديث ..
فالبعض يقول في تفسيره لقوله تعالى : « من حمأ مسنون » أى من
طين تغير واسود من طول مجاورة الماء^(٣) .

فالقول باتهام الإنسان في أصل نشأته إلى شجرة الحياة العامة لا يعارض
نصاً من نصوص القرآن .. فإذا كان الإنسان - أى آدم - خاق من طين ،
فالأحياء كلها مخلوقة من الطين . فالإنسان إذن ابن هذه الأرض .. « منها
خلقناكم ، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى »^(٤) .. « والله أنبتكم
من الأرض نباتاً »^(٥) . ولو كان الإنسان من طينة غير طينة هذه الأرض
لما كان له سبيل إلى الحياة على الأرض ، والقرار فيها ، والانتفاع
بموجوداتها .. من جماد ونبات وحيوان .

وليس ذلك بالذي بزرى بالإنسان أو يحط من قيمته ، فمن هذا الطين
تتخلق أكرم الجواهر ، وأنفس المادن ، والإنسان هو الذي يضع نفسه
حيث يشاء .. إن شاء كان جوهرأ كريماً ، وإن أراد كان طيناً لازباً
أو حمأ مسنوناً .

(١) سورة النور

(٢) -سورة الأنبياء

(٣) انظر تفسير البضاوى - سورة الحجر

(٤) -سورة طه

(٥) سورة نوح

وصدق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إذ يقول: «الناس ممانن : خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام» .. وفي هذه الكلمة النبوية الجامعة ما يشير إلى مدلول الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن خلق آدم ، والمادة التي خلق منها .. وذلك على الوجه الذي فهمناها عليه .. !
وللفيلسوف المسلم « محمد إقبال » رأى في قصة خلق آدم وتطوره ، بمضد الرأى الذى ذهبنا إليه ..

يقول « إقبال » بعد أن عرض لقصة آدم كلها ، كما جاءت في القرآن الكريم ، وفي التوراة - يقول :

« وهكذا نرى أن قصة هبوط آدم كما جاءت في القرآن لاصلة لها بظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب ، وإنما أريد بها بالأحرى بيان ارتقاء الإنسان ، من بدائية الشهوة الغريزية ، إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة على الشك والعصيان ..

« وليس يعنى الهبوط أى فساد أخلاقى ، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس .. هو نوع من اليقظة من حلم الطبيعة .. أحدثتها خفقة من الشعور بأن للإنسان صلة عليّة شخصية ، بوجوده ! » (١)

وهذا الفهم الذى فهمه « إقبال » لآيات القرآن الكريم في خلق آدم هو - كما ترى - أقرب فهم إلى منطوق كلمات القرآن ، ودلالاتها اللغوية ، كما أن هذه الفهم الذى يقف بآيات الكتاب الكريم عند هذه الحدود يحمى ينابيع القرآن الصافية من هذا الغناء الذى يلقي به فى ساحتها ، من تلقايات الأوهام والخرافات التى تتناقها أجيال الناس ، وتلونها بألوان وأصباغ ، تكاد تغطي مماء آيات الكتاب الكريم وتنجب أضواءها . وبهذا يظل الطريق مفتوحاً بين آيات الكتاب الكريم وبين أنظار الناظرين فيها ، والمتلقين عنها ، كلما جد للناس فهم فى الحياة ، وكلما انكشف لهم سر من أسرارها .. حيث

يمكن عرض كل جديد على القرآن في حدود منطوق كلماته ومفهومها، فيقبل منه ما يقبل ، ويرفض ما يرفض ، دون أن يكون عليه من ذلك شيء . بل يظل في عليائه مشرفاً مشرفاً ، تأخذ المين من ضوئه على قدر استعدادها وقوتها . .
فمثلاً نظرية « دارون » في أصل الأنواع ، وفي النشوء والارتقاء . . هذه النظرية كانت ولا تزال عند كثير ممن أخذوا فهمهم للآيات القرآنية الواردة في خلق آدم عن هذه النقول الخرافية ، وهذه المقولات الأسطورية التي جمعها المفسرون والتصاص من كل ساقطة ولاقطة - كانت ولا تزال هذه النظرية عند هؤلاء من الكفریات والإلحادیات، التي إن جرت على لسان؛ كان مجرد جريانها كفرًا وإلحادًا ، ولهم عذرهم في هذا .

فالدین قرءوا فی کتب التفسیر أن آدم نشأ فی الملاء الأعلى ، وأن طينته غرست فی جنة عدن أو جنة الخلد أو غيرها من الجنان - علی اختلاف آراء المفسرين فی هذا - هؤلاء الذين قرءوا هذه المقولات فی نشأة آدم يرون أن كل قول يخالف هذا هو خروج علی الدين ، بل هو خروج من الدين ؛ في حين أن هذا الأمر كله ليس فيه شيء من الدين ، ولهذا أباح المفسرون لأنفسهم أن يترخصوا فی الحديث عنه ، وألا يلتزموا فيه حدًا ، فكان لكل منهم مقولاته التي رآها أو سمعها ، أو توهمها ، لأنه من الأمور التي لا ترجع إلى الأحكام فيتحرى فيه الصحة التي يجب العمل بها ، كما يقول ابن خلدون :
على أن مقولات « دارون » التي أنكرها علماء الدين ، واضطربوا من أجلها ، وهاجوا وماجوا إنما تقوم على علم وتجربة ، وقد يكون فيها كثير أو قليل من الخطأ في الاستنتاج ، ولكن الذي ينبغي أن يكون عليه موقف العقل إزاءها هو الاحترام لها ، والتقدير للجهد الذي بذل فيها ، ومادامت ترجع إلى التجربة ، وتحتكم إلى منطق العقل فإن كل عقل مدعو إلى الوقوف عندها ، والنظر فيها ، وأخذ ما يطمئن إليه منها . . أما صد العقل عنها ، وقراره من بين يديها فذلك إزاء العقل ، وامتهان له ، وتعطيل لوظيفته التي خلق لها ، وخروج على دعوة القرآن التي دعاه إليها .

و «دارون» التي أثار هذا الإعصار العاصف في عقول رجال الدين .
— من كل دين — لم يكن منكرًا لله ، بل إنه فيما أرى — من أشد الناس
إيمانًا به ، وشهودًا لله في آياته التي رآها رأى العين فيما أبدع الخالق وصوره .
يقول « دارون » في حديثه عن أصل مذهبه : « إن المشابهة وأسبابها
أخرى تدعونا ضرورة إلى الاعتقاد بأن الأحياء أصلها واحد ، وألا فاصل
جوهرى بين العالمين ، عالم النبات ، وعالم الحيوان » .

ثم يقول : « إنى أرى فيما يظهر لى أن الأحياء عاشت على هذه الأرض
جميعها من صورة واحدة أولية ، نفخ الخالق فيها نسمة الحياة (١) » .
ودارون ، الذي أقام الدنيا وأقعدتها بنظريته تلك ، ليس هو أول من قال
بهذا القول ، ولا أول من نظر تلك النظرة إلى الحياة وما فيها من أحياء ،
وإن يكن له فضل في هذا الأمر فهو فضل العرض الواضح ، القائم على
التجربة ، المستند إلى البرهان المشهود ، على حين كان مفهوم هذه النظرية
عند من سبقه قائمًا على الأقيسة المنطقية ، والبناء الفلسفى للوجود ، أو على
الزكاة والحدس .

من أجل هذا كانت مقولات « دارون » في هذا المجال مطبوعة بطابع
القوة والجراءة ، إذ كان يبني مقولاته على معطيات التجارب الحسية التي براها
رأى العين ، ومن أجل هذا أيضا كان لمذهبه هذا الدوى الذي ملأ أسماع
العالمين ، وشغل عقول العلماء والفلاسفة ورجال الدين ، في كل أمة ، ومن
كل دين .

وإذا كان لأحد أن يقف من دارون موقف الهلع والخوف على معتقده
الدينى ، فليس هو المسلم الذي يعترف دينه بالعقل ، وبحقته في البحث والنظر ،
وفي احترام مؤدى البحث والنظر الذى لا يقوم على هوى ، ولا يستند إلى
سلطان غير سلطان الحجة والبرهان !

(١) مذهب النشوء والارتقاء الكتاب الأول — ج ١ ترجمة إسماعيل مظهر ص ٤٧

ثم إنه إذا كان لأي دين أن يجافي مقومات « دارون » وأن يضيّق بها فليس هو الدين الإسلامي الذي تكاد تنطق آياته بما أميا دارون والعلم الحديث الوقوف عليه ، من أسرار الخلق وقدرة الخالق وعظمته .

ومع ما نعرف من أن القرآن الكريم ليس كتاب علم ^{وأن الرسالة الإسلامية لم تجيء لتقرير حقائق علمية - فإن في عرضه لمشاهد النكون وفي كشفه عن مظاهر الوجود لمحات - مضيئة ، وإشارات مشرقة ، يجد فيها العلم مستنداً لمقولاته ، ومجازاً لحقائقه .}

ولو أن العقل الإسلامي لم يصب بتلك التلكمات التي اعتقلته زمن أطويلا في غياهب الجهل والظلام لكان له دور القيادة والمبادأة في محاولات العلم والفن ، ولما رضى بهذا الفتات الذي يلتقطه من فضلات العقل الأوروبي .

وهذا قول بقوله علماء الغرب أنفسهم ، ويذكروننا به وقد نسيناه .
استمع إلى ما يقوله « جوستاف جرونباوم » في كتابه « حضارة الإسلام » عن نظرية النشوء والارتقاء ، وعن سبق علماء المسلمين إليها .. يقول :

« وعندما يعبر الجاحظ ، والمسمودي ، وإخوان الصفا ، عن اعتقادهم في النشوء والارتقاء متصورين تصاعداً تدريجياً .. من المعادن إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوان ، ومن الحيوان إلى الإنسان - كانوا في ذلك يزكنون حدساً .. أي أن هذا الرأي لم يكن وليد تجربة ، وإنما كان عن لمحة ذكاء ، وصفاء وجدان .

وينقل « جرونباوم » عن « النظام العروضي » المتوفى سنة ١١٥٦م - نظرية متكاملة عن النشوء والارتقاء .. ونصها هو الآتي :

« وبذلك علت الآن مملكة العالم العضوي متفوقة على العالم غير العضوي ^(١) .
« وهكذا اقتضت حكمة الخالق الواسعة أن ترتبط المملكتان إحداهما

(١) العالم العضوي : هو عالم الأحياء الذي يتكون الكائن الحي فيه من أعضاء ذات وظائف تؤديها لسكانه الحي .. أما العالم غير العضوي فهو عالم الجهاد .

بالأخرى ارتباطاً متعاقباً مستمراً ، بحيث حدث [في العالم غير العضوي] أن المادة الأولى وهي الطين مرت في عملية نشوء وارتقاء ، وأصبحت أعلى تنظيمياً حتى صارت مرجاناً . وهو النهاية القصوى في العالم غير العضوي ، كما أنه مرتبط بأشد مراحل حياة النبات بدائية ، وأشد الأشياء بداعة في المملكة النباتية هو الشوكية ، وأعلاها تطوراً هو النخل والعنب اللذان يشبهان مملكة الحيوان ، حيث أن الأول منهما يحتاج إلى الذكر لإخصابه حيث يثمر ، على حين يفر الثاني من عدوه كما يفعل الحيوان .. ذلك أن السكرم يفر من العليق ، وهو نبات إذا التف بالسكرم جعله يضيء ، ومن ثم يفر السكرم منه .. وإذن فمملكة النبات لا تحتوى شيئاً أعلى من النخلة والكرمة ، نظراً لأنهما تمثلتا ذلك الشيء الذي هو أعلى من مملكتيهما ، وتجاوزتا بلطف حدود طامها الخاص ، وتطورتا ارتقاءً إلى اتجاه أعلى .. » .

ويعلق جزوينياوم على هذا الرأي الجريء بقوله : « ودعشتنا لعظمة تلك الرؤيا تعادل دهشتنا لهذا التهاون الذي بسطت به » .

ثم يعتذر للنظام ولعصره بقوله : « ولكن النظام ما كان في مركز - بالنسبة لعصره - يسمح له أن يثبت بالبرهان « رؤياه » الخاصة بالتطور الصاعد ، من العالم غير العضوي ، إلى العالم العضوي » (١) .

ونسأل بعد هذا . هل جاء « دارون » في نظريته عن النشوء والارتقاء بأكثر من هذا ؟ ونقول : إن دارون لم يبلغ حدود هذه النظرة الشاملة التي رد الوجود كله إلى جرثومة واحدة ، فإن دارون لم يقطع بهذا ، ولم يجزم بأن الأنواع ترجع إلى أصل واحد ، بل الذي جزم به هو ظهور الأنواع في عدة أصول .. تفرع كل أصل منها إلى أنواع ، على طريق التطور والارتقاء . ثم بعد « النظام » بنحو قرنين ونصف يجيء الفيلسوف المسلم ابن خلدون (٢)

(١) حضارة الإسلام الجزوينياوم ص ٣٢٩ .

(٢) توفى ابن خلدون سنة ١٤٠٦ م

فيجدد القول بنظرية النشوء والارتقاء ، ويجعلها مقولة من مقولاته ، ورأيًا
يقيم عليه الكثير من آرائه ، بل ويدعم به معتقده الديني .. !
يقول ابن خلدون :

« إننا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها ، على هيئة من الترتيب
والإحكام ، وربط الأسباب بالمسببات ، واتصال الأكوان بالأكوان ،
واستحالة بعض الموجودات إلى بعض - لانتقاض عجائبه في ذلك ولا تنتهي
غاياته .. »

ثم يقول : « انظر إلى عالم التكوين .. كيف ابتدأ من المعادن ، ثم النبات
ثم الحيوان على هيئة بدیعة من التدریج .

« آخر أفق المعادن - من أعلا - متصل بأول أفق النبات - من أسفل -
مثل الحشائش ، وما لا بذره .

« وآخر أفق النبات - من أعلا - مثل النخل والكرم متصل بأول أفق
الحيوان - من أسفل - مثل الخنزير والصدف ، حيث لا توجد لهما إلا قوة
اللمس فقط .

ثم يقول معقباً على هذا :

« ومعنى هذا الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد
الاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذي بعده .

ثم يتابع القول ليبلغ بنظريته إلى غاياتها :

« واتسع أفق الحيوان ، وتعددت أنواعه وانتهى في تدریج التكوين
إلى الإنسان ، صاحب الفكر والروية » (١) .

وأنت ترى أن ابن خلدون قد اندفع وراء هذا التسلسل إلى أبعد الحدود ،
وقد جعل الإنسان حلقة متطورة من سلسلة الموجودات التي بدأت من عالم
الجماد ، ثم تدرجت شيئاً فشيئاً إلى عالم النبات ، فالحيوان ، فالإنسان .

وإذا كان « دارون » قد أرجع الإنسان إلى فصيلة القرود ، فإن ابن خلدون قد نزل بنسبه إلى مادون القرود ، فإن عالم القرود - في رأى ابن خلدون - متطور من عالم أسفل منه ، وهذا العالم ناشىء من عالم آخر دونه ، وهكذا ، حتى يصير إلى عالم الطحالب في النبات ، ثم ينزل إلى عالم الجراد في المرجان ، ثم إلى عالم الجماد المطلق .. من الطين .. والحجر !
وأرانا قد أطلنا الوقوف عند هذه المسألة ، التي لم تكن إلا أمراً عارضاً في بحثنا هذا عن نشأة الانسان ، ولكن وجدنا فرصة متاحة للدفاع عن العقل الاسلامي ، بل وعن الاسلام الذي ينسب إليه - ظلماً . . في كل مناسبة - هذا الركود الذي خيم على المجتمعات الاسلامية ، وحجبها عن تلك المعارف الكونية التي أخذ العرب منها بهذا القدر الموفور ، الذي مكن له في الأرض ، فأقام ما أقام من مديناات وحضارات !

ونعود إلى قصة خلق آدم فنقول إن الأساطير التي عرفها العرب في الجاهلية عن خلق آدم ، ثم ظلت متداولة بينهم في الاسلام ، ثم رقدتها روافد كثيرة من الأمم التي دخلت في الاسلام .

نقول : إن هذه الأساطير قد ألفت على الآيات القرآنية التي ذكر فيها خلق آدم ظللاً متكاثرة أتاحت لأشباح هذه الأساطير أن تشغل المكان الذي كان ينبغي أن تشغله مفاهيم هذه الآيات ، ومعطيات دلالاتها . . ومن أجل هذا ليست تلك الآيات في أكثر كتب التفاسير هذه الصور الأسطورية ، واعتبر ذلك مفهوماً حقيقياً لها .

وقد رأينا نماذج من العقل الإسلامي الذي لم تستول عليه هذه الأساطير ولم تفرض عليه سلطتها عند نظره في كتاب الله . . فنظر إلى قصة خلق آدم نظراً محرراً ، وبهذا النظر عرف الجاحظ ، والمسعودي ، والنظام العروضي ، وابن خلدون من أسرار الخلق ما لم يصل إليه العلم الحديث إلى اليوم .

هذا ، وقد يرى بعضهم أن في قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة

إلى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ، فقموا له
ساجدين ، وفيما جاء من الآيات التي تحدث عن دعوة الله سبحانه وتعالى
للملائكة أن يسجدوا لآدم عندما ينفخ فيه الحق جل وعلا من روحه - قد
يرى بعضهم أن في هذا ما يدل على أن آدم قد انفرد بخلق خاص دون سائر
المخلوقات .

ونقول : إن ما ورد في الآية السابقة وأمثالها ، إن دل على خصيصة
لآدم ، فإنه لا ينبغي أن يكون ذلك قد كان حين وصل تطور الحياة بالأحياء
إلى هذه المرحلة التي بلغ فيها التطور غايته بظهور هذه السلالة الناضجة من
ثمرات الحياة ، ويكون معنى قوله تعالى : «إني خالق بشراً من طين فإذا سويته
ونفخت فيه من روحي ، أي إذا بلغ الكتاب أجله بهذا الطين الذي سرت
فيه الحياة ، ونهياً لقبول النفخة الإلهية فيه . ليكون هذا الكائن البشري ،
فقموا له ساجدين ، إذا هو تلقى النفخة من روح الحق جل وعلا .

ولعل في قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من صلالة من طين » . .
لعل في هذا ما يشعر بهذا المعنى الذي ذهبنا إليه ، وهو أن الإنسان لم ينجيء
من الطين مباشرة ، وإنما كان ذلك بعد سلسلة من التطورات ، وبعد عمليات
طويلة من التصفية والانتخاب ، انتهت بظهور الإنسان على تلك الصورة التي
انفصل بها عن جميع الأحياء ، وكان أهلاً لتلقى النفخة الإلهية يوم مولده ،
وكأنها التاج الذي توج به ملكاً على العالم الأرضي كله .

وعلى هذا فإننا لا نستطيع أن نقبل أقوال المفسرين في خلق آدم على تلك
الصورة المغلقة التي يصورون بها الأسلوب الذي خلق به ، إذ يكاد يجمع
المفسرون على أن ميلاد آدم كان هذا النحو ، الذي لا مستند له من آيات
الكتاب الكريم .

يقول « القرطبي » مثلاً : « خلقه الله بيده ، فكان جسداً من طين
أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فرت به الملائكة ففرغوا منه لما رأوه ،
وكان أشدهم فرغاً إبليس ! فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت
(٢٥ - النص القرآني)

الفخار تكون له صلصلة ، ويقول لأمر ما خلقت (١) »
وهذا القول وأمثاله إن هو إلا من موارد قصص الأولين وأساطيرهم ،
وليس في آيات القرآن الكريم دلالة عليه من قريب أو بعيد .
وهذه المقولات كلها ليست من معطيات الآيات القرآنية التي تحدثت عن
خلق آدم ، فليس في أية آية منها إشارة من قريب أو بعيد إلى شيء من هذا
الذي يحدث به المفسرون والتصاص في خلق آدم ونشأته .
ونتهى من هذا كله إلى قول واحد في هذه القضية ، وهو الاحتفاظ بها
في الإطار القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فأدم مخلوق
من طين ، أو من حمأ مسنون ، أو من طين لازب ، أو من سلاله من طين .. فهذا
هو الذي يقوله القرآن في خلق آدم .. وليقل العلم ما يشاء من مقولات ،
فإن مصير العلم وما يقع له من حقائق ثابتة في هذا الشأن ، لا بد أن ينتهي
إلى تلك الصورة التي رسمتها الآيات القرآنية له ..

٢ — الشجرة التي أكل منها آدم

نهى الله سبحانه وتعالى آدم أن يقترب من شجرة بعينها من أشجار تلك
الجنة التي أسكنه فيها ، وأباح له الأكل من كل طيب منها .
وهذه الشجرة لم يعرض القرآن لبيان نوعها ، ولهذا فهي غير معروفة
النوع ولا الصفة لنا ، وإن كانت معروفة لآدم حيث أشار إليها الله سبحانه
حين نهاه وزوجه عنها : بقوله سبحانه « ولا تقربا هذه الشجرة » .
وقد وصف إبليس هذه الشجرة لآدم وحواء وصفاً كاشفاً لها والمعطيات
التي ضمت عليها ..
« فوسوس إليه الشيطان .. قال يا آدم : هل أدلك على شجرة الخلد
وملك لا يبلى » .

« فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى عنهما من سواتهما ،
وقال مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا
من الخالدين » .

ولاشك أن هذه الأوصاف التى خلعها إبليس على الشجرة لالتقى مع
الواقع ، ولا تستقيم مع الحق ، وإنما هى من تلقينات إبليس وأكاذيبه ،
ليخدع بها ويعرئها .

ومع هذا فإن المفسرين والقصاص قد ذهبوا فى الحديث عن نوع الشجرة
كل مذهب ، مستندين فى هذا إلى روايات معزوة إلى بعض الصحابة
والتابعين ..

فهى « السنبلة » .. فيما يروى عن ابن عباس .

وهى « الكرمة » .. عن ابن مسعود والسدى .

وهى « التينة » .. عن ابن جريج .

وهى شجرة « الكافور » .. عن على بن أبى طالب .

وهى شجرة « العلم » - [علم الخير والشر] - .. عن السكبي .

وهى شجرة « الخلد » التى كانت تأكل منها الملائكة .. عن
ابن جذعان (١) .

وبعيد أن يكون لهذه المقولات سند صحيح من كتاب أوسنة ، وإلما
كان بينها هذا الاختلاف البعيد ، الذى لا يمكن الجمع فيه بين مقولة وأخرى .
والقرآن الكريم إذ وقف بالشجرة دون أن يحدد نوعها ، فإنما ذلك
لأنها معروفة معهودة لأدم ولزوجه - كما قلنا - ثم إن عدم تحديد نوعها فى
الحديث إلينا عنها يسمح لأن يكون للشجرة مفهوم خاص عندنا ، لا يدخل
فيه نوعها .. أياً كان .

فإنحاول أن نفهم الشجرة على أنها مجرد شجرة ، ليس لها صفة خاصة
تتماز بها عن الأشجار التى معها ، إلا فى تحديد ذاتها بالإشارة إليها .

(١) انظر مجمع البيان فى علوم القرآن للطبرى الجزء الأول .

ثم إن نهى آدم عن الاقتراب منها إنما هو امتحان له ، وابتلاء لعزمته ،
أمام الإغراء وحب الاستطلاع ، « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ، فنسى
ولم نجد له عزما » .

وغريزة حب الاستطلاع أقوى غريزة متحركة في طفولة الانسانية ، كما
هي متحركة في طفولة الأطفال .

وطفولة الانسانية كلها مندسة في كيان « آدم » ، ولهذا فإن هذا
النهي الذي تلقاه آدم من ربه عن الاقتراب من الشجرة قد وقع من نفس
آدم في موقعين :

١ — موقع الخوف من الجهة التي أُلقت إليه بهذا النهي ، والحذر من
أن يخالف ما نهى عنه .

٢ — الرغبة الصارخة في مدانة هذه الشجرة والتعرف عليها ، وعلى
ما يمكن فيها .

ثم إلى جانب هذه الرغبة الصارخة إلى مقاربة الشجرة ، كانت وسوسة
إبليس لآدم ، وإغراؤه له - الأمر الذي عجل بخطوات آدم إلى الشجرة ، وسيره
حسيناً إليها ، ولولم يقم إبليس من وراء آدم بغريبه بالشجرة ويدفعه إليها ،
لسار هو وحده نحوها ، ولباغها ، ولأكل منها .. ولكن بعد زمن متراخ
عن هذا الوقت الذي اقترب فيه بالفعل من الشجرة وأكل منها !!

وبلقانا في القصص القرآني موقف كهذا الموقف الذي كان من آدم
إزاء نهيه عن الاقتراب من الشجرة ، فلقد نهى « صالح » عليه السلام قومه
نمود عن أن يعرضوا للناقصة بسوء مدفكان هذا النهي منه كأنه إغراء لهم
بالمعدوان عليها ، هذا المعدوان الذي كان سببا في إهلاكهم والتدمير عليهم ،
وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى في سورة هود .

« وإلى نمود أخاهم صالحا . قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ،
هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ، ثم توبوا إليه ، إن ربي
قريب مجيب ، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أنتهانا أن نعبد

ما يعبد آباؤنا ، وإنما لنى شك مما تدعوننا إليه مريب ، قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، وآناني منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير .

«ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله، ولا تمسوها بسوء فإخذكم عذاب قريب ، فمقروها ، فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب ، فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القورى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جائمين ، كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثموداً كفروا ربهم إلا بعداً لثمود .. » (١) :

هكذا الإنسان ، وهكذا الناس ، يتحدون كل سلطان يقيد نوازعهم ، ويتسلط على إرادتهم ، ولو كان ذلك لخيرهم وإسعادهم ، فالناس موكلون بما ينهون عنه .. فى الشرائع السماوية أو القوانين الوضعية .. «ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بأيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لسكاذبون (٢) » .

ولهذا ، فإنى أحب أن أذكر هنا قوله تعالى : «خلق الإنسان من عجل» وقوله جل شأنه : «وخلق الإنسان عجولاً» كما أحب أن أفهم الآيتين السكريميتين على أنهما تسكلان الصورة التى خلق عليها آدم ، وأن إغراء إبليس له قد عجل بظهور الإنسان فى آدم !!

فند انتهى آدم إلى الشجرة ، وذاق من ثمرها ، بعد هذا الصراع الشديد بينه وبين ، نفسه أدرك أنه جنى على نفسه جنابة غليظة ، كما أدرك أنه سيلقى جزاء ما اقترف .. وهنا يتنبه إلى وجوده ، فىرى أنه مخلوق ذو إرادة ، يستطيع أن يتقدم أو يتأخره بوحى من ذاته ، وأنه لم يمد شيئاً من أشياء الوجود التى

(١) سورة هود : ١٤١ - ١٥٨

(٢) سورة الأنعام : ٢٧ - ٢٨

لا تشارك في نسج حياتها ، وفي صنع قدرها .. وهذا تنبه أيضاً إلى أنه عاد
مكشوف العورة ، كالحيوانات السائمة ، ولم يكن في مقدور عقله وحيلته أن
يسمفاه بأكثر من ورق الشجر ليستر به سوانه .. تماماً كما تفعل بعض قبائل
الزنج ، حين تنتقل من طور العرى الخالص إلى طور التستر بأوراق الشجر !
ونود أن نقف هنا مع الفيلسوف المسلم « محمد إقبال » الذي أشرنا من
قبل إلى تلك النظرة الذكية التي نظر بها في كتاب الله ، وحصل بها ما حصل
من علم ومعرفة في هذه المسألة التي تضاربت فيها الآراء ، وكثر فيها
الخلط والتلبس .

يقول « إقبال » :

« وهكذا نرى أن قصة هبوط آدم كما جاءت في القرآن ، لاصلة لها
بظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب . وإنما أريد بها بالأحرى بيان
ارتقاء الإنسان من بدائية الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة
على الشك والعصيان .

ثم يقول :

« وليس يعنى الهبوط أى فساد أخلاقي ، بل هو انتقال الإنسان من
الشعور البسيط ، إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس .. هو نوع
من اليقظة من حلم الطبيعة ، أحدثتها خفقة من الشعور بأن للإنسان صلة
علية شخصية بوجوده .

ويقول :

« هذا ، إلى أن القرآن لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب ، سحنت فيه
إنسانية شريرة العنصر ، بسبب ارتكابها خطيئة أصلية .

ثم يقول :

« فالعصية الأولى للإنسان كانت أول فعل له ، تتمثل فيه حرية الاختيار ..
ولهذا تاب الله على آدم كما جاء في القرآن وغفر له !
« وحمل الخير لا يمكن أن يكون قسراً ، بل هو خضوع عن طواعية للمثل

الأخلاق الأعلى . خضوعاً ينشأ عن تعاون النظرات الحرة المختارة عن رغبة ورضى .
« والسكان الذى قدرت عليه حركاته كلها كما قدرت حركات الآله
لا يقدر على فعل الخير !
ثم يمضى قائلاً :

« وعلى هذا ، فإن الحرية شرط فى عمل الخير !
« ولكن السماح بظهور ذات متناهية لها القدرة على أن تختار ما تفعل
بعد تقدير القيم النسبية للأفعال الممكنة لها - هو فى الحق مغامرة كبرى ،
لأن حرية اختيار الخير تتضمن كذلك حرية اختيار عكسه ..
ثم ينهى هذا الموقف قائلاً :

« وربما كانت مغامرة كهذه هى وحدها التى تيسر الابتلاء والتنمية
تتقوى الممكنة لوجود خلق على : « أحسن تقويم » ثم رد إلى « أسفل
سافلين (١) » .. وكما يقول القرآن : « وبلوكم بالشر والخير فتنة » .
[سورة الأنبياء : ٣٥] (٢)

وهذا كلام واضح مشرق ، ولا يحتاج إلى تعليق أو توضيح .

٣ - الجنة التى أهبط منها آدم

يكاد يجمع المفسرون على أن الجنة التى كان فيها آدم قبل المعصية ثم خرج
منها هى جنة واقعة وراء الحشر ، أى أنها من تلك الجنات السماوية التى وعد
المتقون بها فى الآخرة .

وقد أعان على هذا الفهم لجنة أمور .. منها :

١ - ما وقع فى التفكير الإسلامى من اختصاص آدم بهذا الخلق الذى
انفرد به عن سائر المخلوقات .. مادة وصفة .

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة التين : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » ثم
ردهناه أسفل سافلين » .

(٢) تاريخ التفكير الدينى فى الإسلام ص ٩٩

٢ - ماورد في القرآن الكريم من وصف تلك الجنة ، وما كان يلقاه فيها من راحة ونعيم : « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنتك لا نظماً فيها ولا تضحى » .

٣ - كثرة ذكر « الجنة » في القرآن الكريم مراداً بها الجنة السماوية ، ومع هذا فإن هذه الأمور لا تعطى حكماً قاطعاً بأن جنة آدم كانت جنة سماوية .. ولا تدفع القول بأنها كانت جنة أرضية ، من تلك الحدائق والغابات المبتونة في بقاع شتى من الأرض .

أما تلك العناصر التي مهدت للقول بأنها جنة سماوية ، وأعانت عليه فيمكن دفعها بما يلي :

فأولاً : ما يقال من اختصاص آدم بمخلوق تفرد به عن سائر المخلوقات - هذا القول لم تشهد له آيات القرآن الكريم ، وقد تحدثنا عن ذلك فيما مضى ، وانهينا إلى القول بأن آدم مخلوق أرضى نبت في الأرض ، كما نبتت سائر المخلوقات التي تدب عليها .

وثانياً : الوصف الذي وصفت به جنة آدم بأن مساكنها لا يجوع ولا يعرى ، ولا يظلم ولا يضحى - هذا الوصف يمكن أن يتحقق في كثير من جنات الأرض ، حيث يجد من يعيش فيها كل ما يكفي مطالب الحياة وضروراتها .. خاصة وأن آدم - في هذا الطور من حياته - لم يكن ذا مطالب تتجاوز سد حاجته من الطعام والماء ، والسكن الذي يقيه الحر والبرد .. وإن شئت فقل إنها مطالب الانسان البدائي من ساكني الغابات ، ليس له مطلب وراء ما يشبع جوعته ويروى ظمأه ، ويدفع عنه طادية الحر والبرد .. وكل هذا حاضر عتيق لا يتكلف له أحد جهداً في مثل هذه المواطن ، سواء في ذلك الانسان والحيوان .

وثالثاً : إذا كانت الجنة السماوية قد ذكرت كثيراً في القرآن ، في معرض الجزء الأخرى للمتقين ، فإن الجنة الأرضية قد ذكرت أيضاً بهذا الاسم

— الجنة — فقال تعالى : « أورد أحدكم أن تكون له الجنة من نخيل وأعنان تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات .. (١) » وقال سبحانه : « مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآنت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل » (٢) وقال تعالى : « واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ، كلتا الجنتين آنت أكلها ولم تظلم منه شيئاً » (٣) وقال سبحانه : « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، إن ترى أنا أقل منك مالا وولداً . فعسى ربى أن يؤتيني خيراً من جنتك (٤) » .. وقال جل شأنه : « إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة ، إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون » (٥) .

فالجنة في اللغة : الأرض ذات الشجر الكثير الملتف ، لأنها تجن من يدخل فيها ، أى تستره ، ومنه معنى الجن جنناً ، لأنه يستجن فلا يرى ، وجن عليه الليل ، أى دخل عليه بظلامه الذى يحجب العيون عن الرؤية الواضحة . وعلى هذا فإن جنة آدم التى ذكرت فى القرآن يمكن — لغوياً — أن تكون جنة مماوية أو أرضية ، حسب القرائن التى تشهد لهذه أو تلك .

والقرائن التى قدمناها فى هذا البحث تميل بجنة آدم إلى الجانب الأرضى ، وتقييمها على أى مكان منها !!

هذا ، وقد سبق بعض العلماء المفسرين إلى القول بهذا القول ، الذى ربما أنكروه وفزع منه كثير من علماء القرن العشرين !

فهذا أبو مسلم الأصفهاني — صاحب التفسير الذى كان عمدة كثير

(١) سورة البقرة : ٢٦٦

(٢) سورة البقرة : ٢٦٥ .

(٣) سورة الكهف : ٣٢ - ٣٣

(٤) سورة الكهف : ٣٩ - ٤٠

(٥) سورة الن : ١٧٤ - ١٨

من علماء المسلمين وفقهائهم - يقول عن جنة آدم : « هي جنة من جنان الدنيا في الأرض » .

ثم هو يجيب على الإشكال الذي يعترض به المعترضون في قوله تعالى لآدم وإبليس : « اهبطوا منها » من أن هذا الهبوط يعني نزولاً من السماء إلى الأرض - يجيب على هذا الإشكال بقوله : « إن قوله تعالى اهبطوا منها لا يقتضى كونها السماء ، لأنه مثل قوله تعالى : « اهبطوا مصرأ » (١) .

ويفسر « القرطبي » الهبوط الذي وقع على إبليس على نحو ما فسر به أبو مسلم هبوط آدم : فيقول في قوله تعالى لإبليس : « قال فاهبط منها » .. قيل من صورتك التي أنت فيها .. وقيل انتقل من الأرض إلى جزأر البحار (٢) .

ويرى الفيلسوف « إقبال » هذا الرأي نفسه في جنة آدم .. فيقول : « ليس هناك من سبب لافتراض أن كلمة « جنة » هي (حديقة) استعملت في هذا السياق - سياق قصة آدم - للدلالة على جنة وراء الحس ، يفترض أن الإنسان هبط منها إلى هذه الأرض ..

ثم يقول :

« وطبقاً للقرآن ، وليس الإنسان غريباً عن هذه الأرض ، إذ يقول : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » - فالجنة التي ورد ذكرها في القصة لا يمكن أن يقصد بها الجنة التي جعلها الله مقاماً خالداً للمتقين ..

ثم يقول :

« وعلى هذا ، فإنني أميل إلى اعتبار الجنة التي جاء ذكرها في القرآن تصويراً لحالة بدائية ، يكاد يكون الإنسان فيها مقطوع الصلة بالبيئة التي يعيش فيها ، ومن ثم فإنه لا يحس بلذعة المطالب البشرية التي تحدد نشأتها - دون سواها من العوامل - بداية الثقافة الإنسانية » (٣) .

(١) من تفسير أبي مسلم نقل عن مجمع البيان في علوم القرآن للطبرسي جزء ١ ص ١٦٧ .

(٢) انظر تفسير القرطبي الجزء السابع ص ١٧ طبعة دار الكتب

(٣) تجديد التفكير الديني الإسلامي ص ٩٨

يريد إقبال أن يقول إن وصف جنة آدم بما وصفت به من كفايتها لمطالبه كلها ، لا يدفع القول بأنها جنة من جنات الدنيا ، أو غابة من غاباتها ، حيث تكفي مطالب الانسان البدائي وتسد حاجاته المحدودة ، التي هي أقرب شيء إلى مطالب الحيوان ، المحصورة في الطعام ، والماء ، والمأوى .

o o o

وبعد ، فإن في هذه القصة كثيراً من المواقف لانزال في حاجة إلى كشف وتجلية ، ولكن ما عرضناه من مواقف القصة يكفي في الدلالة على المنهج الذي يريد أن نترسمه في دراسة هذه القصة ، وفي القصص القرآني كله ، ذلك المنهج الذي يقوم على احترام النص القرآني ، والنزاهة دلالاته دون الترخص في قبول ما لا يعطيه منطوق النص أو مفهومه ، فإن ذلك مع ما فيه من رعاية لتدسية القرآن الواجبة له — فيه أيضاً حماية للحقائق التي حملها القصص القرآني من أن تضيع وتنطمس معالمها ، في زحمة الغرائب والأساطير الزاحفة عليها من كل صوب ، وبهذا تظل حقائق هذا القصص قائمة في الحياة ، مهيمنة على ما ينكشف للعالم منها .. حيث ينظر إلى حقائق العلم من خلالها ، ولا ينظر إليها من خلال حقائق العلم !!

ذلك هو مقصدنا الأول من هذه الدراسة للقصص القرآني ، فإن يكن قد استبان فيه قصدنا ووضح سبيلنا ، واستقام منهجنا ، فهو فضل من أفضال علينا ، يستأهل حمده وشكرانه ، ويستوجب دوام هذا الحمد والشكران به بالعمل الدائب ، والجهاد المتصل ، لحياطة كتابه الذي أنزل ، وحراسة دينه الذي ارتضى .

ثانياً

قصة يوسف

بين يدي القصة ..

تغريب :

قبل أن نلتقي بالقصة لقاءً مباشراً في آيات القرآن الكريم التي ضمت عليها - أود أن أشير إلى أمور أرى من الضروري أن تكون على ذكرها ونحن نبدأ المسيرة مع أحداث القصة ..

فأولاً : انفردت قصة يوسف بسورة كاملة من طوال السور ، سميت باسم « يوسف » الذي تدور حوله معظم أحداث القصة .. وهذا ما لم يكن لأية قصة أخرى من قصص الأنبياء غير نوح عليه السلام ، الذي سميت باسمه سورة من قصار السور ، هي سورة نوح ، على حين أن بعض الأنبياء قد سميت بعض السور باسمهم كسورة هود ، وسورة صالح ، وسورة إبراهيم ، ولكنها لم تكن خالصة للحديث عنهم ، بل شاركهم في ذلك غيرهم من الأنبياء ..

وثانياً : جاءت قصة يوسف في معرض واحد في القرآن الكريم ، وفي ثمان وتسعين آية ، ابتداء من الآية الرابعة من السورة إلى الآية الواحدة بعد المائة .. وهذه ظاهرة لم تكن في قصة نبي من الأنبياء ، حيث تتعدد المعارض ، وتتوزع المشاهد في كل قصة ، فتجيب القصة في أكثر من سورة أو في مواضع متباعدة من السورة ، حتى لقد تجبى بعض القصص في أكثر من مائة موضع في القرآن الكريم ، كقصة موسى ، التي عد العلماء ذكرها في مائة وعشرين موضعاً .

وإذا العرض الممتد الجامع لقصة يوسف ، من شأنه أن يلقننا إلى الإعجاز

المبين في النظم القرآني ، ذلك الإعجاز الذي تتجلى آياته فيما يستولى على قارئه القصة أو المستمع إليها من روعة الجلال وسطوته ، ومن بقطعة الوجدان ونشوته ، على امتداد العرض ، وتمدد المشاهد ، دون أن يفقد الشعور وحدته ، ودون أن يجد المتلقي لأحداث القصة مجالاً للتحرك خارج مسارها ..

o o o

وثالثاً : إذا كان للمرأة مكان بارز في قصة يوسف ، وإذا كان دور المرأة في تلك القصة هو الدور الذي يشتميه الرجل منها ، ويشوقه الحديث الذي يعرض لوسائل كيدها ، وأساليب إغرائها ، وشباك مغامراتها — فإن دورها في القصة لم يكن مستجلباً لجمال فراغها فيها ، أو ليلاطف من جو المأساة التي ضمت عليها ، أو ليجدد نشاط المتلقي لها .. وإنما كان حدثاً تجارياً مع اتجاه أحداثها ، في الصراع بين الخير والشر ، فيما بين الناس عامة ، وفيما بين الإنسان وبين نفسه خاصة .. وصدق القرآن في نقله للأحداث ، وبلاغته في عرضها ، هو الذي يعطى القصة القرآنية هذا الجلال ، وتلك الروعة التي يستشعر المرء معها ما يستشعر العابد في محراب صلواته من ضراعة وخشوع ، إن جلال الحق يرتفع بمشاعر الإنسان ، ويسمو بمدركاته إلى حيث يعطى الإنسان من ذات نفسه للحق كل ما في وسعه من إيمان به وولاء له .

فالمرأة في القصص القرآني لا تستجاب لغاية غير العبرة والعظة ، ولا تأخذ مكاناً في القصة إلا حيث تكون درساً مستفاداً في الدعوة إلى الخير والعدل ، والإحسان ، وفي التنفير من الشر والبغى والعدوان .

والذي يجده القارئ أو المستمع لقصة يوسف في القرآن الكريم ، من روعة البيان وجمال العرض ، ومن صمو بالمعاطفة ، واستعلاء بالنفس على الشهوات ، وقيادتها إلى مواقع الخير على طريق مفروش بالأشواك ، محفوف

بالمكارة - هذا الذي يجده القارئ أو المستمع لقصة يوسف ، هو هو ما يجده في قصة أصحاب الكهف ، أو قصة موسى والعبد الصالح مثلاً ، وفي كلتا القصتين لا يبدو وجه المرأة ، ولا يشار إليها من قريب أو بعيد .

* * *

ورابعاً : في هذه القصة ، كما هو الشأن في معظم القصص القرآني يتجلى سلطان « القدر » ، حيث تجري الأحداث في مجرى يرى الناس منه ما يكرهون أو يحبون ، حسب ما يحسبون ويقدررون ، ثم تجيء الخاتمة على غير ما حسبوا وقدروا ، إذ الذي حسبوه خيراً هو شر ، وإذا الذي ظنوه شراً هو خير ، مصداقاً لقوله تعالى : « وعسى أن تنكروها شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (البقرة : ٢١٦)

وخامساً : تتحرك الأحداث في قصة يوسف حركة مسارية لحركة الزمن ، حيث ينمو الحدث نمواً طبيعياً مع سير الأيام والليالي ، كما ينمو الكائن الحي ويتطور مع مسيرة الزمن .. فالصغير يكبر ، والكبير يشيخ ويهرم ، والعواطف الشابّة الحارة الشائرة ، تبرد وتهدأ .. وهكذا تظهر « بصمات » الزمن على وجوه الناس ، وعقولهم وقلوبهم ، كلما خطا بهم الزمن خطوة إلى الأمام .. فالزمن عنصر له مكانه ، وله وزنه وحسابه في تلك القصة

° ° °

هذه بعض ملاحظات نحب أن نكون على ذكر منها في تلك الدراسة الموجزة لقصة يوسف . فإن ذلك مما يمين على مزيد من القهم لها ، والوصول إلى الكثير من الحقائق العلمية والفنية المودعة فيها . والتي لا تنفذ على الزمن أبداً .. وهذا مما يمين على استخلاص العبر والعظات منها ، ثم الانتفاع بها انتفاعاً يعيش منه الإنسان مع زاد طيب لا ينفذ ، لاستقامة التفكير ، واعتدال السلوك ، وبلوغ الغايات الكريمة ، والمنازل العالية في الدنيا والآخرة جميعاً ..

مع القصة ..

لعل خير ما يبدأ به الناظر في هذه الدراسة ، هو أن يضع المصحف الشريف بين يديه ، وأن يسمي إلى لقاء سورة « يوسف » وهي السورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف ، فيرتلها ترتيباً قرآنياً ، أو يقرأها قراءة مستأنية متمهلة إن كان لا يحسن الترتيل .. وإنه لا بأس أن يعاود التلاوة أو القراءة مرة ومرة وأن يقف على ما يدعوه الوقوف من ألفاظها ، ومعانيها ، وأحداثها ، وذلك ليقيم لنفسه فهماً خاصاً للقصة ، يواجه به تلك الدراسة التي نمرسها بين يديه إذ ليست هذه الدراسة - في صميمها - إلا فهماً خاصاً مستوحى من آيات القرآن الكريم ومن عرضها لأحداث القصة .. وهذا يكون للمتلقى لهذه الدراسة حق المناقشة لها ، والقبول أو الرفض ، لما يقبل أو يرفض منها .. فذلك - فيما أرى - هو أعدل سبيل^١ وأقومه للبحث عن الحقيقة ، والكشف عن وجهها .. فالحقيقة ليست ملكاً لأحد ، كما أنه ليس لإنسان أن يدعى لنفسه المصنعة من الخطأ .. والباحث عن الحقيقة يشوقه دائماً بل ويسمده أن يرى غيره مشاركا له في البحث ، ومعيّنا على الكشف ، فيرى فيه رفيقاً مؤثراً ، وصديقاً مخلصاً ، يهون عليه المسيرة إلى الغاية ، ويبدئي له البعيد منها ..

هذا ، وقد بدأ لي من النظرة الأولى أن أعرض القصة أولاً في إطارها القرآني الذي عرضها القرآن الكريم فيه ، بمعنى أن ننقل هنا سورة يوسف .. ثم نبدأ بمد ذلك في دراستها .. وذلك حرصاً مني على تحقيق ما أشرت إليه منذ قليل . وهو تلاوة السورة ، أو قراءتها قبل النظر في هذه الدراسة ، وخوفاً من أن يجد القارئ هذه الدراسة بين يديه ، فيعجل بالنظر فيها دون أن يسبق ذلك إعداد نفسه بتلك الدراسة الخاصة التي أشرت بها والتي رضيت منها بتلاوة السورة أو قراءتها من المصحف ..

ولكن رأيت في هذا التدبير إلزاماً للقارئ بمنهج ربما لا يرضيه ، وذلك حين يجد نفسه بين يدي السورة ، فلا يرى من دينه وأدبه مع آيات الله أن يتخطاها إلى تلك الدراسة ..

لهذا فقد سلكت طريقا وسطا في هذا المقام ، فجعلت على رأس كل فصل من فصول القصة ، أو مقطع من مقاطعها ، الآيات القرآنية المصورة لهذا الفصل والمحدثة عن هذا المقطع .. فإذا قرأ القارئ تلك الآيات واستقام له فهم خاص منها ، قبل أن يلتقى بما نعرضه عليه من فهمنا لها ..

ونبدأ بالمقطع الأول من القصة .. وعلى الله قصد السبيل ، ومنه العون والتوفيق ..

بسم الله الرحمن الرحيم
الآن تلك آيات الكتاب المبين
إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم
تعقلون ، نحن نقص عليك أحسن
القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن
وإن كنت من قبله لمن الغافلين
[آيات : ١ - ٣]

قبل أن يرفع الستار
تبدأ القصة بهذه المقدمة التي
تنبه مدارك المتلقي لها ، وتوقظ
مشاعره أن يلتقي بها ، ويتابع أحداثها
.. وشبيه بهذا ما يكون من طرقات
على خشبة المسرح قبل بدء عرض
الرواية ، وما يحدث من تغيير وتبديل

في الأضواء المسلطة على جمهور المشاهدين ، وعلى مواقع الممثلين ،
الأمر الذي يؤذن بأن العرض وشيك أن يبدأ ، فيتهيأ المتلقي له للقائه ،
عقليا ونفسيا ..

وأول ما يلفت النظر من هذه المقدمة ابتداءها بتلك الأحرف المقطعة:
ألف .. لام .. راء ، وهي مجرد رموز ، وإشارات ، لا يعلم تأويلها إلا الله
والراسخون في العلم .. وهذا يعني أن هذا مقام يستدعي له الراسخون في
العلم ، حيث يجدون لعلمهم هذا مجالاً للكشف عن أسرار ضمت عليها هذه
القصة ، وليس لغير الراسخين في العلم سبيل إلى الوصول إليها .. ففي القصة
— كما سنرى — أحداث غامضة ، خفي على الناس أمرها ، وأعيام تأويلها ،

كرويا صاحبي يوسف في السجن ، وكرويا الملك ، التي استدمى لها العلماء ، وأهل الفطنة والنظر ، في دولته ليكشفوا عن وجهها ، وليدلوا على صريح مضمونها .. وقد عجزوا جميعا عن حل هذه الرموز ، وتأويل تلك الإشارات ، و « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .. حتى إذا عُرِض أمر هذه الأحلام على يوسف ، نفذ ببصيرته إلى صميمها ، وجاء بتأويل الحق لها ..

هذه الحروف المقطعة ودلالاتها :

ثم إن مما بلغت النظر في هذا البدء بالحروف المقطعة التي بدئت بها القصة ، أو السورة ، أن هذا البدء قد بدئت به السورتان اللتان قبلها : « يونس » و « هود » ، كما بدئت به بعدها السورتان : « إبراهيم » و « الحجر » . فلقد بدئت السور الخمس بالأحرف الثلاثة : « الألف واللام ، والراء — هكذا :

- « الألف . تلك آيات الكتاب الحكيم » (يونس) .
- « الألف . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (هود) .
- « الألف . تلك آيات الكتاب المبين » (يوسف) .
- « الألف . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » (إبراهيم) .
- « الألف . تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » (الحجر) .

ويلاحظ في هذا البدء أمور .. منها :

- • أولا : ذكر الكتاب ، أو آيات الكتاب بعد هذه الأحرف .. وهذا مما يشير إلى ما بين هذه الأحرف وهذا الكتاب ، وآيات الكتاب من صلوات ، وأن من بين هذه الإشارات أن آيات القرآن الكريم منها المحكم والمتشابه ، كما يقول سبحانه : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات .. فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون
- (٢٦ - القصص القرآني)

ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم . يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب » (٧: آل عمران) وأن المحكم ما كان لكلماته مدلول واضح محدد ، مثل كلمات السورة كلها ما عدا هذه الحروف المقطعة ، وأن المتشابه ما كان غير واضح الدلالة ، بحيث يحتاج الكشف عن معناه إلى بصيرة نافذة من الراسخين في العلم ، مثل هذه الأحرف المقطعة .. ثم إن نسبة المتشابه إلى المحكم نسبة قليلة جداً ، أشبه بنسبة الحروف المقطعة في أول السورة إلى السورة كلها .

• • • وثانياً : أنه إذا ذكر لفظ « كتاب » لم يُشِرْ إليه بحرف إشارة ، على حين إذ ذكر لفظ « آيات الكتاب » أشير إليها بحرف الإشارة « تلك » .. وهذا مما يشير إلى أن القرآن الكريم نسيج واحد من نور الحق في مجمله ومفصله ، وفي محكمه ومتشابهه ، وفي حروفه ، وكلماته ، وفي آياته ، وسوره ، فهو معجزة خالدة متجددة . باعتبارها كلا لا يتجزأ ، بحيث يُنظر إليه من المبدأ إلى الختام نظرة يلتقي فيها متشابهه مع محكمه ومجمله مع مفصله ، وقصصه مع أحكامه وآدابه ..

• • • وثالثاً : في ذكر « الكتاب » ، والتزام هذا الذكر بمد تلك الأحرف الهجائية ، تحريض على العلم ، ودعوة إلى التعلم ، كتابة وقراءة ودرساً ، ودعوة إلى من يتصل بكتاب الله ، وما في خزائن آياته وكلماته من علم لا ينقد — أن يكون من أهل العلم ، ومن مارس الكتابة ، ودرس ما كتب العلماء ..

* * *

• لا شك أن هذه اللفتة — من القرآن الكريم إلى قوم أميين ، في أمة أمية ، وفي بيئة يشتمل عليها الجذب والقحط — لا شك أن هذه اللفتة تحمل في طياتها إلى هؤلاء الأميين ، أن يخرجوا من جلد الأمية ، وأن يتزعموا عنهم

لبأس الجهل والجاهلية ، وأن يأخذوا بأسباب المدنية والحضارة التي لا تقوم إلا على صمد وطيدة من العلم والمعرفة ..

ثم لعل في عرض هذه الحروف المقطعة التي بدئت بها تلك السور وغيرها من سور القرآن الكريم ، مثل : « ألف .. لام .. ميم .. » و « حاء ميم .. » و « ياسين .. » . و « قاف .. » ، و « نون .. » - لعل في عرض هذه الحروف ، ونطقها على تلك الصورة ، حرفاً حرفاً - هو أول درس عملي يقدمه القرآن الكريم ، ويفتح به الطريق إلى تعلم القراءة والكتابة ، إذ كانت تلك الأحرف هي أول ما عرف العربي الأبي من أجزاء الكلمة ، وعرف منها أن الكلمات التي ينطق بها ليست مركبات مصمتة ، وإنما هي قوالب ، يتشكل من كل مجموعة منها بناء ، هو الكلمة ، كما يتشكل من الكلمات نظام يتألف منه الكلام الذي يتعامل به الناس في لغة التخاطب ، وفي نظم القصيد ، أو إنشاء الخطب .. فكما يتعلم المبتدئ القراءة والكتابة يتعلم الحروف الهجائية التي تبنى منها الكلمات ، يتعلم العرب الأميون من هذه الأحرف المقطعة كيف يشكون منها الكلمات التي ينطقونها ويصورون منها صوراً تكتب وتقرأ ..

ونقرأ مطلع السورة الكريمة : « آر .. » ونصل هذا المطلع بما بعده : « تلك آيات الكتاب المبين » فنجد لفظ الإشارة « تلك » مشاراً به إلى هذا المطلع ، وإلى آيات الكتاب المبين ، جاءلا منها حقيقة واحدة .. فأيات الكتاب المبين مصورة من حروف مقطعة كهذه الأحرف .. وهذه الأحرف المقطعة هي من معدن آيات الكتاب المبين وجوهره ..

الكتاب المبين الحكيم :

وفي وصف الكتاب في سورة يوسف بأنه مبين ، توكيد لوصفه بأنه « الكتاب الحكيم » في سورة يونس ، وبأنه « كتاب أحكمت آياته » في سورة هود .. إذ أن الحكمة لا تكون حكمة ، والحكيم لا تتم حكمتهم ، حتى يخرج تلك الحكمة على صورة بيّنة واضحة مشرقة ، يرى الناس على وجهها أضواء العلم والمعرفة ، والإلا كانت حكمة مضرة لا يبتنعق بها أحد .. أشبه

بالآلى فى أصدافها فى البحر .. فالمبين ، مبين وحكيم معاً .. والحكيم
حكيم ومبين كذلك ..

وقولة تعالى : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » تقرير وتوكيد
لتلك الحقيقة التى وصف بها القرآن الكريم ، وبأنه كتاب مبين .. فمن بيان
القرآن ، الذى يكشف عن الحكمة المشتمل عليها ، أنه جاء إلى من يخاطبهم
باللسان الذى يحسنون الفهم عنه ، والتفاهم به ، وهو اللسان العربى .. ولوجاه
القرآن إلى العرب بغير هذا اللسان العربى ، لما عقلوا عنه ، ولما انتفعوا بأحكامه
وآدابه ، ولأفقت من أيديهم كل ما اشتمل عليه من حكمة .. ولهذا جاءت
فاصلة الآية : « لعلكم تعقلون » مصدره بحرف الراء « لعل » حيث
يكون العربى المستمع لهذا القرآن العربى على رجاى من أن يعقله ؛ ويفهم
مراميها ، وبهذا تقوم الحججة على كل عربى استمع لهذا القرآن ولم يؤمن
بالله ، وبأن القرآن كلام الله .

وإنه ليس بالحكيم من يخاطب الناس بالأسلوب الذى يعلو على أفهامهم ،
أو بالبلاغة التى لا يحسنون الفهم عنها .. إنه حينئذ لا يجد أذنا تصفى إليه ،
ولا قلباً يفتح له ، ولا عقلاً يتجاوب معه ..

ولقد كان من مقتضيات البلاغة ، ومن بلاغة البليغ ، مراعاة مقتضى
الحال ، فلكل مقام مقال — كما يقولون — فلا يخاطب الجاهل خطاب العالم ،
ولا العالم خطاب الجاهل ، ولا البدوى بمفاهيم الحضرى ، ولا الحضرى
بمفاهيم البدوى ، وإلا فقدت اللغة قيمتها ، وضاعت معالمها ، وأصبحت
أشبه بالنقد الزائف الذى ينكره الناس ، ولا يتعاملون به .. وفى الحديث
الشرىف — كما روى البخارى — أن رسول الله ﷺ قال : « كما هو الناس
بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون .. أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ »
والمراد بمخاطبة الناس بما يعرفون ، أى بما تبلغه مدركاتهم ، ويقع منهم موقع
الفهم .. والمراد بتكذيب الله ورسوله ، هو ما يقع من اختلاط الأمر على

الناس حين يتحدث إليهم علماءهم أحاديث لا يفهمونها على وجهها الصحيح ،
فتنشأ من ذلك مفاهيم كثيرة مختلفة ، يناقض بعضها بعضاً ، وكلها — في
ظاهرها — تحدث عن الله ، وعن رسول الله ، فيقع من ذلك الشك والارتياب ،
ثم التكذيب والكفر !

أحسن القصص :

وفي قوله تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك
هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .

الضمير « نحن » هو الله سبحانه وتعالى ، وفيه استدعاء للرسول الكريم
ومدانة له من ربه ، وتكريم لذاته — صلوات الله وسلامه عليه — بهذا الحديث
الذي يتلقاه من ربه بغير واسطة . « نحن نقص عليك » .. وهذا على خلاف
يخبر النظم القرآني هكذا : « الله يقص عليك » فإن هذا يشعر بأن مخبراً
ما لوجاء الرسول بهذا الذي يقصه عليه ربه جل وعلا .. أما « نحن نقص عليك »
فإن الله تعالى هو الذي يقص على النبي .. وشتان بين الحالين ..

و « القص » تتبع الأثر ، والتعرف على صاحبه من الآثار الدالة عليه ،
وقص الأخبار ، تتبعها ، والكشف عنها ، وعرضها ..

و « أحسن القصص » .. أصدق حديثاً ، وأشرفه غاية ، وأكرمه مقصداً ،
وأقومه طريقاً ، وهو قصص القرآن ، الذي يقصه الله تعالى ..

ولا نذهب مذهب القائلين بأن التفضيل هنا على غير حقيقته ، بمعنى أنه
ليس هناك مفاضلة بين القصص القرآني وغيره .. وأن القصص القرآني وحده
هو الحسن ، وهو الأحسن .. بل نقول إن التفضيل على حقيقته ، وأن هذا
التفضيل لا يقع بين قصص القرآن ، إذ كان القرآن كله على مستوى واحد من
الكمال المطلق الذي ليس بعمده كمال ، سواء في ذلك قصصه ، وآدابه ، وأحكامه ..
وإنما المفاضلة هنا بين قصص القرآن ، وغيره من القصص .. وهذا يعني أنه
إذا كان القصص القرآني الغاية في الحسن والكمال ، فإن ذلك لا يمنع من أن

يكون في القصص غير القرآني ، مما ألفه المؤلفون وقصه القاصون ، سواء ما كان منه من نسيج الواقع أو من شباك الخيال ، وسواء ما كان منه على ألسنة الناس أو على ألسنة البهائم والطيور والجماد ، إن ذلك لا يمنع من أن يكون في هذا القصص ما هو حسن يتأدب به ، وتؤخذ منه العبرة والعظة .. وليس ذلك بالذي يزحم القصص القرآني في منزلته العالية التي انفرد بها ، فكان أحسن الحسن ، بل إن ذلك يكشف عن جوهر القصص القرآني ، ويبين عن شرفه وعلو منزلته ، حين يوزن بميزان الحسن ، ويوضع كل قصص حسن في السكفة المقابلة للقصص القرآني الذي ترجح القصة منه كل ما عرف أو يعرف من قصص حسن .

وفي قوله تعالى : « وإن كنت من قبله لمن الغافلين » رد على أولئك السفهاء من المشركين الذين حين أعيام القول في القرآن الكريم ، وأعجزهم النيل منه ، قالوا إن هذا إلا أساطير الأولين ، كما يقول سبحانه وتعالى على لسانهم : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » (٥: الفرقان) .. وأن هذا القصص الذي يقصه النبي على الناس إنما هو من عند الله ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قبل أن يصطفيه الله تعالى لرسالته ، ملتفتاً إلى شيء من هذا ، أو طالباً له ، بل كان غافلاً عن هذا الأمر كله ، وأنه لم يكن يتوقع أن يكون رسول الله إلى الناس ، حتى فجأه وحى السماء على رأس الأربعين من صمره ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا آنهدي به من نساء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » (٥٢ : الشورى) ..

تلك هي مقدمات القصة ، والإشارات الضوئية المؤذنة برفع الستار عن أحداثها ومشاهدها ..

ويرفع الستار !! :

وإذ يرفع الستار . وتأخذ
الأبصار مكانها على مسرح الأحداث
نسمع كلمات الله تعالى ، تجمع الوجود
كله بين يدي هذا المشهد العظيم :
حيث يظهر فيه على مسرح الأحداث ،
غلام حدث ، يقص على أبيه رؤيا
عجيبة رآها ، وينتظر من أبيه
تأويلها :

• « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى
رأيت أحد عشر كوكبا والشمس
والقمر رأيتهم لى ساجدين » .

« إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى
رأيت أحد عشر كوكبا والشمس
والقمر رأيتهم لى ساجدين ، قال
يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك
فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان
للإنسان عدو مبين ، وكذلك
يحببوك ربك ويعلمك من تأويل
الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى
آل يعقوب كما أتمها على أبويك من
قبل إبراهيم وإسحق إن ربك
علم حكيم » .

[الآيات : ٤ - ٦]

فها هو ذا نبى كريم يجلس إليه ابنه الذى كان خاتمة أبنائه الإثنى عشر ،
وآثرهم عنده ، وأحبهم إليه ، فيلقاه أبوه مشرق الوجه ، منشرح الصدر ،
مجتمع النفس لسماع ما يحدثه به من أخباره ومطالبه ..

ويتحدث الابن إلى أبيه : « يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس
والقمر رأيتهم لى ساجدين » .. إنه رأى فى منامه هذا الحدث العجيب :
أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر ، قد سجدوا بين يديه !! وأسرح عين
يوسف فى وجه أبيه ، ليرى على قسماته أثر هذا الحديث عنده ، وتأويله
الذى أوله عليه بينه وبين نفسه ، وهل هو مما يسر أو يسوء ؟ .

وعلى هذه التساولات الصامته الناطقة من عيني يوسف يجيب الأب :

• « قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن
الشيطان للإنسان عدو مبين » .

لقد كشف يعقوب لابنه عن جانب من تأويل هذه الرؤيا ، وأنها تشير إلى خير كثير ينتظر يوسف ، وبجمله بالمكان الذي لا يناله إخوته ، والذي سيكون فيه بموضع السيادة والرياسة عليهم ، ولهذا فإنه ينبغي ألا يتحدث يوسف بهذه الرؤيا إلى إخوته .. فهذا مما يزيد في حسدهم له ، ويعجل بالمساءة والكييد الذي يكيدون له .. إنهم سيرون من هذه الرؤيا في نيت النبوة ، ومن ابن النبي - شواهد على أن يوسف مرشح من السماء لخير عظيم .. أما هذا الخير فلا يدرون حقيقته .. إنه خير مخبوء ستجني الأيام بتأويله .

ويجزع يوسف إذ يسمع من أبيه هذا التحذير الذي يدعوه فيه إلى كتمان هذه الرؤيا ، وعدم التحدث بها إلى إخوته .. وإذن فإن بين إخوته وبينه عداوة خفية لا يعلمها ، وهو صغير غافل عما يجمله له إخوته الكبار من كره وضغينة ..

ويلهج الأب هذه المشاعر التي تجري في خاطر يوسف . فيلقى إليه بالجانب الآخر من تأويل رؤياه ، ويكشف له عن الوجه الجميل منها .. فيقول له :
« وكذلك يجتديك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق .. إن ربك عليم حكيم » .

فقوله : « وكذلك » معطوف على مضمون قوله : « يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً .. إن الشيطان للإنسان عدومبين » أي هذا يا بني ما أراه في تأويل رؤياك ، وكذلك أرى منها أنك في معرض الاصطفاء والإحسان من ربك ، فأنت ممن يختارهم الله تعالى للنبوة ، فتكون سماء تطلع على الناس بالحق والهدى ، كما تطلع عليهم السكواكب والشمس والقمر .. ومن إحسان الله تعالى إليك أنه يعلمك ما يشاء من تأويل

الأحاديث ، ويكشف لبصيرتك خفايا الأمور وهو اقربها ، فيما تشتمل عليه من رموز وأسرار لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم ..

وقد جاء في السورة الكريمة حدثان ، كشف فيهما يوسف عن المضمون الذي اختفى وراء الصورة التي جاء عليها في الرؤيا المنامية ، كما سنرى ذلك ، في رؤيا صاحبيه في السجن ، وفي رؤيا فرعون .. وهذا مصداق لما كشف له عنه أبوه في قوله « ويعلمك من تأويل الأحاديث .. » ولفظ « من » هنا للتبعيض ، أي ويعلمك تأويل بعض الأحاديث ، لا كل الأحاديث التي لا يحيط بها إلا علم الله وحده .

وفي قوله : « وبتم نعمته عليك رجلي آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق .. إن ربك عليم حكيم » إشارة إلى ما ينتظر يوسف من تمام نعمة الله عليه . وذلك حين يختاره الله تعالى للنبوة ، وتلك هي النعمة في أعلى منازلها ، وأنتم أحوالها . وهي نعمة بنالها آل يعقوب . أي أبناءه جميعاً ، كما نالها من قبل أبوه إبراهيم وإسحق .. وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن يوسف : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، ابن الكريم » : يوسف بن يعقوب بن إسحق ، بن إبراهيم .

والذي ينظر إلى الرمز الذي رمز به في رؤيا يوسف ، لأخوته ، ولأبيه وأمه ، بالأحد عشر كوكباً والشمس والقمر ، يرى الصلة واضحة بين هؤلاء الصفوة من الناس ، وبين الكواكب ، والشمس والقمر ، في هذا العلو .. وكما أن الكواكب والشمس والقمر منارات هدى للناس ، فكذلك الشأن فيمن رمز إليهم هذه الأجرام العلوية ، وأنهم هداية ونور يسمي بين الناس بالحق ، والعدل ، والخير .. إن الرمز هو عنوان الحقيقة ، وهو الصدف الذي يضم جوهرها ، والكتاب - كما يقولون - يقرأ من عنوانه ، والصدف يدل على الجوهر الذي في داخله .

الأحداث تتحرك ١١

وتطرق بيت النبوة طرقات
قلبي عن أن وراهها أحداثاً تريد
أن تقتحم هذا البيت ، وأن تثير
فيه عواصف محملة بالحسد والضعيفة
والكيد ..

ويعقوب على توقع لمثل هذه
الأحداث ، وأن مركز دائرتها
سيكون ابنه وصغيره يوسف ..
ولكنه لا يدري وجه تلك الأحداث ،

ولا يعلم خط مسيرتها .. فذلك غيب ستكشف عنه الأيام بعد ..
وتلو قول الله تعالى :

« لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه
أحب إلى آيينا منا ونحن عصبة إن
أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف
أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه
أبيكم وتكونوا من بعده قوماً
صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا
يوسف والقوه في غيابة الجب يلتقطه
بعض السيارة إن كنتم فاعلين .
[الآيات : ٧ - ١٠]

« لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين .. إذ قالوا ليوسف وأخوه
أحب إلى آيينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين .. اقتلوا يوسف
أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين .. قال
قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة إن
كنتم فاعلين . »

o o o

تلو هذه الآيات - مجرد تلاوة - فإذا نحن بمراى ومسمع من تلك الجماعة
المتأمرة ، التي تدبر لأبشع مأساة في بيت النبوة ، وبين أبناء هذا النبي الكريم .
وها نحن أولاء نرى أول خيوط المأساة وهي تتجمع وتتشابك ثم تمتد
شباكها في انتظار الفريسة التي تقع في حبالها ..

فهؤلاء إخوة يوسف ، قد خلا بعضهم إلى بعض بمبدأ عن الآذان التي
تسمع ، والعيون التي ترى ، ثم أخذوا يدرون الأحاديث في شق شئونهم ، حتى

إذا ذكروا أخاهم يوسف الذى آثره أبومم بحبه ، واستخلصه من بينهم لنفسه .
وشغل به عن النظر إليهم - ساءم ذلك ، وحرك نوازع الحسد والحقد فى
نفوسهم . . وهنا يمسك القرآن الكريم من تلك الأحاديث الكثيرة المرددة ،
وهذه الآراء المديدة التى أداروها فيما بينهم - يمسك القرآن الكريم من كل
هذا بالرأى الذى أجمعوا أمرهم عليه ، فى الخلاص من يوسف ، وفى الأسلوب
يعالجون به أمرهم فيه .

ونعيد تلاوة الآيات آية آية . لتقف بين يدى كل آية وفئة تدر ،
وتبصر ، واعتبار . .

• « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين »

وهذا يعنى أن قصة يوسف جاءت جواباً على سؤال أو أسئلة ، وردت
على النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود ، أو من المشركين بإيعاز من اليهود . .
ويجوز أن يكون عرض القصة جواباً على أسئلة واقعة أو مفترضة أن تقع
من الذين يطلبون العلم بأخبار الماضين ، ويبحثون عنها فى مظانها ، ويسألون
كل من يحسبون عنده علم بها . . وهاهوذا القرآن الكريم ، قد جاء فى هذا
بالحق كله ، لمن يطلب أنباء هذه القصة ، ويلتمس مواقع العبرة منها . . أما من
أراد بالسؤال عنها ، الامتحان والتحدى ، فقد جاء من الحق ما يخزبه ،
ويوضح ضلاله وبهتانه ، وسوء ظنه . . وهنا سؤال . . وهو كيف يجىء
القرآن الكريم بهذا الحكم : « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين » -
ولم يكن قد ذكر شيئاً عن يوسف وإخوته ، حتى يكون فيما ذكره آيات
للسائلين ؟ أفليس من المنطق إذن أن يكون هذا الحكم فى أعقاب القصة ، تعقيباً
عليها ، ولفتماً إلى مواقع العبرة منها ، لا حكماً سابقاً عليها ؟

نعم إنه المنطق ، ولكنه منطق البشر الذين لا يحكمون على أفعالهم
إلا بعد أن تقع ، وتأخذ مكانها فى الحياة ، وينكشف وجه الحسن أو القبح
منها . . أما الله سبحانه وتعالى ، فعلمه محيط بكل شيء ، فالتم يقع مما سيقع ،
هو واقع أزلاً فى علم الله . .

فقصة يوسف قبل أن تقع ، وقبل أن يعرضها القرآن الكريم ، هي واقعة في علم الله القديم ، على الصورة التي وقعت عليها ، وعلى ما ذكره القرآن عنها . . . فكان حكم الله تعالى عليها بأن فيها آيات للسائلين ، حكماً واقعاً على أمر واقع في علمه جل شأنه . . . وفي هذا النظم شهادة من شهادات كثيرة تشهد بأن منزل القرآن ، هو الله عالم الغيب والشهادة ، وأنه ما كان لبشر أن يجد الشعور الذي يعلى عليه هذا الحكم الذي يسبق الحدث ، قبل أن يحدث به ، ويستوفى عرضه ، ويضبط آثاره في الناس وفي الحياة . . . فسبحان من هذا كلامه !

هذا هو البدء :

• « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة . . . إن أبانا لفي ضلال مبين . »
هذا هو في الواقع بدء القصة ، وكل ما سبق ذلك هو مقدمة لها ، وإرهاص بها

وتبدأ القصة بهذا الحديث المتخافت الهامس بين الإخوة . . . « ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة » . . . هكذا يجيء الذي انتهوا إليه مؤكداً ومصدراً بهذا القسم الذي تدل عليه لام القسم الواقعة في جوابه : « ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا » . . . لقد كان يوسف وأخ له من أم ، وكان الإخوة العشرة الآخرون من أم ، وكلهم أبناء يعقوب ، فكيف يستأثر هذان الولدان بحب الأب دونهم ، وهم عصبة ، أي جماعة كبيرة ، لها شأنها واعتبارها ؟ وكيف يفضل الأب الإثنين على العشرة ؟

إن ذلك أمر غير مستساغ ، وتقدير غير سليم ، وبخاصة في بيئة بدوية كبيتهم ، تتميز بكثرة العدد في الرجال ، وتأخذ فيها الجماعة مكانها في مجتمعها ، بقدر مالها من رجال ، أكثر مما لها من أموال . . . !

• « اقتلوا يوسف وأطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » .

وهنا ينتقل الحديث بين الإخوة من هذا الاتهام لأبيهم بإيثار يوسف وأخيه عليهم ، إلى الحكم على يوسف بالقتل ، أو بإلقائه بعيداً عن أبيه ، في مكان لا سبيل إلى العثور عليه فيه أبد الدهر ، وبهذا ينتقمون لأنفسهم من أبيهم ، ومن يوسف معاً .. وبهذا يخلو لهم وجه أبيهم ، وتخلص لهم مشاعر حبه ، التي كانت متجهة كلها إلى يوسف ، ثم إلى أخيه ، ومن ثم ينصلح أمرهم مع أبيهم ، وتصفو قلوبهم من الضغينة والحسد وتسلم صدورهم من الحسرة والألم ، وتنطفئ تلك النار التي كادت تشب في هذا البيت ، وتأتي على كل شيء فيه .. هكذا فكروا ، وقدروا . ١ .

• « قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف ، والقوه في غيابة الجب ينتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين »

هذا رأى رأى أحدهم في الأمر الذي دبروه ، وهو الأخذ بأحد التدبيرين اللذين دبروهما للخلاص من يوسف ، وذلك في قولهم : « اقتلوا يوسف وأطرحوه أرضاً » .. وهذا الرأي يقضى بالمدول عن القتل إلى التطويح به في مجمل من مجاهل الأرض ، فهذا على ما به أهون من القتل ، وبه يتحقق ما أرادوه من التفرقة بين يوسف وبين أبيهم !

* * *

« قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإناله لناصحون . أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإننا له لحافظون . قال إني ليحزنتي أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لنأكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون »
[الآيات : ١١ - ١٤]

التدبير والتنفيذ !!

لقد انتهى دور التفكير ، وجاء دور التدبير والتنفيذ ..

وهنا نجد المشهد ينتقل نقلة بعيدة ، وإذا بيمقوب وأبنائه في هذا الحوار :

— « قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإننا له لناصحون ؟

أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإناله لحافظون » ١١

استفهام إنكاري ، يدل على أنه كان بينهم وبين أبيهم مواقف من قبل هذا الموقف ، طلبوا إليه فيها أن يصحبوا معهم يوسف إلى حيث يسرحون بأغنامهم ، وإلى حيث يقضون في يوسف ما دبروه له . . وكان أبوهم في كل مرة يأبى عليهم صحبة يوسف لهم ، متعللاً بالخوف عليه من أن يصيبه مكروه . . وكانت تلك المرة هي آخر المرات التي بين يعقوب وأبنائه في شأن يوسف ، وصحته لهم . . ولهذا نرى الأبناء وجدوا في أبيهم هذه المرة شيئاً من الاستعداد لإجابة طلبهم الذي اشتد إلحاحهم عليه . . فأتبعوا هذا الاستفهام الإنكاري على أبيهم لعدم أئمانهم على أخيمهم - أتبعوه بالطلب المباشرة « أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإناله لحافظون » ونستشعر هنا من توقيت الطلب بظرف الغد ، أن هذا الحديث كان بينهم وبين أبيهم ليلاً ، وبعد أن طادوا من المرعى ، وأن غداً هو الغد الذي يطلع به صبح هذه الليلة . . ونستشعر أيضاً من التوقيت بالغد أنهم يستعجلون الأمر الذي دبروه ، ويخافون إذا تطاول الزمن به أن تنحل عزيمتهم ، أو يقع الخلاف بينهم فيما أجمعوا عليه . .

وفي قولهم : « يرتع ويلعب » إغراء لأبيهم بهذا الأمر الذي أرادوه عليه . . ذلك أن أحب شيء إلى الصبيان أن يرتعوا ويلعبوا ، وإن يعقوب ليسعه أنه يرى يوسف آخداً بأوفر نصيب مما يحبه الصغار ويحرصون عليه . . وإذ يشد الأبناء آذانهم إلى أبيهم ، ليلتقطوا الكلمات التي تخرج من فم رداً على ما طلبوه منه ، تجيبهم كلمات أبيهم حزينة مرتعشة :

« قال إني ليحزني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » .

إنه يخاف مكروها يقع ليوسف ، ويتوقع سوءاً يناله . . وإن كان لا يدري مصدر هذا المكروه ، ولا مورد هذا سوءه !

ولهذا ، فإنه يجد حزناً يطوف بقلبه إذا ذهبوا بيوسف .. ثم يتمثل له من صور المسكاره التي يخافها على يوسف ، أن يأكله ذئب من تلك الذئاب المتربصة في المراعى ، تنتظر غفلة من الراحة ، فيأكله ، كما يأكل الشاة ..

الذئب .. من فم يعقوب !!

ويلتقط أبناء يعقوب من فم أبيهم قوله : « أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه فافلون » .. ويتخذون من هذا الذئب المتخيل ، حقيقة يضعونها بين يدى أبيهم ، بعد أن يَمْضُوا أمرهم فى يوسف ، ثم يجيئون إلى أبيهم بتأويل ما توقعه .. لقد أكله الذئب كما توقعتم !! ولهذا فهم يقفون مع أبيهم من أمر هذا الذئب موقف التحدى ، وأن الذئب لا يجرؤ أن يقترب من حمام ، وهم عشرة رجال ..

• « قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصابة إنا إذن لحامرون » .

فهذا رد على اتهام من أبيهم لهم بالغفلة ، وسوء الحفظ لما معهم من أنعام ومتاع . حتى لتغشاهم الذئاب ، وتميئ فساداً فى ماشيتهم ، وذلك بعد اتهامهم بالتهاون وعدم الحرص على سلامة أخيهم ..

رحلة عبر الأهوال :

« فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاءً يكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستيق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين .. وجاءوا على قبيصه بدم كذب قال

فى هذا الإطار الموجز من النظم تعرض أحداث كثيرة من أحداث القصة ، حيث نشهد نجاح الكيد الذى كاده أبناء يعقوب لأخيهم وأبيهم .. فقد جاء الغد ، وهام أولاد يعقوب يوسف معهم على العزم الذى عزموه وهناك حيث بلغوا بما شئتهم المكان

الذي يرسلونها فيه للرعى، خلا بعضهم إلى بعض ليروا رأيهم في يوسف، وفي التخلص منه .. وأجمعوا أخيراً أمرهم على أن يلقوه في الجب، وأن يدعوه فيه حتى تمر بعض القوافل التجارية التي تنزل عادة قريباً من هذا الجب لتستقي منه، وتأخذ فترة من الراحة عنده، فتلقط يوسف، وتأخذه معها عبداً رقيقاً، إلى حيث تحط رحالها في ديارها ..

• « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » .

جواب « لما » محذوف، دل عليه المخطوف عليه بعده الذي هو

بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون. وجاءت سيارة فأرسلوا واردم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام، وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون. وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين .. وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عني أن ينفعنا أو نتخذه ولذا، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. ولما باع أشده آتيناها حكماً وعلماً وكذلك يجزي المحسنين »

[الآيات : ١٥ - ٢٢]

بعض الجواب، وهو قوله تعالى : « وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » ..

والمعنى أنهم لما انطلقوا بيوسف، بعد أن أخذوه من أبيهم، وأجمعوا رأيهم على أن يلقوه في الجب - كانت عناية الله معه، وحفظه الله من الشر الذي دفعوا به إليه، ثم صحته عناية الله، وحفت به اللطافة، وأوحى الله سبحانه وتعالى إليه، أي ألهمه وأوقع في نفسه شعوراً قوياً، بأنه سيمتقي بإخوته يوماً، وأنه سيخبرهم بهذا الذي كان منهم له دون أن يعرفوه، وهذا ما تحقق حين ملك يوسف خزان الأرض في مصر، وجاءه إخوته يبتارون

من خيرات مصر .. فيقول لهم في إحدى لقاءاته معهم ، دون أن يعرفوه :
« هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ »

الكذب المفضوح :

• « وجاءوا أباهم عشاءً يبكون قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين .
وهكذا الباطل ، يفضح نفسه ، ويخزي أهله ..

لقد جاءوا أباهم عشاءً .. وتلك أول أمارات الكذب الذي جاءوا به معهم .. إنهم جاءوا ملقنين في ظلام الليل ، خوفاً من أن يفضحهم ضوء النهار ، ويمزق هذا القناع الزائف المموه بتلك الدموع الكاذبة التي بللوا بها خدودهم ..

إن العين إذا التقت بالعين كشف لها ذلك عن كثير من خفايا النفس ، وقرأت على صفحة الوجه مالا يصرح به اللسان ، ولا تبوح به الكلمات ..
ولهذا يجروا الإنسان على أن يقول في الظلام ما لم يكن ليقوله في النور حين تلتقي العين بالعين ..

والعين تعرف من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعادها
ثم هذا البكاء ، هو فضيحة أخرى تفضح الكذب .. إنه تباك وليس بكاء ، إنه مجرد أصوات حاكية لصوت البكاء ، ليس فيها حرقه الكبد ، ولا زفرة الصدر الكليم .. وإن الأذن لقادرة على أن تميز التباكي من البكاء ، وتفرق بينهما .. وقد عرف يعقوب هذه القصة الملفقة التي اصطنعها أبناءه ، من قبل أن ينطقوا بالمكروه الذي وقع ليوسف ، أو يكشفوا عن وجه الذئب الذي ادعوا عليه أنه أكله .

ثم كيف ذهبوا يتسابقون جميعاً دون أن يتركوا واحداً منهم مع يوسف

أنسوا قولهم لأبيهم : « وإنا له لحافظون » ؟ وكيف يتفق أن يكونوا جميعاً على حال واحدة من الاستعداد النفسى والجسدى لهذا السباق ؟

ويكاد المريب يقول خذونى ، فمن أنبأهم أن أباهم يتهمهم بالكذب فى هذا الخبر الذى جاءوا به إليه ، من أن الذئب قد أكل يوسف -- حتى ليقولون له تعقيباً على هذا الخبر : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين .. إن هذا اتهام منهم لأنفسهم ، قبل أن يتهمهم أحد !!

الدم الكذب :

• « وجاءوا على قبيصه بدم كذب قال بل سوت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

وإنه هروباً من الجريمة ، وبحيثاً عن كل وجه تبرق منه بارقة سراب للنجاة ، تراهم يستكثرون من وسائل التضليل والتعمية ، حتى إنهم ليحملون معهم إلى أبيهم قبيص يوسف ملطخاً بالدم الذى نزف منه والذئب يفتريه .. أليس ذلك دليلاً مادياً على أنهم صادقون فيما أخبروا أباهم به من أمر الذئب ويوسف ؟

ولكن هذا التدبير قد جاء على غير ما قدروا ، فكان شهادة قائمة عليهم بأنهم غير صادقين فيما جاءوا به من خبر يوسف .

فالدم الذى جاءوا به على قبيص يوسف ، دليل من الأدلة القوية على أن القصة ملفقة .. فإذا يحملهم على حمل هذا الدم إلى أبيهم ؟ أليسوا هم أولياء الدم وأهله ؟ وهل يجرد ولى الدم قدرة من نفسه على حمل إصبع أو عين أو رأس من ابنه أو أخيه المقتول ، ثم يطوف بها ، ويقلبها بين يديه ، ويمرضها هلى الأنظار ؟ . ذلك مالا يكون لو أن الذئب كان حقاً هو الذى عدا على

يوسف وافتريه !

ويقرر علم الإجرام ، أن المجرم مهما كان ذكياً حذراً لا بد من أن يترك
أثراً يدل عليه ، أو أن يقع في تدييره خلل ما ، يكون مفتاحاً
للكشف عنه ..

قبل إن القميص الذي جاءوا به ملطخاً بالدم كان سليماً لم يمسه الذئب
المزعوم بمخلب أوتاب ، ولهذا عجب يعقوب حين رأى القميص على
تلك الحال . وقال منهكماً : « تالله ما رأيت كالليوم ذئباً أحلم من هذا ..
أكل ابني ولم يمزق قميصه !! »

ولا يجد يعقوب عزاءً على هذا المصاب الفادح إلا أن يلذ بالصبر ،
وأن يستعين بالله على احتمال هذا الابتلاء .. « فصر جليل .. والله المستعان
على ما تصفون » .

محنة من السماء :

• « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام
وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون » .

وتطوى الأحداث على هجل ، وينتقل المشهد في سرعة خاطفة إلى حيث
يوسف في الجب ، يعانى ما يعانى من وحشة ، وخوف ، وجوع ،
وتنجه أبصار الذين يتابعون أحداث هذه القصة إلى هذا الجب ، أو
القبر ، الذى ضم على هذا الصبي البريء ، وتتلقت القلوب نحوه ، وتطوف
الخيالات حوله .. وإذا سيارة — أى جماعة من المسافرين — تلوح من
بعيد ، حتى إذا دانت الجب حطت رحالها ، وبعثت بمن يستنى لها
من الجب ..

« وجاءت سيارة » .. هكذا جاءت السيارة كما قدر أبناء يعقوب ،
لأن الجب كان على طريق تجارى يصل بين الشام ومصر ، ويسكث على هذا
الطريق مرور القوافل المسافرة بين الشام ومصر . ١٠٠

ومن إعجاز القرآن هنا أنك تجد في النظم القرآني : « وجاءت سياره »
— صورة مرئية لهذه القافلة ، وقد أعيأها السفر الطويل ، وأثقل خطوها
ما تحمل من أمتعة وأزواد .. ففي واو العطف ما فيه من لين ورخاوة ،
وفي التقائه بحرف الجيم الممدودة وما فيها من تعطيش ومط وتماوج — في هذا
كله ما يوحي بكلال القافلة ، وبثقل خطوها ، وبغفلتها عن هذا الغلام الذي
يعاني سكرات الموت وهو على خطوات منها .. وهنا يبلغ المشهد حداً
بالغاً من التأزم ، تضطرب معه القلوب ، وتبهر الأنفاس ، وتذهل النفوس عن
الحاضر الذي تعيش فيه ، لتقف وراء هذه القافلة ، تستعرضها ، وتدفع بها
في قوة لتدرك هذا الذي احتواه الجب ، وأطبق عليه ..

وحطت القافلة رحالها — بعد لأي — على مقربة من الجب ، ثم جعلت
تعالج في تناقل أمتعتها ، وتسوي رحالها ، وتهيء لها منزلاً آمناً تجد فيه
بعض الراحة من عناء الرحلة ..

ويجيء وارد القوم إلى الجب ، ويلقى بدلوه فيه ، ثم يرفعه إليه ، بعد
أن ظن أنه امتلأ ماء ، حتى إذا أخرج الدلو من الجب وجد شيئاً هاله وأفرعه ،
وكاد يفر من بين يديه .. فلقد تعلق يوسف بالدلو طلباً للنجاة ، حتى إذا
دانى الرجل أمسك به صارخاً صارعاً ، والرجل يحاول الإفلات منه صارخاً
مستغيثاً .. ثم انكشف الموقف أخيراً عن حقيقة الأمر ، وأن هذا الذي
تعلق بالدلو ليس إلا غلاماً سقط في الجب بسبب ما .. وعندئذ يطمئن الرجل ،
ويهتف : « يا بشرأي هذا غلام » .. إنه غلام ، وليس شيئاً آخر ، وإنه لرزق
ساقه الله إليه ، فليمسك به ، وليحرص عليه من أن تراه العيون من أهل
تلك الجهة : « وأسروه بضاعة » أي أخفوه في أمتعتهم ، وعدوه بضاعة من
بضاعتهم ، يبيعونه فيما يبيعون من بضاعة .. « والله عليم بما يعملون » ..
• « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » .

أى أن أصحاب هذه القافة قد « شروه » أى باعوه « بثمان بخص » أى خيه عن على البائمين حيث باعوا الجواهر ببيع الحماس ، ورضوا بأن يتقاضوا فى مقابل يوسف « دراهم معدودة » ولو عرفوا قدر هذا الجواهر الكريم الذى فى أيديهم لفضوا به على البيع ، حيث لا يقدر بثمان ، ولو كان القناطير المنقطرة من الذهب والفضة ، أو لباعوه وغالوا فى الثمن الذى يطلبوه فيه ، إن كان لابد لهم من بيعه ، ولكنهم كانوا اخبراء أمتعة لا خبراء نفوس ، وتقدمه أموال ، لا تقدمه رجال !!

يوسف فى مصر :

• « وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعمله من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون »
وهاهو ذا يوسف ، ينتقل من بلد إلى بلد ، ويتحول من يد إلى يد ، حتى يقع أخيراً بيد رجل من مصر ، لاندري إلى الآن من هو هذا الرجل ، ولا المسكانه التى له فى قومه .

وإذن فيوسف الآن فى مصر . فهل يستقر به المقام فيها ، أم ستتناقله الأيدي من بلد إلى بلد ، ومن مصر إلى مصر ، بيعاً وشراءً . إنه الآن سلعة تباع وتشترى !

وتحدثنا الآية الكريمة بأن المصرى الذى اشترى يوسف قد رأى فيه رأياً آخر غير الذى كان يسوى حساب يوسف عليه من قبل . لقد كان من قبل بضاعة تباع وتشترى .. ولكنه وقد صار إلى يد هذا المصرى سيصبح شيئاً آخر ، غير الذى كان عليه . لقد ضمه الرجل إليه ، واتخذ ابنه له ، ودعا امرأته إلى أن تكرمه . وتولى تربيته وتنشئته ، على ما يترتب وينشأ عليه الأبناء ..

وهكذا يجد يوسف في مصر أهلا بديل أهله ، وأباً وأماً في مكان أبيه وأمه .. وهكذا صنع الله تعالى ليوسف ، ولطف به .. وليس هذا غيب ، بل إن له عند الله مزيداً من الفضل والالطف .. فلقد نحرر من العبودية ، وفي هذا التحرر تمكين له في الأرض وتثبيت لأقدامه عليها ، كإنسان يعطى الحياة ، ويتعامل معها بكل ما في كيانه من ملكات وطاقات ، وبهذا يصبح مؤهلاً لما يعلمه الله تعالى إياه من تأويل الأحداث ، الأمر الذي يجعل رأيه عند الناس وزناً أي وزن ، ولتكمته حساباً أي حساب ، وملكاته مقام أي مقام ، « والله غالب على أمره » يجرى الأمور على ما شاء وقدر ، لا على حسب ما شاء الناس وقدروا .. فتقدير الله هو النافذ ، وأمره هو الغالب : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » هذه الحقيقة من سلطان الله القاهر وأمره الغالب !!

• « ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وهدى وكذلك نجزي المحسنين »

وهكذا يمضي يوسف في طريقه ، محموقاً برعاية الله ، مصحوباً بالطفاه ، يزداد مع الأيام كلاً ونمواً ، كما يزداد الهلال كل ليلة كلاً وبهاء ، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال ، كان أعلم الرجال وأحكم الرجال ، بما آتاه الله من علم وحكمة « وكذلك نجزي المحسنين » أي يمثل هذا الجزاء الحسن ، يجرى الله كل محسن .. وقد كان يوسف من المحسنين ، لم تفسد فطرته ، ولم ينل من معدنه الكريم ، ما نزل به من مكروه ، وما أصابه من ضر ، بل لقد كشف ذلك عن معدنه وجلى عن جوهره ، كما تجلى النار عن حقيقة الذهب ١٠

مصر . . دار الأنبياء :

ولا بد هنا من وقفة مع تلك الظاهرة التساريخية التي جعلت من مصر مفضلاً لكثير من أنبياء الله ، ودار هجرة لمن جفاه منهم أهله ، وضاق به موطنه ..

فهذا إبراهيم أبو الأنبياء - عليه السلام - يجيء « إلى مصر مفارقاً قومه ، معتزلاً ديارهم وما يعبدون فيها من آلهة .. » وقال « إني ذاهب إلى ربي سيهدين »

(٩٩ : الصفات) فكانت وجهته إلى ربه ذلك البلد الطيب مصر . . . ويعيش إبراهيم زمنا في مصر ، يعبد الله دون أن يزججه أحد ، أو يتسلط عليه متسلط . . . حتى إذا هلك طاغية قومه « الخمرود » عاد إلى وطنه يدعو إلى الله . . . « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً » (٤٩ : مريم) .

وهذا يعقوب ، ويوسف ، والأصباط (إخوة يوسف) يجيئون جميعاً إلى مصر ، ويتخذونها موطناً آمناً لهم . . .

ثم هذا موسى وهرون عليهما السلام - يولدان في مصر ، ويبلغان مبلغ الرجال فيها ، ويصطفيهما الله تعالى للنبوة والرسالة على أرضها . . .

وأخيراً تستقبل مصر كلمة الله « عيسى بن مريم » كما تستقبل أمه معه ، وتضمهما إلى صدورهما الرعوم ، حتى تنجلي العاصفة التي هبت عليهما في الناصرة ، من أرض الجليل بالشام . . . وفي هذا يقول الله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » . . . فمصر هي هذه الربوة ذات القرار ، أي ذات الأمن والاطمئنان ، وهي الربوة ذات المعين ، أي ذات الخير الوفير الذي لا يفضب معينه . ! يقول الإنجيل « ملاك الرب ظهر ليوسف - زوج مريم - في حلم قائلاً : « قم خذ الصبي ، واهرب إلى مصر ، وكن هناك حتى أقول لك ، لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه . . . فقام وأخذ الصبي وأمه ليلاً ، وانصرف إلى مصر » (إنجيل متى : الاصحاح الثاني) .

هذه ظاهرة تاريخية تحدث بأن مصر حقاً « كناية الله في أرضه » كما ورد في الأثر ، وأنها أرض مباركة ، تخطو عليها أقدام الأنبياء ، وتمطر أجواءها أنفاس الرسل ، وهذا من شأنه أن يجعل لمصر شأناً أي شأن في دنيا الناس ، وأنها موطن خير وأمن وسلام ، ودار حق ، وعدل وصدق . . . تشع منها أضواء الهدى على مدى الأزمان . . . تلك حقيقة ينبغي ألا يحجبها عن

العيون ما قد ينعقد في سمانها بين حين وحين من دخان الباطل وضبابه ..
كالشمس يحجبها الغمام ، حتى يظن الجاهلون أنها غربت ، ثم لا تلبث أن تسفر
عن وجهها ، وتغلا الأرض نوراً وبهاءاً

يوسف والقطة المتحدية

• « وراودته التي هو في بيتها
عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت
هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربي أحسن
مثواى إنه لا يفlech الظالمون .. ولقد
همت به وهم بها لولا أن رأى برهان
ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء
والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ..
واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر
وألقيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء
من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن
أو عذاب أليم .. قال هي راودتني
عن نفسي ، وشهد شاهد من أهلها
إن كان قميصه قد من قبل فصدقت
وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه
قد من دبر فكذبت وهو من
الصادقين .. فلما رأى قميصه قد من
دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن
عظيم . يوسف أعرض عن هذا
واستغفرى لذنبك إنك كنت من
المخاطئين » [الآيات : ٢٣ - ٢٩]

• « وراودته التي هو في بيتها
عن نفسه ، وعلقت الأبواب ، وقالت
هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربي أحسن
مثواى إنه لا يفlech الظالمون » ..
المراودة : المخادعة ، والمخاطلة ،
والندسس إلى النفس في أسلوب من
التلطف ، وحسن الحيلة .

و « هيت لك » - هو صوت
استدعاء لهذا الأمر الذى يكون
بين الرجل والمرأة .. وقد جاء به
القرآن الكريم على هذه الصورة التى
لم تعرفها اللغة العربية فى لسانها قبل
نزول القرآن .. وذلك أدب رفيع
من أدب الشريعة الإسلامية ، وأدب
كتابها الكريم ، وذلك أن هذا
الأمر الذى يتحدث عنه القرآن من
شأنه أن يكون سرأ بين الرجل
والمرأة ، لا يطلع عليه غيرها - إنها
لغة يفهمها الزوجان .. سواء أكانت
بإشارة أم بعبارة .. هذا هو المفهوم

الذى يعطيه هذا الصوت : « هيت لك » ودع عنك ما ذهب إليه الذاهبون من تأويلات وتخریجات لكلمة « هيت لك » وخذها على أنها حكاية صوت ، مصحوبة بإشارة يد ، أو لحظ عين .. لا على أنها من لغة التخاطب المتعامل بها فى قاموس اللغة .. إنها فى مقامها هنا كلمة استدعاء وإغراء ، وكفى !

وقد كنى القرآن الكريم عن المرأة التى دعت يوسف إلى نفسها بقوله تعالى : « التى هو فى بيتها » سترأ على هذه المرأة ، حتى لا تفضح بين أهلها وقومها عن الملاء .. كما أن فى إضافة يوسف إليها ، وبأنه فى بيتها ، إشارة إلى أنها ذات سلطان على يوسف ، الذى هو نزيل بيتها ، وريب نعمتها . وأن لها أن تأمر ، وعليه أن يطيع .. فإن لم يكن ذلك بسلطان جمالها ، كان بسلطان جاهها .. فكيف وبيدها سلطان الجمال ، وسلطان الجاه ؟

وفى قوله تعالى : « وغلقت الأبواب وقالت هيت لك » — إشارة أخرى إلى أنها هى التى دبرت لهذا ، وأعدت له ، فهى التى راودت يوسف عن نفسه بما ألفت إليه من كلمات ، وإشارات ، وتلميحات .. وهى التى غلقت الأبواب ، فكانت تلك دعوة صريحة منها إليه ، ثم إنها حين رأت أن كل هذا الإغراء ، لم يدمعها إليها ، ولم يقربه منها ، دعت إلى نفسها ، وقالت : « هيت لك » .. أى ها أنتذا فأقبل .. وهذا مالا تفعله الحرة أبداً .. إنها — مهما استبد بها الحب والوجد — لا تلقى الرجل بهذه الصراحة ، بل تأبى عليها طبيعة الأذى إلا أن تغالب أشواقها حتى تكون هى المطلوبة من الرجل لا الطالبة له !!

فإذا كان من امرأة العزيز هذا الاسترخاض لجمالها وسلطانها أمام سلطان حبها ليوسف — فإن هذا إنما يدل على مدى تمكن الحب من قلبها ، حتى وقف بها هذا الموقف المهين لدلال المرأة ، وعفاف الحرة ، وامتهان سلطان الجاه والجمال !

عفة ومروءة وإيمان :

• « قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون » .
بهذا الأسلوب الرصين الوديع كان رد يوسف على مادعته إليه امرأة العزيز .. « معاذ الله » أي عياداً بالله ، ولجأ إليه ، واحتماه به من هذا السوء الذي يدعى إليه .. « إنه ربي » أي إن هذا السيد الذي أنت زوجة ، هو ربي ، أي سيدي الذي ضمنى إلى بيته ، وأكرم مثواي عنده .. وخيائته في أهله عدوان على المروءة والخلق الكريم .. إذ كيف يقابل الإحسان بالإساءة ، والإكرام بالعدر والخيانة ؟ إن ذلك ظلم أي ظلم .. وإن الظالمين لا يفلحون أبداً .

ويجوز أن يكون قوله : « إنه ربي » مراداً به الله سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه الذي أحسن مثوى يوسف ، وهيأله الطريق إلى هذا البيت الذي وجد فيه الطمأنينة والأمن ..

فكلمة « رب » كما تستعمل على إطلاقها لذات الله سبحانه وتعالى ، فإنها تستعمل كثيراً بمعنى السيد المالك للشيء .. يقال فلان رب هذه الدار أي صاحبها وسيدها - وقد جاءت لفظة « رب » في أكثر من موضع من هذه السورة بمعنى السيد ، والمالك ، كما سنرى بعد ..

همت به وهم وبها :

• « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه .. كذلك لتصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » .. اللهم بالشيء ، اتجاه العزم إليه ، والبدء في تنفيذ ما انعقد العزم عليه ..

ولقد اختلف المفسرون ، في معنى الهم الذي هم به يوسف : أهو هم هزيمة ؟ أم هم رغبة .. وهل هو هم فعل ؟ أم هم ترك ؟

وصريح اللفظ القرآني أنه هم بها ، وأنها همت به .. بمعنى أن كلا منهما هم بصاحبه ، وأقبل عليه ، فلا وجه إذن للترفة بين لفظين متساويين لفظاً ومعنى ، وهما في مقام واحد ..

كذلك اختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى : « لولا أن رأى برهان ربه » — اختلفوا في هذا البرهان ، أهو ملك جاءه من الله يحذره مما يدعى إليه ؟ أم هو شيء وجدته في نفسه فغلب به نفسه ، فكان ذلك برهاناً من الله له ، يرى به طريقه المستقيم ؟ أم كان هذا البرهان صورة أبيه يعقوب ، وقد تمثل حاضراً على إصبعه محذراً من هذا الخطر الذي يهدده ؟ إلى غير ذلك من عشرات الصور التي صور فيها المفسرون هذا البرهان ۱

وقد حمل المفسرين على هذه التأويلات أمران :

أولها : أنهم أزموا لفظ « ربه » معناه المطلق ، وهو الدال على ربوبية الله سبحانه وتعالى .. ولو أنهم نظروا إلى المعنى الآخر لكلمة « رب » وأنها تجيء بمعنى السيد ، وخاصة في مثل هذا المقام — لو أنهم فعلوا هذا لخرجوا من ذلك الحرج الذي وقعوا فيه ، وهم يحاولون جاهدين أن يجدوا تأويلاً لقوله تعالى : « لولا أن رأى برهان ربه » .. فإن « لولا » حرف يفيد امتناع جوابه لوقوع شرطه ، أي أنه لولا وجود برهان ربه لأمضى عزيمة الهم بها ، وهم يدفعون أن يكون يوسف قد هم هم فعل ۱۱

وثانيهما : أنهم يرون في النبي أنه ينسلخ عن طبيعة البشر ، فلا تتحرك له شهوة ، ولا تندفع في كيانه رغبة .. ولكن فأت هؤلاء الذين ينظرون إلى النبي هذه النظرة — فاتهم أن النبي بشر ، قبل أن يسكون نبياً ، وأنه حين يلبس ثوب النبوة الجليل لا يخلع ثوب البشرية العظيم .. فالنبوة لا تلبس إلا أعلى قمم البشرية ، وأعظمها ، ولكن يبقى مع ذلك من بشرية النبي كل مقوماتها ، وما فيها من عواطف ونوازع ، وشهوات .. وبهذا تتجلى عظمة

النبي حين تتسع نفسه العظيمة لثوب النبوة ، والاحتفاظ بها في طهرها ، وبهائها ،
مع ما ينازعها من أهواء النفس البشرية وشهواتها ..

على أرض البشر :

وعلى هذا ، فإن الذي نظمنا إليه ، هو أن هم يوسف كان هم فعل ،
لا هم ترك ، وأن برهان ربه ، هو برهان سيده العزيز ، وأن هذا البرهان
هو إشارة معروفة ، كان يشار بها عند مجيء العزيز إلى بيته ، حيث يكون
ذلك إعلاناً لخدمه ، وحشمه ، وحرسه ، ليكون جميعاً في هيئة استعداد
لاستقباله .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وألقيا سيدهما لدى الباب » ..
أى أنه ما كادت امرأة العزيز تدانى يوسف ، وما كاد يوسف يدانها حتى
رأى حركات في القصر تنبئ عن مقدم العزيز ، وأنه ما كاد يفلت من بين
يديها ، ويتجه نحو باب الخروج حتى كان العزيز بالباب ! ! وإذن فيكون
قوله : « إنه ربي أحسن مثواي » مقصوداً به العزيز ، فإنه لا يخون سيده
الذي أكرمه بالعدوان على زوجته .

وهذا الحدث الذي كان من ظهور العزيز في تلك المحطة التي كاد يقع
فيها هذا المنكر — لطف من لطف الله تعالى بيوسف ، وإحسان منه سبحانه
إليه .. ذلك أن الأسباب الموصلة إلى الأعمال الطيبة ، أو الحائلة دون الأعمال
السيئة ، هي من توفيق الله ، ومن لطفه وإحسانه ، كما أن الأسباب المؤدية إلى
الشر ، أو الصارفة عن الخير ، دليل على خذلان الله تعالى للعبد ، وتخليته
وأهواء نفسه ، ونزغات شيطانه .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى في صرف
السوء عن يوسف : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا
المخلصين » .. أى يمثل هذا التدبير ، وهذا التوقيت لمصادمة الأسباب بالأسباب ،
يصرف الله تعالى السوء والفحشاء عن هذا العبد الصالح ، الذي أخلصه الله
تعالى دينه وولاه ..

فالسبب اللطاف من اللطاف الله ، وآيات من آيات رحمته ، يديها سبحانه من أوليائه ، وييسرها لهم ، أو هي مزايا وعثرات يهوى إليها أعداء الله ، ويتساقطون فيها كما يتساقط الفراش في النار ، والله سبحانه وتعالى يقول : « فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى » (٥ - ١٠ : الليل) .
وحجى العزيز ، أو ظهور المشاهدة الدالة على مجيئه في تلك اللحظة الحاسمة ، هي - بلا شك - آية من آيات الله ، ورحمة من رحمته ، ولطف من لطفه ، وحراسة قائمة على هذا العبد الصالح الذى يؤهل للنبوة ..

إن الرسل والأنبياء ، - صلوات الله وسلامه عليهم - مبتلون بما يبتلون به الناس ، بل وبأقصى وأعظم ما يبتلون به الناس من فتن تلح عليهم بكل أفعالها ، فيلقونها بمزوماتهم ، ويصدونها بإيمانهم ، ويستعصمون منها بكل ما في طاقتهم من قوى ، حتى إذا استنفدوا كل ما في كياناتهم من صبر تحتمله الطاقة البشرية ، وكادوا يهزمون في هذا الصراع المحتدم ، جاءهم نصر الله ، وتوافدت عليهم أمداده وألطفه ، فربطت على قلوبهم ، وثبتت من أقدامهم ، وإذا هم في مقامهم الرفيع الكريم ، وإذا الفتن صرعى بين أيديهم ، مفررة بتراب الخزي والانحجار ، والله سبحانه وتعالى يقول : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » (١١٠ : يوسف) .

وأى فضل لأنبياء الله ورسله على غيرهم من الناس إذا هم لم يبتلوا أعظم ابتلاء ، ولم يمتحنوا أشد امتحان ، وإذا هم لم يجاهدوا هذا الجهاد المتصل في قهر الفتن ، ودحر الأهواء ، ومغالبة الشهوات ؟ وأى فضل لهم إذا كانت الفتن لا تحوم حولهم ، والأهواء لا تتحرك في نفوسهم ، حتى لا يسكون منهم معاناة ، ومغالبة ، وصبر على احتمال المكاره ؟ أى فضل لهم يحمدون عليه ويستأهلون به هذا المقام العظيم الذى هم فيه ، إذا لم تتحرك فيهم دواعي الشهوات ، ولم تنازعهم الأهواء ، ولم يبلوا البلاء أعظم البلاء في دفعها ، ودحرجها ، وإجلاء غيرهما من صفاتهم الصافية ؟

إن الثواب على قدر المشقة . . وهذا يعنى أن نصيب أنبياء الله تعالى ورسله ، وأوليائه ، من المشقة والمعاونة أكبر نصيب وأنهم بقدر ما واجهوا من بلاء وفتن ، وبقدر ما بذلوا من مشقة وهناء ، وكانت منازلهم عند الله . . « ثم درجات عند الله ، والله بصير بما تعملون » (آل عمران)

وقد أحس الإمام « البيضاوى » حين قال عن أم امرأة العزيز : يوسف وم يوسف بها - : « إنها قصدت مخالطته وقصد مخالطتها . . والهم بالشئ قصده ، والعزم عليه ، والمراد بهمه - عليه السلام - ميل الطبع ، ومنازعة الشهوة ، لا القصد الاختيارى ، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف ، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله ، من يكف نفسه عند قيام هذا الهم ، ومشاركة الهم . . »

توقد النار وتفر منها ۱۱

• « واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألقيا سيدها لدى الباب ، قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم . »
حين رأى يوسف برهان ربه ، وهو - كما قلنا - الشارة الدالة على مقدم العزيز ، والتي هى برهان ربه تعالى له ، وآيته على عنايته به ، وإحسانه إليه - حين رأى يوسف ذلك ، رآته معه كذلك امرأة العزيز ، فأسرط نحو الباب المغلق دونهما ، للخروج من مخدع العزيز ، وكان يوسف أسرع منها ، لأنه كان على حال بين الإقدام والإحجام ، فتناولته المرأة بيدها من خلفه لتسقيه ، ولتنجو بنفسها ، فعلمت بيدها بقميصه فقذته من دبر أى قطمته طولاً من الخلف . . وما كاد الباب يفتح حتى كان العزيز معهما وجهاً لوجه . . وأسقط في يد يوسف ، إذ لم يكن قد أعد لهذه المواجهة عدتها ، لأنه لم يفكر في هذا السوء من قبل ، ولم يعمل أى حساب لمقدماته ونتائجها . . أما المرأة فكان جوابها حاضراً ، إذ كانت تعيش في هذه المحنة أياماً وليالي ، تفكر فيها ، وتقلبها على جميع وجوهها واحتمالاتها ، ومن هذه الاحتمالات أن يعلم زوجها عن أى طريق بهذا الأمر ، أو يضبطها متلبسة به . . وقد أعدت الجواب

لكل موقف .. فلما وقعت الواقعة ، وجدت الجواب الذي أعدته حاضراً :
« قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ؟ ! إلا أن يسجن أو عذاب أليم » .
وهكذا تدبر الأمر وتلقى بالتهمة على البريء منها ، ثم تصدر حكماً في
التهمة ، فلا تدع لزوجها فرصة للتفكير فيما ينبغي أن يواجه به هذا الموقف ،
فهاهو ذا الحل حاضر بين يديه لا يحتاج إلى تفكير !

وفي قولها : « من أراد بأهلك سوءاً » إشارة إلى أن الأمر لم يجاوز
حد الرغبة والإرادة من جانب يوسف ، ولم يبلغ حد تنفيذ هذا سوءه ،
وفعله .. أما هي فلم يكن منها استجابة لهذه الرغبة التي بدت من يوسف ،
وإذن فليطمئن العزيز إلى عفة أهله ، وليقف بهذا الأمر عند حد الزجر ،
أو النصح لهذا الشاب العزيز ، الذي غلبت عليه فورة الشباب .. وأما قولها :
« إلا أن يسجن أو عذاب أليم » فهو مبالغة منها عند زوجها في الغيرة على
عفتها وشرفها .. وهذا كله من شأنه أن يهون الأمر على العزيز ، ويملا قلبه
ثقة في الاطمئنان على عفة زوجه .. فهذه العفة وحدها هي الحارس الأمين القائم
عليها من ذات نفسها ، فلا يطرقها أبداً طارق سوء مادامت في حراسة هذه العفة !
وإزاء هذا الاتهام الصريح من للمرأة ليوسف ، مع أنها رأس هذه الفتنة
— لم يجد يوسف بداً من أن يدافع عن نفسه بالحق ، وقد دافعت هي عن نفسها
بالباطل .. وفي كلمات قليلة وادعة وداعة النور ، قوية قوة الحق ، عرض يوسف
صفحة دفاعه ، ومنطق برأته : « هي راودتني عن نفسي » .. هذا أقل
ما يمكن أن يدفع به يوسف هذه القرية التي تقترها امرأة العزيز عليه .. إنه
لم يكشف للعزيز عن محاولاتها العديدة معه ، ولم يحدثه عن إغرائها له ، وعرض
مقاتلتها عليه .. إن أدبه العالي يحول بينه وبين أن يفضح امرأة سيده ، وحسبه
أن يقف عند حدود هذا الحدث ومعالجته بحكمة ، دون الكشف عن جذور
المأساة وأبعادها .. ولو كان من الوفاء بحق الحق أن يصمت لصمت ، فيكون
بهذا ظالماً لنفسه ، وظالماً للحق معه .. ولكنه نطق بالحق الذي ينبغي أن
ينتصر له في نفسه ، وفي أي موقع يكون فيه ..

إن أصحاب الحق يجدون في الكلمة المرسله على طبيعتها من غير حلف أو توكيد مايفنى عن كل توكيد وتزويق ، وليس كذلك شأن أصحاب الزور والبهتان .. إنهم يكثرون من اللغو والثروة ، ويبالغون في الحلف بالأيمان ، الكاذبة الفعاجرة ، ليداروا به وجه هذا الباطل الذى يجروونه على أنفسهم ، وليتمنوا فيه شيئاً من الحرارة الباردة ، والحياة الكاذبة !

وشهد شاهد من أهلها :

ويقف العزيز وفي عينيه صورة المأساة ، وفي أذنيه دوى مخيف من تدافع الحق والباطل فيما سمع من هجوم ودفاع ! وتدور عيناه متفرسة في مسرح الجريمة ، لعله يقع على دليل البراءة أو الاتهام ، ويقع نظره على يوسف وهو يللم قميصه ، ويحاول أن يمسك به على جسده ، وقد شق من خلف ، وكاد يسقط ، لولا أن يدهى يوسف تشده ، وتجمع أطرافه ..

ويسأل العزيز نفسه : أهنالك إذن كانت معركة ، وكان شد وجذب حتى قُدد هذا القميص .. وهنا يثوب العزيز إلى رشده ، ويبقى قليلاً قليلاً إلى السكينة والهدوء ، فلقد دله هذا الشاهد على أن الأمر لم يكن عن توافق وتفاهم بين امرأته وفتاها ، وهذا يعنى أن الجريمة لم تقع قبل اليوم ، ولم تقع الآن .. وبقي أن يعرف من من الطرفين كان المهاجم ، ومن كان المدافع .. ويسأل العزيز نفسه مرة أخرى : مادلالة شق القميص من الخلف ؟ وهنا يقلب الأمر على جميع وجوهه واحتمالاته ، فلا يرى وجهاً مقبولاً ، واحتمالاً يرتفع إلى مستوى اليقين - إلا فى أن المرأة هى الطالبة المهاجمة ، وأن يوسف هو الغار الهارب من بين يديها ، حيث تناولته من خلف ممسكة بقميصه ، وهو محدد فى الفرار ، فيتمزق قميصه من خلف ، وينفلت من يديها .. هكذا قامت الدلائل ناطقة ببراءة يوسف من أنه أراد بأهل العزيز سوءاً كما ادّعت عليه ذلك امرأة العزيز والشاهد الذى أدى شهادة الحق فى هذا الموقف هو العزيز نفسه إنه الذى شهد على المرأة وأدانها ، وهو من أهلها ، وليس من أهل يوسف ..

ولا تنظر لما قيل من أن العزيز استدعى أهل الرأي والحكمة في دولته
وأخذ رأيهم في هذا الحدث .. فإن ذلك عمل لا يعمله عاقل أبداً فيفضح
نفسه وأهله على الملأ ..

ولا تنظر كذلك إلى ما قيل من أن طفلاً نطق في المهذب ببراءة يوسف ،
وشهد بأنها هي التي راودته . فإكان الأمر محتاجاً إلى هذه المعجزة المتحدية
وجسم الجريمة - كما يقولون - مائل للعيان !!

ويصور القرآن الكريم هذا المشهد في قوله تعالى : « وشهد شاهد من
أهلها إن كان قبيصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قبيصه
قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ، فلما رأى قبيصه قد من دبر قال
إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » ..

وهكذا برئت ساحة يوسف - وهو البريء دائماً - من هذا المنكر الذي
ومته به امرأة العزيز ، وأقبل العزيز على امرأته ، لا ليدينها وحدها في
شخصها ، بل ليجعل التهمة مشاعة في بنات جنسها جميعاً : « قال إنه من
كيدكن » أيتها النساء « إن كيدكن عظيم » .. إنه يتهمها بأنها المدبرة لهذا
المنكر ، والداعية إليه ، ولكنه يغلف هذا الاتهام بتلك الكياسة السياسية
التي هي صنعة الملوك ، ومن في صحبة الملوك .. !

ثم ينهي العزيز هذا الموقف بالجمع بين المرأة وفتاها في مقام النصيح ،
واللوم والتأنيب .. فيقول ليوسف : « يوسف أعرض عن هذا » .. أي تجنب
الخوض في الحديث عن هذا الأمر ، فلا يجوز له ذكر على لسانك ، وابتمد
كذلك عن كل ما قد تحدثك به نفسك من سوء بتلك المرأة . ثم يلتفت العزيز
إلى امرأته قائلاً : « واستغفري لذنوبك إنك كنت من الخاطئين » .. وفي التعبير
بلفظ الخاطئين ، بدلا من الخاطئات ، ليخفف عنها وقع التهمة ، فلا يجعل
الخطيئة مقصورة على بنات جنسها وحدهن ، بل يشاركهن الرجال فيها ، فكل
ابن آدم خطاء . فلا عليها إذن أن تعترف ولو بينها وبين نفسها بهذا الذنب .

وأن تطلب التوبة والمغفرة .. ولو أن العزيز كان يريد أن يلقي امرأته بالاتهام الصريح ، لقال لها : إنك كنت خاطئة .. ولكنك - كما قلنا - كان يخاطبها بما يقضى به أدب الملوك ، من اصطناع الكياسة ، واللباقة ، والالطف !

العزيز . متهم في رجولته !!

وقد اتهم بعض المفسرين «العزيز» بأنه كان ناقصاً في رجولته ، ولم يكن له أرب في النساء ، لأنه استقبل فعلة امرأته هذه المنكرة ، باستخفاف وبرود ! ولعل هذا القول يرجع إلى ما تقول التوراة عن العزيز من أنه كان خصياً ، تابعا للملك !

والتعليل الذي علل به المفسرون القائلون بأن في رجولة العزيز نقصاً - تعليل غير صحيح ، إذ المعروف أن من كان في رجولتهم ضعف أو نقص ، داروه بتلك الغيرة المصطنعة الحادة ، المجاوزة لكل حد ! ولو كان العزيز ناقص الرجولة - كما زعموا - لما أبقى على المرأة ، ولا حاول أن يخفف من وقع الأمر عليها ، بل لأراق دمها ، ودم فتاها ، كشهادة ناطقة برجولته التي هي موضع اتهام ! وأقرب تعليل لموقف العزيز ، هو أنه كان ينظر إلى يوسف نظرتة إلى ابنه ، وأن ما كان من امرأته لم يكن إلا نزوة طائشة أعمتها عن أن تنظر إلى يوسف نظرة الأم إلى ولدها ، وأنها سرعان ما تعود إلى رشدها ، وتصحح نظرتها من فتاها .

والذي جعلنا نقول إن الشاهد الذي شهد على امرأة العزيز ، هو العزيز نفسه ، وليس أحداً غيره - هو ما يشهد به واقع الحال ، وهو أن العزيز ، وهو صاحب هذا المقام في قومه ، ما كان له أن يقضح نفسه وأهله ، وأن يستدعي من يحتسك إليه في أمر شهده بنفسه ، واطلع عليه من غير أن يبدله عليه أحد .. وإنه لمن السفاهة والحمق ، بل والعجز ، أن يعرض العزيز مكانته ، وشرفه ، وشرف أهله لهذه الفضيحة على اللأ ، وأن يطلب إلى غيره الكشف

عن راعة البريء وإدانة المذنب - فيصبح وإذا هو وزوجه على ألسنة الناس ،
يطلقون فيهما قالة السوء ، ويولدون من هذا الحدث أحداثاً ، تنمو وتتضخم
على الأيام !!

فكان من الحكمة إذن أن يتدبر « العزيز » هذا الأمر ، وأن يتولاه
بنفسه ، وأن يحصره في أضيق حدوده ، وأن يحسمه هذا الحسم الرشيد ،
في غير صخب أو ضجيج ..

فكان حكمه في القضية حكماً حاسماً باتاً ، لسكل ذبول تعلق بها ..
« يوسف أعرض عن هذا » .. فلا تجر له ذكراً في خاطرك ، أو
على لسانك .

« واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .. فلا تعودى إلى مثل
هذا الموقف أبداً !

إنها لفتة إلى يوسف ، ولفطة إلى المرأة ..

ثم انتهى الأمر عند هذا الحد . ، ولكن إلى حين !!

فلقد دبر العزيز في نفسه أمراً .. ولكن بعد أن تنتهى هذه العاصفة
التي هبت في بيته ، والتي لا بد أن تثير همسا ولفظا داخل القصر ، وربما خارجه ،
لأنه من المستبعد أن يقع هذا الأمر ثم لا تلحظه عين ولا تسمع به أذن ،
والقصر كله آذان مرهفة ، وكله أعين راصدة لسكل حركة من حركات أصحاب
القصر ، وكل خلجة من خلجات حياتهم .. فتحين العزيز ليوسف فرصة يدفع
به فيها إلى السجن .. ولكن من غير أن يكون لامرأته - في ظاهر الأمر -
شأن يتعلق بها في أمر يوسف وصجته .. من قريب أو بعيد .. كما سنرى في
أحداث القصة بعد ..

التكيد العظيم

« وقال نسوة في المدينة امرأة

العزیز تراود فتاها عن نفسه قد
شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين .
فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ،
وأعدت لهن متكأ وآتت كل واحدة
منهن سكيناً ، وقال أخرج عليهن ، فلما
رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن
حاش لله ما هذا بشراً إنا هذا إلا
ملك كريم .. قالت فذلكن الذي
لمتنفى فيه ، ولقد راودته عن نفسه
فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره
ليسجنن وليكونن من الصاغرین ..

قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني
إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب
إليهن وأكن من الجاهلین .. فاستجاب
له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو
السمیع العليم .. ثم بدا لهم من بعد
ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ،
[الآيات : ٣٠ - ٣٥]

لأول مرة - منذ بدأت أحداث
القصة - يكشف القرآن الكريم
عن شخصية المرأة التي راودت
يوسف ، وعن مكانها في مجتمعها ..
إنها إلى الآن لم تكن غير امرأة ، هي
زوج الرجل الذي اشترى يوسف ،
وضمه إليه ، واتخذه ولداً له ..
ولهذا جاء ذكرها من قبل في القرآن
هكذا : « وراودته التي هو في بيتها
عن نفسه » .

وهنا - في هذه المرحلة من
القصة - يكشف القرآن عن
شخصيتها ، وأنها لم تكن امرأة من
طامة النساء ، بل كانت امرأة (العزیز)
وهو السيد ذو القوة والسلطان ،
فهو عزیز بسلطانه وقوته .. يقول
القرآن الكريم :

« وقال نسوة في المدينة امرأة

العزیز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين » ..

ماداعية الكشف عن وجه المرأة ؟

ولعل سائلاً يسأل : وماداعية الكشف عن وجه هذه المرأة وعن مكانها في
المجتمع ؟ وقد كان يمكن أن تعفى أحداث القصة دون حاجة إلى معرفة هذه

المرأة بالذات ، وحسبها أن تكون امرأة وقعت في حب ربيها ؟ .
ونقول - والله أعلم - إن القرآن الكريم لم يكشف عن وجه المرأة
من قبل ، لأن الأحداث كانت تجري على المستوى المألوف في حياة عامة الناس
وخاصتهم على السواء .. فأى بيت كان يمكن أن يضم إليه يوسف ، وأى امرأة
كان من الممكن - غير المستحيل - أن تراوده عن نفسه ، سواء أكانت
امرأة ملك أو سوقة .. إنها امرأة أياً كان وضعها الاجتماعى إذالم يكن
ليوسف خيار في اختيار السيد الذى يملكه ، والمرأة التى تكون في بيت
هذا السيد !

أما حين يكون للحدث ذكر ، وشأن يراه الكشاف عن وقعه في
المجتمع وأثره في الناس ، فإن الأمر يختلف بالنسبة لمن يتعلق به الحدث ،
من حيث وضعه الاجتماعى ، ومكانته في المجتمع !

فالحدث يكبر أو يصغر ، وتتسع دائرته أو تضيق ، تبعاً لمن تعلق به
الحدث .. إذ قد يقتل الرجل من عامة الناس دون أن يشعر الناس من حوله
بهذا الحدث ، أو يلتفتوا إليه ، على حين قد يصاب الحاكم أو السيد من سادة
القوم ، بخدش ، أو جرح ، فيكون ذلك حديث الناس فى الأندية والمحافل
ليوم أو لبضعة أيام .

فمليون الناس وآذانهم متعلقة بأصحاب السلطان والسيادة فيهم ، يتسمعون
إلى أخبارهم ، ويرقبون أحوالهم ، ويشغلون بالحديث عنهم ، فى كل مايتصل
بهم من صغير أمورهم وكبيرها .

وعلى الرغم من أن حادثة امرأة العزيز كانت فى دائرة ضيقة ، لاتتمدى
المرأة ، ويوسف ، والعزيز زوجها ، فإنه سرطان ما نفذت العيون من خدم
القصر إلى هذا السر ، ووقعت الأذان عليه ، فكان همساً على الشفاه ، ثم
حديثاً دائراً على الألسنة ، أقرب إلى الإشاعة منه إلى الحقيقة ..
ومن هنا كان لا بد من كشف وجه هذه المرأة التى اهتم الناس بأخبارها ،

وشغلوا بالحديث عنها .. إنها امرأة العزيز ! وإن بيتها ليضم سرّاً خطيراً ..
إنها تراود فتاها عن نفسه ، وهو يتأبى عليها ، وهو في الوقت نفسه ملك
يديها !!

والنساء هن أكثر الناس بحثاً عن أسرار البيوت ، وأقدرهن على فتح
مغالقتها ! وفضح ستورها .

وها هي ذى امرأة العزيز تصبح هي وفعالها مع يوسف ، حديث الطبقة
العالية من نساء المجتمع ، خاصة ممن هن على مدانة وقرب منها .

• « امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » .. أهكذا تنزل السيدة عن
مقامها لتراود خادمها ! أهذا مما يليق بالحرّاء ، أو يجمل بسيدة مع خادمها ،
فضلاً أن تكون هذه السيدة امرأة العزيز ؟ ذلك أمر منكر شنيع !

• « قد شفها حباً » أى ملأ قلبها حباً ، فأصبحت أسيرة حبه ، وأمة
هواه .. « إنا لنها في ضلال مبين » إذ قد استرخصت نفسها ، وأذلت
كبرياءها ، لنزوة عابرة ، وشهوة طارئة طائفة !

كيد المرأة وانتقامها !

وتسمع امرأة العزيز بما يدور من حديث بين جماعات من النساء عنها ..
إنه حديث يدور هامساً خافتاً ، وإنه عما قليل ستمتدح دأثرته ، وتعلو نبرته ..
وإذن فلتتدبر الأمر ، ولتعمل بكل ما تملك من حول وحيلة لإطفاء نيران
هذه الفتنة والقضاء عليها قبل أن تتحول إلى حريق يأتي على كل شيء !

وفي سرعة وحكمة أخذت امرأة العزيز تعمل وتعمل ، وأخذ العزيز
يفكر ويفكر !

• « فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكأ وآتت كل
واحدة منهن سكيناً ، وقالت اخرج عليهن .. فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن
وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم »

لقد أعدت المرأة لهؤلاء النسوة اللاتي يتولين كبر هذا الأمر، ويجرحنها بقوارص الكلم ، ويرمينها بسهام الاتهام - أعدت لهن وليمة ، نخبرت لها مناسبة ما ، وكان من تدبيرها أن « أعدت » أى هيات لكل واحدة منهن متكئا تتكىء عليه وتسترخى ، بعد تناول الطعام ، وهى ممسكة بيدها سكيناً مرهفاً ، تعالج به فاكهة فى يدها ..

وهكذا أخذت النسوة مجلسهن عند امرأة العزيز ، وهن متكئات على الوسائد اللينة ، بعد أن امتلأن بما قدم لهن من شهى الطعام ، وألوان الشراب .. ثم إنه ما كاد الفتور يبدو عليهن ، وهن مستسلمات لهذه الإغفاءة اللذيذة التى تطوف بالمرء ، بعد أن يمتلىء بالطعام والشراب .. وفى يد كل واحدة منهن سكين حاد تقطع به بعض الفاكهة - ما كاد التدبير يبلغ هذا المدى ، حتى ضربت المرأة ضربتها ، التى تصيب منهن مقتلاً ، وإذا هن - وقد طلع عليهن يوسف ، فى أبهى حله ، وأروع جماله - بين يدي ملك كريم نزل من السماء ، لا يدرين من أين جاء ، فيصحون صحوة السكران من خماره ، حين يجد نفسه بين يدي ظاهرة من ظواهر الطبيعة المفاجئة المذهلة .. وإذا كيانهن كله يصبح عيوناً معلقة بهذه المعجزة التى طلع عليهن القدر بها ..

لقد استبد بالنسوة الدهول ، فلم يعدن يدرين ما يمكن فى أيديهن .. وفى حركات لاشعورية أمهلت السكاكين فى أيديهن ، فأصابت منهن ما كان من شأنه أن يصيب الفاكهة منها .. فسالت الجروح ، ونزفت الدماء .. وعندئذ تنبهن لوجودهن ، وملائن أعينهن من هذا الجمال الملائكى الذى لم تقع عليه عين بشر ، فهتفن من أعماقهن ، « وقلن حاش لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم »

المرأة تصرح بمكنون صدرها |

عندئذ استوثقت المرأة مما وقع فى قلوب النسوة من يوسف ، وأنه ليس العبد الذى زعموا ، ولا الخادم الذى تصوروا ، وإنما هو فوق مستوى البشر ،

فضلا عن الخدم | «ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم».. وهنا لا ترى المرأة بأساً عليها من أن تصرح بمكنون حبها الأسر لهذا الإنسان الذي ساقه القدر إليها .. فشكل امرأة — أياً كان شأنها — لا ترى طاراً في أن تعلن حبها ليوسف ، وفتنتها به .. إنه ظاهرة تخرج عن مألوف الحياة ، مما من شأنه أن تتغير معه موازين التقاليد ، والأعراف ، والأخلاق |

• « قالت فذا لسن الذي لئننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونن من الصاغرین »

وهكذا تجد المرأة فرصتها في التنفيس عن نفسها ، وما يغتلى فيها من لواعج الحب ، وحرق الهوى .. وإنما لتعلنها صريحة على الملأ ، وعلى مرأى ومسمع من يوسف ، وإنما لاتدعه يغلت من يدها ، وإنه إن لم يفعل ما تأمره به : « ليسجنن وليكونن من الصاغرین » .. حيث يلقي ما يلقي الأرقاء من دل وهوان |

الفرار إلى الله من الفتنة :

ولا يجحد يوسف إزاء هذا السلطان القاهر المتحدى ، إلا أن يفزع إلى سلطان ربه ، وإلا أن يلجأ إلى أمداد لطف الله ورحمته ، لصرف هذا السوء عنه :

• « قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلین » .

إن يوسف ليشفق على نفسه من أن يضعف أمام هذا الإغراء .. إنه بشر وللاحتمال البشرى حدود ، وهو هنا في مواجهة ابتلاء فوق طاقة البشر ، وإنه إن لم يمدده الله تعالى بعونه وقوته ، كان بمعرض الزلل والسقوط .. وهنا نذكر قول الله تعالى : « ولقد همت به وهم بها » فنجد لهمه هذا المعنى الذي فهمناه عليه ، وأنه هم فعل ، لاهم ترك .. إنه هم رجل بامرأة .. غاية ما عني الله أن المرأة هي التي بدأت بالأمر وهيأت له |

وقد استجاب الله تعالى ليوسف ، فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع
للعاء الداعين ، وغوث المستغيثين ، وهو العليم ، بما تكن الضائر وما تخفى
! الصبور : « فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم »
وسرى كيف صرف الله تعالى السوء عن يوسف ، وبم صرفه ؟

في السجن حصن الأمان

لقد كان مما اختاره يوسف لنفسه ، فراراً من الوقوع في الفتنة ، السجن
الذي تهددته به امرأة العزيز إن هو لم يستجب لها ، حين قالت في وجهه :
« ولئن لم يفعل ما أمره أيسجنن وليكونن من الصاغرين » .. لقد اختار
البلاء مع الاحتفاظ بدينه وخلقه ومروءته ، على العافية في نفسه ومع الإفساد
لدينه ، وخلقه ، والسقوط بمروءته ..

كذلك اختار السجن على الصغار والهوان .. « رب السجن أحب إلي مما
يدعونني إليه » .. وهكذا دخل يوسف السجن ، استجابة لما طلب وامتحاناً
لصدق عزمته ، في الفرار من الفتنة بأى ثمن .. فكان السجن هو الحصن
الذي احتسب فيه من الفتنة ودواعيها ، فغاب في غيابه عن وجه المرأة التي
تطلبه وتطارده ، وحبس بين جدران السجن دواعي الفتنة أن تتحرك في نفسه !
وتمالت حكمة الله !

لقد كان السجن هو الصارف الذي صرف الله تعالى به هذا الكيد الذي
يراد بعيد من عباده المخلصين ، فلقد عزله هذا السجن عزلاً تاماً عن موطن
الفتنة ، وباعد بينه وبين مهايها التي تهب عليه منها .. ثم لقد كان هذا السجن
هو الطريق الذي سلكه بيوسف إلى الملك الذي أراد الله سبحانه وتعالى أن يضعه
بين يديه ، وأن يجعله خاتمة لهذه الرحلة الشاقة على أشواك الابتلاء : « واقه
غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

رسول يدعو إلى الله

في غيابات السجن !!

لم تذكر الآيات القرآنية السبب الذي من أجله دخل يوسف السجن، وإن كانت قد أشارت من قبل إلى تهديد امرأة العزيز له بالسجن إن لم يفعل ما تأمره به من خشاء، وقد آثر يوسف أن يسجن على أن يأتي هذا المنكر، أو يطوف به .. فليس بالمستبعد أن يكون هذا السجن تنفيذاً لوعيد امرأة العزيز، أو أن يكون تدبيراً من تدبير العزيز نفسه، بعد أن هدأت العاصفة، وذلك منه إما أن يكون انتقاماً من امرأته في شخص يوسف الذي شغفها حباً، أو انتقاماً من يوسف وجماله الذي أوقع امرأته في هذا الحب الأمر ..

• «ودخل معه السجن فتيان» .. والفتى هو الخادم، أو المملوك الذي يكون في يد سيده، ويعمل في خدمته .. وصحى الخادم المملوك فتى لأنه يظل في خدمة سيده ومالكه ولو شاخ، وتقدمت به السن، فيكلف من الأعمال ما يكلف به الفتيان .

«ودخل معه السجن فتيان، قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه بشنا بتأويله إنا نراك من المحسنين .. قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا بأتيناك بتأويله قبل أن يأتيكما، ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون .. واتبعت ملة آباءي إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون .. يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار .. ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمراً، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه، قضى الأمر الذي فيه تستفتيان .. وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذ كرني عند ربك، فأناهاه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين .. [الآيات ٣٦ - ٤٢]

هذا، ويجوز أن يكون هذان الفتيان قد دخلا مع يوسف السجن في يوم واحد، إثر حدث وقع في قصر الملك، فكانت فرصة يساق فيها يوسف إلى السجن، في زحمة هذا الحدث، الذي تكثر في أمثاله الوشائيات، والتهم الباطلة الملققة ..

مفسر أحلام .. وداعية إلى الله :

ويعيش يوسف في السجن مع رفقاء سجنه، وسرمان ما يكسب حب رفقائه، وينال ثقتهم بما يتجلى لهم من سمو أخلاقه، وعلو نفسه، وسداد رأيه، ونفاذ بصيرته .. وإذا هو الأمين على أسرارهم، والمنفزع لسكل أمر ينوبهم ..

ويذكر القرآن الكريم، حدثاً من الأحداث التي تجرى في السجن، وفي هذا الحدث تظهر منزلة يوسف عند رفقائه، وتبرز مكانته بينهم .. وذلك أن الفتيتين اللذين دخلا السجن معه، قد رأى كل منهما حلماً، لم يعرفا تأويله، فجاها إلى يوسف، يعرضان عليه ما رأيا، ويطلبان إليه أن يكشف لهما عن مضمونه ..

• « قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه .. نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين » ..

ويعسك يوسف بقولهما . « إنا نراك من المحسنين » إذ يجد من حسن ظنهما فيه منطلقاً إلى أمر هو أعظم وأنفع لهما من تأويل أحلامهما، وهو دعوتهما إلى الله، وإلى الإيمان به، وإيماناً مبرأ من كل شرك .. وفي تقدير يوسف أنه إذا صح من صاحبي سجنه أن يقبلا منه الكشف لهما عن المجهول في حلمهما، فلن بأبياً أن يقبلا منه الكشف عن الدين الحق، والمعبود الحق، من بين أخلاط الأديان التي يدينون بها، ومن بين وجوه المعبودات التي يعبدونها .. وكان من هذا أن بدأ يوسف يتحدثها عن مصدر هذا الإحسان

الذي رأياه فيه ، وأنه من ثمرات الدين الذي يدين به ، ومن فضل الإله الذي يعبده . فيقول لهما :

• « قال لا يأتكما طعام ترزقانه إلا نبأكما بتأويله قبل أن يأتكما » .. فهذا مما عند يوسف من علم .. إنه لا يعرف تأويل الأحلام وحدها ، ولا ينبيء عند الغائب بالتوسم في وجه الشاهد ، وحسب ، بل إنه يخبر عن الغائب الذي لا يرى الناس منه شاهداً أو دليلاً .. إنه يخبر عن الطعام الذي سيأتيهما من خارج السجن اليوم ، أو غداً ، أو بعد غد . . إلى ما شاء الله من أيام مقبلة .. وهذا العلم ، هو مما كان لعيسى عليه السلام ، كما يقول سبحانه على لسان عيسى لبنى إسرائيل : « وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » .

ويشير هذا الخبر تساؤلات كثيرة تدور بها رأسى صاحبى السجن ، حيث تذهب بهما الظنون كل مذهب ، وهما يبحثان عن المصدر الذى تلقى منه يوسف هذا العلم الذى لم يبلغه أهل العلم أو السحر ، ويحيثهما يوسف فوراً بالجواب الذى يبحثان عنه ، فيقول لهما : « ذلكما مما علمنى ربى » أى أن هذا العلم ليس علماً مكتسباً من علم العلماء ، وإنما هو علم علمه إياه ربه الذى يعبده ..

وترسم على وجهى صاحبى السجن استفهامات كثيرة عن هذا « الرب » الذى يعلم المؤمنين به هذا العلم .. إنهما يعبدان آلهة شتى ، خرساء ، صامتة ، تقاد ولا تقود ، وتعمان ولا تعين .. فأى إله هذا الإله ؟ وأى رب هذا الرب ؟ ويكشف يوسف لصاحبيه عن حقيقة دينه ، وعن المعبود الذى يعبده فيقول :

« إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون .. واتبع ملة آباءى إبراهيم وإسحق ويعقوب .. ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء » .

إنه ترك ابتداء عبادة تلك المعبودات الفاسدة الضالة التي يعبدها أوائلك
لقدين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، من المشركين والملحدن ، واتبع ما يعبد
آباؤه من قبله ، إبراهيم وإسحق ويعقوب .. وهو عبادة الله الواحد الذي
لا شريك له ، والإيمان بالحياة الآخرة ، وما فيها من حساب وجزاء ، ونعيم
وعذاب .. فذلك هو الدين الحق الذي ينبغي أن يدين به العقلاء .. ولقد كان
من فضل الله على يوسف وآبائه أن هداهم إلى هذا الإيمان ، وأن ملأ أيديهم
من ثمراته الطيبة المباركة .. وهذا الفضل من الله ليس محبوساً على يوسف
وآبائه ، بل هو فضل يسع الناس جميعاً ، وينال منه الواردون عليه على قدر
إيمانهم بالله ، وولاؤهم له .. وإذن فإنه إذا أراد صاحبها السجن أن ينال من
فضل الله وإحسانه ، فإن الطريق مفتوح لهما إلى الله ، فليؤمننا بالله ، كما آمن
يوسف ..

• « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس
لا يشكرون . »

لا جدل .. ولا مباحكة:

وإذ بلع يوسف في نظرات صاحبيه حيرة ، وتردداً بين الانخلاع عن
ديهما ، والإيمان بالدين الذي يدعوها إليه - إذ بلع يوسف هذا ، يلقي إليهما
بمزيد من الضوء الذي يعينهما على الاتجاه إلى الإيمان بالله ، فيقول لهما :

• « يا صاحبي السجن أرباب متفرقون أم الله الواحد القهار ؟ »

هذه قضية منطقية ، لا تحتاج إلى كثير من الجدل والمباحكة .. فأى أحق
بأن يدين له المرء بالطاعة والولاء ؟ آلهة متفرقون قد توزع بينهم السلطان
- إن كان لهم سلطان - أم الإله الذي تفرد وحده بالملك والسلطان ؟ وأى
أرضى للإنسان أن يكون حاملاً لأمير أو وزير ، أم أن يكون حاملاً للملك
الذي يعمل له الأمراء والوزراء ؟ الجواب واضح صريح !

وإذ يقع هذا الجواب في نفس صاحبي السجن ، وهو أن الإله الواحد ، القائم على كل الآلهة أولى بأن يعبد ، وإذ يتجه عقلاها وقلباها إلى الإله الواحد - ينظرون إلى آلهتهم تلك التي عبدوها من قبل ، وارتبطت بها مشاعرهم منذ .. ماشأتهما معها الآن ؟ وما شأنها هي معهم ؟ أيترونها هكذا من غير استئذان ؟ ثم أتدعها تلك الآلهة بمخرجان عن طاعتها ثم لاتألم بأذى ؟. ويرد يوسف ، كل هذه الخواطر التي تنازعهم في شأن آلهتهم تلك ، ويكشف لهم عن زيفها ، وعجزها ، وأنها ليست إلا مخلوقات من مخلوقات الله لاتملك مع الله شيئا ، فيقول لصاحبيه :

• « ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .. تلك هي معبوداتكم التي تعبدونها من دون الله ، إن هي إلا مجرد أسماء أطلقتتموها أنتم وآباؤكم عليها ، وخلقتم على ذواتها اسم الآلهة .. إنها دعوى لم يكن لها في عالم الحق مكان .. فلم تأتكم بها دعوة من رسول من رسل الله ، ولم يحملها إليكم كتاب من كتب الله .. إنها مولودات من بنات الوهم والضلال .. « إن الحكم إلا لله » فهو وحده سبحانه المنفرد بالحكم والسلطان على هذا الوجود : « ألاله الخالق والأمر .. تبارك الله رب العالمين » .

ثم ينتهي يوسف من هذا العرض الكاشف لصاحبيه عن حقيقة ما يعبدون من آلهة . وعن الإله الواحد الحق الذي يدعوهم إلى عبادته ، فيبلغهم رسالة ربه إليهما ، وإلى كل إنسان ، فيقول :

« أمر ألا تعبدوا إلا إياه » .. هذا ما يأمر الله تعالى به عباده ، فنأطع هذا الأمر نجا وسعد ، ومن عصاه ، هلك وشقى .. ثم يعقب على هذا الأمر الإلهي بقوله :

« ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .. إن ذلك الذي يدعوهم إليه هو الدين الحق ، القائم على صراط مستقيم ، ولكن أكثر

الناس لا يملكون هذه الحقيقة ، بما تغشاهم من جهل ، وما ركبهم من ضلوك بسبب هذا الجهل .

عود إلى الأحلام وتأويلها ١

لقد أدى يوسف حق الله تعالى عليه ، في الدعوة إلى الإيمان بالله ، وباليوم الآخر ، وبعد أن كشف لصاحبيه عن طريقهما الضال الذي يسيران فيه ، ودلهما على الطريق المستقيم إلى الله - جادها ليكشف لهما عن تأويل الحلم الذي عرضاه عليه ، وذلك مما علمه ربه . فيقول لهما معا :

« يا صاحبي السجن .. أما أحدهما فيسقى ربه خمراً .. وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه .. قضى الأمر الذي تستفتيان »

هذا هو تأويل حلميهما .. أحدهما يعود إلى مكانه من الملك ، فيكون ساقى شرابه من الخمر ، وأما الآخر فيصلب ، ويكون بعد صلبه ملقى بالعراء فتنشه السباع ، وتأكل الطير من رأسه ، وما تبقى من أعضاء جسده .

وبلاحظ أن يوسف لم يقل لصاحبيه تأويل رؤيا كل واحد منهما على حدة ، بل ألقى إليهما تأويل رؤياهما معا ، ليأخذ كل منهما بنفسه ما يراه متفقاً مع رؤياه ، وما يدل عليه ظاهرها .. وذلك حتى لا يواجه الذي سيصلب مواجهة صريحة بهذا الخبر المزعج .

ويترك يوسف صاحبي سجنه بين مصدق وشاك ، فيما سمعا منه ، حتى إذا هدا قليلاً مما اضطرب في نفسيهما من مشاعر الفرحة أو الحزن .. أقبل يوسف على ذلك الذي توقع له للنجاة ، وبشره بها ، يريد على أن يؤدي له بعض حقه عليه فيما ساق إليه من الخير الذي بشره به ، وذلك بأن يذكره عند « ربه » أي سيده ، وهو الملك ، وأن يخبره بالظلم الذي وقع عليه بسجنه من غير ذنب اقترفه أو جنابة جناها .

« وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر

ربه ، فلبث في السجن بضع سنين »

ففي غمرة الفرحة بالنجاة ، نسي صاحب السجن هذا الذي نجا ، ما عهد إليه يوسف به ، فلم يذكره عند سيده ، لقد أنساه الشيطان الوفاء بهذا الحق فليت يوسف في السجن بضع سنين جاء الفرج بعندها !

من السجن .. يسوس الدولة !!

حلم الملك :

في الأحداث العظيمة ، وبين يدي الهزات العنيفة التي تعرض للناس وتؤدي بتحول أحوالهم ، وبتغيير مسيرة حياتهم - في هذه الأحوال تسكثر الرؤى والأحلام ، وتطرق الناس أحاسيس شتى تنبئ عن أن شيئاً عظيماً في طريقه إلى الوقوع ! إن في الإنسان حاسة خفية كثيراً ما تسبق الحواس الظاهرة في لقائهما للأحداث المقبلة قبل أن تقع في محيط المدركات الحسية ، وهذه ظاهرة واضحة عند كثير من الناس ، تختلف بينهم قوة وضعفاً .

وحلم الملك هذا ليس إلا إرهاباً بالأحداث التي تستقبلها البلاد ، ويتأثر بها الناس ، وإذا كان الملك هو القائم على أمر البلاد والعباد ، فإن ما يطرقة من تلك الأحداث المقبلة أكثر مما يطرقة غيره من الناس .. ولهذا وقع في نفسه هذا الإحساس

د وقال الملك إنى أرى سبع

بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخرى يبسات ، يأبها الملا أفتونى في رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .. وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون .. يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخرى يبسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون .. قال تزرعون سبع سنين دأبأفا حسدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداداً يأكلن ما قدمت لهن إلا قليلاً مما تحصنن . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يقات الناس وفيه يعصرون ، وقال الملك ائتسونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال التوساة التى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم . قال ما خطبكن

الحق الذي تحول إلى حلم في المنام..
ثم إلى خبر في تأويل يوسف له ، ثم
إلى واقع فيما جاءت به الأيام ، بعد
سبع سنين ا

« وقال الملك إنى أرى سبع بقرات
سنان يأكلهن سبع عجاف وسبع
سنبلات خضرواخر يابسات ، بأبها
الملا' أفتونى في رؤياى إن كنتم
لارؤيا تعبرون »

وكم رأى الملك قبل ذلك من
أحلام لم يلتفت إليها ولم يحفل
بالوقوف طويلا عندها ، ولكنه في
هذا الحلم يرى شيئاً خطيراً سيقع ،
ولكنه لا يدري ماهو على وجه
ظاهر ، ولهذا فهو يدعو وجوه دولته
من علماء ووزراء وأمرأه ليعبروا له
عن هذا الحلم ويكشفوا له عن
مدلوله ، إذ كان - كما يبدو له - أن

إذ راودتن يوسف عن نفسه ، قلن
حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء ،
قالت امرأة العزيز : الآن حصحص
الحق أنا وراودته عن نفسه وإنه لمن
الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخضه
بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين
وما أرىء نفسى إن النفس لأماراة
بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور
رحيم .. وقال الملك اتنوى به
أستخلصه لنفسى ، فلما كله قال إنك
اليوم لدينا مكين أمين ، قال اجعلنى
على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ،
وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض
يتبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا
من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ،
ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا
وكانو يتقون »

[الآيات : ٥٣ - ٥٧]

لهم فى هذا الحلم شأننا ، وأن ما يقع سيمسهم من قريب أو من بعيد ا
ولا يجد الملا' من حول الملك تأويلا يكشف عن وجه هذا الحلم ،
فيقرون بالمعجز :

« قالوا أضغاث أحلام » أى أخلط أحلام دخل بعضها فى بعض ، فلم
يعد لناظر فيها سبيل إلى إعادة تركيبها على وجه سليم . « وما نحن بتأويل
الأحلام بعالمين » ، لأن الأحلام مجرد رموز ليس من السهل حل طلاسمها ،
وكشف معيانيها ، فكيف إذا كانت أحلاماً أضغاثاً ، وأخلطاً ؟

(٢٩ - القصص القرآنى)

صاحب السجن يذكر مانسى :

وتسكت الأحاديث حول حلم الملك وتدور في محيطه التخريجات والتخرصات،
وتزحف المدينة بالتكهنات والأراجيف . . . ويشارك حاق الملك ، صاحب
سجن يوسف ، في هذا الذي يجنب فيه الناس ويضعون ، وهنا يصحو هنا
العاقي من غفوته ، ويفيق من سكرته ، فيذكر يوسف وماله من قدرة خارقة
على تأويل الأحاديث ، والأحلام . . . فيهتف في صرخة مدوية :

« أنا أتبشكم بتأويله . . . فأرسلون » . . . أى أتركوني أمضى إلى حيث
أجد لكم تأويل هذا الحلم ، فأنا أعرف الجهة التى أجيئكم منها بتأويله . . .
لقد ذكر يوسف بعد أمة ، أى بعد زمن طويل ، وبعد تفكير عميق :

وفي لحظة خاطفة كلمح البصر ، نراه وجها لوجه مع يوسف فى السجن
لذى خرج منه منذ بضع سنين . . . وفي لحظة ينسى معها الرجل كل شيء
إلا أن يعرض الحلم على يوسف ، ويطلب إليه تأويله . . .

« يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ،
وسبع سنبلات خضر وأخرى يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يملكون » . . .

ولم يمتب يوسف على الرجل أنه نسي ما عهد به إليه ، حين قال له :
« اذكرنى عند ربك » ولم يحجب عنه خير هذا العلم الذى علمه الله ، ولا
يخزبه بما فعل فيرده خائبا . . . بل يضع بين يديه الحقيقة سافرة . . . فيقول له :

« قال زرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا
مما تأكلون . . . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا
قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يفاث الناس ، وفيه يعصرون »

لقد ظهر وجه الحقيقة التى ينطوى عليها حلم الملك ظهوراً يراه كل ذى
عقل من علماء الناس وعامهم على السواء . . .

وينطلق للرجل اطلاق المهيم ، فيلقى بين يدى الملك بهذا التأويل ،

الذي يقع من الملك موقع الحق المستيقن ، وعندئذ يهتف الملك بالملأ حوله طالباً إحضار هذا الذي عنده هذا العلم الذي تفرد به ..

ويلاحظ هنا أن يوسف لم يكتب بتأويل الرؤيا ، بل أعطى مع هذا التأويل ، التدبير المحكم الذي ينبغي أن يكون إلى جاب ما كشفت عنه الرؤيا من أحداث .. لقد كان يمكن أن يقول يوسف في تأويل الرؤيا : إن مصر تستقبل منذ اليوم سبع سنين من الخصب ، حيث يجيء النيل بالماء الذي يروى الأرض ويخصبها خلال تلك المدة ، ثم يأتي بعد ذلك سبع سنين مجدية ، يملك فيها النيل مائة ، فلا يثبت زرع خلال تلك السنين .. ذلك هو تأويل سبع البقرات السماء ، التي يأكلهن سبع عجاف ، وسبع المنبلات الخضر وصعب المنبلات اليابسات ..

كان يوسف يمكن أن يقف عند هذا الحد من تأويل الحلم .. ولكن هذا التأويل يصبح عديم الجدوى إذا لم يقم من ورائه التدبير المحكم المناصب له .. ولهذا ، فإنه دوماً إلى الحد في زراعة الحبوب ، خلال السنوات السبع المقبلة ، وأن ما يحصد من هذا الزرع يترك في سنبله ، حتى لا يصيبه سوس ، أو عطن . ويكون ذلك كله مدخراً للسنوات المجدية المقبلة بعد هذا ، لا يخرج منه إلا ما يحتاج إليه الناس لطعامهم ، على أن يكون ذلك في حدود الاعتدال ، والقصد الذي يبلغ حد التقدير .. ثم لم يقف يوسف عند هذا ، بل يكشف للقوم عما وراء هذه السنين العجاف .. فيبشروهم بأن العام الذي يلي تلك السنين سيكون عام خصب وخير كثير : « ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يفاث الناس ، أي يجيئهم فيه الغيث ، والغوث معاً .. » وفيه يعصرون ، أي يعصرون عنباً ، مما يفيض من أكلهم .. وتلك أمانة من أمارات الخصب والوفر ..

السجون وأهوال القيامة :

ولعل سائلاً يسأل : كيف يقضى الرجل يوسف ، وهو الذي كشف له

من رؤياه في السجن ، وأراه منها وجه للنجاة ، وزف إليه هذه البشرى
المسعدة ؟ كيف يذكر يوسف بعد أمة ، أى بعد زمن متطاوّل من البحث
والتفكير ؟

والجواب - والله أعلم - أنه ربما كان للأيام التي قضاها الرجل في السجن
والعذاب المرهق الذي أخذ به ، والرعب الرهيب الذي استولى عليه من الأهوال
التي طلعت عليه في سجنه - لعل هذا ربما كان له أثر في تفكير الرجل وفي
ذاكرته على وجه خاص .. فأكثر ما تضم السجون بين جدرانها من
عذاب أليم ، يرى المتلون به شواهد من عذاب يوم القيامة قبل أن تقوم !!

من السجن .. إلى الملك :

يأبى يوسف أن يستجيب لدعوة الملك ، الذي أرسل إليه من يحضره
ولم تشغله فرحة الخروج من هذا القبر الذي أطلق عليه تلك اسم الطويلة ،
عن أن يطلب التحقيق في أمر سجنه ، وفي الأمر الأي من زج به في هذا
السجن .. إن برأته على الملائم المطلوب عنده أولاً لأن في ذلك رداً
لاعتباره عندهم من ظنوا السوء به .. إنه ليس رجل سوء ، وإنه من الظلم
لنفسه ولحق أن يرى فيه الناس صورة الرجل الخائن المرعب وهو الأمين البريء .

لهذا رد يوسف رسول الملك الذي بعثه إلى يوسف ليأتى به : « وقال
الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول » قال « ارجع إلى ربك فاسأله ما بال
النسوة التي قطعن أيديهن إن ربي سكيدهن عليم »
ويهتم مجلس الملك من عذا الخبر الذي جاء به الرسول من عند يوسف .
وتكثر التساؤلات عن هؤلاء النسوة ، ولم قطعن أيديهن ؟

ونجى وقائع الحادثة بين يدي الملك كامله كأنها بنت يومها ..

فهؤلاء من النسوة - أو ما بقى منهن على قيد الحياة - يمثلن في مجلس
الملك ، ويسألن عن هذا الحدث الذي كان بينهن وبين امرأة العزيز ، حين

طلعت عليهن بيوسف ، فلما رأيته أكبرته وقطنن أيديهن وقلن حاش لله ،
ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم . .

ويسأل الملك النسوة : « ما خطبكن » أي ما شأنكن « إذ راودتن
يوسف عن نفسه » ؟ وهل استجاب لكن ؟ ولا نجد النسوة جواباً إلا
الجواب الحق الذي لا صليل إلى إختفائه : « قلن حاش لله . . ما علمنا عليه
من سوء » . . إنه كيد كان من امرأة العزيز لنا وليوسف . . أما يوسف
فإنه أكبر في دينه وخلقه من أن يستبد به هوى أو تغلبه شهوة . .

وهنا يصيح مجلس الملك بصيحات الحمد ليوسف والثناء عليه ، وتمتليء
الصدور إعجاباً به ، ويهفته ، بعد أن امتلأت من قبل إعجاباً بذكائه ،
ونفاذ بصيرته في تأويله لرؤيا الملك .

ولا يسع امرأة العزيز إزاء هذا المشهد إلا أن تشارك في هذا الاحتفاء
بيوسف ، والتسكريم له ، فتخرج عن وقارها ، بل وحيائها ، فتعترف على
الملا بأنها هي التي راودت يوسف عن نفسه .

« قالت امرأة العزيز الآن حصص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه
لمن الصادقين » أي أن يوسف من الصادقين حين قال للعزيز ، بعد أن ألفت إليه
بانها يوسف ، وأنه أراد بها سوءاً . . « هي راودتني عن نفسي » . .
وهنا نذكر قوله تعالى بعد ذلك « وشهد شاهد من أهلها » - فنذكر أن
من بين الشهود عليها من أهلها ، شهادتها هي على نفسها ، واعترافها بأنها هي
التي راودت يوسف عن نفسه . . والاعتراف - كما يقولون - سيد الأدلة . .
هذا إلى شهادة العزيز ، الذي قرأ صحيفة اتهامها على قبيص يوسف .

وأما قوله تعالى : « ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد
الغائنين » وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن
ربي غفور رحيم » -

فإن أكثر المفسرين يذهب إلى أن هذا من كلام امرأة العزيز ، وأنه معطوف على قولها : « أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين »

رأى فى تأويل هاتين الآيتين :

ونحن نرى - والله أعلم - أن هذا من كلام يوسف ، تعقيباً على قوله للرسول الذى جاء يدعوهم لبقاء الملك : « اذهب إلى ربك فاسأله ما بال الذنوة اللانى قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم » .. فيوسف لم يرد بهذا أن يفضح الحرائر ، ولكنه أراد أن يبرىء نفسه ، وأنه لا سبيل إلى تبرئة نفسه إلا بالكشف عن هذا الأمر ، ولا سبيل للكشف عنه إلا بسؤال هؤلاء النسوة .. فهو يقول لنفسه معتذراً من هذا الطلب الذى طلبه مملاله : « ذلك ليعلم » أى فعلت هذا الذى طلبته من المالك ليعلم العزيز أنى لم أخنه فى أهله ، منهزماً غيبته ، واشتغاله بالحكم ، وليعلم العزيز أيضاً « أن الله لا يهدي كيد الخائنين » أى لا يجعل الله للخيانة وأهلها سلطاناً فى الحياة .. ثم يعود يوسف إلى نفسه ، فيذكر أنه هم بامرأة العزيز ، بعد أن همت به ، وبمدان عرضت مقاديرها ومغريباتها عليه ، فى أكثر من وضع وفى أكثر من موقف .. يذكر يوسف هذا ، فيعترف على نفسه بهذا الهم الذى كان منه فيقول : « وما أبرئ نفسي .. إن النفس لأمارة بالسوء .. إنها نفس بشرية ، من شأنها أن تميل مع الهوى ؛ وأن تعمرى بالسوء .. » إلا ما رحم ربي « أى إلا ما كان من رحمة الله ، ودفعه هذا السوء عن عباده المخلصين .. » إن ربي غفور رحيم « يتجاوز عن سيئات المسيئين ، الذين يجيئون إليه تائبين ، مستغفرين ..

لماذا قلنا بهذا الرأى ؟

والذى دهانا إلى فهم هاتين الآيتين على هذا التفهم ، وهو ما جاء فيهما من توحيد خالص ، ومعرفة مستبصرة لما لله تعالى من سلطان .. وذلك فى قوله

تعالى : « وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وقوله سبحانه : « إلا مارحم
ربي إن ربي غفور رحيم ، .. وهذا لا يصدر إلا من إنسان مؤمن بالله
إيماناً مشرفاً متمكناً ، كإيمان يوسف .. وامرأة العزيز ، لم تكن - في غالب
الظن - مؤمنة .. وأنه إذا كانت مصر قد عرفت التوحيد قديماً ، في فترة من
فترات تاريخها الفرعوني - فإنها في فترات كثيرة كانت تعبد آلهة شتى ..
من عالم الحيوان ، أو الكواكب ، وغيرها ..

ثم إن مصر في هذه الفترة بالذات التي عاصرت وجود يوسف فيها ،
كانت على غير دين التوحيد ، حيث رأينا يوسف في سجنه يدعو صاحبيه
إلى الإيمان بالإله الواحد ، ويكشف لهما عن زيف الآلهة التي يعبدونها من
دون الله ، إذ يقول : « يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد
القهار .. ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله
بها من سلطان .. وهذا لا يكون إلا مع قوم لا يؤمنون بالإله الواحد .

يوسف والملك وجهاً لوجه :

وتشتد رغبة الملك في لقاء يوسف بعد أن قامت الأدلة ناطقة بمفته
ومروءته ، ويقع يوسف من نفسه موقعاً متمكناً ، إذ رأى فيه الرجل الذي
يحمد عنده من سداد الرأي ، وصدق النصح ، وحسن التدبير ، ما يقيم ملسكه
على دعائم قوية ، وخاصة عند هبوب هذا الإعصار المزلزل الذي سيمر
بالبلاد عما قليل ..

« وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ، أي أجهله لخامة نفسي ،
وأشركه في تدبير أمور الملك معي ..

« فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ، .. أي حين رأى الملك
يوسف ، وتحدث إليه ، رأى سلامة منطقته ، وحسن بيانه ، فازداد إعجاباً
به ، وإكباراً له فلم يسهه إلا أن يفسح له مكاناً رحيباً عنده ، وأن يجعله

موضوع ثقته ، وحافظ مره : « إنك اليوم لدينا مكين أمين ، .. أى مكين
المكناة عندنا ، أمين مؤتمن على أمرانا .. »

ويسأل الملك يوسف : ماذا تحب أن تلى من أعمال الملك ؟ إنك أن
تختار ما تشاء ..

ويختار يوسف العمل الذى يرى أنه يحسن تدبيره ، وضبطه ، وهو
الأمر الذى يطلب حسن التدبير ، ودقة الضبط ، فى تلك الأزمنة المقبلة على
البلاد ، والتي رأى وجهها فى حلم الملك ، الذى صورها أدق تصوير ..
« قال اجعلنى على خزائن الأرض . إني حفيظ علم ، »

وخزائن الأرض ، ما تخرجه الأرض من فاكهة وحب ، وكل ما تنبت من
زرع .. وسعى ذلك خزائن الأرض ، لأنها تخزنه فى كيانها ، إلى أن يظهره
الجهد الإنسانى ، وبكشف عنه بالغرس ، والسقى والرعاية ..

وهكذا أقام الملك يوسف على خزائن أرض مصر ، زرعاً ، وحصداً ،
وادخاراً واستهلاكاً .. وقد وصف يوسف نفسه بصفتين هما معاً الضمان
لأداء هذا الأمر الذى وكل إليه ، على أكمل الوجوه وأعدلها ، والصفتان
هما : الحفظ ، والعلم .. والحفظ ، هو الضبط ، والحزم فى تنفيذ الخطة التى
رسمها العلم ، فهو بالعلم يرى الأمور رديئة واضحة كاشفة ، فلا يضل الطريق
إلى مواقع الحق والخير ، وهو بالحفظ ، يحمى ما كشف له العلم ويحققه ..
فالمشكلة التى تواجه مصر فى ذلك الوقت كانت محتاجة إلى حزم صارم ،
بأسلوب حكيم يحول الناس على طريق مستقيم واضح لا يجيدون عنه ، وإلا
كان البلاء ، وكان الهلاك ..

إن مصر يومئذ كانت تستقبل سبع سنوات من الخصب ، ثم بعدها
سبع سنين من الجذب والقحط .. وأمر كهذا لا بد أن يكون الحزم ،
والضبط أول خطة يخططها ولى الأمر مع الناس ، ويأخذهم بها ، وإلا فإن

الناس قد ينسون في يومهم مام في حاجة إليه في غدهم ، إذ النفوس مولعة بحب العاجل ، تؤثره وإن كان قليلا على العاجل وإن كان كثيراً ..

ولهذا قدم « يوسف » الحفظ على العلم ، فالصفتان وإن كانتا مطلوبتين لمواجهة هذا الأمر ، إلا أن الحفظ أولى ، وأهم من العلم ، إذ قد يستغنى الحفظ عن العلم ، ويتحقق للناس منه بعض الخير أو كثير منه ، على حين أنه لو استغنى العلم عن الحفظ ، لما تحقق للناس في هذه الحال خير ابداً ، ولسكان مجرد حقائق مرسومة في كلمات .. فإذا اجتمع الحفظ والعلم فقد اجتمع الخير كله .. وهاتان الصفتان - الحفظ والعلم - اللتان زكى بهما يوسف نفسه . لتولى هذا المنصب الخطير ما أشبه شيء بالصفتين اللتين رأتهما ابنة يعقوب في موسى ، حين زكته ليكون قائماً على مصالح أبيها . وذلك في قولها : « يا أبت استأجره .. إن خير من استأجرت القوي الأمين » (٢٦ : القصص) .

وفي قوله تعالى :

« وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

في هذا تعقيب على هذا الجانب المخوف بالمسكاره من قصة يوسف ، وأن هذه المسكاره هي ابتلاء من الله لعباده المؤمنين بمحسبهم بها ، ويصفي جوهرهم الكريم من كل كدر .. وأن عاقبة أمرهم إلى نصر وتمكين .. هكذا مكن الله تعالى لعباده المؤمنين ، من أنبياء ، ورسول وأولياء . وبمثل هذا التمكين مكن الله ليوسف .. وهذا من فضل الله يختص به من يشاء من عباده ، حسب ما يقضى به علمه ، وحكمته في خلقه . ومع هذا فإن المحسن لا يجرم جزاء إحسانه .. وإذن فهناك فضل من عند الله يمن به على من يشاء من عباده ، وفضل آخر هو ما يجزى به المحسنون جزاء إحسانهم .. وكل من فضل وإحسانه ..

أما الأجر العظيم والثواب الجزيل ، فهو ما يجزى به المحسنون في الآخرة من أجر .. حيث دار الخلد ، وجنات فيها نعيم مقيم ..

إخوة يوسف في مصر

« وجاء إخوة يوسف فدخلوا

عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزم بجهازهم قال اتوني بأخ لكم من أبيكم الأثرون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين .. فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون . قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه اجملوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون . (الآيات : ٥٨ - ٦٢) .

مضى الزمن بطوى الأيام والسنين ، ووقعت مجاعة في أرض كنعان التي كان يعيش فيها يعقوب وأبناؤه .. وكانت مصر - بفضل تدبير يوسف - قد أخذت لهذا الأمر أهبتها ، فادخرت خلال سبع سنين مضت كثيراً مما زرعت وحصدت .. وبهذا أصبحت مصر في تلك الأيام المجيدة محط رحال

الوافدين إليها من حولها من أهل البلاد يطلبون الزاد والليرة .

« وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » .

وجاء إخوة يوسف إلى مصر فيمن جاء إليها من شق الأمصار حولها ، ولما دخلوا على يوسف فيمن يدخل عليه من الوفود ، عرفهم ، ولسكنهم لم يعرفوه ، لأنهم لم يتوقعوا أبداً أن يلتقوا به يوماً من الأيام .. لقد أصبح يوسف في حكم الأموات عندهم ، وهذا هو بعض سر التعبير القرآني : « فعرفهم وهم له منكرون » الذي جاء مخالفاً لما يقضى به الظاهر ، وهو أن يقال : فعرفهم ، وهم لم يعرفوه .. أما قوله تعالى : « وهم له منكرون » فإنه يدل على أنه كان من طبيعة الأمور أن يعرف إخوة يوسف أخاهم ، ولكن بفعالته المنكرة معه قد أصبح يوسف غريباً منكراً عندهم ، كأن لم يكن في يوم من الأيام واحداً من أبناء يعقوب .

ومنذ اللحظة التي رأى فيها يوسف إخوته أخذ يدبر أمراً بينه وبينهم ،
ستكشف عنه الأيام مما قابل ..

فلقد وضع يوسف على إخوته عيوناً ترصدهم ، ونجى إليه بأخبارهم
وما يتجدثون به وقد حطوا رحالهم في مصر .. ثم انتهى الأمر بوضعهم
موضع الشك والاثام وأنهم ربما يكونون جواسيس على مصر في صورة
تجار ، ولكنهم دفعوا هذا الاتهام بأنهم أبناء نبي من أنبياء الله هو يعقوب
وأن لهؤلاء العشرة أبناءه الأشقاء فهم أخوان من أبيهما ، أحدهما فقد منذ
زمن ، والآخر مقيم مع والده .. تلك أمارات تدل على أنهم ليسوا عيوناً
على مصر ، وأن للعزير أن يستوثق من هذا ، بما يشاء من وسائل ..

وهنا وجد يوسف فرصة في ممارستهم ، والتضييق عليهم ، وأخذهم
بشيء من الابتلاء احدى سقوه كأسه مترعة .. فطلب إليهم أن يأتوه
بهذا الأخ الذي لهم من أبيهم - كما يقولون - ليكون ذلك دليلاً على
صدقهم فيما قالوه من أنهم أبناء نبي الله يعقوب وإلا فإنه لن يتعامل معهم
ولن يعطيهم من ميرة مصر شيئاً .

« ولما جهزهم بجهازهم قال اتنوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني
أوفى الكيل وأنا خير الميزلين فإن لم تأتونني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ،
قالوا سراود عنه أباه وإنا لفاعلون » .

وهكذا ترك يوسف إخوته يعودون إلى مصر ، بعد أن حمل كل واحد
منهم حمل بعيد من الحب .. وكان من تدبيره أنه أمر أتباعه أن يدسوا
بضاعتهم التي جاءوا بها لبيتاعوا الميرة في رحالهم دون أن يشعروا :

« وقال لفتيانه اجملوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا
إلى أهلهم لعلهم يرجعون » ..

فلقد قدر يوسف أن إخوته إذا عادوا إلى مصر ، وفتحوا أمتعتهم ،
ثم وجدوا فيها البضاعة التي كانوا قد حملوها معهم إلى مصر - وقع في أنفسهم

أن في الأمر خطأ ، وأن العزيز - أي يوسف - قد نسي هو أو أتباعه أخذ هذه البضاعة في مقابل ماأخذوه من ميرة مصر .. وهذا من شأنه أن يحملهم على العودة إلى مصر مرة أخرى ، ليردوا هذه البضاعة ، التي لم يكن لهم حق فيها .. إن دينهم - كما يعلم يوسف - بمنهم من أخذ ما ليس لهم ..

الركب العائد

ويعود أبناء يعقوب إلى أبيهم ، ومايكادون يلتقون به حتى يلتقون إليه بهذا الخبر المشؤم .

« قالوا يا أبانا منع منا الكيل » !!

أفبعد هذا الانتظار الطويل ، والأحلام المسمدة بانتظار الركب العائد بالطعام ، يواجه الشيخ المتهدم بهذا الخبر المنذر بالجوع ، والموت؟ « منع منا الكيل » .. إن الكيل إنما منع منهم مستقبلا ، أما في هذه المرة فلم يمنع منهم كيل ، ولكنهم ألقوا إلى أبيهم الخبر مجحولا ، ليكون سلاحا من أسلحة الحرب النفسية مع أبيهم ، لأمر أرادوه ..

ثم يجيء وراء ذلك الخبر ، هذا الطلب العجيب : « فأرسل معنا أخانا نكتله وإناله لحافظون » ويسأل يعقوب نفسه ، ويسأل من حوله :

فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتله وإناله لحافظون .. قال هل آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه من قبل فإله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .. ولما فتحو متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونغير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير .. قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنتن به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل .. وقال يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون .

(الآيات : ٦٣ - ٦٧)

ما العلاقة بين منع الكيل ، وإرسال أخيم معهم؟ أهو مطلوب لعزيز مصر؟

وهل يعرف العزيز أخاهم هذا؟ ومن دله عليه؟ أساؤلات كثيرة، عرفه يعقوب جوابها فيما قصه عليه أبنائه مما كان بين العزيز وبينهم من حساب واتهام لهم بأنهم جوايس جاءوا إلى مصر في زى تجار، وأنه لن يبرىء ساحتهم عنده إلا أن يأتوه بأخيه من أبيهم، الذى قالوا عنه إنه الأخ الحادى عشر، وأنه مقيم مع أبيه.. فإتهم إن فعلوا كال لهم، وتعامل معهم.

وفى تلك الحال التى استولت على يعقوب من هذا الخبر المزعج الذى تلقاه من أبنائه، وأنه لن يكال لهم حتى يأخذوا أخاهم معهم. لم يجد بداً من التسليم -مقدماً- بما لا بد من التسليم به، تحت وطأة هذا الظرف العصيب فيقول لبنيه: «هل آمنكم عليه إلا كما آمنتمكم على أخيه من قبل؟ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين».

لقد تمثل يعقوب فى هذا الموقف ما كان منهم من إلحاح عليه فى طلب يوسف، ليرتع ويلعب معهم، كما كانوا يقولون، ثم «جاءوا أباهم عشاء يكون. قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين». لقد تمثل له هذا الموقف، فرأى فيما يطلبه منه أبنائه الآن؛ صورة مشابهة تماماً له، وأن الذى دبروه ليوسف من كيد، ليس ببعيد أن يدبروا مثله لأخيه.

ففى قول يعقوب: «هل آمنكم عليه إلا كما آمنتمكم على أخيه من قبل»، اتهم لهم بالسكيد ليوسف أولاً، ثم السير فى طريق السكيد لأخيه ثانياً..

مفاجأة.. وتأويلها:

وينتهى الحديث بين يعقوب وأبنائه عند هذا الحد، إلى أن يستخرج الركب ما فى أمتعهم، وإلى أن يأخذوا حطهم من الراحة من عناء السفر، ثم يتصل الحديث فى أمر العودة إلى مصر، وفيما يريدون من أخذ أخيه معهم. «ولما فتحو متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، قالوا يا أبانا ما نبغى،

هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخاننا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير .

لقد كانت مفاجأة مذهلة للقوم أن وجدوا بضاعتهم التي حملوها معهم إلى مصر ليتاعوا بها الطعام ، قد ردت إليهم .. وكيف هذا ؟ لقد عجزوا عن أن يجزموا بالسبب الذي جعل البضاعة تحمل معهم في متاعهم .

وعلى أي فإن هذه البضاعة ليست من حقهم ، إنها من حق العزيز الذي ابتاعوا منه الطعام بهذه البضاعة .. وإذن فلا بد من العودة إلى مصر ، إن لم يكن لأجل الميرة ، فن أجل رد هذه الأمانة إلى أهلها ..

« يا أبانا ما نبقى » أي ما نجور ، وما نظلم بأخذ ما ليس لنا ، بل لا بد من أن نعود إلى مصر ، لنرد هذه البضاعة إلى العزيز .. إنها من حقه ، ولا حق لنا فيها ..

وفي قرطلم : « ونمير أهلنا ونحفظ أخاننا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير » : الواو في : « ونمير أهلنا » هي واو المطف على محذوف ، تقديره ، إذا كان ذلك كذلك . فإننا سنعود إلى مصر ، « ونمير أهلنا » أي تأتيهم بالميرة ، وهي الطعام ، « ونحفظ أخاننا » الذي سترسله معنا ، « ونزداد كيل بعير » حيث سيكون له حمل بعير كما أن لكل واحد منا حمل بعير .

وانظر كيف استدعوا أطام من أبيهم بهذا الأسلوب البليغ الحكيم .. « ونمير أهلنا ونحفظ أخاننا ونزداد كيل بعير » .. لقد جعلوا أخذ أخبيهم معهم طلبا ثانيا بعد الطلب الأول ، وهو الميرة . وربطوه به ، بحيث لا تكون الميرة إلا وأخوهم معهم ..

ثم هم من جهة أخرى يقولون : « ونحفظ أخاننا » ولا يقولون : « وتأخذ أخاننا » كأن أخذهم أمر مفروغ منه ، لا مراجعة لأبيهم فيه .. فهم آخذوه ، وحافظوه ..

من إعجاز النظم القرآني :

وانظر إلى روعة النظم القرآني ، في تصويره لهذا الإفراء العجيب الذي جاء إلى يعقوب محمولا في قولهم : « هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونميرا أهلنا ونحفظ أمانا ، ويزداد كيل بعير » .. فهذه الواوات المتتابعة التي تجمع هذه المتعاطفات ، وتقرن بعضها إلى بعض ، تمثل أروع ما يمكن أن يبلغه فن العرض لجموعة من فريد الآتيه وكريم الجواهر ، تحركها يد صناع ، فتجىء بها واحدة إثر أخرى ، حتى لسكانها أنغام موسيقية تؤلف لحنا ..

وفي اختيار حرف « الواو » من بين حروف العطف ، وفي تكراره دون مغايرة - في هذا ما يزوج بين هذه المتعاطفات ، ويؤاخي بينها ، بحيث تبدو مجتمعة وهي متفرقة ، لما في حرف الواو من رخاوة ولين ، حيث تصبح هذه المتعاطفات على هذا النسق كيانا واحدا ، ومطلباً واحداً لا يمكن الفصل بين أجزائه ..

ولم يجد نبي الله يعقوب بدأ من التسليم بالأمر الواقع ، فسمح لهم بأن يأخذوا أخام معهم ، ولكنه بعد أن يأخذ عليهم عهد الله وميثاقه بأن يأتوه به ، إلا إذا وقع أمر لا حيلة لهم في دفعه :

« قال لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقا من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم ، فلما أتوه موثقهم ، قال الله على ما نقول وكيل » ..

وهكذا يستسلم يعقوب ، وينزل على حكم الأمر الواقع 11

وكما توقع يعقوب سوء ما يحل بيوسف حين طلبوا أخذه معهم ، فقال : « إني ليعزني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله القذئ وأنتم عنه غافلون » - توقع أيضا أن سوء ما سيحل بابنه الآخر ، إذ يقول لبيه : « لنا نثنى به إلا أن يحاط بكم » وقد أحبطهم فعلا ، ووقع المحذور في أخيبهم هذا ، كما سنرى بعد .

قلب الأب .. وقلب النبي !

وحين تحركت القافلة بأبناء يعقوب ، يريدون مصر ، ومهم أخوهم المطلوب للعزير ، نصح لهم أبوهم فيما نصح قائلاً :

« يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون » .
ولعل أظهر ما في هذه النصيحة من حكمة هي ألا يلفتوا الأنظار إليهم ؛ بهذا الموكب المريب الذي ينتظم أحد عشر أخاً ، أو كوكباً ، في سميت واحد من الشباب ، والبهاء ، والجمال .. فذلك من شأنه أن يدبر الروس إليهم ، فتكثر الأحاديث عنهم ، وتختلف الآراء فيهم ، وليس بعيد أن يكادهم من أكثر من جهة .. من الرجال أو النساء ، أو من تجار أمثلهم ، أو من حاشية العزير نفسه .

وأياً كان الأمر ، فإنه شعور الأب الذي يتخوف على أبنائه نسبات الريح حين تهب عليهم ، فكيف وهم على سفر طويل ، وفي يد غربة بعيدة ؟ .. ثم كيف وجيئته في يوسف لا زال تفرى كبده ، ثم هاهي ذي خيعة أخرى تكاد تتمثل له في ابنه الآخر ، شقيق يوسف ؟

يقول يعقوب لبنيه هذا القول ، وينصح لهم به ، وهو على إيمان وثيق بأن ذلك التشديد الذي دبره لهم ، لا يغني عنهم من قدر الله وقضائه شيئاً ، وأن ما قدره الله تعالى كائن لا محالة .. ولكنه كإنسان - مطلوب منه أن يفكر ، ويفكر ، وبأخذ بالأسباب التي يراها جالبة خيراً أو دافعة شراً .. هذا هو المطلوب من كل ذي عقل . . . ثم لا يمنع هذا من أن تجري الأمور على خلاف ما فكر المرء وقدر .. فيقع الشر مما قدر أنه خير ، ويحىء الخير ، مما حسب أنه شر .. وهذا ما يشير إليه تعقيب يعقوب على تلك النصيحة التي نصح بها لأبنائه : « وما أغنى عنكم من الله من شيء .. إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » .

في مصر .. مرة أخرى

ويدخل أبناء يعقوب مصر من أبواب متفرقة كما نصح لهم بذلك أبوم ، فهل يعنى عنهم هذا التدبير شيئاً مما قضى الله تعالى به ؟ إن هناك مكروها ينتظرم على الطريق ، على الرغم من أنهم أخذوا بنصيحة أبيهم .. ويعقوب قد أتى بمقدما أنه لن يعنى عنهم من الله من شيء ، وأن هذا التدبير الذى دبره لهم هو ما يقضى به علمه المحدود ، أما ما قضى به علم الله الذى وسع كل شيء ، والذى لا راد له ، فإنه فوق علمه ، وفرق متناول تقديره .

« ولما دخلوا من حيث أمرم أبوم .. ما كان يعنى عنهم من الله من شيء » .. أى ما كان هذا التدبير ليمنع عنهم ما أراد الله تعالى بهم من هذا الابتلاء الذى سيبتلون به عما قليل ..

وقوله تعالى : « إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها .. الاستثناء

« ولما دخلوا من حيث أمرم أبوم ما كان يعنى عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ، وإنه ليدو علم لما صلناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يصملون .. فلما جهزم بجهازم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيها العير إنكم لسارقون .. قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون .. قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حل بمير وأنا به زعيم .. قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين .. قالوا فاجزاؤه إن كنتم كاذبين .. قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين .. فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم » .
[الآيات ٦٨ : ٧٦]

هنا منقطع بمعنى « لكن » أى لكن حاجة فى نفس يعقوب قضاها . .
وهذه الحاجة هى ما يشعر به الإنسان إزاء موقفه من الأمور التى تعرض له ،
حيث لا يلقاها دون أن يتأثر بها ، ويؤثر فيها ، فيقبل عليها أو يعرض عنها ،
وذلك حسب تفكيره وتقديره ، وتلك الحاجة واقعة فى نفس كل إنسان ،
وبدافع هذه الحاجة يتحرك الإنسان ، ويعمل . . وقد تحرك يعقوب جهده
طاقته ، ومبلغ علمه . .

وفى قوله تعالى : « وإنه لدو علم لما علمنا ، ولكن أكثر الناس
لا يعلمون » - إشارة إلى أن يعقوب يعلم هذه الحقيقة ، وهى علمه بسلطان
ربه ، وبممكنه ، وإرادته ، وسعة علمه ، وأنه تدبيره لا يصادم أبداً تدبير الله ،
ولا يحاول دون إمضاء إرادة الله كما أرادها سبحانه . . هذا ما يعلمه يعقوب ،
وهو يأخذ بالأسباب الظاهرة له ، وهى مما علمه الله تعالى ، وهذا العلم
مما يقوم عليه إيمان المؤمنين بالله . فكيف بمن هم رسل الله ؟ ولكن أكثر
الناس لا يعلمون هذه الحقيقة ، لأنهم على غير الإيمان بالله ، كما يقول سبحانه :
« وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » . . فقير المؤمنين بالله ، لا ينظرون
أبداً إلى قدر الله القائم سلطانه فوق العباد . .

يوسف وأخاه :

ويلتقى يوسف بأخيه الذى جنى « به إليه مصر ، فيخاوبه ، ويضمه إليه ،
ويخبره أنه يوسف أخوه ، وأن عليه الألبتئس ويحزن مما كان يلقي من
إخوته من ازورار عنه ووحشة منه . .

« ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخرك فلا تبتئس
بما كانوا يعملون » . .

ثم ترك يوسف أخاه ليكون فى رفقة إخوته ، على أن يكتم عنهم ما أخبره
به من أنه يوسف ، فهذا خبر لم يأت بعد الوقت المناسب لإخبارهم به . .

البريء المتهم :

« فلما جهزهم بمجازهم جعل السقاية في رجل أخيه ، ثم أذن مؤذنه أيتها العير إنكم لسارقون . »

لقد كان من كيدي يوسف لإخوته أن يضعهم أمام المحنة القاسية ، وذلك بانزاع أخيم من بين أيديهم ، وقد أعطوا أباهم العهد بحفظه ..

وهذا جزاء لهم من جنس فعلهم .. إنهم من قبل أعطوا أباهم عهداً بحفظ يوسف ، ثم هم نقضوا هذا العهد بأيديهم صمداً ، فضيعوا يوسف عن صمد وسبق إصرار .. وهام أولاء الآن بضيعون أخاهم الذي أوعدوا على حفظه ، ولكن من غير إرادة منهم ..

إنهم الآن أبرياء من نعمة التضييع لأخيم ، ولكنهم - وهم أبرياء - يؤخذون مجرمة سابقة أفلتوا من عقابهم بها ، وهكذا تسوى العدالة حسابها مع الناس .. فإذا أفلتت من بين أيديهم منهم في جريمة ما ، ولم يقتص منه بها ، ألبسته ثوب الاتهام في أمر هو بريء منه ليلقى جزاء الجريمة التي ارتكبها من قبل ، ولم يلق الجزاء عليها ..

وكم في أحكام القضاء وفي المحاكم من ظواهر عجيبة ، تبدو فيها إدانة أبرياء ، وتبرئة مذنبين .. حيث تقدم ظروف وشواهد ، لا يجد فيها القاضي سبيلاً إلى تبرئة من يشعر أنه بريء ، لأن أسباب الإدانة التي اجتمعت بين يديه ناطقة بالحكم بالإدانة .. كذلك لا يجد القاضي بدءاً من تبرئة من يشعر أنه مذنب ، لأنه لا يملك الدليل المادي على إدانته ..

وفي سجل القضاء ، أن رجلاً قدم للقضاء في جريمة قتل ، ولكن أدلة الاتهام لم تكن بحيث تدبر الرجل . وقرر قضاء المحكمة برأته ، في مداواتهم الأمر بينهم .. ولما جلس لرئيس المحكمة على المنصة لينطق بالحكم ، حكم

على الرجل بالموت ، وكأنه واقع تحت سلطان حلم ، ثم حاول مراراً أن ينطق بالحكم الذي يرى ، الرجل فلم يستطع . . واستدعى الرجل وحمل عن جلية هذا الأمر الذي جاء غير إرادة القاضي ، فلم ير الرجل بدأ أمام استشهاده بسلطان الله وعدالته ، إلا أن يعترف اعترافاً كاملاً بجريمة سابقة له ، في قتل عن عمد وسبق إصرار . فأعيد التحقيق معه في تلك الجريمة ، وأخذ باعترافه على نفسه ، وحكم عليه بالموت . . . وليس هذا الحسام الحتم اللازم أن يقع دائماً في الحياة الدنيا ، إذ كان هناك حساب في الآخرة ، يسوى به حساب الدنيا . وهذا دليل قاطع على حتمية البعث والحساب والجزاء . .

والسقاية التي اتهم إخوة يوسف بسرقتها ، هي السكاس التي يستخدمها الملك لشرايه . . والعير هي الدواب التي تستخدم في الحمل والركوب . .

وفي المناذاة عليهم بهذا النداء : « أيتها العير » - دون المناذاة عليهم بالنداء : « أيتها الركب أو يا أصحاب العير » - في هذا دعوة لهم إلى أن يتوقفوا عن المسير ، لأن العير هي المنظور إليها عند هذا النداء ، وأن عليها أن تقف . . ولهذا حسن مخاطبتها ، لأنها هي المطلوبة أولاً ، فإذا وقفت كان للمنادين شأنهم مع راعيها . . ولهذا ، فإنه ما إن صدر النداء : « أيتها العير » حتى توقفت بفعل أصحابها ، وما إن توقفت حتى توجه الخطاب إلى أصحابها : « إنكم لسارقون »

وهنا يعجب أبناء يعقوب ، ويقبلون في لهفة على من يلغون إليهم بتهمة السرقة :

« قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟ »

إن شيئاً ما قد افترقه القوم ، وانهموا أصحاب العير به . . فاهو هذا الذي ؟ « ماذا تفقدون »

« قالوا فقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم »
إن الذين يفقدونه ، وينهمون الركب بسرقة هو صواع الملك ، وهو
السقاية التي هي القدح الذي يشرب فيه الملك شرابه . . . وأن من جاء بهذا
المسروق ، قبل أن ينكشف أمر السارق ، فإن له جزاء هذا حمل بعير ،
وأن هذا الحمل في ضمانة رئيس الجماعة المنتدبة للبحث عن صواع الملك ،
فهو بهذا الوعد زعيم ، أى كفيل به ، وضامن له . . .

ويلقى أبناء يعقوب هذا الاتهام بالنفى القاطع الجازم :

• « قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين . . .
وإنهم ليدفعون تهمة السرقة عنهم بما عمله القوم منهم ، وأنهم ما جاءوا
ليفسدوا في الأرض ، أرض مصر ، وما كانوا عيوناً عليها ، كما اتهموا من
قبل ، وطلب إليهم إحضار أخيم من أبيهم كدليل على صدقهم ، وأنهم أبناء
نبي من أنبياء الله ، هو يعقوب . . . ولقد جاءوا بأخيم وظهر للمعز بصدقهم . . .
إنهم ليسوا من أهل الفساد ، وإذن فلن يكونوا من السارقين ، لأن السرقة
وجه منكر من وجوه الفساد في الأرض . . . أفليس في هذا ما يدفع
تلك التهمة عنهم ؟ »

ولا يأخذ القوم بهذا المنطق ، بل يعضون في الاتهام ، وفي الكشف
عن المتهم . . .

• « قالوا فإ جزاؤه إن كنتم كاذبين »

أى بماذا يحكم على من يسرق ، إن ظهر أن المسروق في أوصيتهم ؟
• « قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين »
أى إن جزاء السارق هو أن يؤخذ بجرم ما سرق . . . إته وحده الذي
يتحمل وزر ما فعل . . . ذلك هو شرعنا الذي ندين به . . . فلا تزر وازرة
وزر أخرى . . .

وهنا أخذ أتباع الملك يجرّون تفتيشاً ، وبحثا في أوعية القوم ، وذلك بين يدي العزيز ، الذي أشار بأن يبدعوا بأوعيتهم قبل وعاء أخيه وأنه أصغرهم ولأنه - فيما يبدو - لا يجرأ على أن يأتي هذا الأمر دون تحريض منهم . .

« فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه » أي إنه وجد السقاية في وعاء أخيه ، فاستخرجها منه ، وأخذها بها ، وجعله رهينة عنده بحكم فيه بما يرى . .

وبهذا التدبير خرج أخوهم من أيديهم ، وصار رهينة في يد الملك ، مقابل السقاية التي اتهم بسرقتها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « كذلك كدنا ليوسف » أي دبرنا له هذا التدبير وأريناه سبيله . . « ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله » أي ما كان ليوسف أن يضع يده على أخيه ، ويجعله من متعلقات الملك إلا بمشيئة الله تلك التي دبرت له هذا التدبير . .

وقوله تعالى : « نرفع درجات من نشاء » هو تعقيب على هذا الإحسان من الله تعالى ليوسف ، وأنه سبحانه يصنع له الخير ، ويدني له منه ما يريد ، وهذا رفع لدرجته عند الله ، وقرب له من مواقع رحمته وإحسانه ، وأنوار علمه وهداه . .

وقوله تعالى : « وفوق كل ذي علم عليم » . . هو إشارة إلى أن ما بلغه يوسف من علم علمه الله تعالى إياه ، ليس هو نهاية العلم ، بل هناك علم لا حدود له ، ولا نهاية لمداه ، وهو علم الله تعالى . . فهذا العلم الذي عند يوسف ، والذي بلغ به هذه المكانة في الناس ، هذا العلم فوقه درجات كثيرة من العلم ، وفوق هذه الدرجات درجات . . وهكذا ، حتى تصب جميعها في محيط علم العلم الإلهي الذي لا حدود له . .

يأس ، وحيرة ، واضطراب !

لقد أسقط في يد أبناء يعقوب ،
وأمسكت التهمة بهم ؛ ووقع أخوهم
لأبيهم في شباكها . . . وإذا لم يكن
لهم ما يقولون في دفع التهمة ، إزاء
هذا الواقع الصريح ، إلا أنهم لسكى
يقولوا شيئاً ما يمدرون به لأنفسهم في
هذا الموقف . ألقوا بالتهمة بمبدأ عنهم
وعزلوا انفسهم عن الصلة الجامعة بينهم
وبين أخيهيم ؛ فهذا السارق ليس أخاً
شقيقاً لهم ، وأنه من طينة غير طينتهم
فإنه وإن كان ابن أبيهم يعقوب ،
فإن أمه ليست أمهم ، ومن هنا فعل
تلك القعدة النكراء التي ما كان لأحد
من أبناء يعقوب أن يفعلها . . ثم
لكي يدمروا هذا القول ويؤكدوه
جعلوا لابن يعقوب من تلك الأم
سابقة في السرقة ، وإن هذا الابن
إن يكن قد سرق اليوم ؛ فإن أخاه
الآخر وهو يوسف قد سرق من
قبل . . هكذا يلقون بهذه التهمة
ليوسف ، في مواجهته . .

« قالوا إن يسرق فقد سرق أخ
له من قبل ، فأمرها يوسف في
نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شر
مكاناً والله أعلم بما تصفون . . قالوا
بأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً
فخذوا حداً مكانه إن أزارك من الحسنين .
قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا
متاعنا عنده إنا إذا لظالمون . .
فلما استياسوا أمته خلصوا نجياً قال
كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ
عليكم موثقاً من الله ومن قبل
ما فرطتم في يوسف فلن أرح الأرض
حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو
خير الحاكمين . . أرجعوا إلى أبيكم
فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما
شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب
حافظين . . وأسأل القرية التي كنا فيها
والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون .
قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً
فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم
جميعاً إنه هو العليم الحكيم »
[الآيات : ٧٧ - ٨٣]

« قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » وهم يعنون بهذا الأخ يوسف
ويعنون بما سرقه ما كان من استيلائه على قلب أبيه ، وهذا في تقديرهم سرقه

من يوسف لأبيهم ، واستثناره بحبه دونهم . . « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلينا منا ، ونحن عصابة . . إن أبانا لفي ضلال مبين »

• « فأمرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم »

أى أن يوسف حين سمع هذا الاتهام له ، لم يظهر لإخوته شيئاً ، بل طوى في صدره الكلمة التي هم أن يواجههم بها ، ويسألهم عما سرق هذا الأخ .
« قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون »

قال ذلك في نفسه . . « أنتم شر مكانا » . . أى أنتم في أحوالكم بأخذ الأخ من أخيه ، بهذا الاتهام الظالم له ، « والله أعلم بما تصفون » أى أنه سبحانه عالم بهذا الوصف المفترى الذى تصفون به أحاكم هذا . .

رجاء مرفوض :

وإذ يرى أبناء يعقوب أنهم بحيث لاتعلق بهم تهمة السرقة ، لأن الذى سرق ليس أخاً شقيقاً لهم ، وأن نظرة العزيز إليهم غير النظرة التى ينظر بها إلى أخيهيم هذا - إنهم إذ يرون هذا يجيئون إلى العزيز متلفطين مستعطفين ، مستشفين بضعف أبيهم وشيخوخته ، وما يكون لوقع الخبر عليه بأن ابنه قد سرق ، وأخذ بما سرق . .

« قالوا يا أيها العزيز . . إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين » . . فهذا من شأنه أن يخفف كثيراً من آلام هذا الشيخ الكبير إذا أطلق سراح هذا الابن ، وحل محله واحد منهم . . فإنك أيها العزيز محسن كريم ، لاتبخل علينا بأجابة هذا الطلب الذى فيه إحسان إلى أب شيخ ، هرم .

« قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذن لظالمون »

لقد استنكر يوسف هذا الطلب ، واستعاذ بالله منه . . فإنه ليس من الإحسان فى معنى أن يأخذ البرىء بجريرة المذنب . .

فهذا ظلم لا يلتقى مع الإحسان بأى وجه من الوجوه . .
ثم لماذا لم يطلب أبناء يعقوب إلى العزيز أن يكون إحسانه بإطلاق سراح
أخيهم تفضلاً منه وكرماً ؟

إنهم لم يفعلوا هذا ، لأن في ذلك تمطيلاً لحد من حدود الله . فالسارق
لا بد من أن يعاقب ، وأن يقتص منه ، ليسكون في ذلك ردعاً له من معاودة
المسقة ، وعبرة لغيره من تدعوه نفسه إلى المسقة ، ولهذا طلبوا القصاص
منه في شخص واحد منهم . .

مؤتمر بين الإخوة :

وإذ رأى أبناء يعقوب أن العزيز لم يستجب لما طلبوا ، بعد أن جاءوا
إليه من كل سبيل من جبل الرجا ، والاستعطاف ، ووقع اليأس في نفوسهم
من أن العزيز لن يطلق سراح أخيهم - إذ رأوا هذا خلوا بأ أنفسهم ، في مكان
بعيد عن أعين الناس وآذانهم ، وجعلوا يقلبون الأمر على وجوهه المختلفة . .
« فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً ، أى حين استيأسوا من خلاص أخيهم ،
أداروا الحديث بينهم في عزلة منقطعة عن الناس . .

« قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ، ومن
قبل ما فرطتم في يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى بأذن لى أبى أو يحكم
الله لى وهو خير الحاكمين »

هذا هو رأى كبيرهم ، وصاحب الرأى والكلمة فيهم ، وذلك هو توفقه
من هذا الحدث الذى طرقتهم . . إنه لن يبرح الأرض التى هو فيها ، وهى
أرض مصر ، ولن يلتقى أباه إلا إذا دعاه إليه ، صانعاً منه ، أو كان لله تعالى
مشيئة فى أن يعود إلى أرض الوطن مرة أخرى . .

وهو يقدم لهذا الحكم الذى حكم به على نفسه ، بما كان منهم من ميثاق

وثقه معهم أبومم بأن يأتوه بأخيه هذا ، وهامم أولاد وقد أفلت أخوم من أيديهم . . . وليست هذه أول مرة يفجمون فيها أباهم بولد من ولديه الصغيرين ، فلقد فجموه من قبل في يوسف . . . فبأى وجه بعد هذا يلقى كبيرهم أباه ، وهو قائد الركب ، والمسئول الأول عن سلامة كل عضو فيه ؟ إنه لن يبرح الأرض ، ولن يعادر مكانه حتى يأذن له أبوه ، أو تغلبه إرادة الله الغالبة . . .

أما إخوته ، فلهم شأن آخر غير شأنه هو . . . إنهم لا بد أن يعودوا إلى أبيهم ، ويخبروه بما حدث . . .

«ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ، واسأل القرية التي كنا فيها ، والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون . . .»

إنه لم يكن يفكر بأن يوجههم إلى لقاء أبيهم ، بل لقد زودهم بما يقولونه لأبيهم ، من أمر أخيه وما كان منه ، وأنهم لم يدخروا وسعاً في المحافظة عليه ، ولكن سلطان القدر لا يذالب . . .

وإذ يعلم كبيرهم هذا أن أباهم لن يصدق ما يخبرونه به ، وأنهم متهمون عنده بالسكيد ليوسف وأخيه - فإنه لهذا الغرض إلى هذا الموقف الذي سيقفه أبوهم منهم ، وما ينبغي أن يواجهوا به هذا الموقف ، وهو أن يؤكدوا له صدقهم بأن يسأل القرية التي كانوا فيها ، وهي مصر ، التي وقع فيها هذا الحادث ، فإن لم يجد سبيلاً إلى سؤال أهل تلك القرية ، فليسأل أهل الركب الذين جاؤوا معهم ، وهم منه قريب . . . إنهم من أبناء كنعان ، أو البلاد المجاورة لها .

كلمة الحق لها قوة :

وانظر إلى موقفهم هنا ، وقد جاءوا إلى أبيهم بالصدق كله ، وإلى موقفهم من قبل مع يوسف وقد جاءوا إلى أبيهم بالكذب كله ..
إنهم هنا يجدون لكلمة الحق مسانعة في أفواههم ، وقوة على ألسنتهم ، فيقيمون عليها الأداة البعيدة والقريبة ، ثم لا يكتفون بهذا ، بل يجزمون بصدقهم ، ويؤكدونه بقولهم : « وإنا لصادقون » .

أما هناك — في موقفهم من يوسف — فإنهم قد حملوا إلى أبيهم شاهد الزور بين أيديهم .. قيصاً ملطخاً بدم كذب ، ودموعاً متلصصة تتخذ من الليل ستاراً يستر زيفها .. ثم كلمات مستخذية ، تمشى على استحياء في رعشة ، واضطراب . « يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الثوب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » .. إنهم هنا يتهمون أنفسهم ، ويحكون على ما يقولون بأنه لا يقع موقع التصديق من أبيهم ..

فأبعد المدى بين قولهم هنا : « وإنا لصادقون » .. وقولهم هناك : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » ..

إنه بعدما بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ۱۱

ويصدق حدس كبير الإخوة فيما قدره من سوء ظن أبيه به وبأخوته .. إذ يلقى الأب هذا الحديث الذي ساقه إليه أبناؤه عن أخبهم لأبيهم — يلقى هذا الحديث بقوله :

« بل سولت لكم أنفسكم أمراً » .

إن ذلك كيد من كيدكم ، سولت لكم به أنفسكم .

ثم لا يجد يعقوب إلا الصبر على هذا المكروه ، والاستسلام لأمر الله ، والرجاء في رحمته وإحسانه .. « فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ..
إنه هو العالم الحكيم » ..

ذلك ظنه بربه ، ورجاؤه في فضله وإحسانه .. وإذن فهو صابر لحكم
الله ، متقرب لما وراء هذا الصبر من فرج .. إذ لا بد من وراء الصبر الجميل
من جزاء طيب ، وبشريات مسمدة .. « وبشر الصابرين الذين إذا أصابهم
مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون .. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة
وأولئك هم الممتدون » .

° ° °

أحزان يعقوب ودموعه

« وتولى عنهم وقال يا أسنى على
يوسف ، وابيضت عيناه من الحزن
فهو كظيم .. قالوا تالله تفتأ تذكر
يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون
من الهالكين .. قال إنا نشتكوا
وحنى إلى الله وأهل من الله ما لا
تعلون .. يا بني اذهبوا فتحسبوا
من يوسف وأخيه ولا تياخروا من
روح الله إنه لا يئأس من روح الله
إلا القوم الكافرون » .

[الآيات : ٨٤ - ٨٧]

لقد انصرف يعقوب عن
الحديث مع أبنائه في شأن أخيه هذا
الذي افتقدوه في مصر، وأسلم نفسه
إلى ما يعتدل في كياه من أمي وحسرة ،
على يوسف .. فلقد نكأ هذا
الجرح الجديد جرحه القديم الفازر
في أحماق نفسه من فقد يوسف .
« وتولى عنهم وقال يا أسنى
على يوسف وابيضت عيناه من
الحزن فهو كظيم » .

وإنه يتعزى في فقد ولده في
مصر ، بأنه مازال حياً يعيش مع
الأحياء .. أما يوسف فلا يدري إن كان حياً أو ميتاً .. ولهذا كان حزيناً على
ابنه في مصر ، محرراً للحزن الدفين العميق على يوسف .. وهكذا يخف وقع
المصاب الجديد عليه ، إذ يوازن بالمصاب العظيم القديم .. وهكذا يستشفي
من داء بداء ، وذلك البلاء أعظم البلاء .

إذا استشفيت من داء بداء فأقتل ما أعلك ما شفاكا

أنبي . . ويجزع ؟

وقد يسأل سائل : كيف يكون هذا الجزع ، وذلك الحزن المدمر ، من
أبياء الله ؟ وأين الصبر الجميل الذي وطن عليه نفسه هذا النبي الكريم عند
استقبال هذا المصاب بقوله : « فصر جليل » ؟

ونقول - والله أعلم - إن هذا الحزن السكظيم - أي الدفين الذي لا يروح
به - ليس بالذي يجور على الصبر الجميل ، أو ينتقص من مشاعر التسليم لله ؛
والرضا بقضائه ، وخاصة فيما يتصل بماطفة الأبوة . . وإنه ليس من الصبر
الجميل في شيء أن تجف عواطف الأبوة ، وتجمد مشاعر الحزن على فقد
الابن . . ثم إن هذا السكظيم للحزن ، وحسبه في القلب هو في ذاته وجه من
وجوه الصبر الجميل ، حيث لم يتشكل هذا الحزن في صورة لطم الحدود ،
أو شق الجيوب . . أما شكاته ، وبث حزنه ، أي إذاعته والتصريح به في
صور من الشكوى إلى الله ، فهو عبادة خالصة وولاء مطلق لله ، وطمع في
رحمته ، ولجأ إلى فضله وإحسانه : « قالوا لله تفناً تذكر يوسف حتى تكون
حرضاً أو تكون من الهالكين . . قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ،
وأعلم من الله ما لا تعلمون » .

إن أبناء الشيخ الجليل ، ليغارون من يوسف ، حتى بعد أن ألقوا به
في غيابات الجب ، ويستكثرون على أبيهم أن يحزن على يوسف هذا الحزن
الذي لانهاية له . . إن ذلك لدليل على هذا الحب العميق الذي كان ليوسف في
قلب أبيهم ، وأنه لا يزال مشغولاً عنهم بالحزن عليه بعد فقدده ، كما كان مشغولاً
عنه بالحب كله وهو حي . .

فهم يلقون أيام منكرين عليه هذا الحزن أن يظل ملازماً له ، حتى يتلف
كيانه ، ويهدم بنيانه : « حتى تكون حرضاً » . والحرض الشيء الذي
استحالت طبيعته وتغيرت معاملة ، كالنبات يتحول إلى حطب ، وكالثوب الجديد

بصير بالياً .. « أو تكون من المهالكين » أى إنك لا تنقطع من هذا الحزن حتى تذبل ، ونحف وتموت .

وقد كان رد أبيهم عليهم : « إنما أشكوبنى وحزنى إلى الله » أى إنما أتوجه بأبىنى ، وحزنى إلى الله .. والبث ، إذاعة الحزن ، والإعلان عنه بلفظ أو أنين .. والحزن الألم الذى يكتمه صاحبه ، ولا يصرح عنه بقول أو حركة .. فيعقوب يشكو ما به إلى الله فى سر ، وفى جهر ، وهو يعلم من الله مالا يعلم أبناؤه - ومن علمه أن هذه الضراعة إلى الله ، والشكاة إليه هى عبادة خالصة ، وولاه صادق لله رب العالمين . إنه يشكو إلى سيده ، ومالكه ، ومن بيده الأمر كله .. وليست هذه الشكوى إعلاما لله بحال الشاكى ، فإله سبحانه يعلم كل شىء علما أزليا ، ما وقع وما سيقع ، وإنما هذه الدعوات والابتهالات هى عبادة لله بما يستولى على العبد منها من مشاعر الحاجة والموز إلى الله ..

لا يأس من روح الله :

ويعضى بمعقوب فى موقفه هذا مع ربه ، وفى شكاته إليه ، والوقوف بباب فضله وإحسانه ، غير يأس أبداً من فضل ربه ، فيقول لبنيه :

« يا بنى اذهبوا فتحصسوا من يوسف وأخيه ولا تياسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

إنه يدعوهم إلى أن يشاركوه فى هذا الإيمان بقدرته الله ، وفى الطمع فى رحمته ، وعدم اليأس من أى طلب يطلبونه من الله ، فإن هذا اليأس هو سوء ظن بالله ، وإنه لا يظن الظن السئ بالله إلا الكافرون به ، الذين لا يعرفونه ، ولا يؤمنون به ...

روى أن بعض الصالحين كان يقول : « إن لى حاجة أدعو الله لها منذ أربعين سنة ، فما استجاب لى ، وما يئست من دعائه » !!

فالمؤمن لا ييأس من روح الله ، ولا يقطع الرجاء من فضله وإحسانه أبداً .
 وفي قوله : « فتحسبوا » إشارة إليهم بأن يكون بمنحهم عن أخيم
 بحثاً قائماً على التهدى بالمشاعر ، تلك المشاعر التي إن صدقت أعطت حديساً
 لا يخطئ .. أما البحث الذي لاتصعبه رغبة قوية ، وشعور مخلص ، في طلب
 ما يطلب الإنسان من أمور ، فإنه لا يجدي شيئاً ، ولا يفتح للإنسان مغالقة
 الأمر الذي يطلبه . . . إن نجاح أى عمل رهن بالرغبة فيه ، وبالسعى الجاد
 في تحصيله . . .

لقاء . . . ومصارحة

كان لا بد لأبناء بمقرب من
 العودة إلى مصر مرة أخرى ، لاللميرة
 وحدها ، ولكن استجابة لدعوة
 أبيهم ، بالبحث عن يوسف وأخيه ،
 إذ كانت مصر هي الوجه الذي عرفوه
 والذي تركوا فيه أحد أخويهم . .
 فلا بد إذن أن تكون مصر هي وجههم
 لينظروا ما يفعل الله بهذا الأخ الذي
 احتجزه العزيز عنده متمهما بالسرقة . .
 أما يوسف فهم يهات أن يعرفوا له وجهاً
 يطلبونه فيه . .

وهناك - في مصر - دخلوا على
 العزيز في حال من الحزن والألم ،
 وسوء الحال . . فلما مثلوا بين يدي العزيز :

« فلما دخلوا عليه قالوا بأبيها
 العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا
 ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل
 وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين .
 قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه
 إذ أنتم جاهلون . . قالوا أئنا كنا
 يوسف ؟ قال أنا يوسف وهذا أخى
 قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر
 فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . .
 قالوا نالله لقد آتاك الله علينا وإن
 كنا لخاطئين . . قال لا اثريب عليكم
 اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم
 الراحمين .
 (الآيات : ٨٨ - ٩٢)

« قالوا بأبيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا
 الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين . »

والبضاعة المزجاة ، هي البضاعة المتحركة ، التي يسوقونها أمامهم من إبل وقم ونحوها .. أما بضاعتهم التي جاءوا بها أولاً ، فقد كانت أمتعة محمولة معهم .. وفي قولهم : « فأوف لنا الكيل وتصدق علينا » أى أعطنا بهذه البضاعة المزجاة ما يوازي قيمتها ، ولا تنتظر إليها دون نظرتك إلى عروض التجارة ، من حرير ، أو صوف ، أو نحو هذا ، ثم إننا لنطمع منك في أكثر من هذا ، وذلك بأن نتصدق علينا بأن تعطى كل واحد منا حمل بعير ، إذا كانت بضاعتنا تلك لا تفي بهذا .

عاطفة الأخوة :

ويرى يوسف من هذا ما أصاب أهله من ضر ، وما حل بهم من ضيق ، فيرق لإخوته ، ويفيض قلبه رحمة بهم ، ثم لا يملك مع هذا إلا أن يطلع عليهم بما يعلأ قلوبهم دفناً بالأمل المسعد ، والرحاء العظيم ، وذلك حين يعلمون أن العزيز الذي يقفون بين يديه ، والذي في يديه خزائن الأرض إنما هو أخوهم ! إن هذا الخبر سيبدل حالهم في الحال من شدة إلى رخاء ، ومن فقر إلى غنى ، وجاء وسلطان !

ولكنه قدر أن هذا الخبر إذا ألقى إليهم في غير حكمة كان وقعه شديداً عليهم ، وربما صعقوا له .. ولهذا فهو يدخل عليهم بهذا الخبر بتلك المقدمة التي تشبه الاستئذان على أهل الدار ، قبل الدخول عليهم ، ومباغتتهم على غير استعداد .. فهو يقول لهم :

« هل علمت ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ » .

ويثير هذا التساؤل تساؤلات كثيرة كانوا يدبرونها بينهم وبين أنفسهم ، ثم فيما كان بينهم وبين يوسف من قبل ، حتى لقد كادوا يسألونه : من أنت ؟ وما لك تشغل نفسك بنا وبأبينا وبأخينا ؟ ولم تختصنا بالحديث إليك ؟ ولم تحملنا على أن نأتيك بأخينا من أيدينا ثم هأنت ذا تحتجزه عندك ؟ .

هذه الأسئلة وكثير غيرها كانت تدور بين القوم ، ويتناجون بها في حلهم وترحالهم ، ثم لا يجدون الجواب عليها . حتى جاءهم الخبر اليقين عنها . فإنه ما كان يوسف يسألهم هذا السؤال : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون » حتى يطل عليهم الجواب الذي كان تأمراً في رؤوسهم ، منذ أمد بعيد فيفتقون به ، « أإنك لأنت يوسف » ؟

أى أإنك لأنت يوسف الذى كنا نشك أنه أنت ؟

« قال أنا يوسف ، وهذا أخى .. قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

وقوله تعالى « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .. هو تعقيب من يوسف على هذا الذى هو هبة من عطاء ربه .. إنه جزاء من الله تعالى لما كان منه تقوى الله ، ومراقبته ، والاستقامة على طريق الحق ، والصبر على ما يبتلى الله به من مكاره .. فإنه من يتق الله ، ويصبر على ما يبتليه به يكون من المحسنين ، وإن الله لا يضيع أجر المحسنين ..

وهنا يستشعر إخوته الندم على ما كان منهم ، وأنهم كانوا على طريق ضال في الكيد الذى كادوه له « قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » .

أى أن هذا الحب ، وذلك الإيثار الذى كان من أبيك لك دوتنا ، هو فضل من فضل الله عليك ، وإن فى غيرتنا وحمدنا لما ألبسك الله تعالى من نعم ، هو ضلال منا .. وإن هذا الذى أنت فيه من مكان عال ، ومن سلطان عظيم ، هو فضل اختصك الله تعالى به « لقد آثرك الله علينا » .. ولكننا كنا خاطئين إذ حمدناك على هذا الفضل الذى يختص به الله من يشاء من عباده ..

ويطوى يوسف سريماً هذه الصفحة السوداء مما كان بينه وبين إخوته ، ويعطى على كل آثارها بالصفح الجميل منه ، ويطلب المغفرة لهم من الله ..

« قال لا تثريب عليكم اليوم » إنه يوم عيد بهذا اللقاء ، فلا لوم فى هذا

اليوم ، ولا عتاب ، بل صفح ، ورضى .. « يغفر الله لكم » . ويتجاوز عن
شيطانم ، فقد عفوت أنا وغفرت ، والله سبحانه هو أهل العفو والمغفرة :
« وهو أرحم الراحمين » .

[قبيص يوسف ، وما فيه]

ما إن كشف يوسف لإخوته
عن وجهه ، وما إن أراهم الصفح
والمغفرة منه ، وطلب لهم من الله العفو
والمغفرة ، حتى التفت بوجوده كله إلى
أبيه الذي أضر به الحزن عليه ، وعلى
أخيه ، وعلاء الكبر ، ومسه
الوهن والضعف ..

وهنا يقدم لإخوته قبيصه قائلاً :

« اذهبوا بقميصي هذا فألقوه
على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني
بأهلكم أجمعين » .

« اذهبوا بقميصي هذا ، فألقوه
على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني
بأهلكم أجمعين .. ولما فصلت العير
قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف
لولا أن تعمدون .. قالوا تالله إنك
لنبي ضلالك القديم .. فلما أن جاء
البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً
قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله
مالاتعلون .. قالوا يا آباانا استغفر
لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين .. قال
سوف أستغفر لكم ربى إنه هو
الغفور الرحيم » .
(الآيات : ٩٣ - ٩٨)

ما هذا القميص ؟

يكشف يوسف مما لهذا القميص من أثر في شفاء أبيه ، ورد بصره إليه
بعد أن ذهب به الحزن .. إن يوسف يقول على سبيل القطع والجزم :
« يأت بصيراً » .

فا هذا القميص ؟ وما شأنه ؟ أهو معجزة نبي ؟ أم ماذا ؟

تكثر الأقوال من الذين حول هذا القميص ، حتى لتنسبه بعض
الأقوال إلى إبراهيم عليه السلام ، وأنه كان القميص الذى يقال إن جبريل

جاء به من الجنة ، وألبسه إبراهيم حين ألقى به في النار ، فلم تصبه بسوء . .
ثم جعل إبراهيم هذا القميص ميراثاً في ذريته ، أعطاه إسحق ، ثم أعطاه
يعقوب . . ثم هارذا يوسف يدفع به إلى إخوته ، ليلقوه على وجه أبيه
فيرتد بصيراً ، ويأتى بتلك المعجزة الخارقة !

وقد كان يمكن أن يصح هذا ، لو كان له مستند من كتاب الله
أو سنة رسوله . .

وأما وليس في القرآن الكريم ، ولا في حديث رسول الله شاهد لهذا ،
فإنه من الخير أن يتخفف العقل من هذه التفسيرات القائمة على الرجم بالقياس ،
وأن يأخذ الأمور على ظاهرها . .

ومن جهة أخرى ، فإن القرآن الكريم يحدث عن القميص الذي كان
يلبسه يوسف ، حين ألقى به إخوته في الجب ، وأنهم قد جردوه منه ، وجاءوا
به إلى أبيهم ملطخاً بدم كذب !

ثم لو أن القميص الذي كان يلبسه يوسف يوم ألقى به في الجب ، كان
قميص إبراهيم ، لسكان أول شيء يحرم إخوته على سلبه إياه ، وألا يدعوه
يذهب به .

فليكن ذلك القميص إذن واحداً من الأقمصة التي كان يلبسها يوسف ،
والتي علق بها عرقه ، فكان فيها ريحه .

أما كيف وجد يعقوب ريح يوسف في هذا القميص ، على هذا المدى
البعيد ، الذي أحد طرفيه مصر ، وطرفه الآخر أرض كنعان — فإن
هذا السؤال يرد على أي قميص ، سواء أكان القميص الذي يقال إنه قميص
إبراهيم أم أي قميص آخر . .

والذي علينا هو أن نصدق بيقيننا بأن يعقوب قد وجد ريح يوسف

أما هذه الريح التي وجدها يعقوب ، فهي إما أن تكون ريحاً شمياً فعلاً بأنفه على الحقيقة ، كما تشم أرواح الأشياء ذات الريح ، وإما أن تكون هذه الريح مشاعر وخواطر مثلت له يوسف قريباً ، مقبلاً عليه ، أشبه بالطيب الزائر في المنام ، أو الخاطر المسعد في اليقظة ، وذلك كله من ألطاف الله تعالى بيعقوب ، ومن إشراق نفسه الصافية ، وانطلاق الروح من كثافة المادة ، وقيود الجسد .. ولقد رأى عمر بن الخطاب - وهو على منبر رسول الله ﷺ في المدينة - رأى «سارية» قائد جيش المسلمين ، في الشام ، وهو يكاد يقع ليد العدو الذي دبر له كيداً خفياً ، فقال عمر وهو على المنبر «ياسارية.. الجبل» أي انجه إلى الجبل ، واجعله حصناً من ورائك .. وقد سمع سارية صوت عمر ، وانحاز بالجيش إلى الجبل ، وكان في ذلك نجاته ونجاة من معه.. فكيف بنى من أنبياء الله .. ألا تكون له من نفسه المشرقة بنور الله هذا الحدس أو تلك المعجزة؟

قيص له .. شأن :

وأما كيف كان لهذا القميص أن يعيد إلى يعقوب بصره بمجرد أن أتى عليه ، فلهذا أكثر من قول يقال هنا ..

فلك أن تقول إنه آية من آيات الله أجراها الله سبحانه وتعالى بين يدي يمين كريمين .. يعقوب ، ويوسف ..

ولك أن تقول إن ذلك لم يكن أمراً معجزاً ، وإنه جاء على سنن الطبيعة ، ومألوف الحياة ، وأن الذي ذهب ببصر يعقوب هو شدة الحزن ، وأن الذي يعيد إليه بصره الذهاب ، هو شدة الفرح .. وهذا مما يعلمه يوسف مما علمه الله تعالى من تأويل الأحاديث .

وللتعميم في حياة يوسف شأن أي شأن ..

فلقد كان القميص أول الأمر يحمل بصمات يوسف ، التي تشهد بكذب إخوته .. وتلك البصمات هي التي احتدل منها يعقوب على كذب بنيهِ حين جاءوه بالقميص ملطخا بدم كذب ، مدعين أن الذئب قد أكله ، على حين أن القميص كان سليما لم يصب بخدش من مخلب الذئب أو نابه .. هدمه واحدة .

وأخرى .. هي أن العزيز ، قرأ على قميص يوسف ، البصمات التي تدل على براءته ، حين رآه قد قد من دبر ، لا من قُبُل ..

وثالثة ، وهي هذا القميص الذي بعث به إلى أبيه يحمل إليه الشفاء لبصره والفرحة لقلبه .. والقميص في كل حال غيره في أي منها في الحال الأخرى ، والله تعالى أَلطافُ خفية ، لا تستند إلى هذه الظواهر التي تعلمها ، وتعامل مع الأشياء بمقتضاها ..

وأخيراً يجتمع الشمل !

فلما دخلوا على يوسف آوى إليه
أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين
ورفع أبويه على العرش ، وخرأوله
سجدا ، وقال يا أبت هذا تأويل
رؤيائي من قبل قد جعلها ربي حقا ،
وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن
وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ
الشیطان بيني وبين إخوتي ، إن ربي
لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم .
رب قد آتيتني من الملك وهلمتني من
تأويل الأحاديث فاطر السموات
والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة
توفني مسلما وألحقني بالصالحين ،
[الآيات : ٩٩ - ١٠١]

هناك أحداث كثيرة طويت ،
ولم يجر لها ذكر هنا ، إذ لم يكن لها
أثر ظاهر في مضمون القصة .. فلم
تذكر القصة ما كان من موقف يعقوب
من دعوة يوسف وإخوته بالسفر
إلى مصر . . وهل يستجيب لهذه
الدعوة ، ويترك موطنه وهو في هذه
الحالة من الشيوخوخة والضعف ؟ أم
هل يرى من الأفضل أن يعود يوسف
إلى موطنه ؟ لم تذكر الآيات القرآنية
شيئا من هذا .. كما أنها لم تذكر خبرا
عن اتجاه يعقوب ببنيه نحو مصر .

وها نحن أولاء نرى يعقوب وبنيه في مصر ، بعد أن كانوا منذ لحظة
معنا في أرض كنعان ، وشهد الشيخ وقد ارتد إليه بصره بعد أن ألقى قemis
يوسف عليه ، ثم نراه يلوم أبناءه ويؤنبهم على ما كان منهم من إنكار واستمراء
من قوله : « إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفتدون » .. ثم تراهم يطلبون
المغفرة من أبيهم ، الذي يعدهم بأنه سوف يستغفر الله لهم ، على ما كان منهم
من كيد لإخويهم ، ثم ما كان منهم من تفنيد ، ولوم له ، بذكر يوسف ،
وحزنه عليه ، ورجائه في الله أن يرده إليه ، إذ قالوا له : « تالله إنك لنتي
ضلالك القديم » وها هو ذا يوسف يلتقي أبويه وإخوته ، ويضمهم إليه ،
ويفتح لهم الطريق إلى مصر ، وينزلهم فيها منزل الآمن والسلامة .

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله
آمنين » أي أنهم حين دخلوا على يوسف في مجلس حكمة وسلطانه أخذ بيد
أبويه ، وضمهما إليه ، ومن وراءهما إخوته ، وحياتها تحية السلام والإكرام
« ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » ..

هذا تأويل رؤياي :

ويرفع يوسف أبويه إلى العرش الذي يجلس عليه ، احتفاء بهما ،
وتكريماً لهما ، وقد قابلا هذا الإكرام منه بالشكر له ، والحمد لعننيه ..
فسجدوا له ، سجد حمد وشكر ، وسجد معهما أيضاً وهما الأحد عشر ..
وإذ يشهد يوسف هذا المنظر يذكر رؤياه التي رآها عندما كان صبياً ،
والتي قصها على أبيه في قوله : « يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس
والقمر رأيتهم لي ساجدين .. » ثم ذكر ما قاله له أبوه إذ ذلك : « قال يا بني
لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو
مبين ، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث .. » .. وها هو
ذا يوسف يرى تأويل رؤياه واقفاً محسوساً ، بعد أن رآها في تأويل أبيه

لها ، ومدأ بخير عظيم ، ودرجة عالية عند الله تعالى - إذ يرى يوسف كل هذا يقول لأبيه :

« يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا ، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي » . . أي أن هذه الرؤيا التي رآها في صباه قد تحققت اليوم ، إذ قد جعلها الله تعالى رؤيا صادقة ، لأن في الرؤى ما يصدق وما يكذب . . ورؤى الأنبياء لا تكون إلا صدقا . . ويوسف وإن لم يكن نبيا حين رأى تلك الرؤيا ، فإنه مرشح للنبوة ، لابس إهابها منذ ولد . .

وفي قوله : « وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو » إشارة إلى أن التحول من البدو إلى الحضرة بعد من النوم ، التي تستوجب الحمد والشكران لله رب العالمين ، وذلك لما في حياة البدو من جفاء وغلظة ، وجاهلية ، على خلاف حياة الحضرة ، وما فيها من نعم كثيرة ، وخير عظيم ، لمن يرضى حق هذه النعم ، ويؤدى شكر هذا الخير . .

وفي قوله : « إن ربي لطيف لما يشاء » - إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ، إذا أراد أمراً أحكم تدبير الأسباب الموصلة إليه ، فجاء بها على غير ما يقدر العباد ، ثم أراهم من عواقبها غير ما يتوقعون . .

فمن كان يقع في تقديره أن تلك الأحداث التي وقعت ليوسف ، من إلقاءه في الحب ، إلى وقوعه في يد جماعة من التجار ، إلى بيعه لرجل من مصر ، إلى كيد امرأة العزيز له ، إلى تأمرها مع جماعة النسوة عليه ، إلى إلقاءه في السجن بضع سنين - من كان يقع في تقديره أن هذه الأحداث يندرج من خيوطها عرش ، ويصاغ من حصاها تاج ، ويولد من تصارعها ملك يجلس على هذا العرش العظيم ، ويتوج بهذا التاج الكريم ، إن ذلك لا يكون إلا من تدبير حكيم خبير ، يمسك الأسباب بلطفه ، ويجريها بحكمته ،

فإذا هي طوع مشيئته ، ورهن إرادته ، فيجمل من المكروه - في تقديرنا - محبوا ، ومن المحبوب مكروها ، « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (البقرة : ٢١٦) .

تسايح وابتهالات :

« رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفي مسلماً وألحقني بالصالحين » .
وبهذه الابتهالات ، والضراعات ، وبتلك التسايح والصلوات ، يستقبل يوسف هذه النعم التي أنعم الله بها عليه ، فإنه بعد أن سوى حسابه مع أبيه وإخوته ، وبعد أن وضع الأمور في نصابها بينهم وبينه ، وأعطى كل ذي حق حقه - خلس إلى مناجاة ربه ، وإلى رفع آيات الحمد والشكران له ، بعد أن أم الله تعالى عليه نعمته ، وبعد أن أخلى الله تعالى قلبه من الهم والحزن ، فكانت تلك الحال أعدل الأحوال التي يجد فيها المرء وجوده كله ، - قلباً ، وعقلاً ، ولساناً - خالصاً لله ، لا تطرقه طوازيق الهموم ، ولا تصطبخب في نفسه أمواج الآلام والأحزان ، التي تحجز كثيراً من عواطفه ومشارفه المنتجة إلى ربه . . . وهكذا يلتقي يوسف ربه . هذا اللقاء الخاشع الضارع ، وكله لسان حمد وشكر لله رب العالمين . . . ويبدأ في هذا الموقف باستعراض نعم الله تعالى عليه ، وعملها في خاطره ، واستحضارها في وجدانه ، من مبدأ أمره إلى نهايته التي انتهى إليها في يومه هذا ، وذلك مما يلهب مشاعره ، ويطلق لسانه ، فيحدث بنعم ربه ، ويسبحه بها ، ويحمده عليها ، ويستزيده من فضله بأن يتم تلك النعم عليه ، وذلك بأن يتوقاه على دين الإسلام ، وأن يلحقه بالصالحين من عباده ، فذلك هو الذي يجعل لهذه النعم مسافاً في فمه ، وطعماً هنيئاً في حياته . . . إن هذه النعم كلها هي زرع طيب ، وإن خير ثمار هذا الزرع ما يكون زاداً في الآخرة ، وإن الشقي من آتاه الله من

فضله وإحسانه ، ثم لم يزود من هذا الفضل وذلك الإحسان لآخرته . . رافقه سبحانه وتعالى يقول ، « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون »

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون الآية : [١١]

[لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب]

وإلى هنا تنتهى قصة يوسف ، التى كانت السورة كلها ، معرضا لها ، وحديثا عنها ، وتمقيا عليها .

عبرة لأولى الألباب :

هذا ، وقد ينظر بعض ذوى الأبصار السقيمة إلى هذه القصة ، وما فيها من المواقف العاطفية بين الرجل والمرأة ، فيخيل لهم من ذلك أن القرآن الكريم إنما اصطنع هذا الموقف اصطفاها ليرضى به بعض الفرائز ، استهواءً للنفوس ، وشدةً لاتباعها ، كما يحدث ذلك فى أغلب ما يعرض القصاصون من قصص . . وهذا لا شك ضلال فى الرأى ، وفساد فى الإدراك . . فالقصص القرآنى منزل من عالم الحق ، لا يلتبس به باطل ، ولا يطوف بحماه زور ، وإنما هو كما وصفه الحق سبحانه فى قوله . « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » وما كان من عالم الحق فلن يحمل إلا ما يركى النفوس ، ويظهر القلوب ، وينير البصائر ، ويعلى قدر الإنسانية فى الإنسان ، ويدفع عنها عوادي الوهن والضعف . .

والذى ينظر فى قصة يوسف نظرة واعية ، يرى أنها انتصار للخلق ، والفضيلة ، وقهر للهوى والشهوة . . فلقد انتصر يوسف فى معركته مع دواهي الإغراء ، وانتصرت امرأة العزيز كذلك على الهوى المبرح الذى استبد بها أول الأمر ، وانتهى بها الحال إلى أن تكشف عن ضعفها ، وأن تعترف بخطئها . . وأخيراً نجد إخوة يوسف ، وقد انكشف لهم ما كانوا فيه من

ضلال ، وما اشتد بهم من غيرة وحسد ، فيرجعون تائبين نادمين .

وهكذا تكشف القصة عن ضعف الإنسان ، وعن قوته في حال معاً .
فالإنسان ضعيف إذا امتسك لهواه ، وأعطى زمامه لنفسه الأمانة بالسوء ،
وهو قوى قوى ، إذا رجع إلى سلطان عقله ، واستمع إلى وحى ضميره
وعرف قدر إنسانيته ، واستشعر أنه خليفة الله في الأرض ، وأنه إنما خلق
ليسود ويحكم ، وأنه لن يسود ويحكم إذا كان عبداً لأهوائه ، ولياً
لشهواته . . وأنه يسود ويحكم إذا حكم أهواءه ، واحتل على دواهي
شهوته . . « لقد خلقنا الإنسان في تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ،
إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير ممنون »

* * *

مفتوح وخاتمة

بدأت سورة يوسف بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .. ثم ما يكاد النبي الكريم يفتح قلبه لتلقى ما يوحى إليه من قصص ، حتى يجد نفسه مع قصة يوسف عليه السلام ، قصفاً بقلبه وروحه إليها .. إنها قصة أخ كريم من أنبياء الله ، عليهم السلام ، وفيها يرى النبي الكريم ما وقع لهذا النبي الكريم من أحداث ، وما استقبلته به الحياة في مدارج صباه من كيد ، على يدي أقرب الناس إليه ، وأمسهم رحماً به .

وفي نعم علوي ، وبيان رباني جرت أحداث القصة ، وترددت أضدادها في كيان الرسول ، وانسكب نيرها المذب الصافي في وجدانه قطرة قطرة ، حتى إذا بلغت نهايتها كان قد ارتوى واتعش ، ووجد برد الراحة في هذه الواحة الظليلة التي يستروح فيها أرواح العاقية بمد أن أضناه السير ، وأضرت به لفعات السموم التي تهبت عليه من صفهاء قومه وحمام .

في أضياء هذه الواحة الظليلة ، وعلى خطوات هذه الرحلة الطويلة مع قصة يوسف وأحداثها ، يستعرض النبي ، ما كان يجري بينه وبين قومه من أحداث ، وما يكيدون له من كيد ، وما يرمونه من ضر ، لالشيء إلا لأن الله تعالى قد اصطفاه للرسالة ، ووضع في يده الخير الذي بدعوهم إليه - فيرى النبي الكريم أن أخاه من أنبياء الله قد كيد له هذا الكيد ، من إخواته ، وطرح ومطارح الهلاك بيد أبناء أبيه ، لا قدب جناه ، ولا لعدوان كان منه ولكنه الحسد منهم لما آتاه الله من فضله ، وما ألبسه من حال الحزن والكآل ، خلقاً وخلقاً ، فلطف الله به ونجاه من تلك السكروب ، ثم مكن له في الأرض ، وبسط يده وسلطانه على هؤلاء الذين مكروا به ، وكادوا له ، وتلك هي طاقبة الصابرين المنتقين ..

فليهنأ النبي الكريم إذن ، ولينتظر ما يفتح الله له من رحمة ، وما يخوق إليه من فضل ، فإن العاقبة له ، والحزى والخذلان للكافرين .

ونستمع إلى آيات الله وهي تمقب على قصة يوسف .

« ذلك من أنباء الغيب أرجيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون .. » .

فهذه القصة هي من أنباء التي أوحاها الله تعالى إلى النبي ، والتي لم يكن عند قومه علم بها .

ثم تكشف آيات القرآن للنبي عن الغاية من هذا القصص ، وأنه عزاء للنبي بما يرى من خلاف قومه عليه ، وإعراضهم عن الهدى الذي بين يديه ، فيقول سبحانه :

« وما أكثر للناس ولو حرصت بمؤمنين ، وما أسألم عليه من أجر إلا هو إلا ذكر للعالمين » .. فهكذا الناس يغاب تهرم خيرهم ، ويطنى سفهاؤهم وجهاهم على العقلاء والراشدين فيهم ، وأنه مهاحرص النبي على هداية الناس ، ومهما اجتهد في طلبهم إليه ، وشدهم إلى ناحيته ، فإن أكثرهم سيظل أبصاً على خلاف وإباء ، وفي هذا عزاء للنبي أي عزاء فيمن يهلك من قومه وأهله ، ويموت على الكفر ..

ثم إنه من جهة أخرى ، أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، إذ يرى في مجريات أحداث القصة ، وفي خاتمها أنه سيملك من أمر قومه ما ملك يوسف من إخوته ، وأنه - صلوات الله وسلامه عليه - سيكون صاحب السطان عليهم ، فإنه يرى كذلك أن قومه سينتهي أمرهم إلى ما انتهى إليه إخوة يوسف ، من اهترافهم بضلالهم ، وانضوائهم تحت سلطان أخيمهم ، حيث سيدخل هؤلاء المشركون في دين الله ، وفي طاعة الله ورسوله .. ثم في انتقالهم من الجذب إلى الحصب ، ومن البدو إلى الحضر ، ومن الضعف إلى القوة والسلطان ، كما حدث ذلك لإخوة يوسف ، وأن ملكاً عظيماً سينتظر

مؤلاء القوم ، كهذا الملك العظيم وأعظم من الذى وقع ليوسف وإخوته ..
كل هذا وكثير غيره رآه النبي - صلوات الله وسلامه عليه - فى آيات
تلك القصة التى هى إرهاب من ميلاد قصة جديدة تعيد سيرة تلك القصة ،
وتسكون تأويلاً لها .. ولقد جاءت الأيام بقصة محمد وقومه ، أوسع مدى
وأعظم أثراً وأخلد ذكراً من قصة يوسف ، التى لم تسكن إلا إغارة إليها ..
وكان يوم فتح مكة خاتم القصة المحمدية ، كما كان استيلاء يوسف على
إخوته وضمهم إليه خاتمة قصته ..

وكانت كلمات فريش للنبي الكريم يوم فتح مكة ، وطلب صفحه عنهم ،
وقد ملك أمرهم ، أشبه بكلمات إخوة يوسف ليوسف ، إذ قالوا له :
« نأله لقد آثر الله علينا وإن كنا لخاطئين » .

وإذ تقول فريش للنبي الكريم يوم الفتح : « أخ كريم وابن أخ كريم »
أى إننا ننتظر منك فى هذا اليوم ما ينتظر الأخوة من أخيهم الكريم ، وكما
ينتظر الأعمام من ابن أخيهم المحسن الرحيم ، من صفح ومغفرة وإحسان ..
وكما كان من يوسف الصفح والمغفرة لإخوته فى قوله : « لا تريب
عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » - كان من النبي الكريم
الصفح والمغفرة لقومه ، بمد أن ملك أمرهم ، إذ يقول لهم : « اذهبوا
فأنتم الطلقاء » .

ثم تختم سورة يوسف بهاتين الآيتين .

« حتى إذا استقيس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجيهم
من غمهم ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين .. لقد كان فى قصصهم
عبرة لأول الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه
وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

وفى هذا تطمين لرسول الكريم ، وأنه سيكون له من هذا الضيق

الذى يعالجه فرجاً ، وأن هذه الآلام التى بلقها الرسول من قومه ، هى آلام
المخاض لميلاد حياة جديدة ، يستقبل فيها النبى قومه ، مؤمنين بالله ، مطيعين
لرسوله ، بعد أن تقلب منهم على حجر النضاض ، وشوك القتاد ..

وهكذا حياة أصحاب الرسالات من الأنبياء ، والرسول ، والقادة ،
والمصلحين .. إنها زرع وحماد ، وإنه بقدر الجهد المبذول فى الزرع ، وبقدر
العناء والمكابدة فى العرس ، والحقى ، والرعاية ، يكون الثمر ، كثيرة ، وطيباً ..

فإذا نظرنا إلى هذه الأمة - أمة الإسلام - فى كثرة أعدادها ، وفى
وفرة عطاياها ، وفى قوة تأثيرها فى الحياة ، عرف قدر الجهد الذى بذله
النبى صلى الله عليه وسلم ، وقدر ما احتمل من عناء ، وما كابد من مشقة ..
إن كل مؤمن برسالة هذا النبى الكريم ، هو ثمرة من ثمار هذا الزرع الذى
غرسه النبى بيده ، وزواه بعرقه ، ونماه بسهره وأرقه ..

فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه الذين آمنوا به ، وعزروه
ونصرروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ..

وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

مراجع البحث

• كان القرآن الكريم هو وحده مصدر الإشعاع لهذا البحث ، وكان
وقوفنا بين يدي آياته وكلماته ، في عبادة خاشعة ضارعة ، هو الذي فتح لنا
رجوها من النظر في كتاب الله ، وأرانا الرأي الذي جعلناه كلمات مسطورة
في هذا البحث .

• ثم كان لنا بعد ذلك نظر في كتب التفسير منها :

تفسير الخازن ، والزخمرى ، وجمع البيان (للطبرسي) ، وتفسير
البيضاوي ، والطبري ، وابن كثير والألوسي ، وغيرها .

• ثم نظرات في كثير من الكتب ، والرسائل ودواوين الشعراء . . .
نذكر منها :

محمد بن عبد الله	تجديد التفكير الديني في الإسلام
محمد عزة دروزه	القرآن المجيد
المعري	الزوميات
أبي تمام	الجماعة
شرح الزوزني	المعلقات
لابن هشام	السيرة
للجاحظ	البيان والتبيين
أبي علي القالي	الأمالي
للشمراني	طبقات العمراني
لابن عربي	الفصوص

الفهرست

الصفحة	
٣	مقدمة
١٢	مدخل إلى البحث [القصة في الحياة العربية]
٢٩	الباب الأول : القصة ومفهومها في القرآن
٧٨	الباب الثاني : عناصر القصة في القرآن
١١٩	الباب الثالث : الحركة والحوار
١٤٢	الباب الرابع : القوى الغيبية في القصص القرآني
١٦٧	الباب الخامس : القدر وحسابه في القصص القرآني
١٩٢	الباب السادس : الصراع في القصص القرآني
٢٣٠	الباب السابع : التكرار في القصص القرآني
٢٧٥	— أصحاب الفن القصصي ورأبهم في التكرار
٣٠٢	— هل في القرآن أساطير
٣٢٨	الباب الثامن : الرمز والقصص القرآني
٣٤٨	الباب التاسع : منهج في دراسة القصة القرآنية
٣٥٥	— وقفة مع قصة آدم وخروجه من الجنة
٣٧١	— تعقيبات على القصة
٣٩٦	— قصة يوسف [بين يدي القصة]
٤٩١	— مفتتح وخاتمة
٤٩٥	مراجع البحث